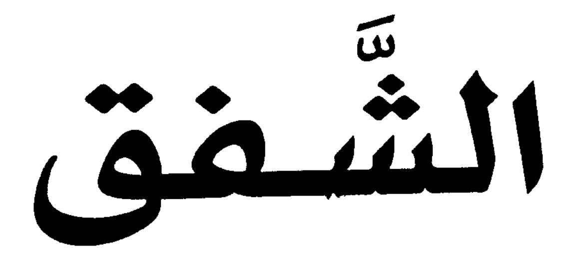
twilight

الشفق



ستيفاني ماير

ستيفاني ماير



ترجمة: الحارث محمد النبهان

سما للنشر

- الكتاب: الشفق
- المؤلف: ستيفاني ماير
- المترجم: الحارث النبهان
- الطبعة الثانية ، 2009
- ISBN: 978-9953-68-398-0
- الناشر: سما للنشر
- العنوان: 10 شارع أبو فراس الحمداني

الدار البيضاء - المغرب

Email: sama@menara.ma

هاتف: 06 36 83 0522

بيروت

شارع جاندارك - بنابة المقدسي

هاتف: 352826-01 فاكس: 343701-01

بيروت

ص. ب: 5158-113

هاتف: 352826-01 فاكس: 343701-01

Email: cca@ccaedition.com

الدار البيضاء

42 الشارع الملكي (الأحباس)- ص.ب: 4006 (سيدنا)

هاتف: 39 33 30 0522 فاكس: 26 57 30 0522

Email: markaz@wanadoo.net.ma

يتضمن هذا الكتاب ترجمة عن النص الإنكليزي لكتاب:
Original Title: **Twilight**
Author: **Stephanie Meyer**
This edition published by arrangement with
Little, Brown and Company, New York, New York, USA.
Hachette Book Group, Inc.

إلى شقيقتي الكبرى إيميلي

التي ما كانت هذه القصة لتكتمل لولا حماستها

المحتويات

وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها تموت

سفر التكوين: الإصحاح الثاني، 17

تمهيد

لم يسبق لي أن فكرت كثيراً في كيفية موتي رغم توفر ما يكفي من أسباب لذلك في الآونة الأخيرة؛ لكني ما كنت لأتوقع موتي على هذا الشكل، حتى لو فكرت فيه.

حدقت في الغرفة الطويلة دون أن أتنفس. حدقت في عيني الصياد القاتمتين فرّد بنظرة سرور.

يقيناً إنها طريقة جيدة للموت، أن أموت بدلاً من شخص آخر، بدلاً من شخص أحبه. بل هي طريقة نبيلة أيضاً. لابد أن لهذا قيمة!

كنت أعرف أني لو لم أذهب إلى فوركس لما واجهت الموت الآن. لكني لم أكن لأستطيع الأسف على هذا القرار رغم شدة خوفي. عندما تتيح لك الحياة حلماً يمضي بك أبعد من آمالك كلها لا يكون منطقياً أن تجزع عندما يصل الحلم إلى نهايته.

ابتسم الصياد ابتسامة ودية وهو يتقدم وئيداً حتى يقتلني.

1

النظرة الأولى

أخذتني أمي بالسيارة إلى المطار. كانت نوافذ السيارة مفتوحة. كانت درجة الحرارة 23 درجة في فينيكس. وكانت السماء زرقاء تماماً خاليةً من الغيوم. وكنت أرتدي قميصي المفضل، قميص أبيض مخرّم بلا أكمام. لقد ارتديت هذا القميص على سبيل الوداع فقط. أما ما كنت سأرتديه بعد ذلك فهو سترة من الفرو لها قبعة.

في شبه جزيرة أولمبيك عند أقصى شمال غرب ولاية واشنطن، وتحت غطاء دائم من الغيوم تقبع بلدة صغيرة تدعى فوركس. يهطل من الأمطار في هذه البلدة عديمة الأهمية أكثر مما يهطل في أي مكان آخر من الولايات المتحدة الأمريكية. ومن هذه البلدة وظلالها الكالحة في كل مكان هربت أمي بي عندما كان عمري بضعة أشهر فقط. وفي هذه البلدة كنت مجبرة على قضاء شهر كل صيف إلى أن بلغت الرابعة عشرة. إنها السن التي صار لي فيها رأي؛ ففي الأصياف الثلاثة الماضية جاء أبي، تشارلي، ليمضي معي عطلة تمتد لأسبوعين في كاليفورنيا بدلاً من ذهابي إليه في فوركس.

والآن أنفي نفسي إلى فوركس؛ وهذا ما أقدمت عليه بخوف شديد... أنا أكره فوركس.

لقد أحببت فينيكس. أحببت الشمس والحرارة المرتفعة. أحببت هذه المدينة النشطة الممتدة في كل اتجاه.

قالت أمي لي قبل أن أصعد إلى الطائرة... كانت تلك المرة الألف: «بيلا! لستِ مضطرة إلى فعل هذا».

أمي تشبهني في كل شيء إلا في شعرها القصير والخطين اللذين يرتسمان على وجهها عندما تضحك. شعرت بنوبة من الرعب عندما حدقت في عينيها الواسعتين الطفوليتين. كيف لي أن أترك أمي المحبة الطائشة غريبة الأطوار حتى تتدبر أمرها بنفسها؟ إن فيل بصحبتها الآن، أي أن الفواتير ستسدد على الأرجح، وسيكون في البراد طعام، وسيكون لديها وقود في سيارتها وشخص تتصل به إذا تاهت، لكن مع ذلك...

كذبت قائلة: «أريد أن أذهب!»... لم أكن أحسن الكذب أبداً، لكني كررت هذه الكذبة كثيراً في الفترة الأخيرة إلى حدٍّ جعلها شبه مقنعة الآن.

«بلغي سلامي إلى تشارلي».

«سأفعل».

أصرت أمي قائلة: «أراك قريباً. يمكنك أن تأتي إلى البيت متى أردت. سأحضر فوراً بمجرد أن تحتاجي إلي».

قلت لها: «لا تقلقي علي. سيكون الأمر رائعاً. أحبك يا أمي».

احتضنتني بقوة مدة دقيقة كاملة ثم صعدت إلى الطائرة... وذهبت أمي.

تستغرق رحلة الطائرة أربع ساعات من فينيكس إلى سياتل، تليها ساعة أخرى بطائرة صغيرة حتى بورت آنجلس، ثم ساعة بالسيارة حتى فوركس. الطيران لا يزعجني؛ أما الساعة التي سأمضيها في السيارة مع تشارلي فكنت قلقة منها بعض الشيء.

كان تشارلي لطيفاً حقاً. وقد بدا عليه سرور حقيقي بمجيئي للعيش معه مدة طويلة للمرة الأولى. لقد سجلني في المدرسة الثانوية. وسوف يساعدني في الحصول على سيارة.

لكني متأكدة من أن الوضع سيكون غريباً عندما أعيش مع تشارلي. ما كان أحد ليستطيع وصف أي منا بأنه كثير الكلام مع أني لم أكن أعرف ما الذي يمكنني الحديث عنه. أعرف أنه ارتبك بعض الشيء بسبب قراري فأنا لم أكن أحتفظ بكرهي لفوركس سراً... مثلما فعلت أمي من قبلي.

كان المطر يهطل عندما حطت الطائرة في بورت آنجلس. لم أر في هذا فأل شؤم بل مجرد أمر لا سبيل إلى تجنبه. لقد ودعت الشمس وداعاً أبدياً قبل سفري.

كان تشارلي ينتظرني في سيارته الكبيرة. وهذا ما كنت أتوقعه أيضاً. يعمل تشارلي رئيس شرطة في خدمة أهل فوركس الطيبين. وقد كان دافعي الأول إلى شراء سيارة رغم قلة نقودي هو رفضي التجول في البلدة في سيارة عليها أضواء حمراء وزرقاء. لا شيء يبطئ حركة المرور كما يبطئها وجود شرطي.

احتضنني تشارلي على نحو غريب بذراع واحدة عندما نزلت متعثرة من الطائرة.

قال لي مبتسماً وهو يمد يده تلقائياً حتى يمسكني ليجنّبني السقوط: «لطيف أن أراك يا بيلا! لم تتغيري كثيراً. كيف حال رينيه؟»

قلت: «أمي بخير. لطيفٌ أيضاً أن أراك يا أبي». لم يكن مسموحاً لي أن أدعوه تشارلي في حضوره.

كانت حقائبي قليلة فمعظم ملابس أريزونا خفيفة لا تصلح لولاية واشنطن. لقد جمعنا ما لدينا من مال، أنا وأمي، حتى أستكمل ملابسي الشتوية. لكنها ظلت قليلةً رغم ذلك... اتسع صندوق السيارة لجميع حقائبي بكل سهولة.

عندما جلسنا في السيارة وربطنا الأحزمة قال أبي: «وجدت سيارة جيدة من أجلك. إنها رخيصة حقاً».

شعرت بالريبة من طريقة قوله «سيارة جيدة من أجلك» بدلاً من الاكتفاء بعبارة «سيارة جيدة»، فقلت: «وما نوعها؟»

«حسنٌ، إنها شاحنة صغيرة في الواقع من نوع تشيفي!»

«وأين وجدتها؟»

«هل تتذكرين بيلي بلاك الذي كان في لا بوش؟» (لا بوش هي المحمية الهندية الصغيرة على الساحل).

«لا!»

قال تشارلي محاولاً تذكيري: «كان يذهب إلى صيد السمك معنا في الصيف».

هذا يوضح سبب عدم تذكري هذا الرجل فأنا ماهرة في حجب الأشياء المزعجة غير الضرورية عن ذاكرتي. تابع تشارلي عندما لم أجبه: «إنه يستخدم كرسياً متحركاً الآن ولم يعد يستطيع قيادة السيارة فعرضها عليَّ بسعر بخس».

«وما سنة صنعها؟»

كان واضحاً لي من تغير تعبير وجهه أن هذا هو السؤال الذي كان يرجو أن لا أطرحه.

«حسنٌ، لقد اشتغل بيلي كثيراً على المحرك... عمرها سنوات قليلة في الحقيقة».

هل يستهين بي إلى درجة تجعله يظن أنني سوف أتوقف عن السؤال عند هذا الحد؟ قلت: «متى اشتراها؟»

«أظن أنه اشتراها في عام 1984».

«وهل اشتراها جديدة؟»

أجابني مذعناً: «لا! أعتقد أنها كانت جديدة أوائل الستينات أو أواخر الخمسينات على أبعد تقدير».

«آه... أبي، أنا لا أعرف شيئاً عن السيارات. ولا أستطيع إصلاحها إذا تعطل شيء فيها. ولا أستطيع دفع أجور ميكانيكي لإصلاحها...»

«حقاً يا بيلا، إن هذا الشيء يعمل بشكلٍ ممتاز. لم يعودوا يصنعون سيارات مثلها الآن».

هذا الشيء! قلت في نفسي... ثمة احتمالات هنا... لعله الاسم الذي يطلقونه عليها تحبباً على الأقل.

«قلت إنها رخيصة، فكم هي رخيصة؟ بعد كل حساب، هذا هو الأمر الذي لا أستطيع المساومة عليه».

استرق تشارلي نظرة جانبية إليّ والأمل بادٍ على وجهه: «يا عزيزتي، لقد اشتريتها بالفعل... اشتريتها من أجلك. اعتبريها هدية بمناسبة مجيئك».

أوه... مجاناً!

«لم يكن عليك أن تفعل هذا يا أبي. كنت اعتزم شراء سيارة بنفسي».

«لا مانع عندي. أريدك أن تكوني سعيدة هنا».

كان ينظر إلى الطريق أمامه عندما قال هذه الكلمات. لم يكن تشارلي يرتاح للتعبير عن مشاعره علناً. لقد ورثت هذا الأمر منه. لذلك رحت أنظر إلى الطريق أمامي عندما أجبت: «هذا لطيف منك حقاً يا أبي. شكراً لك... أشكرك فعلاً».

لا حاجة للقول إن من المستحيل أن أكون سعيدة في فوركس. ما كان عليه أن يعاني معي. وما كنت لأرفض سيارة مجانية مهما يكن وضعها.

غمغم أبي وقد أحرجه شكري: «طيب! أهلاً بك الآن».

تبادلنا عبارات قليلة عن الطقس الرطب... كان ذلك كل حديثنا. ثم رحنا نحدق من النوافذ صامتين.

كان المنظر جميلاً طبعاً. وما كان لي أن أنكر جماله... كل شيء أخضر اللون: الأشجار وجذوعها التي تغطيها الطحالب وتتدلى من أغصانها، والأرض المغطاة بالسراخس. بل إن الهواء نفسه كان يمر أخضر اللون عبر أوراق الأشجار.

كان ذلك كله أخضر أكثر مما يجب... يا له من كوكب غريب!

وصلنا أخيراً إلى منزل تشارلي. مازال يعيش في المنزل الصغير الذي فيه غرفتا نوم والذي اشتراه مع أمي أول أيام زواجهما. ما كان في زواجهما كله إلا تلك الأيام... أيامه الأولى. وأمام المنزل الذي لم يتغير أبداً كانت شاحنتي الصغيرة الجديدة تقف في الشارع... لا بأس، إنها جديدةٌ بالنسبة لي. كان لونها أحمر باهتاً ولها مصدات كبيرة منحنية ومقصورة محدّبة. فوجئت بأنني أحببتها. لم أكن أعلم إن كانت تسير فعلاً لكنني رأيت نفسي جالسة فيها. كما أنها كانت من تلك السيارات الحديدية الصلبة التي لا يلحق بها الأذى أبداً... سيارة تراها في الحوادث وقد أصابت الخدوش طلاءها بينما تتناثر من حولها قطع السيارة التي اصطدمت بها.

«لقد أحببتها يا أبي. شكراً لك!»

الآن، سيصبح يومي المخيف غداً أقل رعباً بقليل فلن أقف محتارة أمام خيار المشي مسافة ميلين تحت المطر إلى المدرسة أو قبول الركوب في سيارة رئيس الشرطة.

قال تشارلي بصوت أجش وقد أصابه الحرج من جديد: «يسعدني أنك أحببتها».

حملنا جميع أمتعتي إلى الطابق الأعلى دفعة واحدة. أخذت غرفة النوم الغربية المطلة على ساحة المنزل الأمامية. كانت الغرفة مألوفة لي فهي غرفتي منذ ولادتي. الأرضية الخشبية والجدران الزرقاء الفاتحة والسقف المدبب والستائر المصفرّة المخرّمة تحف بالنافذة من الجانبين.

كان هذا كله جزءً من طفولتي. لم يغير تشارلي شيئاً في الغرفة وأنا أترعرع إلا أن وضع سريراً بدلاً من المهد وأضاف طاولة للكتابة. تحمل هذه الطاولة الآن حاسوباً مستعملاً يمتد منه خط الهاتف على الأرض إلى أقرب مأخذ في الجدار. كان هذا بطلبٍ من أمي حتى أتمكن من التواصل معها بسهولة. وكان الكرسي الهزاز من أيام طفولتي ما يزال موجوداً في الزاوية.

في المنزل حمام صغير واحد عند قمة السلّم كان عليّ أن أستعمله مع تشارلي. ولم يكن من السهل التآلف كثيراً مع هذه الحقيقة.

من أفضل الأشياء في تشارلي هو أنه لا يتلكأ كثيراً في مكانه. لقد تركني وحيدة حتى أرتب أشيائي وأشعر بالاستقرار في الغرفة. إنه أمر فريد من المستحيل تماماً أن يبدر من أمي. لطيف أن أظل وحدي الآن دون اضطرار إلى أن أبتسم أو أبدو سعيدة؛ ومريح أيضاً أن أنظر مكتئبة من النافذة لأرى المطر المتواصل الغزير وأسمح لبعض الدموع بأن تفلت من عيني. لم أكن في مزاج مناسب لنوبة بكاء حقيقة فوفرتها حتى آوي إلى فراشي ويكون علي أن أفكر في الصباح الآتي.

في مدرسة فوركس الثانوية عدد مخيف من الطلاب يبلغ ثلاثمئة وسبعة وخمسين طالباً فقط (ثلاثمئة وثمانية وخمسين الآن). في مدرستي السابقة كان في الصف الأول الثانوي وحده أكثر من سبعمئة شخص. لقد ترعرع جميع الأولاد هنا معاً؛ وكان أجدادهم يلعبون صغاراً معاً أيضاً. وسوف أكون الفتاة الجديدة القادمة من المدينة الكبيرة. سأكون فرجة في المدرسة؛ شخصاً عجيباً.

لو كنت أبدو كما يجدر بفتاة من فينيكس أن تبدو لكان بوسعي أن أستخدم هذا لمصلحتي. لكنني لم أكن لأناسب أي مكان من ناحية مظهري الجسدي. يجب أن أكون شقراء رياضية لوحتها الشمس... لاعبة كرة طائرة أو ربما مشجعة فريق رياضي... أي كل تلك الأشياء

التي تتناسب مع العيش في وادي الشمس.

لكن جلدي أبيض باهت بلون العاج؛ وليس لدي حتى عينان زرقاوان أو شعر أحمر رغم الشمس الدائمة. كان جسمي رشيقاً على الدوام. لكنه كان رخواً على نحو ما؛ مؤكد أنه ليس رياضياً. ولم يكن لدي التنسيق الضروري بين اليد والعين الذي لا بد منه حتى أستطيع ممارسة الألعاب الرياضة دون إذلال نفسي أو دون إيذاء نفسي وكل من يقف قريباً مني.

عندما أنهيت وضع ملابسي في خزانة خشب الصنوبر القديمة أخذت حقيبة ضروريات الحمام وذهبت إلى الحمام المشترك حتى أنظف نفسي بعد السفر. نظرت إلى وجهي في المرآة ومررت أصابعي في شعري المبلل المتشابك. لعل الضوء هو السبب. لكنني بدوت أكثر شحوباً وأقل عافية. يمكن أن يكون جلدي جميلاً فهو نقي جداً، بل يبدو كأنه شفاف، لكن الأمر يعتمد كله على اللون. لم يكن لجلدي لون.

كنت مضطرة وأنا أواجه صورتي الشاحبة في المرآة إلى الاعتراف بأنني أكذب على نفسي. لا تنحصر مشكلتي في المظهر الجسدي وحده؛ إن كنت غير قادرة على العثور على ملاذ لي في مدرسة فيها ثلاثة آلاف طالب، فما هي فرصي هنا؟

لم أكن أجيد التواصل مع الذين في عمري. بل لعل الحقيقة هي أنني لم أكن أجيد التواصل مع الناس من مختلف الأعمار. حتى أمي نفسها التي كنت أقرب إليها من أي شخص آخر في العالم لم تكن على وفاق تام معي؛ وكأننا لم نكن على الموجة نفسها تماماً. كنت أتساءل أحياناً ما إذا كانت عيناي تريان الأمور ذاتها التي تراها عيون بقية الناس. لعل ثمة خلل في دماغي. لكن السبب ليس هو المهم! ما يهم هو الأثر. وسوف يكون الغد نقطة البداية.

لم أنم جيداً طيلة الليل حتى بعد أن انتهيت من البكاء. ولم يتلاش صوت المطر والريح على السطح. غطيت رأسي باللحاف القديم الباهت ثم أضفت إليه الوسادة أيضاً بعد قليل. لكنني لم أستطع النوم حتى تجاوزت الساعة منتصف الليل وتحوَّلَ المطر أخيراً إلى رذاذ هادئ.

لم أستطع أن أرى غير الضباب الكثيف من نافذتي في الصباح وبدأت أشعر برهاب الأماكن الضيقة يتسلل إلي شيئاً فشيئاً. لا يمكن أبداً رؤية السماء هنا؛ إن المكان أشبه بقفص مغلق.

كان تناول الفطور مع تشارلي حدثاً هادئاً. تمنى لي حظاً طيباً في المدرسة فشكرته عارفةً أن أمنيته هذه أمر مستحيل. كان الحظ الطيب يميل إلى تجنبي. انطلق تشارلي قبلي ذاهباً إلى قسم الشرطة الذي كان بمثابة زوجة وأسرة له. بعد ذهابه جلست إلى طاولة خشب البلوط العتيقة المربعة على واحدة من الكراسي الثلاث غير المتشابهة ورحت أتفحص مطبخ تشارلي الصغير بجدرانه الخشبية القاتمة وخزائنه الصفراء اللامعة وأرضه السيراميك البيضاء. لم يتغير في هذا المطبخ شيء. لقد قامت أمي بطلاء خزائنه قبل ثمانية عشر عاماً محاولة إضفاء لمسة من أشعة الشمس على هذا المنزل. وفي غرفة المعيشة المجاورة الضئيلة كان فوق الموقد الصغير صف من الصور. في البداية صورة زفاف تشارلي وأمي في لاس فيغاس، ثم صورة لنا نحن الثلاثة التقطتها ممرضة خدومة في المستشفى عقب ولادتي، ثم تأتي سلسلة صوري المدرسية حتى آخر عهدي هنا. كان النظر إلى هذه الصور محرجاً... علي التفكير فيما يمكن أن أفعله حتى أجعل تشارلي يضعها في مكان آخر... أثناء إقامتي هنا على الأقل.

بوجودي في هذا المنزل كان من المستحيل أن لا ألاحظ أن تشارلي لم ينس أمي أبداً. وقد جعلني هذا غير مرتاحة.

لم أكن أرغب في الوصول إلى المدرسة أبكر مما يجب، لكني لم

أعد أطيق البقاء في المنزل أكثر. ارتديت معطفي الثقيل الذي يشبه المعاطف المستخدمة عند الكوارث البيئية وانطلقت تحت المطر.

كان مطراً ناعماً لا يكفي لإغراقي ريثما أجد مفتاح المنزل الذي نخبئه دائماً تحت إفريز الباب. وكان صوت حذائي الجديد المقاوم للماء مزعجاً. لقد افتقدت صوت قرقعة الحصى تحت قدمي عندما أمشي. لم أستطع التوقف قليلاً حتى أتأمل شاحنتي مجدداً رغم رغبتي في ذلك. كنت أتعجل الهرب من ذلك البلل الضبابي الذي يتطاير حول رأسي ويعلق بشعري تحت القبعة.

كان الجو لطيفاً جافاً داخل السيارة. من الواضح أن بيلي أو تشارلي قد نظفها، لكن المقاعد المدبوغة المنجدة لا تزال تفوح برائحة خفيفة من التبغ والبنزين والنعنع الحار. ارتحت لأن المحرك اشتغل سريعاً، لكن صوته كان عالياً جداً فقد زمجر أولاً ثم هدأ قليلاً إنّما ظل يدور بأقصى سرعة. لا بأس، لابد من وجود عيب في شاحنة بهذا العمر. اشتغل الراديو العتيق أيضاً فكان مفاجأة لطيفة لم أتوقعها.

لم يكن العثور على المدرسة صعباً مع أني لم أذهب إليها من قبل. فالمدرسة تقع على الطريق العام مثل معظم الأشياء. لم يكن ظاهراً عليها أنها مدرسة، لكن لافتة أعلنت أنها مدرسة فوركس الثانوية، فجعلتني أتوقف عندها. بدت المدرسة مثل مجموعة من البيوت المتشابهة المبنية بالقرميد الأحمر. وكانت الأشجار والأجمات كثيرة إلى حد منعني من رؤية حجم المدرسة في البداية. تساءلت والحنين إلى مدرستي القديمة يغمرني: أين هو الإحساس بالمؤسسة؟ أين هي الأسيجة المصنوعة من السلاسل الحديدية، وأين هي أجهزة كشف المعادن؟

أوقفت السيارة أمام المبنى الأول الذي فوق بابه لافتة كتب عليها «المكتب الأمامي». لم أر أي سيارة واقفة هناك مما جعلني متأكدة من أن هذا المكتب خارج حدود المدرسة. لكنني قررت أن أستفهم في

الداخل عن كيفية التحرك بدلاً من التجول هنا وهناك تحت المطر مثل الحمقى. خرجت من السيارة غير راغبة في مغادرة المقصورة الدافئة. مشيت عبر ممر صغير مرصوف تحف به أحجار داكنة. أخذت نفساً عميقاً ثم فتحت الباب.

كان المكان شديد الإضاءة من الداخل وأكثر دفئاً مما كنت أتوقّع. وكان المكتب صغيراً مع فسحة بسيطة للانتظار فيها مقاعد قابلة للطي وسجادة تجارية منقطة بالبرتقالي. وعلى الجدران تناثر عدد من الأوراق والملاحظات وساعة جدارية ضخمة تصدر تكتكة مسموعة. وكانت النباتات تنمو ضمن أوعية بلاستيكية ضخمة موزعة في كل مكان كما لو أن الخضرة في الخارج لا تكفي. كانت طاولة طويلة تقسم الغرفة نصفين وعليها سلال شبكية مملوءة بالأوراق وعلى مقدمة كل منها لصاقة ملونة. أما خلف الطاولة الطويلة فكانت ثلاثة مكاتب موزعة تجلس إلى أحدها امرأة ضخمة حمراء الشعر تضع نظارات وترتدي قميصاً قرمزياً قصير الأكمام جعلني أشعر فوراً أن ملابسي أكثر مما يجب.

رفعت المرأة حمراء الشعر رأسها ونظرت إلي: «هل أستطيع خدمتك؟»

«اسمي إزابيلا سوان».

فهمت من عينيها أنها تعرف اسمي. كانوا يتوقعون قدومي فلا شك في أنه موضوع جيد للقيل والقال هنا. ابنة زوجة رئيس الشرطة السابقة، الطائشة، تعود أخيراً.

قالت المرأة: «طبعاً!» ثم راحت تقلب كدساً من الوثائق على مكتبها حتى وجدت ما تبحث عنه وقالت: «لدي برنامج دروسك هنا إضافة إلى خريطة المدرسة».

وضعت على الطاولة عدداً من الأوراق حتى أراها.

قرأت لي برنامج دروسي كله وعلّمت على الخريطة أفضل السبل

للذهاب إلى كل قاعة ثم أعطتني بطاقة حتى يوقع عليها جميع المدرسين. وكان علي إعادتها إلى المكتب في نهاية اليوم. ابتسمت لي وتمنت، مثل تشارلي، أن أكون مرتاحة ومسرورة هنا في فوركس. ردّيت على ابتسامتها بابتسامة مقنعة قدر ما استطعت.

كان بعض الطلاب قد بدأوا يصلون إلى المدرسة عندما عدت إلى شاحنتي. قدت الشاحنة حول المدرسة خلف رتل السيارات. سررت إذ رأيت أن معظم السيارات قديمة مثل سيارتي ولم يكن بينها أي سيارة تلفت الأنظار. لقد كنت أعيش في واحد من الأحياء القليلة منخفضة الدخل المتضمنة في منطقة باراديس فالي. ومع ذلك كان شيئاً عادياً أن ترى سيارة مرسيدس أو بورش جديدة في موقف سيارات الطلاب. أما أفخم سيارةٍ هنا فكانت سيارة فولفو لامعة؛ وكانت تقف بعيداً عن غيرها. رغم ذلك كله أطفأت المحرك بمجرد وصولي إلى منطقة الوقوف حتى لا يجذب هديره الشديد الأنظار إلي.

نظرت إلى خريطة المدرسة وأنا داخل السيارة محاولة أن أحفظها غيباً الآن. وكنت آمل أن لا اضطر إلى السير هنا وهناك وأنا أحملها أمام أنفي طيلة النهار. وضعت كل شيء في حقيبتي وعلّقت الحقيبة على كتفي واستنشقت نفساً عميقاً. أستطيع أن أفعل هذا! كذبت على نفسي بضعف. لن يعضني أحد. زفرت أخيراً ونزلت من السيارة.

أبقيت وجهي مشدوداً إلى الخلف حتى يختبئ داخل قبعتي بينما مشيت إلى الرصيف المزدحم بالمراهقين. لاحظت براحة أن معطفي الأسود العادي لم يكن متميزاً عن غيره.

عندما انعطفت حول الكافيتريا كان من السهل علي تحديد المبنى رقم ثلاثة. كان الرقم (3) مكتوباً بالدهان على مربع أبيض عند زاوية البناء الشرقية. شعرت أن تنفسي تسارع كثيراً عندما اقتربت من البوابة. حاولت أن أحبس أنفاسي بينما كنت أعبر البوابة في إثر معطفين مطريين.

كانت غرفة الصف صغيرة. وقف الشخصان السائران أمامي داخل الباب حتى يعلقا معطفيهما على صف طويل من المشاجب. فعلت كما فعلا. كانا بنتين إحداهما شقراء، بشرتها بيضاء كالبورسلين والثانية شاحبة اللون أيضاً لها شعر بني فاتح. على الأقل لن يكون لون جلدي مستغرباً هنا.

أخذت البطاقة إلى المدرس الذي كان رجلاً طويلاً بدأ الصلع يغزو رأسه. كانت على مكتبه بطاقة باسم السيد ماسون. حدق إلي بطريقة بلهاء عندما ذكرت له اسمي... ليس هذا برد فعل مشجع... وبالطبع احمر وجهي فجأة مثل البندورة. لكنه أرسلني لأجلس على مقعد فارغ في آخر الغرفة من غير أن يقدمني إلى الصف. كان من الصعب على زملاء صفي الجديد أن يحدقوا إلي وأنا خلفهم، لكنهم نجحوا في ذلك بطريقة من الطرق. أبقيت عيني مسبلتين أنظر في قائمة المواد المطلوبة قراءتها التي أعطاني إياها المدرّس. كانت أعمالاً كلاسيكية فعلاً: برونتي وشكسبير وتشوسر وفولكنر. لقد سبق لي أن قرأتها كلها. كان هذا مريحاً... ومملاً أيضاً. فكرت فيما إذا كانت أمي يمكن أن ترسل لي ملف المواضيع القديمة التي كتبتها، أو لعلها تعتبر ذلك نوعاً من الغش. دارت في رأسي جدالات كثيرة بيني وبينها في حين كان المدرّس يتحدث ويتحدث.

عندما قرع الجرس، وكان صوته مثل أزيز صادر من الأنف، انحنى نحوي عبر الممر بين المقاعد ولد يشبه شكله أفراد العصابات بشعره الأسود الناعم وجلده ذي البثور.

«أنت إيزابيلا سوان، صحيح!»

لقد بدا لي مثل الأولاد الخدومين أكثر مما يجب في نادي الشطرنج فصححت قائلة: «اسمي بيلا!»

استدار كل من كان ضمن دائرة قطرها ثلاثة مقاعد ناظرين إلي.

سألني الولد: «أين هي حصتك التالية؟»

كان علي أن أنظر في حقيبتي: «همم، إنها حصة سياسة مع جيفرسون في المبنى رقم 6».

لم أكن لأستطيع النظر في أي اتجاه دون أن تصادف عيناي أعيناً فضولية.

كان بالتأكيد خدوماً أكثر مما يجب: «أنا ذاهب إلى المبنى رقم 4. أستطيع أن أريك الطريق. اسمي إريك».

ابتسمت مترددة وقلت: «شكراً».

أخذنا معاطفنا وخرجنا إلى المطر الذي زادت شدته. أستطيع أن أقسم أن عدة أشخاص كانوا يسيرون خلفنا على مقربة شديدة تسمح لهم باستراق السمع. رجوت أن لا تكون الهواجس قد استولت علي.

سألني: «إذن، الأمر هنا مختلف كثيراً عن فينيكس، هاه؟»

«كثيراً».

«إنها لا تمطر كثيراً هناك، صحيح؟»

«ثلاث أو أربع مرات في السنة».

تساءل متعجباً: «واو! ما عسى ذلك أن يكون؟»

«كثير من الشمس».

«لا يبدو عليك أن الشمس قد لوحتك كثيراً».

«أمي من أصول إنكليزية!»

نظر إلى وجهي نظرة متفحصة، فأطلقت زفرة. يظهر أن الغيوم والمزاج الفكاهي لا يجتمعان. يكفيني عدة أشهر على هذا النحو حتى أنسى كيف أتحدث بخفّة وبسخرية.

سرنا حول الكافتيريا ومررنا بجانب الصالة الرياضية متجهين إلى المباني الجنوبية. أوصلني إريك إلى الباب تماماً مع أن رقم المبنى كان مكتوباً عليه بوضوح.

عندما لمست مقبض الباب قال إريك: «حظاً طيباً! ثم أضاف بصوت بدا عليه الأمل: ربما يكون لدينا دروس مشتركة أخرى».

ابتسمت له ابتسامة شاردة ودخلت المبنى.

مضت بقية ذلك الصباح على النحو نفسه. كان مدرّس مادة المثلثات، السيد فارنر الذي كنت سأكرهه على أي حال بسبب المادة التي يدرسها، الشخص الوحيد الذي جعلني أقف أمام الصف كله لأقدم نفسي. تلعثمت واحمر وجهي وتعثرت بحذائي وأنا أعود إلى مقعدي.

بعد حصتين بدأت أتعرف على عدد كبير من الوجوه في كل صف. كنت أرى دائماً شخصاً أكثر شجاعة من الآخرين يقدِّم نفسه ويسألني أسئلة عما إذا كنت أحب فوركس. حاولت أن أكون دبلوماسية، وكذبت كثيراً في معظم الحالات. لكنني لم أكن بحاجة إلى استخدام الخريطة على الأقل.

جلست إحدى الفتيات بجانبي في درسَيْ المثلثات واللغة الإسبانية. وسارت معي إلى الكافيتريا وقت الغداء. كانت ضئيلة؛ أقصر مني بنحو عشرة سنتيمترات مع أن طولي لم يكن يتجاوز 162 سنتيمتراً، لكن شعرها الداكن المجعد عوض عن قدرٍ كبير من فارق الطول بيننا. لم أستطع تذكر اسمها، لذلك ابتسمت وأومأت لها برأسي وهي تثرثر عن المعلمين والصفوف... لم أحاول متابعة ما تقول.

جلسنا إلى طرف طاولة عليها عدد من أصدقائها الذين قدمتني إليهم. نسيت أسماءهم جميعاً بمجرد أن انتهت من تعدادها. بدا أصدقاؤها متأثرين بشجاعتها في التحدث معي. أما ذلك الصبي من صف اللغة الإنكليزية، إريك، فقد لوح لي بيده من الناحية الأخرى للقاعة.

هناك حيث كنت أجلس في غرفة الطعام محاولة فتح حديث مع سبعة أشخاص غرباء.. هناك رأيتهم للمرة الأولى.

كانوا يجلسون في زاوية الكافيتريا، أي في أبعد مكان عن النقطة

التي كنت أجلس فيها. كانوا خمسة. وما كانوا يتحدثون أو يأكلون مع أن صينية من الطعام كانت أمام كل واحد منهم. وما كانوا يحدقون إلي خلافاً لمعظم التلاميذ الآخرين. لذلك كان من الآمن أن أنظر إليهم دون خوف من ملاقاة أعين تبدي اهتماماً مفرطاً. لكن ما جذب اهتمامي لم يكن أي شيء من هذا كله.

ما كانوا متشابهين أبداً. فمن بين الأولاد الثلاثة كان صبي ضخم مفتول العضلات مثل ربّاع حقيقي وله شعر داكن مجعد. كان الثاني أطول منه وأرشق جسداً لكنه مفتول العضلات أيضاً وكان شعره أشقر بلون العسل. وكان الثالث طويلاً نحيلاً له شعر برونزي مشعث. كان شكله أكثر صبيانية من الآخرين اللذين يمكن أن يوحي شكلهما بأنهما في الجامعة، أو حتى بأنهما معلمين لا طالبين.

كانت الفتيات عكس الأولاد تماماً. كانت الطويلة أشبه بتمثال... قوام جميل من ذلك النوع الذي تراه على غلاف مجلات ملابس السباحة أي من النوع الذي يجعل كل فتاة من حولها تفقد جزءاً من ثقتها في نفسها لمجرد وجودها معها في غرفة واحدة. كان شعرها ذهبي اللون تمتد تموجاته الناعمة حتى منتصف ظهرها. وكانت الفتاة القصيرة ذات مظهر عابث... شديدة النحول دقيقة القسمات لها شعر أسود فاحم قصير يشير في كل اتجاه.

لكنهم كانوا جميعاً متشابهين تماماً. كانوا شاحبي اللون كالطبشور، بل كانوا أكثر شحوباً من جميع الطلاب في هذه البلدة التي لا تعرف الشمس. كانوا أكثر شحوباً مني، أنا البريطانية! كانت عيونهم داكنة رغم تفاوت ألوانها. وكانت لهم جميعاً ظلال تحت أعينهم... ظلال مزرقة قليلاً كأنها كدمات. كانوا مثل من يعاني آثار ليلة من الأرق أو من يتماثل أنفه المكسور للشفاء. لكن أنوفهم وملامحهم كلها كانت جميلة متناسقة تامة.

لكن هذا كله لم يكن هو ما جعلني لا أستطيع رفع أنظاري عنهم.

كنت أحدق إليهم لأن وجوههم المختلفة جداً، المتشابهة جداً، كانت كلها جميلة جداً على نحو غير بشري. وجوه لا يتوقع المرء أن يراها إلا على صفحات مجلات الأزياء أو في صور الملائكة التي رسمها فنانون كبار قدماء. كان يصعب تحديد الأجمل بينهم... لعلها تلك الشقراء الرائعة أو الصبي ذو الشعر البرونزي.

كانت أبصار كل منهم تتجه بعيداً... بعيداً عن بقية المجموعة... بعيداً عن بقية الطلاب... بعيداً عن أي شيء محدد. هذا ما رأيته على الأقل. فيما كنت أنظر إليهم نهضت الفتاة القصيرة حاملة صينيتها... علبة صودا لا تزال مغلقة، وتفاحة لا تزال سليمة... وسارت بعيداً بخطوات سريعة متبخترة كمن يمشي على خشبة مسرح. ظللت أنظر إليها مدهوشة بخطواتها الراقصة الرشيقة حتى وضعت صينيتها وخرجت من الباب الخلفي بأسرع مما تخيّلت ذلك ممكناً. عادت عيناي إلى بقية المجموعة فوجدتهم جالسين كما كانوا تماماً.

سألت الفتاة التي من صف اللغة الإسبانية... نسيت اسمها: «من هم؟»

وبينما كانت تنظر لتعرف من المقصود... الأرجح أنها عرفت ذلك من نبرة صوتي... نظر إلي فجأة... الشاب النحيل ذو الملامح الصبيانية... لعله أصغرهم. نظر إلى جارتي لجزء من الثانية ثم اتجهت عيناه الداكنتان إلى عيني.

أشاح بنظره سريعاً... أسرع مني... رغم أنني أسبلت عيني محرجةً من فوري. لم يظهر على وجهه أي اهتمام في تلك النظرة الخاطفة... كان الأمر كأن جارتي نادت باسمه فنظر عفوياً مقرراً ألا يجيب.

ضحكت جارتي محرجة وهي تنظر إلى الطاولة مثلي وقالت بصوت خفيض: «إنهم إدوارد وإيميت كولن وروزالي وجاسبر هيل. أما التي

ذهبت فهي أليس كولن. إنهم يعيشون كلهم مع د. كولن وزوجته».

ألقيت نظرة جانبية على الصبي الجميل الذي كان ينظر إلى صينيته الآن ويفتت كعكة مستديرة بأصابعه الشاحبة الطويلة. كان فمه يتحرك سريعاً جداً من غير أن يفتح شفتيه الرائعتين إلا قليلاً جداً. ظلت أنظار الثلاثة الآخرين متجهة بعيداً لكنني شعرت أنه كان يحدثهم بصوت خافت.

قلت في نفسي إنها أسماء غريبة غير شائعة... أشبه بأسماء الأجداد والجدات. لكن لعلها أسماء شائعة هنا... في البلدات الصغيرة! أخيراً تذكرت أن جارتي تدعى جيسيكا، وهذا اسم شائع تماماً. كانت معي فتاتان باسم جيسيكا في صف التاريخ في أريزونا.

قلت جاهدة في جعل تعبيري أقل مما شعرت به فعلاً: «إنهم... لطيفو المظهر جداً».

ضحكت جيسيكا ثانيةً وقالت: «نعم... لكنهم كلهم معاً... أقصد إيميت وروزالي وجاسبر وأليس. وهم يعيشون معاً أيضاً».

قلت لنفسي إن صوتها حمل كل ما في هذه البلدة الصغيرة من صدمة وإدانة. لكن، لأكن صادقة، علي أن أعترف أن من شأن هذا أن يثير القيل والقال حتى في فينيكس نفسها.

سألتها: «من هم أبناء كولن؟ إنهم لا يبدون إخوة...»

«أوه! إنهم ليسوا إخوة. د. كولن ما يزال شاباً. إنه في العشرينات أو في أوائل الثلاثينات. إنهم متبنون جميعاً. جاسبر وروزالي هيل... الأشقران... شقيق وشقيقة... إنهما توأم. أمهما أخت زوجة د. كولن أو شيء من هذا القبيل... لقد عاشا في بيت كولن».

«لكنهما كبيران».

«إنهما كبيران الآن. جاسبر وروزالي في الثامنة عشر. لكنهما يعيشان مع السيدة كولن منذ كانا في الثامنة».

«هذا لطيف حقاً... لطيف منها أن تهتم بهذين الطفلين على هذا النحو عندما كانا صغيرين جداً».

قالت جيسيكا من غير اهتمام: «أعتقد هذا».

شعرت أنها لا تحب الدكتور ولا زوجته... لسبب من الأسباب. لكن كان بوسعي الافتراض من النظرات التي كانت تلقيها على أبنائهما بالتبني أن السبب هو الغيرة. أضافت جيسيكا وكأن هذا يقلل من لطافة الأمر: «أعتقد أن السيدة كولن لا تستطيع الإنجاب».

خلال هذا الحديث كله كانت عيناي تلقيان من حين لآخر نظرة خاطفة إلى الطاولة التي جلست إليها تلك العائلة الغريبة. كانوا مستمرين في النظر إلى الجدران دون أن يتناولوا الطعام.

سألتها: «هل كانوا يعيشون في فوركس دائماً؟»

لو كانوا في فوركس دائماً لرأيتهم بالتأكيد ذات صيف.

قالت جيسيكا بصوت يوحي أن الأمر يجب أن يكون واضحاً حتى بالنسبة لقادم جديد مثلي: «لا! جاؤوا من مكان ما في ألاسكا منذ عامين فقط».

غمرتني موجة من الإشفاق... ومن الراحة. إشفاق لأنهم كانوا دخلاء ولأن من الواضح أنهم غير مقبولين... رغم جمالهم. وراحة لأنني لم أكن الوافد الجديد الوحيد هنا ولأنني لم أكن الأكثر إثارة للاهتمام... بكل تأكيد... وبكل المقاييس.

بينما كنت أنظر إليهم التقت عيناي بعيني أصغرهم، إدوارد كولن، وكان الفضول واضحاً في تعبيره هذه المرة. وبينما كنت أشيح بوجهي سريعاً بدا لي أن نظرته حملت نوعاً من توقع لم يتحقق.

«من الصبي ذو الشعر البني المحمر؟»

نظرت إليه خلسة من زاوية عيني فوجدته مستمراً في النظر إلي. لكنه لم يكن يحدق بغباء كما فعل بقية الطلاب اليوم... كان على وجهه

تعبير يوحي بشيء من الإحباط والغضب. أطرقت برأسي ثانية.

قالت جيسيكا: «إنه إدوارد. إنه رائع طبعاً. لكنه لا يواعد الفتيات فلا تضيعي وقتك معه. واضح أنه لا يعتبر أي فتاة هنا جميلة بما يكفي بالنسبة إليه».

إنها حالة واضحة من حالات «العنب الحامض». متى خيب أملها يا ترى؟

عضضت شفتي حتى أخفي ابتسامتي ثم نظرت إليه ثانية. كان قد أدار وجهه، لكنني شعرت أن وجنته ارتفعت قليلاً كما لو أنه يبتسم أيضاً.

بعد عدة دقائق نهض الأربعة وغادروا طاولتهم سوية. كانت مشيتهم رشيقة جميلة. حتى ذلك الضخم ذو الشعر البني. كان النظر إليهم معذباً. أما الذي اسمه إدوارد فلم ينظر إليّ مرة ثانية.

جلست إلى الطاولة مع جيسيكا وأصدقائها وقتاً أطول مما لو كنت جالسة وحدي. خفت أن أتأخر عن صفي في أول أيامي في هذه المدرسة. كانت فتاة من معارفي الجدد ذاهبة إلى صف علم الأحياء 2 مثلي وقد ذكرتني بلطف أن اسمها أنجيلا. مشينا باتجاه الصف صامتتين. لقد كانت خجولة أيضاً.

عندما دخلنا الصف ذهبت أنجيلا لتجلس إلى طاولة المخبر ذات السطح الأسود... تماماً مثل طاولات المخبر التي أعرفها. كان لديها جار على الطاولة. والحقيقة أن كل الطاولات كانت مشغولة إلا واحدة. وإلى هذه الطاولة، قرب الممر الأوسط، كان يجلس إدوارد كولن بشعره غير المألوف وبجانبه الكرسي الفارغ الوحيد.

مشيت في الممر لأقدم نفسي إلى المدرّس وأطلب توقيعه على البطاقة، لكنني كنت أراقب إدوارد خلسة. وعندما مررت بجانبه تصلب في مقعده فجأة. حدق إلي ثانية فالتقت عيناه بعيني وكان على وجهه

تعبير غريب جداً... تعبير غضب وكراهية. أدرت رأسي سريعاً وأنا أشعر بصدمة. واحمر وجهي من جديد. تعثرت بكتاب ملقى في الممر فأمسكت بطرف إحدى الطاولات حتى لا أقع... سمعت ضحك الفتاة الجالسة إليها.

لاحظت أن عينيه سوداوان... سوداوان كالفحم.

وقع السيد بانر على البطاقة وأعطاني كتاباً دون أن يقول شيئاً من تلك السخافات المتعلقة بتقديم نفسي لبقية الطلاب. شعرت أننا سننسجم معاً. وبطبيعة الحال لم يكن لديه خيار إلا أن يرسلني لأجلس في المقعد الوحيد الشاغر في منتصف الغرفة. ذهبت لأجلس بجانب إدوارد دون أن أرفع نظري. وكنت محتارة بسبب النظرة المعادية التي رأيتها على وجهه.

لم أرفع نظري وأنا أضع كتابي على الطاولة وأجلس على مقعدي لكنني رأيت من زاوية عيني أنه يغير وضعيته. كان يميل بجسمه مبتعداً عني جالساً على حافة كرسيه مشيحاً بوجهه كما لو أنه يشم رائحة كريهة. دون وعي شممت شعري. كانت رائحته مثل رائحة الفريز... إنها رائحة صابوني المفضل. كانت تبدو رائحة بريئة بالقدر الكافي. تركت شعري يسقط فوق كتفي الأيمن ليصنع ستارة بيننا وحاولت الانتباه للدّرس.

ولسوء حظي كانت المحاضرة عن تشريح الخلية وهذا موضوع سبق أن درسته. لكنني سجلت ملاحظاتي بعناية دون أن أرفع رأسي.

لم أستطع منع نفسي من النظر عبر ستارة شعري من حين لآخر إلى ذلك الصبي الغريب الجالس قربي. وخلال الدرس كله لم يخفف أبداً من وضعيته المتصلبة على حافة الكرسي بعيداً عني إلى أقصى حد ممكن. كان يضم كفه على ساقه اليسرى بقبضة محكمة... كانت العروق نافرة تحت جلد يده الشاحب. لم يرخ قبضته أيضاً. كانت أكمام قميصه الأبيض مرفوعة حتى المرفقين. وكان ساعده يبدو صلباً مفتول

العضلات تحت جلده إلى حد فاجأني. وما كان أبداً ضئيل الحجم كما بدا لي عندما كان يجلس قرب أخيه الضخم.

لم أشعر بطول ذلك الدرس أكثر من غيره. لعل ذلك لأن اليوم كان يشارف على النهاية أخيراً، أو لعله لأنني كنت أنتظر قبضته المشدودة حتى تسترخي؟ لكنها لم تسترخ أبداً. لقد ظل جالساً دون أي حركة حتى كأنه لم يكن يتنفس. ما مشكلته؟ هل هذا هو سلوكه الطبيعي؟ راجعت حكمي بشأن ما رأيته من مرارة جيسيكا وقت الغداء. لعلها لم تكن تكرهه كما ظننت.

لا علاقة للأمر بي إطلاقاً. إنه لا يميز بيني وبين أي فتاة أخرى.

استرقت النظر إليه مرة أخرى، لكنني ندمت على ذلك. كان يحدق بي ثانية والاشمئزاز يملأ عينيه السوداوين. ابتعدت عنه بأقصى ما استطعت ملتصقة بمقعدي ومرت بذهني فجأة عبارة «لو كانت النظرات تستطيع القتل!»

رن الجرس عالياً في تلك اللحظة فجعلني أجفل. قام إدوارد كولن من مقعده واقفاً بليونة... كان أطول بكثير مما ظننت... كان ظهره باتجاهي. وخرج من الباب حتى قبل أن ينهض أحد من مقعده.

جلست في مقعدي متجمّدة أحدّق في إثره بنظرات فارغة. لقد كان وضيعاً. ليس الأمر عادلاً هكذا. بدأت أجمع أشيائي ببطء محاولة كبت الغضب الذي ملأني لأنني خفت أن تفر الدموع من عيني. لسبب لا أعرفه كان مزاجي شديد الارتباط بدموعي. وعادة ما كنت أبكي عند الغضب... إنه ميل مخزٍ.

سمعت صوتاً ذكورياً يسألني: «ألست إيزابيلا سوان؟»

نظرت فرأيت صبياً ظريفاً له وجه طفل. كان شعره الأشقر الشاحب مصففاً بالجل على شكل حزم نافرة. وكان يبتسم لي ابتسامة ودية. واضح أنه لا يجد رائحتي سيئة.

صححت قوله مبتسمة: «اسمي بيلا».

«أنا مايك».

«أهلاً مايك».

«هل أنت بحاجة إلى مساعدة للعثور على مكان درسك التالي؟»

«أنا ذاهبة إلى قاعة الرياضة في الواقع. أعتقد أنني أستطيع العثور عليها».

«أنا ذاهب إليها أيضاً».

بدا مسحوراً بهذه المصادفة مع أنها ليست مصادفة غريبة في مدرسة صغيرة إلى هذا الحد.

مشينا إلى قاعة الرياضة معاً. لقد كان كثير الكلام... تولى معظم الحديث بنفسه، وهذا ما جعل الأمر أسهل بالنسبة لي. لقد عاش في كاليفورنيا حتى بلغ العاشرة ولهذا كان يعرف كيف أشعر هنا بسبب غياب الشمس. واتضح أنه معي في صف اللغة الإنكليزية أيضاً. كان ألطف شخص أقابله اليوم.

لكنه سألني بينما كنا ندخل إلى قاعة الرياضة: «هل طعنت إدوارد كولن بالقلم أم ماذا؟ لم أره يتصرف على هذا النحو من قبل».

انكمشت على نفسي خوفاً. لست وحدي من لاحظ الأمر إذن. ومن الواضح أن هذا السلوك لم يكن سلوك إدوارد كولن المعتاد. قررت التظاهر بالغباء.

سألته على نحو أخرق: «هل هو الصبي الذي كان يجلس بجانبي في درس الأحياء؟»

«نعم! بدا كأنه متألم... أو شيء من هذا القبيل».

«لا أعرف... أنا لم أتكلم معه».

تباطأ مايك بجانبي بدل أن يذهب إلى غرفة تبديل الملابس وقال:

«إنه شخص غريب. لو كنت محظوظاً وجلست بجانبك لتحدثت معك طبعاً!»

ابتسمت له قبل أن أذهب إلى غرفة تبديل ملابس الفتيات. كان ودوداً. من الواضح أنه معجب بي. لكن هذا لم يكن كافياً لتبديد انزعاجي.

وجد مدرّس الرياضة، المدرب كلوب، ملابس رياضية من أجلي لكنه لم يطلب مني ارتداءها في حصة اليوم. في مدرستي السابقة كان درس الرياضة مطلوباً منا سنتين فقط. أما هنا فهو إجباري مدة أربع سنوات. كانت فوركس جحيمي على الأرض بالمعنى الحرفي.

رحت أراقب أربع مباريات في الكرة الطائرة تجري في وقت واحد. وتذكرت كثرة الإصابات التي لحقت بي، والتي ألحقتها بغيري، خلال لعب الكرة الطائرة. شعرت بشيء من الغثيان.

رن جرس الانصراف أخيراً. مشيت ببطء إلى المكتب حتى أعيد البطاقة. كان المطر قد توقف، لكن الريح كانت أكثر شدة وبرودة. لففت ذراعيَّ حول جسدي.

عندما دخلت المكتب الدافئ كدت أستدير على عقبي وأخرج فوراً.

كان إدوارد كولن واقفاً أمامي عند المكتب. لقد عرفته فوراً من شعره المشعث البرونزي. لم يبد عليه أنه لاحظ دخولي. وقفت ملتصقة بالجدار خلفه وانتظرت حتى تفرغ موظفة الاستقبال من الحديث معه.

كان يجادلها بصوت منخفض جذاب. وسرعان ما فهمت موضوع جدالهما. إنه يريد تغيير موعد ساعات علم الأحياء الست إلى وقت آخر... أي وقت آخر.

لم أصدق أن الأمر يتعلق بي. لابد أن في الأمر شيئاً آخر. شيء حدث قبل دخولي صف علم الأحياء. لابد أن تلك النظرة على وجهه

كانت بسبب أمر آخر تماماً. مستحيل أن يكون هذا الغريب قد اتخذ مني موقف الكره الشديد المفاجئ إلى هذا الحد.

انفتح الباب ثانية واندفعت ريح باردة مفاجئة إلى الغرفة مبعثرة الأوراق فوق المكتب وجعلت شعري يرفرف فوق وجهي. اكتفت الفتاة التي دخلت بأن بلغت المكتب فوضعت ورقة في السلة ثم خرجت. لكن ظهر إدوارد كولن تصلب ورأيته يستدير ببطء ويحدق إلي... كان وجهه وسيماً على نحو غريب... وكانت نظرة كراهية تملأ عينيه الثاقبتين. ولوهلة... شعرت بنوبة من الخوف الحقيقي جعلت شعري يقف. لم تدم تلك النظرة إلا ثانية واحدة لكنها جعلتني أشعر ببرد أشد من برد الريح الصقيعية. استدار إدوارد إلى موظفة الاستقبال وقال متعجلاً بصوت مخملي: «لا بأس إذن. أفهم أن الأمر مستحيل. أشكرك كثيراً على مساعدتك».

استدار على عقبيه دون أن يلقي باتجاهي نظرة أخرى وخرج من الباب.

مشيت ببطء إلى المكتب وقد امتقع وجهي بدلاً من أن يحمر. ناولتها البطاقة الموقَّعة فسألتني بصوت أمومي: «كيف كان يومك الأول في المدرسة يا عزيزتي؟»

كذبت قائلة بصوت خافت: «جيد». فلم يبد عليها أي اقتناع.

عندما وصلت إلى سيارتي وجدت أنها آخر سيارة باقية في الموقف تقريباً. شعرت أنها ملاذ آمن لي فهي أقرب شيء إلى منزلي في هذه البقعة الخضراء المشبعة بالرطوبة. جلست داخل السيارة قليلاً مكتفية بالتحديق عبر زجاجها على غير هدى. لكنني سرعان ما شعرت بالبرد وبالحاجة إلى تشغيل التدفئة. أدرت المفتاح فانطلق المحرك مزمجراً. قدت السيارة عائدة إلى منزل تشارلي أحاول كبت دموعي طوال الطريق.

2

كتاب مفتوح

كان اليوم التالي أفضل... وأسوأ.

كان أفضل لأن المطر لم يبدأ بعد رغم الغيوم الكثيفة القاتمة. وكان أفضل لأنني عرفت ما الذي يمكنني توقعه في يومي. جلس مايك بجانبي في درس اللغة الإنكليزية وسار معي إلى مكان درسي التالي تحت أنظار إريك الذي كان يحدق فيه طوال الوقت... وكان هذا كفيلاً بأن يجعل أي فتاة تشعر بالإطراء. لم يكن الناس ينظرون إلي كثيراً كما فعلوا أمس. جلست لتناول الغداء ضمن مجموعة كبيرة كان فيها مايك وإريك وجيسيكا وأشخاص كثيرون أتذكر الآن أسماءهم ووجوههم. بدأت أشعر الآن أنني أقفز فوق الماء ولا أغرق فيه.

وكان أسوأ لأنني كنت متعبةً. كنت ما أزال عاجزة عن النوم وأنا أسمع الريح تصفر حول المنزل. وكان أسوأ لأن الأستاذ فارنر طلب مني الإجابة في درس المثلثات مع أنني لم أرفع يدي، فكانت إجابتي خاطئة. وكان يوماً بائساً لأنني اضطررت إلى لعب الكرة الطائرة، وعندما لم أفرّ من طريق الكرة... ضربتها فأصابت زميلتي في رأسها. ظهرتُ بمظهر فظيع... رغم جبني.

لكنني عندما دخلت إلى الكافيتريا مع جيسيكا وأنا أمنع عيني عبثاً من مسح المكان بحثاً عنه رأيت أفراد مجموعته الأربعة جالسين معاً على الطاولة نفسها. أما هو فلم يكن معهم.

لاقانا مايك وأخذنا إلى طاولته. بدت جيسيكا مستمتعة بهذا الاهتمام. وسرعان ما انضم أصدقاؤها إلينا أيضاً. لكنني كنت غير مرتاحة أبداً رغم محاولتي الإصغاء إلى ثرثرتهم... لقد كنت أنتظر لحظة وصوله متوترة. كنت آمل أن يتجاهلني عند دخوله فيثبت عدم صحة شكوكي.

لكنه لم يأت! وراح توتري يتزايد مع مرور الوقت.

ذهبت إلى درس البيولوجيا وأنا أشعر بثقةٍ أكبر لأنه لم يظهر حتى نهاية وقت الغداء. مشى معي مايك الذي كان يتخذ هيئة المنقذ الوفي أكثر فأكثر. حبست أنفاسي عند الباب، لكن إدوارد كولن لم يكن هناك أيضاً. تنفست الصعداء ومضيت إلى مقعدي. سار مايك خلفي متحدثاً عن الرحلة الموعودة إلى شاطئ البحر. وظل يتلكأ عند طاولتي حتى قُرِعَ الجرس. ثم ابتسم لي ابتسامة كئيبة ومضى فجلس بجانب فتاة ذات تسريحة شعر بشعة. شعرت أن علي أن أفعل شيئاً بشأن مايك... وأن هذا الشيء لن يكون سهلاً. في بلدةٍ مثل هذه، حيث يعيش الناس في احتكاك كبير تكون الدبلوماسية أمراً جوهرياً. لم أكن شديدة البراعة في هذه النقطة؛ ولم تكن لي خبرة في التعامل مع صبيان يُكْثِرون التودّد إليّ.

شعرت بالراحة لأنني كنت وحدي على الطاولة ولأن لإدوارد كان غائباً. قلت ذلك لنفسي مراراً. لكنني لم أستطع التخلص من ذلك الشك الملحّ الذي جعلني أظن أنني كنت السبب في عدم وجوده هناك. إنه أمر سخيف... أناني... أن أعتقد أنني يمكن أن أؤثّر على أي شخص بتلك القوة. هذا مستحيل. لكنني لم أستطع منع نفسي من القلق من احتمال صحّة هذا السبب.

عندما انتهى يومي المدرسي أخيراً... وعندما خف احمرار وجهي بسبب تلك الحادثة في ملعب الكرة الطائرة، بدلت ثيابي بسرعة فارتديت بنطلون الجينز والسترة الزرقاء وخرجت مهرولة من غرفة تبديل الملابس

مسرورة لأني نجحت في تفادي صديقي المنقذ في تلك اللحظة. خرجت مسرعة إلى موقف السيارات. كان المكان مزدحماً بالطلاب المغادرين. جلست في شاحنتي الصغيرة ورحت أبحث في حقيبتي لأتأكد من أن فيها ما يلزمني.

أدركت في الليلة الماضية أن تشارلي ما كان يستطيع طبخ أي شيء يتجاوز البيض المقلي مع اللحم. لذلك طلبت منه أن أتولى ما يتعلق بالمطبخ خلال فترة إقامتي معه. أعجبه ذلك فناولني مفاتيح غرفة الطعام. وقد اكتشفت أيضاً أن البيت خالٍ من الطعام. لذلك وضعت قائمة تسوق وأخذت بعض النقود من علبة في الخزانة كتب عليها «نقود الطعام». وكان علي الآن أن أذهب إلى متجر ثريفتواي.

شغلت محرك سيارتي الذي يصم الآذان متجاهلة تلك الرؤوس التي استدارت باتجاهي وتراجعت بالسيارة فجعلتها تقف في صف السيارات التي تنتظر الخروج من الموقف. وبينما كنت أنتظر محاولة التظاهر بأن ذلك الضجيج المخيف كان يأتي من سيارة شخص غيري شاهدت الأخوين كولن والأخوين هيل يركبون سيارتهم. كانت سيارتهم هي تلك الفولفو اللامعة. نعم، طبعاً. لم أكن قد لاحظت ملابسهم من قبل لأنني كنت مذهولة بوجوههم. أما الآن فرأيت بوضوح أن ملابسهم كانت جيدة على نحو استثنائي. كانت ثياباً بسيطة لكنها توحي بوضوح بأنها من صنع مصمم معروف. وحتى لو كانوا يرتدون خرقاً وأسمالاً لما قللت من حسنهم ومن جمال حركتهم. بدا لي أن من المبالغة أن يجمعوا الحسن والمال معاً. لكن الحياة تكون هكذا معظم الأوقات، حسب معرفتي. يبدو أن ذلك كله لم يستطع أن يحقق لهم القبول هنا.

لا، لم أكن أعتقد ذلك تماماً. لابد أن تلك العزلة جاءت بسبب رغبتهم هم أنفسهم. لم أكن لأتخيل أن باباً يمكن أن يظل موصداً في وجه هذا الجمال كله.

عندما مررت بجانبهم نظروا إلى سيارتي ذات الضجيج، تماماً كما كان الجميع ينظرون إليها. ظللت أنظر أمامي وشعرت بالراحة عندما غادرت أرض المدرسة أخيراً.

لم يكن متجر ثريفتواي بعيداً عن المدرسة بل كانت شوارع قليلة تفصله عنها إلى جنوب الطريق السريع. شعرت بالراحة عندما دخلت، لقد بدا المكان عادياً. كنت أقوم بالتسوق عندما عشت مع أمي. وسرعان ما اندمجت في هذه المهمة المألوفة. كان المتجر كبيراً إلى حد جعلني لا أسمع صوت المطر على سقفه لأتذكر أين أنا.

عندما عدت إلى المنزل أفرغت مشترياتي الكثيرة من الأطعمة في كل مكان. آمل أن لا يمانع تشارلي في هذا. لففت بعض حبات البطاطا برقائق الألمنيوم ووضعتها في الفرن ثم غلفت شرائح اللحم ووضعتها فوق صندوق البيض في البراد.

وعندما انتهيت حملت حقيبة كتبي إلى الأعلى. وقبل أن أبدأ مراجعة دروسي بدلت ثيابي ورفعت شعري المبلل فلففته فوق رأسي وتفقدت بريدي الإلكتروني للمرة الأولى. كانت لدي ثلاث رسائل.

كتبت أمي:

«بيلا! اكتبي لي فور وصولك. أخبريني كيف كانت سفرتك بالطائرة. هل تمطر عندكم؟ اشتقت إليك منذ الآن. أكاد أفرغ من حزم حقائبي من أجل الذهاب إلى فلوريدا، لكنني لم أجد قميصي الوردي. هل تعرفين أين وضعته؟ تحية من فيل.
أمك»

تنهدت ومضيت إلى الرسالة التالية فوجدت أن أمي أرسلتها بعد ثماني ساعات من إرسال الأولى.

«بيلا... لماذا لم تجيبي على رسالتي حتى الآن؟ لماذا تنتظرين؟ أمك»

أما الرسالة الثالثة فكانت واردة هذا الصباح:

«إيزابيلا... إذا لم أتلق منك شيئاً حتى الخامسة والنصف بعد ظهر اليوم فسوف أتصل بتشارلي»

نظرت إلى الساعة فوجدت أنها تقارب الرابعة والنصف. لكني كنت أعرف طبع أمي العجول. فكتبت:

«أمي... اهدئي... سأكتب لك فوراً. لا تتسرعي. بيلا»

أرسلت هذه الرسالة ثم بدأت الكتابة من جديد.

«أمي

الأمور على أحسن ما يرام. إنها تمطر طبعاً. كنت أنتظر أن يحدث شيء حتى أكتب لك عنه. المدرسة ليست سيئة باستثناء بعض التكرار الممل. قابلت أولاداً وبناتاً لطيفين يجلسون معي وقت الغداء.

قميصك الوردي في محل تنظيف الملابس... كان يجب أن تأخذيه يوم الجمعة.

لقد اشترى تشارلي لي سيارة، شاحنة صغيرة... فهل تصدقين هذا؟ لقد أحببتها. إنها قديمة لكنها قوية فعلاً، وهذا أمر جيد بالنسبة لي كما تعرفين.

اشتقت إليك أيضاً. وسأكتب لك قريباً، لكنني لن أتفقد بريدي كل خمس دقائق. تنفسي بعمق واسترخي... أحبك

بيلا»

قررت أن أقرأ «مرتفعات ويذرينغ» (الرواية التي ندرسها الآن في صف اللغة الإنكليزية). لكنني كنت أقرأها لأنني استمتعت بها... هذا ما كنت أفعله عندما عاد تشارلي إلى المنزل. لم أنتبه إلى الوقت طيلة قراءتي. أسرعت إلى الأسفل وأخرجت البطاطا من الفرن ووضعت شرائح اللحم فيه.

صاح أبي عندما سمعني أهبط درجات السلم: «بيلا!»

ومن غيري؟ قلت في نفسي.

«أهلاً أبي، أهلاً بعودتك».

«شكراً».

علق أبي حزام مسدسه وخلع حذاءه الطويل بينما كنت أعمل في المطبخ. لم يسبق له أن استخدم مسدسه في عمله، حسب علمي! لكنه كان جاهزاً دائماً. عندما كنت آتي إلى هنا وأنا صغيرة كان أبي يفرغ المسدس من الطلقات فور دخوله المنزل. أعتقد أنه يعتبرني الآن كبيرة إلى حد يحميني من إطلاق النار على نفسي مصادفة، وأظن أنه لا يراني مكتئبة إلى حد يجعلني أطلق النار على نفسي عمداً.

سألني بحذر: «ماذا لدينا من أجل الغداء؟». كانت أمي طباخة مبدعة، لكن تجاربها لم تكن مقبولة دائماً. لقد فوجئت، وشعرت بالحزن، لأنه بدا وكأنه يذكر ذلك الزمن البعيد.

أجبته: «لدينا بطاطا مع شرائح اللحم» فبدا عليه الارتياح.

أحسست أنه يشعر بعدم الارتياح بسبب وقوفه في المطبخ دون أن يفعل شيئاً. ذهب إلى غرفة المعيشة ليشاهد التلفزيون بينما كنت أعمل في المطبخ. الوضع هكذا أكثر راحة لي وله. حضّرت السلطة ريثما تنضج شرائح اللحم، ثم أعددت طاولة الطعام.

ناديته عندما صار الطعام جاهزاً فقال باستحسان واضح وهو يدخل غرفة الطعام: «رائحته شهية يا بيلا».

«شكراً».

بدأنا نتناول الطعام وظللنا صامتين عدة دقائق. ما كان هذا يزعجني. وما كان أحد منا يكره الهدوء. على نحو ما، كنا نصلح للعيش معاً.

سألني وهو يعيد ملء صحنه: «هل أحببت المدرسة؟ وهل صار لك أصدقاء فيها؟»

«لدي عدة دروس مع فتاة اسمها جيسيكا. وأنا أجلس مع أصدقائها وقت الغداء. تعرفت على ولد اسمه مايك، وهو ودود جداً. يبدو الجميع في غاية اللطف». مع وجود استثناء بارز وحيد.

«لابد أنه مايك نيوتن. ولد لطيف... أسرة لطيفة. يملك والده محل المعدات الرياضية عند مدخل البلدة. وهو يحقق دخلاً جيداً من جميع هؤلاء الرحالة الذين يمرون ببلدتنا».

سألته مترددة: «هل تعرف أسرة كولن؟»

«أسرة الدكتور كولن؟ طبعاً! الدكتور كولن رجل عظيم».

«إنهم... أبناؤه... مختلفون قليلاً. يبدو أنهم غير منسجمين تماماً في المدرسة».

فاجأتني نظرة الغضب التي بدت على وجه تشارلي.

دمدم قائلاً: «يا للناس في هذه البلدة! الدكتور كولن جراح لامع. ولعله يستطيع العمل في أي مستشفى في العالم فيجني عشرة أضعاف راتبه هنا». وتابع يقول بصوت أعلى: «نحن محظوظون لأنه موجود معنا... محظوظون لأن زوجته قبلت العيش في هذه البلدة الصغيرة. إنه رصيد ثمين في مجتمعنا. وجميع أبنائه مهذبون لطيفون. كانت لدي بعض الشكوك عندما جاؤوا إلى البلدة... كل هؤلاء المراهقين المتبنين. وظننت أنهم يمكن أن يسببوا بعض المشاكل. لكنهم ناضجون جداً. وهذا ما لا أستطيع قوله عن أبناء بعض الناس الذين يعيشون في بلدتنا منذ أجيال. إن أسرة كولن متماسكة كما ينبغي للأسرة أن تكون... يذهبون في رحلة تخييم كل أسبوعين... لكن الناس يكثرون الكلام لمجرد أنهم وافدون جدد».

كان ذلك أطول حديث أسمعه من تشارلي في حياتي كلها. لابد أنه منزعج من كلام الناس.

سايرته قائلةً: «لقد بدوا لطيفين بالنسبة لي لكنني لاحظت أنهم منعزلون لا يخالطون الآخرين. وهم جذابون جداً». قلت العبارة الأخيرة محاولة إظهار إعجابي بهم.

قال تشارلي ضاحكاً: «يجب أن تري الدكتور كولن. لحسن حظنا أنه متزوج وسعيد مع زوجته. إن أكثر الممرضات في المستشفى يجدن صعوبة في التركيز على العمل عندما يكون موجوداً معهن».

عدنا إلى الصمت ثانيةً فيما كنا ننهي طعامنا. قام تشارلي بتنظيف الطاولة بينما كنت أجلي الصحون. ثم عاد إلى التلفزيون. وبعد أن انتهيت من الجلي بيديّ (ليس لدينا جلاية صحون) صعدت إلى غرفتي لأعمل على واجب الرياضيات. شعرت أن نوعاً من التقليد بدأ يتكون بيننا.

كانت هذه الليلة هادئةً أخيراً. غفوت بسرعة لأنني كنت مرهقة جداً.

بقية الأسبوع مرّت من غير أحداث. رحت أعتاد تكرار الدروس. ومع حلول يوم الجمعة صرت قادرة على معرفة جميع طلاب المدرسة، وإن ليس بالاسم. أما في الصالة الرياضية فقد فهم أفراد فريقي أنهم يجب ألا يرموا الكرة باتجاهي وأن عليهم المرور من أمامي بسرعة فائقة إذا حاول الفريق الخصم الاستفادة من ضعفي... كنت سعيدة بذلك.

لم يعد إدوارد كولن إلى المدرسة.

وفي كل يوم كنت أجلس قلقة أراقب بقية أبناء كولن وهم يدخلون إلى الكافتيريا من دونه. عند ذلك كنت أسترخي وأشارك الناس الحديث على طاولة الغداء. كان أكثر الكلام يتركز على الرحلة بعد أسبوعين إلى منتزه لابوش على ساحل المحيط، وهي الرحلة التي كان مايك يرتبها.

كنت مدعوة! وقد وافقت على الذهاب أدباً لا رغبة... يجب يكون الشاطئ حاراً وجافاً.

وبحلول يوم الجمعة صرت أشعر براحة تامة عندما أدخل صف البيولوجيا. ولم أعد قلقة من وجود إدوارد فيه. ظننت أنه ترك المدرسة. وحاولت عدم التفكير فيه، لكنني لم أستطع أن أتخلص تماماً من فكرة كانت تقلقني، مهما تكن سخيفة، وهي أنني السبب في غيابه.

مرت عطلة نهاية الأسبوع الأولى من دون أي حادث. أما تشارلي الذي لم يكن معتاداً على قضاء الوقت في المنزل الذي يكون فارغاً عادة فقد أمضى معظم العطلة في العمل. نظفت المنزل وأنجزت معظم واجباتي المدرسية وكتبت رسالة أكثر بهجة لأمي. ثم ذهبت بالسيارة إلى المكتبة العامة يوم السبت لكنني وجدتها فقيرة إلى درجة جعلتني لا أهتم بالحصول على بطاقة ارتياد المكتبة. عليّ تحديد موعد قريب لزيارة أولمبيا أو سياتل لأبحث عن مكتبة جيدة. فكرت في استهلاك سيارتي من البنزين... وجعلني ذلك أرتجف خوفاً.

ظل المطر يهطل طيلة العطلة لكنه كان خفيفاً هادئاً فاستطعت أن أنام جيداً.

وفي صباح الاثنين حياني الطلاب عند موقف السيارات في المدرسة. لم أكن أعرف أسماءهم كلهم، لكنني رددت تحية الجميع وابتسمت لهم. كان الطقس أكثر برودة هذا الصباح؛ لكنني سررت لأنها لم تكن تمطر. وفي درس اللغة الإنكليزية جلس مايك قربي كعادته. كان لدينا اختبار سريع عن رواية «مرتفعات ويذرينغ». كان اختباراً بسيطاً... سهلاً جداً. على وجه الإجمال كنت أشعر بقدر من الراحة أكبر بكثير مما توقعته عند هذه النقطة. بل أكثر مما توقعته في هذه البلدة. عندما خرجنا من الصف كانت ندف بيضاء تحوم في الهواء. سمعت الناس يتصايحون مستثارين. صفعت الريح الباردة وجنتي وأنفي.

قال مايك: «واو! الثلج يهطل».

نظرت إلى تلك الندف القطنية البيضاء الصغيرة التي تتجمع على الممرات وتحوم عشوائياً أمام وجهي.

«آه!» إنه الثلج. هكذا ضاع نهاري الجيد.

نظر مايك إلي مستغرباً: «ألا تحبين الثلج؟»

«لا. هذا يعني أن الجو صار بارداً جداً وأن المطر لن يهطل بعد الآن». هذا واضح. «كنت أظن أن الثلج يجب أن يهطل على شكل ندف كبيرة، كما تعلم، ندف متماثلة... أما هذه الندف فهي مثل النقاط».

سألني غير مصدق: «ألم تري ثلجاً يهطل من قبل؟»

«رأيته طبعاً». توقفت لحظة ثم قلت: «في التلفزيون».

ضحك مايك. ثم أصابت مؤخر رأسه كرة طرية من الثلج. استدرنا معاً لنرى من أين جاءت. شككت في إريك الذي رأيته يسير مبتعداً عنا في غير اتجاه صفه. من الواضح أن الفكرة نفسها خطرت في بال مايك فانحنى وبدأ يجمع حفنة كبيرة من الثلج.

تابعت السير وقلت: «أراك وقت الغداء. أنا أذهب إلى الداخل عندما يبدأ الناس رمي كرات الثلج».

لم يجبني إلا بهزة من رأسه فيما كانت عيناه معلقتان بإريك.

وفي خلال الصباح كله كان الجميع يتحدث بحرارة عن الثلج. من الواضح أن هذا أول هطول للثلج في السنة الجديدة. لكنني احتفظت بفمي مغلقاً. صحيح أن الثلج أكثر جفافاً من المطر... حتى يبدأ الذوبان في جوربيك.

ذهبت إلى الكافيتريا مع جيسيكا بعد درس اللغة الإسبانية. كنت متوترة حذرة لأن كرات الثلج كانت تتطاير في كل مكان. كنت أحمل بيدي دفتراً حتى أحمي به وجهي عند الضرورة. ظنت جيسيكا أنني

فرحة جداً بالثلج، لكن شيئاً في تعبير وجهي منعها من أن ترميني بكرة ثلج هي أيضاً.

لحق بنا مايك عندما كنا على وشك دخول الكافيتريا. كان ضاحكاً، وكان الثلج يذوب في شعره. وبينما كنا نقف في الدور لشراء الطعام راح مايك يتحدث بحرارة مع جيسيكا عن اللعب بالثلج. ألقيت نظرة خاطفة إلى الزاوية... بحكم العادة. وعندها وقفت متجمدة في مكاني. كان على تلك الطاولة خمسة أشخاص.

جذبتني جيسيكا من ذراعي وقالت: «بيلا. ماذا تريدين؟»

أطرقت برأسي. شعرت بالحرارة في أذني. ورحت أذكّر نفسي أن ما من شيء يدعو إلى القلق... لم أفعل شيئاً خاطئاً.

سأل مايك جيسيكا: «ماذا بها.. بيلا؟»

أجبته: «لا شيء. لا أريد إلا صودا اليوم». وقفت في آخر صف المنتظرين.

سألتني جيسيكا: «ألست جائعة؟»

قلت لها ونظري مازال إلى الأرض: «أشعر أنني لست على ما يرام».

انتظرت حتى أخذوا طعامهم ثم مشيت خلفهم إلى الطاولة وأنا أنظر إلى قدميَّ.

بدأت أرتشف الصودا بهدوء وأنا أحس بتقلصات معدتي. سألني مايك مرتين، باهتمام لا ضرورة له، إن كنت أشعر بتحسن.

قلت له إن الأمر عارض لا يستحق القلق؛ لكنني كنت أتساءل: أليس من الأفضل أن أمضي في لعبتي هذه وأهرب إلى غرفة الممرضة فأمضي فيها الساعة القادمة؟

ما أسخفني!... لماذا أهرب؟

قررت أن أسمح لنفسي بنظرة سريعة إلى طاولة أسرة كولن. إذا

كان ينظر إليّ فسأهرب من درس البيولوجيا. هكذا أنا... جبانة!

نظرت من خلال أهدابي دون أرفع رأسي. لم يكن أحد منهم ينظر في هذا الاتجاه. رفعت رأسي قليلاً.

كانوا يضحكون. كان شعر إدوارد وجاسبر وإيميت مشبعاً بالثلج الذائب. وكانت أليس وروزالي تميلان مبتعدتين عن إيميت الذي راح يهز شعره المبتل بالماء باتجاههما. كانوا مستمتعين بذلك اليوم المثلج... تماماً مثل الجميع... الفارق فقط هو أنهم كانوا مثل مشهد مأخوذ من فيلم سينمائي... ليس مثلنا!

لكن، كان ثمة شيء مختلف، بصرف النظر عن الضحك والبهجة. ولم أستطع تحديد ذلك الشيء المختلف. تفحصت إدوارد بدقة أكبر. كان لون جلده أقل شحوباً (لعل هذا بسبب اللعب بالثلج) وكانت الدوائر الداكنة تحت عينيه أقل ظهوراً. لكن، كان هناك شيء آخر. رحت أحدق فيه مفكرة، محدقة، محاولة تمييز ذلك الشيء.

تدخلت جيسيكا وهي تتعقب نظراتي بعينيها: «بيلا! ما الذي تحدقين فيه؟»

في تلك اللحظة تحديداً رفع نظره فالتقت عيناه بعيني.

أطرقت برأسي سريعاً فغطى شعري وجهي. كنت واثقة، رغم قصر لحظة التقاء أنظارنا، أنه لم ينظر إلي نظرة قاسية غير ودية كما كان الأمر عندما رأيته آخر مرة. بدا الفضول في نظرته فحسب... بدا كأنه يريد أن يعرف شيئاً.

قالت جيسيكا في أذني ضاحكةً: «إدوارد كولن ينظر إليك!»

لم أستطع منع نفسي من سؤالها: «هل يبدو غاضباً؟»

«لا!» قالت جيسيكا مستغربة سؤالي: «لماذا يكون غاضباً؟»

قلت بصوت خافت: «أعتقد أنه لا يحبني». مازلت أشعر بالغثيان. وضعت رأسي على ذراعي.

«أولاد كولن لا يحبون أحداً... إنهم لا يلاحظون وجود أحد حتى يحبونه. لكنه مازال ينظر إليك».

همست: «كفي عن النظر إليه».

ضحكت ضحكة مكبوتة، لكنها أشاحت بنظرها عنه. رفعت رأسي بالقدر الكافي حتى أتأكد أنها لم تعد تنظر إليه... فكرت في استخدام العنف إن لم تستجب.

قاطعنا مايك في تلك اللحظة... كان يخطط لمعركة تراشق بالثلج في موقف السيارات بعد المدرسة وأرادنا أن نشترك فيها. وافقت جيسيكا متحمسة. كانت طريقة نظرها إلى مايك لا تترك مجالاً للشك في أنها توافق على كل ما يقترحه. بقيت صامتة. كان علي أن أختبئ في الصالة الرياضية حتى يخلو موقف السيارات من الناس.

حرصت خلال ما بقي من فترة الغداء على إبقاء نظري مسمراً إلى الطاولة. قررت الوفاء بما قطعته على نفسي. بما أن الغضب لا يبدو عليه فسوف أذهب إلى درس البيولوجيا. شعرت بتقلصات الخوف في معدتي لفكرة جلوسي قريبة منه مرة أخرى.

لم أكن أرغب في الذهاب إلى الصف برفقة مايك كما تعودنا (كان يبدو هدفاً مرغوباً لدى رماة كرات الثلج). وعندما ذهبنا إلى الباب شهق الجميع معاً.. إلا أنا! كان المطر يهطل غاسلاً بقايا الثلج. كانت خطوط من الماء المثلج تجري على امتداد الممر. رفعت قبعة سترتي فوق رأسي محاولة إخفاء سروري. صرت الآن حرة في الذهاب إلى المنزل فور انتهاء درس الرياضة.

ظل مايك يشتكي ويتذمر طيلة الطريق إلى المبنى رقم 4.

وعندما دخلنا غرفة الصف شعرت براحة عندما رأيت طاولتي ما تزال فارغة. كان الأستاذ بانر يسير في القاعة ويوزع المجاهر وعلب شرائح العينات على الطاولات. لن يبدأ الدرس إلا بعد عدة دقائق...

وكانت الغرفة تضج بالكلام. امتنعت عن النظر إلى الباب ورحت أعبث بحافة دفتري من غير هدف.

سمعت حركة الكرسي الذي بجانبي بوضوح شديد لكن نظري ظل متركزاً على الدفتر.

«مرحباً!»... قالها صوت موسيقي هادئ.

رفعت رأسي وقد فاجأني حديثه معي. كان يجلس بعيداً عني بالقدر الذي تسمح به الطاولة، لكنه كان يميل نحوي بكرسيه. كان الماء يقطر من شعره المشعث. ومع ذلك كان يبدو كمن فرغ قبل قليل من تصوير إعلان عن مستحضرات الشعر. كان وجهه بالغ الجمال يبدو ودوداً منفتحاً. وكانت ابتسامة خفيفة تظهر على شفتيه. لكن نظرته كانت حذرة.

قال: «اسمي إدوارد كولن. لم تسنح لي فرصة تقديم نفسي في الأسبوع الماضي. لابد أنك بيلا سوان».

كان الارتباك يعصف برأسي. هل اخترعت الأمر كله بنفسي؟ كان علي أن أنطق... لقد كان ينتظر. لكن شيئاً مما يقوله الناس عادةً لم يخطر ببالي.

قلت متلعثمة: «ك... كيف تعرف اسمي؟»

ضحك ضحكة موسيقية خافتة: «آه!.. أعتقد أن الجميع يعرفون اسمك. لقد كانت البلدة كلها تنتظر وصولك».

قطبت وجهي... كنت أعرف أن الأمر هكذا.

لكنني ظللت على إصراري الغبي: «لا! أقصد لماذا تدعوني بيلا؟»

بدا عليه الارتباك: «هل تفضلين اسم إيزابيلا؟»

«لا، أنا أفضل بيلا. لكنني أظن أن تشارلي... أقصد والدي... يدعوني إيزابيلا عندما يتحدث مع الآخرين... وهذا هو الاسم الذي يبدو أن الجميع يعرفونه هنا». هكذا رحت أشرح له وأنا أشعر بغباء تام.

لم يواصل إدوارد هذا الحديث. فأشحت بنظري بعيداً.

لحسن الحظ، بدأ الأستاذ بانر الدرس في تلك اللحظة. حاولت التركيز على شرحه للتجربة التي كنا على وشك إجرائها اليوم. كان في صندوق الشرائح مجموعة غير مرتبة من العينات. وكان على كل زوج منا أن يفرز شرائح خلايا جذور البصل إلى مجموعتين حسب طور انقسام الخلايا وأن يكتب اسم الطور على الشريحة. لم يكن يحق لنا أن نستعين بالكتاب. أعطانا الأستاذ عشرين دقيقة يقوم بعدها بالتجول بيننا ليرى من فرز العينات على نحو صحيح.

قال الأستاذ: «ابدأوا».

سألني إدوارد: «السيدات أولاً يا شريكتي؟»... نظرت فرأيته يبتسم ابتسامة خبيثة كانت جميلة جداً إلى درجة جعلتني أحدق فيه مثل البلهاء.

خبت ابتسامته وقال: «يمكنني أن أبدأ إذا أحببت!»... لاشك في أنه كان يتساءل ما إذا كنت سليمة عقلياً.

شعرت أنني احمررت خجلاً، وقلت: «لا! سأبدأ أنا».

كنت أقوم بنوع من الاستعراض... قليلاً. لقد أجريت هذه التجربة من قبل. وكنت أعرف ما الذي يجب النظر إليه للتمييز بين الخلايا. كان الأمر سهلاً. سحبت الشريحة الأولى ووضعتها في مكانها تحت المجهر ثم ضبطت العدسة على درجة التكبير 40. تفحصت الشريحة لحظة ثم قلت جازمة: «الطور الأول».

«هل يمكنني أن أنظر؟» سألني بينما كنت أمد يدي لإخراج الشريحة. لمست يده يدي حتى توقفها بينما كان يسألني. كانت أصابعه باردة كالثلج كأنه كان يضعها في الثلج قبل الدرس. لكن البرودة لم تكن السبب الذي جعلني أسحب يدي سريعاً. عندما لمسني شعرت بوخزة في يدي كما لو أن تياراً كهربائياً مر فيها.

دمدم قائلاً: «أنا آسف!».. وسحب يده فوراً. لكن يده الأخرى

ظلت ممتدة باتجاه المجهر. رحت أنظر إليه وهو يفحص الشريحة في المجهر وقتاً أقصر من الوقت الذي استغرقته في فحصها.

قال موافقاً: «الطور الأول». وكتب ذلك بخط أنيق في السطر الأول من الورقة. ثم سحب الشريحة الأولى سريعاً ووضع الثانية ونظر إليها نظرة خاطفة وقال: «الطور الانفصالي». ودوّن ذلك على الورقة أثناء كلامه.

حاولت التحدث بصوت محايد وقلت: «هل لي أن أنظر؟»

ابتسم ابتسامة متكلفة ودفع المجهر نحوي.

نظرت في المجهر بلهفة، لكن أملي خاب! بئس الأمر... لقد كان محقاً.

مددت يدي دون أن أنظر إليه وقلت: «الشريحة الثالثة».

ناولني الشريحة وبدا أنه حرص على عدم لمس جلدي ثانية.

نظرت في المجهر بسرعة لم أتخيل أنني قادرة عليها وقلت: «الطور البيني». ثم دفعت المجهر باتجاهه قبل أن يتمكن من المطالبة به. كنت أريد تسجيل طور هذه الشريحة قبل أن يفرغ من النظر في المجهر لكن خطه الجميل أخافني. لم أجرؤ على تشويه الورقة بخطي الأخرق.

انتهينا من فحص الشرائح قبل الجميع بفترة طويلة. وكنت أستطيع رؤية مايك وشريكه يقارنان شريحتين مرة بعد مرة. ورأيت مجموعة أخرى تفتح الكتاب تحت الطاولة.

لم يبق لدي شيء أفعله إلا محاولة عدم النظر إليه... لكنني فشلت. نظرت إليه فرأيته يحدق بي... إنها نظرة الانزعاج الغريبة في عينيه. وفجأة عرفت سبب ذلك التغير الطفيف في شكل وجهه.

قلت من غير تفكير: «هل تضع عدسات لاصقة؟»

بدت عليه الحيرة من سؤالي غير المتوقع وقال: «لا».

غمغمت قائلة: «آه! ظننت أن ثمة شيء غريب في عينيك».

ابتسم ثم نظر بعيداً.

لكنني كنت واثقة من وجود شيء مختلف. لقد تذكرت بوضوح ذلك اللون الأسود القاتم في عينيه عندما حدق إلي آخر مرة... كان ذلك السواد على تضاد حاد مع شحوب وجهه واحمرار شعره. أما اليوم فكان لون عينيه مختلفاً تماماً: لون بني محمر غريب أغمق من لون السكر المحروق لكن له تلك اللمعة الذهبية نفسها. لم أفهم كيف يمكن أن يحدث هذا التحول دون عدسات لاصقة؛ إلا إذا كان يكذب لسبب من الأسباب... أو لعل فوركس جعلتني مجنونة فعلاً!

نظرت إليه فرأيت قبضتيه مشدودتين كما في المرة الماضية.

جاء الأستاذ بانر إلى طاولتنا ليعرف سبب جلوسنا من غير عمل. ثم نظر من فوق أكتافنا فرأى الورقة مكتملة. عند ذلك صار أكثر اهتماماً بالتحقق من إجاباتنا.

قال بانر: «ماذا يا إدوارد؟ ألم تعط إيزابيلا فرصة للنظر في المجهر؟»

قال إدوارد مصححاً على نحو تلقائي: «بيلا!... الواقع أنها حددت ثلاثةً من الشرائح الخمس».

نظر الأستاذ بانر إليّ في تلك اللحظة... كانت نظرة شك. وسألني: «هل أجريت هذه التجربة من قبل؟»

ابتسمت مذعنة وقلت: «لم أجرها على خلايا جذور البصل».

«الخلايا الجنينية في الأسماك البيضاء؟»

«نعم».

أومأ الأستاذ برأسه وقال: «هل كنت في صف متقدم في فينيكس؟»

«نعم!»

قال بعد لحظة من الصمت: «لا بأس. أعتقد أن شراكتكما في

المخبر أمر جيد». ثم غمغم بكلمات لم أسمعها وهو يبتعد عنا. عدت إلى العبث بدفتري من جديد بعد أن ذهب.

سألني إدوارد: «من المؤسف جداً أن الثلج توقف، أليس كذلك؟»

شعرت أنه يقسر نفسه على الحديث معي. غمرتني الرهبة ثانيةً. هل سمع حديثي مع جيسيكا وقت الغداء، وهل يحاول الآن أن يثبت أنني مخطئة؟

قلت له صادقةً بدلاً من التظاهر بأنني طبيعية مثل الآخرين: «الحقيقة، لا!»... كنت لا أزال أحاول التخلص من شعور الشك السخيف ولم أستطع التركيز.

«أنت لا تحبين البرد!»... لم يكن هذا سؤالاً.

«أو الرطوبة!»

ثم تساءل: «لابد أن فوركس مكان يصعب عليك العيش فيه!»

قلت بانقباض: «ليست لديك فكرة عن مدى الصعوبة».

بدا مسحوراً بما قلت... لسبب لم أستطع أن أتخيله. كان وجهه جذاباً جداً إلى درجة جعلتني أحاول عدم النظر إليه أكثر مما تقتضي اللياقة.

«فلماذا أتيت إلى هنا؟»

لم يسبق أن سألني أحد هذا السؤال... ليس بهذه الصراحة المتطلبة المباشرة.

«إنه أمر... معقد».

ألح قائلاً: «أعتقد أنني قادر على الفهم».

بقيت صامتة لحظة طويلة ثم ارتكبت خطيئة ملاقاة نظراته الثابتة. أربكتني عيناه الذهبيتان القاتمتان فأجبت من غير تفكير: «لقد تزوَّجَت أمي!»

قال غير موافق على حكمي: «لا يبدو هذا شديد التعقيد». لكنه سرعان ما بدا متعاطفاً: «متى حدث ذلك؟»

«في أيلول الماضي». بدا صوتي حزيناً حتى في أذني.

استنتج إدوارد: «وأنت لا تحبين زوجها». مازالت نبرة صوته لطيفة.

«لا أبداً! فيل شخص ممتاز. لعله أصغر مما يجب، لكنه لطيف فعلاً».

«ولماذا لم تبقي معهما؟»

لم أكن قادرةً على سبر غور اهتمامه هذا، لكنه واصل التحديق إلي بنظرة ثاقبة كما لو كانت قصة حياتي المملة شديدة الأهمية في نظره.

قلت مبتسمة نصف ابتسامة: «فيل يسافر كثيراً. إنه يكسب عيشه من لعب الكرة».

سألني وهو يبتسم رداً على ابتسامتي: «هل يمكن أن أكون قد سمعت باسمه؟»

«على الأغلب لا!... ليس فيل لاعباً كبيراً. وهو لا يلعب إلا في دوري الدرجة الثالثة. إنه يسافر كثيراً».

«أرسلتك أمك إلى هنا حتى تستطيع السفر معه». قال هذا بنبرة تقريرية من جديد... لم يكن سؤالاً.

شعرت بذقني ترتجف قليلاً: «لا، لم ترسلني إلى هنا. أنا أرسلت نفسي».

قال مقطباً حاجبيه: «لا أفهم!» وبدا عليه انزعاج لا مبرر له.

تنهدت قائلة في نفسي: «لماذا أشرح له هذا كله؟»

واصل النظر إلي بفضول واضح.

«ظلت معي أول الأمر... لكنها اشتاقت إليه. وهذا ما جعلها تشعر بتعاسة... لذلك قررت بنفسي أن الوقت حان لقضاء فترة من الزمن مع تشارلي»... ظهر الغم على صوتي قبل أن أنهي جملتي.

قال: «لكنك لست سعيدة الآن!»

قلت بنبرة متحدية: «وماذا أيضاً؟»

ابتسم وقال: «هذا لا يبدو عادلاً». لكن نظرته ظلت متوترة.

ضحكت ضحكة فاترة: «ألم يقل لك أحد هذا من قبل؟ الحياة ليست عادلة!»

وافقني بجفاف: «أعتقد أنني سمعت هذا في مكان ما».

قلت بنبرة مصرة: «هذا هو الأمر كله»... لم أفهم لماذا ظل ينظر إلي بتلك الطريقة.

صارت نظراته موحية بالتقدير الآن... قال متمهلاً: «أنت تمثلين جيداً. لكنني أراهن على أنك تعانين أكثر مما تظهرين».

أجبته بتكشيرة وأنا أقاوم رغبتي في أن أمد له لساني كما يفعل ولد في الخامسة... ثم أشحت بوجهي.

«هل أنا مخطئ؟»

حاولت تجاهله.

قال بحزن: «لم أكن أظن هذا».

سألته منزعجة: «ولماذا يهمك الأمر؟»... لم أنظر إليه بل رحت أتابع الأستاذ يتجول في القاعة.

همس بصوت منخفض إلى حد جعلني أتساءل إن كان يتحدث مع نفسه: «هذا سؤال وجيه فعلاً».

لكنني قررت بعد ثوانٍ من الصمت أن تلك هي الإجابة الوحيدة التي سيسمعها مني.

تنهدت ورحت أحدق ببلاهة في السبورة.

سألني: «لعلك منزعجة مني؟» بدا المرح في صوته.

التفتّ إليه من غير تفكير... وقلت الحقيقة من جديد: «ليس

تماماً. أنا منزعجة من نفسي أكثر. فوجهي سهل القراءة... أمي تدعوني دائماً كتابها المفتوح!»... قلت هذا مقطبة.

«على العكس تماماً. أنا أجد قراءتك صعبة جداً». بدا كأنه يعني هذا فعلاً رغم كل ما قلت له وكل ما استنتجه بنفسه.

أجبته: «لابد أنك قارئ جيد!»

ابتسم ابتسامة عريضة كاشفاً عن أسنان رائعة شديدة البياض: «عادة... نعم!»

ارتفع صوت الأستاذ بانر وهو يطلب الهدوء من الطلاب فاستدرت لأستمع إليه والراحة تغمرني. لم أكن أصدق أنني شرحت حياتي المخيفة أمام هذا الشاب الغريب الجميل الذي... لعله يكرهني. لقد بدا مهتماً بالحديث... لكنني أستطيع الآن أن أرى من زاوية عيني أنه يميل مبتعداً عني وأنه يشد على حافة الطاولة بتوتر لا تخطئه العين.

حاولت الظهور بمظهر من ينتبه جيداً إلى ما كان يشرحه الأستاذ بانر باستخدام الشفافيات على جهاز الإسقاط. ولم يكن هذا إلا ما رأيته بسهولة في المجهر. لكنني لم أكن قادرة على التحكم في أفكاري.

عندما رن الجرس أخيراً انطلق إدوارد خارجاً من الغرفة بسرعة ورشاقة كما فعل يوم الاثنين الماضي. وكما فعلت يوم الاثنين الماضي... ظللت أحدق في إثره مدهوشة.

سرعان ما صار مايك بجانبي وحمل كتبي. تخيلته مثل كلب يهرع إلى صاحبه.

قال مايك متأوهاً: «كان هذا فظيعاً. تبدو الشرائح متشابهة تماماً. من حسن حظك أن كولن شريكك».

صدمني تلميحه فقلت: «لم أعان أي مشكلة مع الشرائح». لكنني ندمت على أسلوبي فوراً وأضفت قائلة قبل أن يجرح كلامي مشاعره: «لقد أجريت هذه التجربة من قبل».

عندما ذهبنا لارتداء معاطفنا قال مايك: «لقد بدا كولن ودوداً معك اليوم!»... الظاهر أن مايك لم يكن مسروراً بهذا.

حاولت إظهار اللامبالاة وقلت: «أتساءل عن سبب تصرّفه يوم الاثنين الماضي».

لم أستطع التركيز على ثرثرة مايك عندما كنا نسير باتجاه الصالة الرياضية. ولم يكن درس الرياضة ليجذب اهتمامي أيضاً. كان مايك في فريقي اليوم. وقد حمى مركزي بفروسية تامة فلم ينقطع شرودي إلا عندما جاء دوري في إرسال الكرات. كلما كنت أهم بإرسالها... كان أفراد فريقي ينحنون إلى الأرض خشية أن أصيبهم.

كان المطر قد تحول إلى رذاذ خفيف عندما ذهبت إلى موقف السيارات. لكنني كنت أسعد حالاً عندما جلست في مقصورة السيارة الجافة. شغلت التدفئة في السيارة غير مهتمة بزئير المحرك المرعب. فتحت سترتي وأزحت قبعتها عن رأسي ورفعت شعري الرطب جانباً حتى تجففه تدفئة السيارة ريثما أصل إلى البيت.

نظرت حولي لأتأكد من خلو الطريق. وعند ذلك لمحت شخصاً ساكناً أبيض اللون. كان إدوارد كولن منحنياً على الباب الأمامي لسيارة الفولفو، على مسافة ثلاثة سيارات مني، وكان ينظر ناحيتي بإمعان. أبعدت نظري عنه سريعاً ورجعت بالسيارة إلى الخلف فكدت أصدم سيارة تويوتا كورولا صدئة في عجالتي. من حسن حظ التويوتا أنني تمكنت من الضغط على الفرامل في الوقت المناسب. فلو صدمتها سيارتي لحولتها إلى حطام. أخذت نفساً عميقاً وأنا أنظر إلى الجانب الآخر من سيارتي ورجعت إلى الخلف مجدداً، لكن بنجاح أكثر من المرة السابقة. مررت بجانب الفولفو وأنا أنظر أمامي دون أن أدير رأسي، لكنني رأيته من زاوية عيني... أقسم أنه كان يضحك!

3

ظاهرة

عندما فتحت عيني في الصباح شعرت بشيء مختلف.

إنه الضوء. كان هو ذاته ذلك الضوء الرمادي المخضر... ضوء يوم غائم في غابة... لكنه كان أنقى. أدركت أن الضباب ما عاد يجلل نافذتي.

قفزت من السرير لأنظر إلى الخارج فشعرت بالرعب. كانت باحة البيت مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج. وكان الثلج يغطي سيارتي كالغبار ويجعل الطريق أبيض اللون. لكن ذلك لم يكن أسوأ ما في الأمر. لقد تجمد مطر الأمس كله فرسم أشكالاً غريبة رائعة على أوراق الأشجار وجعل الطريق شديدة الانزلاق. ألا يكفيني ما ألاقيه من متاعب حتى لا أقع عندما أمشي على أرض جافة؟... لعل من الأفضل أن أعود إلى السرير الآن!

عندما نزلت من غرفتي وجدت أن تشارلي قد ذهب إلى عمله. من نواحٍ كثيرة، كان عيشي مع تشارلي يشبه العيش وحدي في هذا المكان... وجدت نفسي سعيدة بوحدتي بدلاً من الشعور بثقل الوحدة.

وضعت بعض رقائق الحبوب في الصحن وصببت فوقها بعض عصير البرتقال. شعرت بالإثارة لأنني ذاهبة إلى المدرسة... وهذا ما أرعبني. كنت أعرف أن ما يجذبني إلى المدرسة ليس جوها التعليمي المشجع، وليس رؤية أصدقائي الجدد. لو كنت صادقة مع نفسي لعرفت

أنني كنت مشتاقة إلى المدرسة لأنني سأرى إدوارد كولن. كان هذا شيئاً غبيّاً جداً... جداً.

يجب أن أتفاداه تماماً بعد ثرثرتي الحمقاء المحرجة يوم أمس. كنت أشك فيه أيضاً... فلماذا كذب بشأن لون عينيه؟ وكنت لا أزال خائفة من تلك العداوة التي أحسها فيه أحياناً... وكنت لا أزال أشعر أن لساني ينعقد كلما تصورت وجهه الرائع. كنت أعرف تماماً أننا ننتمي إلى مجموعتين لا تلتقيان... إذن، لا يجدر بي أن أفكر في احتمال رؤيته اليوم.

كنت بحاجة إلى كل ما لدي من تركيز حتى أصل إلى السيارة دون انزلاق. وكدت أفقد توازني عندما وصلت إليها، لكنني أفلحت في الإمساك بالمرآة الجانبية فأنقذت نفسي من السقوط. من الواضح أن هذا اليوم سيكون كابوساً.

قدت السيارة إلى المدرسة وأنا أفكر في مايك وإريك وفي مدى اختلاف ردة فعل الصبيان المراهقين تجاهي هنا... ذلك حتى أبعد ذهني عن خوفي من السقوط، وعن التفكير في إدوارد كولن. كنت واثقة من أن مظهري هنا لم يكن يختلف عن مظهري في فينيكس. لعل الأمر هو أن الصبيان هناك شاهدوا مروري بمختلف مراحل المراهقة العجيبة ومازالوا يحملون هذه الصورة عني في أذهانهم. لعلهم يهتمون بي هنا لأنني جديدة حيث يندر أي شيء جديد. ولعلهم رأوا في خراقتي الفظيعة شيئاً محبباً لا شيئاً يدعو إلى الرثاء... آنسة بحاجة إلى المساعدة. مهما يكن السبب... كان يربكني تصرف مايك مثل كلب وفيّ ومحاولة إريك الواضحة لمنافسته. لاشك أنني كنت أفضّل أن يتجاهلني الجميع.

لم تعان سيارتي أي مشكلة مع الجليد الذي يغطي الطريق. قدت السيارة ببطء شديد رغم ذلك لأنني لم أكن أريد التسبب في أي مشاكل على الطريق الرئيسية.

عندما غادرت سيارتي في المدرسة فهمت سبب عدم معاناة سيارتي من الجليد. لفت نظري شيء فضي فمضيت إلى مؤخرة السيارة ممسكة حافتها بحذر حتى لا أقع ونظرت إلى العجلات الخلفية. كانت العجلات مغطاة بشبكة معدنية متصالبة. لقد استيقظ تشارلي في وقت مبكر جداً حتى يضع سلاسل الجليد على العجلات. شعرت بالتوتر في حنجرتي. لم أكن معتادة على هذه الرعاية. وقد فاجأني اهتمام تشارلي الصامت.

كنت أقف عند زاوية سيارتي الخلفية محاولة التغلب على موجة العاطفة التي سببتها سلاسل الجليد... عندها سمعت صوتاً غريباً.

كان ذلك صريراً حاداً... وكان يقترب مني بسرعة شديدة. أجفلت ونظرت من حولي.

رأيت عدة أشياء دفعة واحدة. لم أر شيئاً يتحرك تلك الحركة البطيئة التي نراها في الأفلام. بدلاً من ذلك بدا لي أن اندفاع الأدرينالين جعل عقلي يعمل بسرعة كبيرة فتمكنت من رؤية التفاصيل الواضحة لعدة أشياء في وقت واحد.

كان إدوارد كولن يقف على مسافة أربع سيارات مني ناظراً إليّ بخوف. ميزت وجهه بين بحر من الوجوه كانت كلها تحمل تعبير الصدمة نفسه الذي على وجه إدوارد. لكن الأهم هو تلك الشاحنة الصغيرة الزرقاء تنزلق نحوي زاعقة بعجلاتها بسبب الفرامل. كانت تدور حول نفسها على جليد ساحة وقوف السيارات. كانت على وشك الاصطدام بزاوية سيارتي الخلفية. وكنت أقف بينهما. لم يكن لدي وقت حتى لأن أغمض عيني.

قبل لحظة واحدة من سماعي صوت اصطدام السيارتين شعرت بصدمة تصيبني... صدمة شديدة... لكنها لم تأت من الاتجاه المتوقع. اصطدم رأسي بالأرض المغطاة بالجليد وشعرت بشيءٍ بارد صلب يثبتني

إلى الأرض. كنت ممددة على الرصيف خلف السيارة البنية التي أوقفت سيارتي أمامها. لكنني لم أستطع ملاحظة أي شيء آخر لأن الشاحنة الصغيرة كانت ما تزال تنزلق صوبي. اصطدمت بزاوية سيارتي لكنها واصلت الدوران والانزلاق... كانت على وشك إصابتي من جديد.

سمعت صوتاً منخفضاً جعلني أدرك وجود شخص معي. وكان من المستحيل أن لا أميز ذلك الصوت. اندفعت أمامي ذراعان طويلتان لحمايتي ثم توقفت الشاحنة على مسافة قدم واحدة من وجهي. وتركت تلك اليدان الكبيرتان أثراً عميقاً على جانب السيارة الشاحنة.

سرعان ما تحركت اليدان بسرعة البرق. وفجأة رأيت إحداهما تدخل تحت الشاحنة وكانت الأخرى تجذبني إلى الخلف وتزيح ساقيّ جانباً كأنهما ساقا دمية قماشية حتى لمستا عجلة السيارة البنية. سمعت صوت اصطدام معدني أصم أذني ورأيت الشاحنة تتوقف وزجاجها يندفع متكسراً فوق الإسفلت... تماماً حيث كانت ساقي قبل ثانية واحدة.

خيّم صمت مطبق طيلة ثانية كاملة قبل أن أسمع زعيق الناس. وفي ذلك الصخب الشديد استطعت تمييز عدة أصوات تنادي اسمي. لكنني سمعت صوت إدوارد كولن الخافت المتوتر في أذني أوضح من تلك الصيحات كلها.

«بيلا! هل أنت بخير؟»

«أنا بخير». بدا صوتي غريباً... حاولت الجلوس فأدركت أنه مازال يمسكني إلى جانبه بقبضة من حديد.

حذرني عندما رحت أقاوم قبضته: «انتبهي! أعتقد أنك أصبت رأسك إصابة شديدة».

انتبهت إلى ذلك الألم النابض فوق أذني اليسرى.

فوجئت بذلك الألم فصحت: «أوه!»

«هذا ما ظننته». أدهشني أن صوته كان كمن يحاول كتم ضحكته.

هززت رأسي محاولة استعادة صفائه: «كيف... كيف وصلت إلى هنا بهذه السرعة؟»

قال بصوت جدي: «كنت أقف بجانبك يا بيلا»

استدرت وجلست فلم يمنعني بل أرخى قبضته عن وسطي وابتعد عني بالقدر الممكن في ذلك الحيز الضيق بين السيارتين. نظرت إلى تعبير وجهه القلق البريء فشوشتني من جديد عيناه الذهبيتان. ماذا كنت أسأله؟

في تلك اللحظة وجدونا. اندفع حشد من الوجوه التي تنصبّ الدموع من أعينها... وتتبادل الصيحات... وتصيح بنا أيضاً.

قال صوت آمر: «لا تتحركوا».

صاح صوت آخر: «أخرجوا تايلر من الشاحنة».

كان الصخب شديداً حولنا. حاولت الوقوف لكن يد إدوارد الباردة دفعت كتفي إلى الأسفل.

«لا تتحركي الآن».

قلت متذمرة: «الأرض باردة». فاجأتني ضحكته الصغيرة... كان فيها شيء من السخرية.

فجأة تذكرت فقلت: «لقد كنت هناك!».. فتوقفت ضحكته... «كنت بجانب سيارتك!»

اكتسى وجهه تعبيراً قاسياً وقال: «لا. لم أكن هناك».

«لقد رأيتك!»

كانت الفوضى شديدة من حولنا... سمعت أصوات أشخاص كبار يصلون إلى المكان. لكنني واصلت إصراري. لقد كنت مصيبة وعليه أن يقرَّ بذلك.

«بيلا! كنت أقف بجانبك وسحبتك من طريق الشاحنة». كان

يستخدم قوة عينيه كلها كما لو أنه يحاول إيصال شيء شديد الأهمية.

قلت له بإصرار: «لا!»

توهجت عيناه الذهبيتان وقال: «من فضلك يا بيلا!»

قلت متسائلة: «لماذا؟»

رجاني بصوته الناعم الطاغي: «ثقي بي».

سمعت صوت سيارة الإسعاف. وقلت: «هل تعدني بأن تشرح لي كل شيء في وقت لاحق؟»

قال بصوت ساخط فجأة: «جيد!»

فأجبته غاضبة: «جيد!»

قام ستة من طاقم سيارات الإسعاف واثنان من المدرّسين (الأستاذ فارنر ومدرب الرياضة) بتحريك الشاحنة مسافة تكفي لإدخال النقالات إلى حيث كنا. رفض إدوارد استخدام النقالة... حاولت أن أرفض مثله، لكن الخائن قال لهم إن رأسي مصاب ومن المحتمل أنني أصبت بارتجاج دماغي. كدت أموت من إحساسي بالإهانة عندما وضعوا طوقاً حول رقبتي. بدا كأن المدرسة كلها قد اجتمعت هناك وأن الجميع كانوا ينظرون إليّ بينما كانت نقالتي توضع في سيارة الإسعاف. أما إدوارد فجلس في مقدمة السيارة... شيء يبعث الجنون.

وحتى يكتمل المشهد وصل مدير الشرطة سوان قبل أن تنطلق سيارة الإسعاف.

صاح خائفاً عندما رآني على النقالة: «بيلا!»

قلت: «أنا بخير تماماً يا تشار... يا أبي. لم يصبني أي سوء».

استدار أبي إلى أقرب عناصر الإسعاف ليتأكد من كلامي فتركته يفعل ذلك لأفكر في تلك الصور المتشابكة غير المفهومة التي انبثقت في رأسي من غير انتظام. عندما أبعدوني عن السيارة رأيت تشوهاً عميقاً في مصدم السيارة البنية... كان شبيهاً جداً بشكل كتفي إدوارد... كما لو

أنه أسند كتفيه إلى تلك السيارة بقوة كافية لتشويه العارضة الحديدية...

ورأيت أيضاً وجوه أسرته تنظر من بعيد وعليها تعبير تراوح بين الغضب والاستياء؛ لكن أياً منها لم يكن يوحي بأي قلق على سلامة إدوارد.

حاولت التفكير في حل منطقي يفسر ما شاهدته... حل يستبعد افتراض أنني مجنونة!

بطبيعة الحال، رافقت الشرطة سيارة الإسعاف حتى المستشفى. شعرت بالإحراج عندما أنزلوني من سيارة الإسعاف. أما ما زاد الأمر سوءاً فهو أن إدوارد دخل بنفسه عبر باب المستشفى الزجاجي ماشياً على قدميه. شددت على أسناني غضباً.

وضعوني في غرفة الإسعاف وهي غرفة طويلة فيها صف من الأسرة تفصلها ستائر قصيرة. وضعت ممرضة مقياس الضغط على ذراعي ووضعت ميزان الحرارة تحت لساني. وبما أن أحداً لم يهتم بإرخاء الستائر حتى يعزلني عن الأنظار فقد قررت أنني غير مضطرة إلى وضع طوق الرقبة ذي المظهر الغبي. عندما ابتعدت الممرضة فككت الطوق بسرعة وألقيته تحت السرير.

دخلت دفعة جديدة من العاملين في المستشفى تحمل نقالة أخرى توجهوا بها إلى السرير المجاور. رأيت تايلر كراولي ، وهو معي في صف السياسة، وكان رأسه مغطى بضمادات مشبعة بالدم. لكنه كان ينظر إليّ بقلق.

«أنا آسف جداً يا بيلا!»

«أنا بخير يا تايلر... لكن منظرك مخيف.. هل أنت بخير؟»

بينما كنا نتحدث بدأت الممرضات بفك الضمادات عن رأسه فظهر كثير من الجروح الطولانية غير العميقة على جبهته وخده الأيسر.

قال متجاهلاً كلامي: «ظننت أنني قتلتك... كنت أسير أسرع مما

يجب ثم ضغط على المكابح بشكل خاطئ...»، ثم أجفل عندما بدأت إحدى الممرضات تمسح وجهه.

«لا تقلق بشأني... أنت لم تصبني».

«كيف استطعت الابتعاد بهذه السرعة؟ كنت هناك... ثم ابتعدت في لحظة واحدة...»

«آه... لقد سحبني إدوارد من طريقك».

بدت عليه الحيرة: «من؟»

«إدوارد كولن... كان يقف بجانبي». أعرف أنني كاذبة فاشلة... لم أكن مقنعة أبداً.

«كولن؟ لم أره أبداً... أعتقد أن الأمر كان سريعاً جداً. هل هو بخير؟»

«أعتقد ذلك!.. إنه هنا في مكان ما من المستشفى لكنهم لم يضعوه على نقالة».

أعرف أنني لست مجنونة. فما الذي حدث؟ لم يكن لدي تفسير لما شاهدته.

بعد ذلك دفعوا سريري من أجل تصوير رأسي بأشعة إكس. قلت لهم إنني لا أشكو شيئاً... وكنت محقة... لم يكن لدي ارتجاج دماغي. سألتهم إن كنت أستطيع الذهاب فقالت الممرضة إن عليّ رؤية الطبيب أولاً. وهكذا تركوني أنتظر في غرفة الإسعاف وأتحمل اعتذارات تايلر المتواصلة المزعجة ووعوده بالتعويض علي. لقد استمر في تعذيب نفسه رغم محاولتي المستمرة لإقناعه أنني بخير. أخيراً، أغمضت عيني وتجاهلته. لكنه واصل غمغمته الآسفة.

سمعت صوتاً موسيقياً يسأل: «هل هي نائمة؟» ففتحت عيني.

كان إدوارد يقف بجانب السرير مبتسماً. نظرت إليه بغضب... لم يكن ذلك سهلاً... كان الطبيعي أن أرمقه بنظرة حب.

بدأ تايلر يقول: «أنا آسف حقاً يا إدوارد».

رفع إدوارد يده ليسكته وقال مبتسماً ابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء: «لا إصابة... لا مشكلة!» ثم انتقل إلى الجلوس على حافة سرير تايلر فصار قبالتي تماماً. ثم ابتسم من جديد.

سألني: «حسنٌ! ما هي النتيجة؟»

قلت متذمرة: «لا مشكلة عندي إطلاقاً، لكنهم لا يتركوني أذهب. كيف لم يضعوك على سرير مثلنا؟»

فأجاب: «الأمر متعلق بمعارفك في المستشفى. لكن لا تقلقي... لقد جئت لأفاجئك».

جاء الطبيب فأدهشني مظهره. لقد كان شاباً؛ وكان أشقر الشعر... وكان أكثر وسامة من أي نجم سينمائي رأيته في حياتي. كان شاحب اللون رغم ذلك. وكان يبدو عليه التعب. وكانت تحت عينيه دوائر قاتمة. لابد أنه والد إدوارد فهكذا وصفه تشارلي.

قال الدكتور كولن بصوت جذاب جداً: «إذن، كيف تشعرين يا آنسة سوان؟»

قلت: «أنا بخير» راجية أن تكون المرة الأخيرة التي أضطر إلى قول هذه العبارة.

مضى الطبيب إلى اللوحة المعلقة فوق رأسي وأشعل الضوء لينظر إلى صورة الأشعة وقال: «صورة الأشعة تبدو ممتازة. هل يؤلمك رأسك؟ قال إدوارد إن رأسك أصيب بصدمة شديدة».

كررت متنهدة وأنا أرمق إدوارد بنظرة سريعة غاضبة: «رأسي بخير».

جست أصابع الطبيب جمجمتي برقة ولاحظ تكشيرتي عندما ضغطت أصابعه على نقطة بعينها فقال: «هل يؤلمك هنا؟»

«هذا ليس ألماً!»... أصبت بما هو أسوأ من هذا سابقاً.

سمعت صوتاً يضحك فنظرت لأرى ابتسامة على وجه إدوارد.

«عظيم! والدك في غرفة الانتظار... تستطيعين الذهاب معه إلى المنزل الآن. وأرجو أن تعودي إذا شعرت بدوار أو باضطراب في الرؤية».

سألته وأنا أتخيل تشارلي محاولاً الاهتمام بي: «ألا أستطيع العودة إلى المدرسة؟»

«الأفضل أن ترتاحي اليوم».

نظرت سريعاً إلى إدوارد: «هل عليه أن يعود إلى المدرسة؟»

قال إدوارد مبتسماً: «يجب أن يذهب أحد حتى يخبرهم أننا نجونا».

قال الدكتور كولن مصححاً: «الواقع أن معظم الطلاب في غرفة الانتظار الآن».

«آه... لا!»... زفرت قائلة وغطيت وجهي بيدي الاثنتين.

نظر الطبيب إلي مستغرباً: «هل تريدين البقاء هنا؟»

«لا. لا!» قلت بإصرار وقذفت بساقي فوق حافة السرير قافزة إلى الأرض. كانت قفزة سريعة جعلتني أترنح فأمسك بي الدكتور كولن. وبدا عليه القلق.

أكدت له من جديد: «أنا بخير!».. لا حاجة لأن أخبره أن مشكلات سوء التوازن عندي لا علاقة لها بإصابة رأسي.

قال الطبيب وهو ما يزال ممسكاً بي: «تناولي بعض المسكنات من أجل الألم».

فقلت بإصرار: «إن الألم بسيط جداً».

قال الدكتور كولن: «يبدو أنك كنت محظوظة جداً». ثم وقَّع على أوراقي مبتسماً ابتسامة عريضة.

قلت مصححة: «من حسن الحظ أن إدوارد كان يقف بجانبي تماماً». وألقيت نظرة حادة باتجاه إدوارد.

وافقني الدكتور كولن قائلاً: «آه. طبعاً. نعم!»... ثم انشغل فجأة بالأوراق التي أمامه. وبعد ذلك نظر إلى تايلر ومضى باتجاهه. لمع حدس في رأسي: كان الطبيب يعرف شيئاً عن الأمر.

سمعت الطبيب يقول لتايلر وهو يهم بتفحص جراحه: «أعتقد أن عليك البقاء معنا بعض الوقت».

فور استدارة الطبيب باتجاه تايلر مضيت إلى إدوارد وقلت هامسة: «هل أستطيع التحدث معك دقيقة واحدة؟» تراجع إدوارد خطوة إلى الخلف وشد على أسنانه فجأة. ثم قال: «والدك ينتظرك!»

نظرت باتجاه تايلر والدكتور كولن وقلت بإصرار: «أريد أن أتحدث معك على انفراد، فهل تمانع؟»

رماني بنظرة غاضبة ثم استدار على عقبيه وخرج سريعاً من الغرفة. كنت مضطرة إلى الجري تقريباً حتى ألحق به. وفور انعطافنا حول الزاوية ودخولنا إلى الممر القصير التفت ثانية وواجهني: «ماذا تريدين؟» سألني بصوت منزعج... كانت عيناه باردتين.

أخافتني هذه العدوانية. خرجت الكلمات من فمي بحدة أقل مما أردت: «عليك أن تشرح لي ما حدث».

«لقد أنقذت حياتك... ليس علي الآن أن أشرح أي شيء».

أجفلتني الكراهية البادية على صوته فقلت: «لقد وعدتني».

قال بنبرة قاطعة: «لقد أصيب رأسك يا بيلا. وأنت لا تعرفين عن أي شيء تتحدثين».

اجتاحني الغضب فحدقت فيه متحدية: «رأسي لم يصبه شيء».

أجاب نظرتي بمثلها وقال: «ماذا تريدين مني يا بيلا؟»

«أريد أن أعرف الحقيقة. أريد أن أعرف ما الذي يجعلني أكذب من أجلك».

قال بسرعة: «وما الذي حدث برأيك؟»

أتت إجابتي سريعة: «كل ما أعرفه هو أنك لم تكن تقف قربي... تايلر لم يشاهدك أيضاً... لذلك لا تقل لي إن رأسي أصيب بصدمة شديدة. كانت تلك الشاحنة على وشك أن تسحقنا معاً... لكنها لم تسحقنا... وقد تركت يداك أثراً على جانبها... وأنت لم تصب بأذى... كان يجب أن تحطم الشاحنة ساقي لكنك رفعتها بيدك...» لم أستطع الاستمرار أكثر من ذلك فقد شعرت بمدى جنون ما قلته... كنت غاضبة جداً وشعرت أنني على وشك البكاء. حاولت مقاومة دموعي بأن أطبقت أسناني بشدة.

كان ينظر إلي غير مصدق. لكن وجهه كان متوتراً... دفاعياً.

«تعتقدين أنني رفعت الشاحنة عن ساقيك!» كانت نبرته تستفهم عن سلامة عقلي، لكن هذا زاد شكوكي. كان ما قاله يشبه عبارة يؤديها ممثل ماهر.

اكتفيت بإيماءة من رأسي وظللت أكز على أسناني.

«لن يصدقك أحد... أنت تعرفين هذا!» كان صوته يحمل بعض السخرية الآن.

«لن أخبر أحداً بهذا»... قلت كل كلمة من هذه العبارة ببطء شديد وأنا أسيطر على غضبي بحذر.

ظهرت الدهشة على وجهه: «فما أهمية الأمر إذن؟»

قلت بإصرار: «الأمر مهم عندي. لا أحب أن أكذب... ومن الأفضل أن يكون لدي سبب وجيه إذا كذبت».

«ألا تستطيعين أن تشكريني ثم تتجاوزي الأمر كله؟»

«شكراً لك!» ثم انتظرت رده والغضب يغلي داخلي.

«أنت لن تتركي هذا الأمر. أليس كذلك؟»

«لا!»

«إذن... آمل أن تستمتعي بخيبة الأمل».

رحنا نتبادل النظرات الغاضبة صامتين. وكنت أول من تكلم بعد ذلك... حاولت أن أحافظ على تركيزي... كنت أحاذر أن يتشتت انتباهي بسبب وجهه الشاحب البهي. كان الأمر يشبه إشاحة النظر عن ملاك مدمِّر غاضب.

سألته ببرود: «ولماذا يهمك الأمر أصلاً؟»

صمت برهة وبدا تعبير وجهه، للحظة قصيرة، هشاً على نحو غير متوقع. همس قائلاً: «لا أعلم».

ثم أدار لي ظهره ومضى سريعاً.

كنت غاضبة جداً ولم أستطع الحركة إلا بعد عدة دقائق. وعندما تحركت توجهت ببطء إلى المخرج عند نهاية الممر.

كان الوضع في غرفة الانتظار أسوأ مما توقعت. بدا لي أن كل الوجوه التي أعرفها في فوركس كانت موجودة في تلك الغرفة... تنظر إلي. اندفع تشارلي إلى جانبي؛ رفعت يدي وأكدت له بوقار: «لم يصبني سوء!».. مازال الغضب يملؤني. وما كان مزاجي يسمح بالحديث.

«ما الذي قاله الطبيب؟»

«رآني الدكتور كولن وقال إنني بخير وإن بوسعي الذهاب إلى المنزل». كان مايك وجيسيكا وإريك واقفين هناك وقد أوشكوا أن يطبقوا عليَّ فقلت لوالدي: «فلنذهب».

وضع تشارلي ذراعه خلف ظهري دون أن يلمسني تقريباً وقادني إلى باب الخروج الزجاجي. لوحت بيدي لأصدقائي آملة أن يفهموا أن لا مبرر لقلقهم. شعرت براحة هائلة عندما دخلت سيارة تشارلي... إنها المرة الأولى التي أعرف فيها هذا الشعور.

مضت السيارة وبقينا صامتين. كنت غارقة في أفكاري إلى درجة أنستني وجود تشارلي. كنت واثقة من أن سلوك إدوارد الدفاعي في تلك القاعة كان تأكيداً للأشياء الغريبة التي لا أكاد أصدق أنها حدثت معي.

عندما وصلنا إلى المنزل نطق تشارلي أخيراً: «هم!... عليك أن تتصلي برينيه». ثم طأطأ رأسه كما يفعل المذنب.

صحت غاضبة: «هل أخبرت أمي؟»

«أنا آسف!»

خرجت من السيارة وصفقت بابها بأعنف مما يجب.

لا شك أن أمي في حالة هستيرية الآن. على أن أقول لها إنني بخير ثلاثين مرة على الأقل حتى تهدأ. رجتني أن أعود إلى المنزل (ناسية أن المنزل كان خالياً في تلك اللحظة)... لكن مقاومة رجاءها كانت أسهل مما توقعت. كنت مشغولة البال تماماً بالغموض الذي سببه إدوارد. وكنت مشغولة البال قليلاً، بل أكثر، بإدوارد أيضاً. غبية... غبية... غبية. لم أعد الآن أتوق إلى الفرار من فوركس كما ينبغي.. كما ينبغي لأي إنسان طبيعي عاقل.

قررت أن أذهب إلى النوم باكراً تلك الليلة. ظل تشارلي يراقبني قلقاً، وكان هذا يثير توتري. توقفت في طريقي وأخذت ثلاث حبات مسكنة من الحمام... ساعدتني هذه الحبات... وعندما هدأ الألم غرقت في النوم.

كانت تلك أول ليلة أحلم فيها بإدوارد كولن.

4

دعوات

كانت الظلمة مخيمة في حلمي... وأما الضوء الشحيح الذي كان فيه فبدا منبعثاً من جلد إدوارد. لم أستطع رؤية وجهه... رأيت ظهره يسير مبتعداً فيتركني وحيدة في الظلمة. لم أكن لأستطيع اللحاق به مهما أسرعت في الجري. لم يلتفت نحوي مهما صرخت وناديت. قمت عند منتصف الليل مضطرة ولم أستطع العودة إلى النوم لزمن بدا طويلاً جداً. بعد ذلك صار يظهر في الحلم كل ليلة تقريباً... لكنه كان على الهامش دائماً... ولم أكن لأصل إليه أبداً.

لم يكن الشهر الذي أعقب الحادث سهلاً... كان متوتراً... محرجاً في البداية.

وجدت نفسي في مركز الاهتمام بقية ذلك الأسبوع كلها. كان تايلر كراولي لا يطاق... لاحقني في كل مكان... كانت تستحوذ عليه فكرة الاعتذار بأي طريقة. حاولت إقناعه أن ما أريده أكثر من أي شيء آخر هو أن ينسى الأمر كله... خاصة لأن شيئاً لم صبني... لكنه ظل على إصراره. كان يتبعني بين الدروس... وصار يجلس الآن على طاولتنا التي ازدادت ازدحاماً. وكان مايك وإريك يظهران له وداً أقل حتى مما يظهر أحدهما للآخر. وهذا ما جعلني قلقة من احتمال ظهور معجب جديد.

لم يظهر على أحد أي اهتمام بإدوارد رغم أنني شرحت مراراً

وتكراراً أنه هو بطل الموقف... شرحت لهم كيف سحبني من طريق الشاحنة وكيف كادت الشاحنة تسحقه. حاولت أن أكون مقنعة قدر ما استطعت. لكن جيسيكا ومايك وإريك، والجميع، كانوا يقولون دائماً إنهم لم يرونه هناك إلا عندما جرى إبعاد الشاحنة.

تساءلت في نفسي: لماذا لم يشاهده أحد يقف بعيداً جداً قبل أن يظهر فجأة، على نحو غير ممكن، فينقذ حياتي. وقد كدرني حقاً يقيني بأن السبب المرجح هو أن أحداً لم يكن مهتماً بإدوارد مثلي. لم يكن أحداً ينظر إليه باستمرار كما أفعل أنا... يا لبؤسي!

لم يكن الناس يحيطون بإدوارد متلهفين للاستماع منه إلى تلك القصة. كان الناس يتجنبونه... كالمعتاد. وكان يجلس مع إخوته إلى طاولتهم المعهودة دون أن يأكلوا... كانوا يتحدثون فيما بينهم فقط. ولم ينظر أحد منهم، إدوارد خاصة، في اتجاهي أبداً.

عندما جلس بجانبي في الصف بعيداً عني بالقدر الذي تسمح به الطاولة، بدا غير منتبه لوجودي إطلاقاً. ومن حين لآخر فقط، عندما يشد قبضتيه... ويغدو الجلد فوق عظامه أكثر بياضاً... كنت أشك في نسيانه الأمر فعلاً.

لعله يتمنى لو لم يبعدني من طريق شاحنة تايلر... لم أستطع التوصل إلى استنتاج غير هذا.

وددت كثيراً أن أتكلم معه... وقد حاولت ذلك في اليوم الأول بعد الحادث. كنا غاضبَيْن جداً عندما تلاقينا آخر مرة قرب الصالة الرياضية. كنت ما أزال غاضبة لأنه لم يأتمنّي على الحقيقة رغم عدم إخلالي بالجانب الذي يخصني في اتفاقنا. لكنه أنقذ حياتي حقاً، ولا يهم كيف فعل ذلك. وفي اليوم التالي خبت نار غضبي فتحولت إلى عرفان بالجميل.

عندما دخلت إلى صف البيولوجيا كان جالساً في مقعده... وكان

ينظر أمامه تماماً. جلست متوقعة أن يستدير نحوي فلم يظهر عليه ما يدل على أنه لاحظ وجودي.

قلت بصوت مرح: «مرحباً إدوارد»... حتى يرى أنني أحاول تحسين سلوكي معه.

أدار رأسه قليلاً صوبي دون أن تلاقي عيناه نظراتي وأومأ برأسه ثم أشاح بوجهه بعيداً.

كان ذلك آخر تواصل بيننا مع أنه كان هناك... على مسافة قدم واحدة مني... كل يوم. كنت أراقبه أحياناً غير قادرة على منع نفسي من ذلك... كنت أراقبه من مسافة بعيدة في الكافتيريا أو في ساحة وقوف السيارات. ورأيت لون عينيه الذهبيتين يصبح داكناً أكثر فأكثر كل يوم. أما في الصف فلم أظهر له أنني ألاحظ وجوده بأكثر مما يلاحظ وجودي. كنت بائسة... واستمرت أحلامي.

رغم كذباتي المباشرة أدت لهجة رسائلي إلى تنبيه رينيه وهذا ما أصابني بالقنوط... اتصلت بي قلقة عدة مرات. حاولت إقناعها أن رداءة الطقس هي السبب في انحراف مزاجي.

كان مايك، على الأقل، مسروراً بالفتور الواضح بيني وبين شريكي في المخبر. كان واضحاً لي أنه قلق من تأثير جرأة إدوارد في إنقاذي على سلوكي نحوه... لكنه ارتاح عندما رأى نتيجة معاكسة. وقد ازدادت ثقته فصار يجلس على حافة طاولتي في المخبر ليتحدث معي قبل أن يبدأ الدرس... كان يتجاهل إدوارد مثلما كان ادوارد يتجاهلنا تماماً.

اختفى الثلج تماماً بعد ذلك اليوم الصقيعي الخطير. وخابت آمال مايك في قيام معارك بكرات الثلج... لكنه كان مسروراً لأن الرحلة إلى الشاطئ ستغدو ممكنة عما قريب. استمر المطر يهطل غزيراً رغم ذلك... ومرت أسابيع.

نبهتني جيسيكا إلى حدث آخر يلوح في الأفق... اتصلت بي في يوم الثلاثاء الأول من شهر آذار فاستأذنتني في أن تدعو مايك إلى حفلة الرقص الربيعية التي تختار فيها الفتاة شريكها، وكانت بعد أسبوعين.

قلت لها إنني لا أمانع في ذلك أبداً فأصرت قائلة: «هل أنت متأكدة من أنك لا تمانعين... ألا تنوين دعوته؟»

أكدت لها: «أبداً يا جيسيكا... لن أذهب إلى الحفلة». كان الرقص خارج مجال قدراتي تماماً.

«ستكون حفلة ممتعة حقاً»... كانت محاولتها لإقناعي غير صادرة من قلبها تماماً. خطر لي أنها تستمتع بشعبيتي غير المفهومة أكثر مما تستمتع بصحبتي فعلاً.

حاولت تشجيعها: «استمتعي في الحفلة مع مايك».

وفي اليوم التالي فوجئت عندما رأيت جيسيكا في درسَيْ المثلثات واللغة الإسبانية فهي لم تكن تلك الفتاة المندفعة التي عرفتها. كانت صامتة عندما مشت بجانبي بين الدرسين. خشيت أن أسألها عن السبب. لو كان مايك قد رفض دعوتها فأنا آخر شخص يمكن أن ترغب في إخباره بذلك.

تعززت مخاوفي أثناء الغداء عندما جلست جيسيكا أبعد ما يمكن عن مايك وراحت تثرثر مع إريك. وكان مايك هادئاً على غير عادته.

ظل مايك هادئاً عندما أوصلني إلى الصف. وكان عدم الارتياح الظاهر على وجهه علامة سيئة. لكنه لم يفتح الموضوع إلى أن جلست في مقعدي وجلس هو على الطاولة. وكما كان الأمر دائماً، كان يكهربني جلوس إدوارد قريباً يكاد يلامسني... بعيداً حتى كأنه مجرد اختراع من صنع خيالي.

قال مايك ناظراً إلى الأرض: «طلبت مني جيسيكا مرافقتها إلى حفلة الرقص».

جعلت صوتي منطلقاً متحمساً: «عظيم! سوف تستمتع كثيراً مع جيسيكا».

تردد وهو يدرس ابتسامتي... كان واضحاً أن استجابتي لم تسعده... وقال: «طيب! قلت لها إنني سأفكر في الأمر».

«ولماذا قلت لها ذلك؟» قلت هذا بنبرة احتجاج، لكنني كنت مرتاحة لأنه لم يرفض دعوتها رفضاً قاطعاً.

احمرَّ وجهه بشدة ونظر إلى الأرض فزعزع إشفاقي تصميمي.

«كنت أتساءل ما إذا... ما إذا كنت تعتزمين دعوتي؟»

صمتُّ برهة، وكرهت موجة الإحساس بالذنب التي غمرتني. لكنني رأيت من زاوية عيني رأس إدوارد يميل نحوي. وقلت: «مايك. أعتقد أنك يجب أن تقول لها نعم».

«هل دعوتِ أحداً؟»... هل لاحظ إدوارد كيف استقرت عينا مايك عليه وهو يسألني؟

قلت: «لا! لن أذهب إلى الحفلة».

سألني مايك: «لماذا؟»

لم أكن أريد التورط في المخاطر التي يجرها الرقص علي. لذلك أسرعت في وضع خطط جديدة: «سأذهب إلى سياتل يوم الحفلة». أنا بحاجة إلى الخروج من البلدة على أي حال... فجأة صار يوم الحفلة هو اليوم المثالي لذلك.

«ألا تستطيعين الذهاب إلى سياتل في عطلة نهاية أسبوع أخرى؟»

فقلت: «لا! أنا آسفة...، لن تجعل جيسيكا تنتظر أكثر مما انتظرت... إنها فظاظة منك».

غمغم قائلاً: «نعم! أنت على حق». ثم استدار مكتئباً ومشى صوب مقعده. أغمضت عيني وضغطت بأصابعي على صدغي محاولة

دفع التعاطف والإحساس بالذنب إلى خارج رأسي. بدأ الأستاذ بانر كلامه فتنهدت وفتحت عيني.

كان إدوارد يحدق فيّ بشكل غريب وفي عينيه، السوداوين الآن، تعبير الغضب والإحباط المألوف نفسه، لكنه كان أكثر وضوحاً.

نظرت إليه مدهوشة وتوقعت أن يشيح بعينيه بعيداً. لكنه واصل التحديق في عيني وكأن عيناه تسبرانهما. ما كنت أستطيع النظر بعيداً أبداً. بدأت يدي ترتجفان.

قال الأستاذ طالباً الإجابة على سؤال لم أسمعه: «سيد كولن!»

أجاب إدوارد وهو يستدير متلكئاً لينظر إلى الأستاذ بانر: «إنها دورة كريبس».

نظرت إلى كتابي بمجرد أن أفلتتني عيناه، وحاولت البحث عن مكان الدرس. وبجبن، كما أفعل دائماً، ألقيت بشعري على كتفي الأيمن حتى أخفي وجهي. لم أستطع تصديق اندفاع المشاعر في داخلي... هل هذا فقط لأنه نظر إليّ مصادفة للمرة الأولى بعد خمسة أسابيع أو ستة؟ ما كان لي أن أسمح له بهذا القدر من التأثير علي. إنه شيء يدعو إلى الأسى... بل أكثر... هذا سلوك مريض.

حاولت جاهدة أن أتجاهله تماماً خلال بقية الدرس. ولما كان هذا مستحيلاً قررت، على الأقل، أن أجعله لا ينتبه إلى إحساسي بوجوده. وعندما قرع الجرس أخيراً أدرت ظهري نحوه حتى أجمع أشيائي وتوقعت أن يغادر القاعة فوراً كعادته.

«بيلا!»... لماذا يبدو صوته مألوفاً عندي إلى هذا الحد؟ كما لو أنني أعرفه طيلة حياتي وليس منذ أسابيع قليلة فقط.

استدرت نحوه ببطء... من غير رغبة. لم أكن أريد أن أشعر بما عرفت يقيناً أنني سأشعر به عندما أنظر إلى وجهه الكامل.. الكامل أكثر مما أحتمل. كان تعبير وجهي حذراً عندما التفتّ نحوه أخيراً، وكان

تعبير وجهه عصياً على القراءة... لم يقل شيئاً.

نطقت أخيراً بنبرة نكد لم أقصدها: «ماذا؟ هل تتكلم معي من جديد؟»

قال: «لا! ليس تماماً». تجعدت شفتاه وهو يمنعهما من الابتسام.

أغمضت عينيّ واستنشقت الهواء ببطء من أنفي ثم انتبهت إلى أنني كنت أشدّ على أسناني. وكان ينتظر.

سألته دون أن أرفع نظري إليه، كان الكلام معه أسهل بهذه الطريقة: «ماذا تريد الآن يا إدوارد؟»

بدا صوته صادقاً وهو يقول: «أنا آسف! كنت فظاً معك... أعرف هذا. لكن من الأفضل أن يكون الأمر هكذا... صدقيني».

فتحت عيني ناظرة إليه... كان وجهه جاداً تماماً.

«لا أفهم قصدك»... كان صوتي حذراً.

قال إدوارد: «من الأفضل أن لا نكون أصدقاء... ثقي بي!»

استغربت كثيراً. لقد سمعت هذا من قبل.

همست من خلال أسناني المطبقة: «سيئ جداً أنك لم تدرك هذا في وقت أبكر. أما كنت توفر على نفسك كل هذا الندم؟»

«الندم!»... من الواضح أن تلك الكلمة، وطريقتي في قولها، فاجأته تماماً. «الندم على ماذا؟»

«على عدم ترك تلك الشاحنة الغبية تسحقني».

دهش تماماً... وحدق في عيني غير مصدق.

عندما تكلم أخيراً بدا أنه يغلي غضباً: «تظنين أنني نادم على إنقاذ حياتك؟»

قلت جازمة: «أنا متأكدة من ذلك».

كان غاضباً جداً: «أنت لا تعرفين شيئاً».

أدرت رأسي بعنف بعيداً عنه مطبقة فمي عن جميع الاتهامات الفظيعة التي كنت أريد أن أصبها عليه. جمعت كتبي ثم وقفت ومشيت نحو الباب. تعمدت أن يكون مشهد خروجي من الغرفة درامياً، لكن مقدمة حذائي علقت عند عتبة الباب فسقطت كتبي. وقفت هناك لحظة وفكرت في أن أترك الكتب على الأرض وأمضي. ثم تنهدت وانحنيت حتى أرفعها. رأيته هناك... كان قد جمع الكتب كلها. ناولني إياها بوجه متجهم.

قلت ببرود: «شكراً لك!»... فتضيقت عيناه وأجابني: «أهلاً وسهلاً».

نهضت بسرعة واستدرت ذاهبة إلى قاعة الرياضة دون أن أنظر خلفي.

كان درس الرياضة فظيعاً... لقد انتقلنا إلى كرة السلة. لم يحاول أفراد فريقي رمي الكرة باتجاهي.. كان هذا أمراً جيداً. لكنني سقطت إلى الأرض كثيراً. وكنت أحياناً أجعل غيري يسقط أيضاً. كان وضعي اليوم أسوأ من المعتاد لأن رأسي كان ممتلئاً بإدوارد. حاولت أن أركز انتباهي على قدميّ لكنه كان يعود فيتسلل إلى أفكاري كلما كنت بحاجة إلى حفظ توازني.

كانت مغادرة القاعة أمراً مريحاً كالعادة. انطلقت إلى سيارتي راكضة تقريباً فرأيت هناك كثيراً من الناس الذين كنت راغبة في تجنبهم. كانت الأضرار التي أصابت السيارة في الحادث بسيطة جداً. كان علي استبدال المصابيح الخلفية... وكنت أستطيع تولي ما يلزم من دهان بنفسي. أما والدي تايلر فكان عليهما بيع الشاحنة لتصير قطع تبديل.

كاد قلبي يتوقف عندما التففت حول الزاوية فرأيت شخصاً طويلاً مستنداً على جانب سيارتي. ثم أدركت أنه إريك فتابعت السير من جديد.

قلت له: «مرحباً إريك».

«أهلاً بيلا».

قلت وأنا أفتح الباب: «ماذا حدث؟»... لم أنتبه إلى عدم الارتياح في صوته ففاجأتني كلماته تماماً: «آه!.. كنت أتساءل... هل تودين مرافقتي إلى حفلة الرقص؟»... تكسر صوته عند الكلمات الأخيرة.

جعلتني المفاجأة غير قادرة على الحديث بدبلوماسية: «ظننت أن الفتاة هي التي تدعو الشاب إلى هذه الحفلة!»

قال خجلاً: «نعم، صحيح».

استعدت روعي وحاولت أن أبتسم ابتسامة دافئة: «شكراً لأنك طلبت مني مرافقتك، لكن علي الذهاب إلى سياتل في ذلك اليوم».

قال: «أوه! طيب... ربما في المرة القادمة».

«طبعاً!»... قلت موافقة ثم عضضت على شفتي. لم أكن أريده أن يفهم كلامي حرفياً.

استدار ببطء وعاد باتجاه المدرسة... وسمعت صوت ضحكة خافتة.

كان إدوارد يمر أمام مقدمة سيارتي ناظراً أمامه... كانت شفتاه مغلقتين. فتحت الباب وقفزت إلى السيارة ثم صفقت الباب بعنف خلفي. أدرت المحرك ورجعت بالسيارة إلى الممر. كان إدوارد قد صار في سيارته... وكانت أمامي بمقدار سيارتين... وكانت تتراجع إلى الخلف ببطء... أمامي... فتغلق طريقي. توقف هناك... لينتظر بقية أفراد أسرته. رأيت الأربعة يسيرون باتجاهنا، لكنهم كانوا ما يزالون عند الكافتيريا. فكرت أن أصدم سيارته فأحطم مؤخرتها اللامعة... لكن الشهود كانوا كثيرين من حولي. نظرت في المرآة فرأيت صفاً من السيارات خلفي. كان تايلر كراولي خلفي مباشرة في سيارته الجديدة من نوع سنترا... وكان يلوّح لي بيده. لم يكن مزاجي الغاضب يسمح لي بالرد عليه.

بينما كنت أقف هناك ناظرة في كل اتجاه إلا في اتجاه السيارة الواقفة أمامي سمعت نقراً على النافذة اليمنى. التفتّ فرأيت تايلر. نظرت في المرآة منزعجة. رأيت أن محرك سيارته مازال يعمل... وكان الباب مفتوحاً. ملت إلى اليمين حتى أفتح النافذة. كانت حركة المقبض صعبة ففتحت النافذة نصف فتحة ثم توقفت.

«آسفة يا تايلر... أنا عالقة خلف كولن». كنت أشعر بالضيق... من الواضح أن هذا التأخير ليس ذنبي.

قال تايلر مبتسماً: «أوه! أعرف هذا... أردت فقط أن أطلب منك شيئاً ونحن واقفون هنا».

مستحيل... لا يمكن أن يحدث هذا.

تابع يقول: «هل يمكن أن تطلبي مني مرافقتك إلى حفلة الربيع؟»

بدا صوتي حاداً وأنا أقول: «لن أكون في البلدة يا تايلر!»... لم يكن ذنبه أن مايك وإريك استنفذا كل ما لدي من صبر في ذلك اليوم.

«أعرف!... أخبرني مايك بهذا».

«إذن... لماذا...؟»

ابتسم وقال: «كنت آمل أنك قلت له هذا... لتصرفيه عنك».

الآن صار الذنب ذنبه هو.

قلت محاولة أن أخفي انزعاجي: «آسفة يا تايلر. لن أكون في البلدة فعلاً».

«عظيم! مازال أمامنا حفل نهاية السنة».

قبل أن أتمكن من الإجابة سار تايلر عائداً إلى سيارته. كان بوسعي أن أحسّ أثر الصدمة على وجهي. نظرت أمامي فرأيت أليس وروزالي وإيميت وجاسبر يدخلون سيارة الفولفو. وكان إدوارد ينظر إلي في المرآة. كان جسمه يهتز من الضحك اهتزازاً واضحاً... وكأنه سمع كل

كلمة قالها تايلر. امتدت قدمي إلى دواسة الوقود... ضربة صغيرة لن تؤذي أحداً منهم... ستتلف ذلك الدهان الفضي اللامع فقط. زدت سرعة المحرك.

لكنهم صاروا الآن جميعاً داخل السيارة، وانطلق بها إدوارد مسرعاً.

عدت إلى البيت أقود سيارتي ببطء وحذر وأنا أتمتم مكلّمة نفسي طوال الطريق. وعندما وصلت قررت تحضير لفافات الدجاج من أجل الغداء. كانت تلك عملية طويلة... وسوف تشغلني عن أفكاري. رن جرس الهاتف بينما كنت أقطع البصل والفليفلة. خفت أن أرد، لكن المتصل قد يكون تشارلي أو أمي.

كانت تلك جيسيكا. كانت سعيدة مبتهجة. لقد قابلها مايك بعد المدرسة وقبل دعوتها. شاركتها فرحتها قليلاً وأنا أحرك البصل. كان عليها أن تنهي المكالمة فهي تريد أيضاً أن تتصل بأنجيلا ولورين لتخبرهما. اقترحت... ببراءة غير متكلفة... أن تقوم أنجيلا، تلك الفتاة الخجول التي تحضر دروس البيولوجيا معي، بدعوة إريك أيضاً. وبوسع لورين، هي فتاة متحفظة تتجاهلني دائماً وقت الغداء في الكافيتريا، أن تدعو تايلر... سمعت أنه مازال حراً. أعجبت جيسيكا بالفكرة كثيراً. فبعد أن ضمنت مايك الآن بدت نبرتها صادقة عندما قالت إنها تتمنى أن أذهب إلى تلك الحفلة... كررت لها عذر سياتل من جديد.

بعد أن وضعت السماعة حاولت التركيز على إعداد الغداء... تقطيع الدجاج خاصة. لم أكن أرغب في الذهاب إلى غرفة الإسعاف مرة ثانية. لكن رأسي كان يدور ويدور محاولاً تحليل كل كلمة قالها إدوارد اليوم. ماذا كان يقصد عندما قال إن من الأفضل أن لا نكون أصدقاء؟ أحسست بمعدتي تتقلص عندما أدركت ما قصده. لابد أنه رأى مدى

انجذابي إليه... إنه لا يريد دفعي إلى ذلك... إذن، لا نستطيع حتى أن نكون أصدقاء... لأنه ليس مهتماً بي أبداً.

طبيعي أنه لم يكن مهتماً بي... فكرت بغضب... بدأت الحرقة في عيني... إنه تأثير البصل المتأخر. لم أكن لأثير اهتمامه. لكنه مثير للاهتمام... مثير للاهتمام... غامض... لامع... كامل... جميل... ولعله أيضاً يستطيع أن يرفع شاحنة صغيرة بيد واحدة.

لا بأس... يمكنني أن أتركه وحده... سأتركه وحده... سوف أقضي حكمي الذي فرضته على نفسي بالحبس في هذه البلدة. وآمل بعد ذلك أن أحصل على منحة للدراسة في مدرسة في الجنوب الغربي... أو حتى في هاواي. حاولت تركيز أفكاري على تلك الشواطئ المشمسة وأشجار النخيل... أنهيت تحضير لفافات الدجاج ووضعتها في الفرن.

بدت الريبة على تشارلي عندما عاد إلى المنزل وشم رائحة الفليفلة الخضراء. لم أكن أستطيع لومه. لعل أقرب طعام مكسيكي يصلح للأكل كان في جنوب كاليفورنيا! لكنه شرطي، وإن يكن شرطي بلدة صغيرة إلى هذا الحد، ولديه شجاعة تكفيه لتناول اللقمة الأولى. لقد أعجبه الطعام فيما يبدو. من المضحك أن أرى كيف بدأ... ببطء... يثق بمهارتي في المطبخ.

قلت له عندما كاد ينهي طعامه: «أبي!»

«نعم بيلا».

«هممم! أريد أن أخبرك أنني سأذهب إلى سياتل ليوم واحد يوم السبت... هل تمانع؟»

لم أكن أطلب الإذن... إنها سابقة سيئة... لكنني شعرت بفظاظة جملتي فأضفت إليها ذلك السؤال.

بدت عليه الدهشة كما لو أنه لا يتخيل وجود شيء غير متوفر في فوركس، وسأل: «لماذا؟»

«حسنٌ، أريد بعض الكتب... إن المكتبة هنا فقيرة جداً... وقد أحاول شراء بعض الملابس أيضاً». كان لدي من المال أكثر مما تعودت لأنني، بفضل تشارلي، لم أدفع ثمن سيارة، مع أن سيارتي تكلفني الكثير في محطة الوقود.

قال وكأنه يردد صدى أفكاري: «الأرجح أن سيارتك تستهلك كثيراً من الوقود».

«أعرف؛ سأتوقف في مونتيسانو وأولمبيا... وتاكوما إذا احتجت».

سألني: «وهل تذهبين وحدك؟» لم أستطع أن أقرر ما إذا كان قلقاً من احتمال تعطل السيارة أو بسبب شكه في وجود صديق سري لابنته.

قلت له: «نعم».

قال بقلق: «سياتل مدينة كبيرة... قد تضيعين فيها».

«أبي! فينيكس أكبر من سياتل بخمس مرات... وأنا أعرف قراءة الخريطة. لا تقلق بهذا الشأن».

«أتريدين أن أذهب معك؟»

حاولت أن أكون ماهرة في إخفاء رعبي: «هذا جيد يا أبي... لكن الأرجح أن أمضي معظم النهار في غرف تجريب الملابس... هذا ممل جداً لك».

«طيب، لا بأس»... أحبطت عزيمته فوراً فكرة الانتظار في محلات بيع الألبسة النسائية.

ابتسمت قائلة: «شكراً».

«هل ستعودين في الوقت المناسب للذهاب إلى الحفلة؟»

أف... لا يعرف الآباء مواعيد حفلات المدرسة إلا في البلدات الصغيرة.

«لا... أنا لا أحب الرقص يا أبي». يجب أن يفهم هذا أكثر من أي شخص آخر... فقد ورثت مشكلة سوء التوازن عنه لا عن أمي.

لقد فهم وقال موافقاً: «آه، هذا صحيح!»

عندما دخلت بالسيارة إلى موقف السيارات صباح اليوم التالي تعمدت إيقاف السيارة أبعد ما يمكن عن الفولفو الفضية. لم أكن أريد أن أضع نفسي في طريق هذا الإغراء كله ثم أورط نفسي في مسألة تعويضه عن سيارته. وعندما خرجت من السيارة أفلت مني المفتاح وسقط في بركة صغيرة عند أقدامي. انحنيت لألتقطه فرأيت يداً تمتد بسرعة البرق فتأخذه قبل أن أصل إليه. أجفلت ونهضت واقفة فرأيت إدوارد كولن واقفاً بجانبي مستنداً إلى سيارتي.

سألته بانزعاج ودهشة: «كيف تستطيع فعل ذلك؟»

«فعل ماذا؟»... قال ذلك وهو يناولني المفتاح، وعندما مددت يدي أسقطه في راحتها.

«أقصد أنك تظهر فجأة».

«بيلا... ليس ذنبي أنك قليلة الانتباه إلى هذا الحد»... كان صوته عادياً هادئاً... مخملياً منخفض النبرة.

حدقت في وجهه البديع. اليوم لم تعد عيناه داكنتين... كان لونهما ذهبياً عسلياً غامقاً. الآن، صار علي أن أنظر إلى الأرض حتى أعيد ترتيب أفكاري المتشابكة المشوَّشة.

سألته وأنا مازلت أنظر بعيداً: «لماذا حدثت عرقلة السير مساء الأمس؟»... «ظننت أنك سوف تتظاهر بتجاهل وجودي لا أنك ستزعجني إزعاجاً قاتلاً».

ضحك ضحكة صغيرة وقال: «هذا من أجل تايلر لا من أجلك... كان علي أن أمنحه فرصة».

قلت بزفرة غاضبة: «أنت...» لم أستطع العثور على كلمة سيئة بالقدر الكافي. شعرت أن حرارة غضبي قادرة على إحراقه. لكن الموقف بدا مسلياً بالنسبة له.

«ثم إني لا أتظاهر بأنك غير موجودة».

«إذن، أنت تحاول إزعاجي إزعاجاً قاتلاً. هذا لأن شاحنة تايلر لم تقتلني».

التمع الغضب في عينيه الذهبيتين المصفرتين. تصلبت شفتاه... واختفت كل علامات المرح من وجهه.

«بيلا! أنت عجيبة تماماً»... كان صوته الخافت بارداً.

شددت قبضتي... كانت بي رغبة شديدة في ضرب أي شيء. كنت مدهوشة من نفسي فأنا غير عنيفة عادة. استدرت ومشيت مبتعدة.

ناداني: «انتظري!»... واصلت السير وأنا أطرطش غاضبة في برك ماء المطر. لكنه ظل بجانبي... كان يساير خطواتي السريعة بكل سهولة.

قال وهو يمشي: «أنا آسف!... هذه فظاظة مني». تجاهلته فتابع يقول: «لا أقول إن هذا غير صحيح... لكن من الفظاظة قوله على أي حال».

قلت غاضبة: «لماذا لا تتركني؟»

قال مبتسماً: «كنت أريد أن أسألك سؤالاً، لكنك جعلتني أتحدث في أمر آخر». بدا وكأن مزاجه المرح قد عاد.

قلت بحدة: «هل تعاني انفصام الشخصية؟»

«ها أنت تفعلينها مجدداً».

تنهدت وقلت: «عظيم! ماذا تريد أن تسألني؟»

«كنت أتساءل إذا... بعد أسبوع من يوم السبت... أنت تعرفين إنه يوم حفلة الربيع الراقصة...»

قاطعته وأنا أتحرك باتجاهه: «هل تتظارف؟» بلل المطر وجهي عندما رفعت رأسي لأنظر إلى تعبيره.

كان سرور خبيث يلمع في عينيه: «هل تسمحين لي بأن أكمل كلامي؟»

عضضت على شفتي وشبكت أصابع يدي... حتى لا أقوم بأي تصرّف متسرِّع.

«سمعتك تقولين إنك ذاهبة إلى سياتل في ذلك اليوم وخطر في بالي أنك قد ترغبين في أن أوصلك بالسيارة».

لم أكن أتوقع هذا: «ماذا؟»... لم أكن متأكدة مما يرمي إليه.

«هل تريدين من يوصلك إلى سياتل؟»

قلت مستغربة: «من؟»

«أنا طبعاً». قالها موضحاً كل حرف من حروفها كأنه يتحدث إلى شخص مريض عقلياً.

مازالت الدهشة تغمرني: «لماذا؟»

«كنت أنوي الذهاب إلى سياتل خلال الأسابيع الخمسة القادمة... ولأكن صادقاً أيضاً... أشك في قدرة سيارتك على اجتياز هذه المسافة كلها».

«سيارتي في حالة ممتازة. أشكرك كل الشكر على اهتمامك». بدأت أمشي ثانية لكن دهشتي الشديدة لم تسمح لي بالمحافظة على شدة غضبي.

«لكن، هل يكفي خزان الوقود في سيارتك للذهاب إلى سياتل؟» صار يمشي بجانبي تماماً الآن.

«لا شأن لك بهذا»... يا صاحب الفولفو اللامعة الغبي.

«إن هدر الموارد من شأن كل إنسان».

«صدقاً يا إدوارد»... شعرت بنشوة عندما نطقت اسمه فكرهت نفسي... «لا أستطيع أن أفهمك. ظننت أنك لا تريد أن تكون صديقي».

«قلت إن من الأفضل أن لا نكون أصدقاء. ولم أقل أنني لا أرغب في هذا».

قلت بسخرية مرة: «آه! شكراً، الآن صار كل شيء واضحاً».

أدركت أنني توقفت عن السير. كنا نقف تحت حافة السقف البارزة من الكافيتريا، وكان يحمينا من المطر مما سمح لي بالنظر إلى وجهه بسهولة أكبر... لكن هذا لم يساعد في صفاء تفكيري.

قال موضحاً: «سيكون أكثر... حكمة من جانبك أن لا تكوني صديقتي. لكني تعبت من محاولة البقاء بعيداً عنك يا بيلا».

كانت نظرة عينيه شديدة حارقة عندما نطق الكلمات الأخيرة... وكان صوته يوحي بمشاعر غضب مكبوتة. ما عدت أعرف كيف أتنفس.

سألني وهو ما يزال متوتراً: «هل ستذهبين معي إلى سياتل؟»

لم أكن أستطيع الكلام، فأومأت برأسي.

ابتسم ابتسامة صغيرة ثم علت الجدية وجهه وقال محذراً: «عليك فعلاً أن تظلي بعيدة عني... أراك في الصف».

استدار فجأة ومضى من حيث جئنا.

5

زمرة الدم

مضيت إلى درس اللغة الإنكليزية وأنا أشعر بالدوار. دخلت ولم أنتبه إلى أن الدرس قد بدأ فعلاً.

قال الأستاذ ماسون بنبرة مؤنبة: «شكراً لانضمامك إلينا يا آنسة سوان».

احمرّ وجهي فأسرعت إلى مقعدي.

لم أدرك أن مايك لم يكن جالساً في مكانه المعتاد بجانبي حتى نهاية الدرس. شعرت بشيء من الذنب. لكنه التقاني مع إريك عند الباب كالعادة فاستنتجت أنه سامحني بعض الشيء. بدا لي أن مايك قد عاد إلى طبيعته بينما رحنا نسير... كان حماسه يزداد وهو يتحدث عن التنبؤات الجوية لنهاية الأسبوع. من المفترض أن يتوقف المطر بعض الشيء ومن المحتمل أن يصبح الذهاب في رحلة إلى الشاطئ أمراً ممكناً. حاولت إظهار الحماسة تعويضاً عن تخييب آماله أمس. كان ذلك صعباً، سواء كانت تمطر أو لا، لن تتجاوز الحرارة 15 درجة، هذا إذا كنا محظوظين.

ظللت مشوشة طيلة الفترة الصباحية. كان صعباً عليّ تصديق أنني لم أكن أتخيل ما قاله إدوارد... ولم أكن أتخيل تلك النظرة في عينيه. لعل هذا لم يكن إلا حلماً مقنعاً جداً اختلط عندي بالحقيقة. هذا أرجح احتمالاً من أن يكون ميالاً إليّ بأي شكل من الأشكال.

لذلك كنت خائفة نافذة الصبر عندما دخلت إلى الكافيتريا مع جيسيكا. كنت أريد رؤية وجهه لأرى إن كان قد عاد ثانية فأصبح ذلك الشخص البارد اللامبالي الذي عرفته طيلة الأسابيع الماضية؛ أو إن كنت قد سمعت منه حقاً ما ظننت أنني سمعته هذا الصباح... ستكون عجيبة من العجائب. كانت جيسيكا تثرثر وتثرثر عن خططها لحفلة الرقص... لقد قامت لورين وأنجيلا بدعوة الصبيين الآخرين، وسوف يذهبون كلهم سوية... لم تنتبه جيسيكا إطلاقاً إلى عدم اهتمامي.

غمرتني الخيبة عندما نظرت عامدة إلى طاولته. كان الأربعة الآخرون جالسين هناك، لكنه كان غائباً. هل ذهب إلى المنزل؟ حاولت متابعة ثرثرة جيسيكا لكنني عجزت عن ذلك. فقدت شهيتي... لم أشتر إلا زجاجة عصير ليمون. لم أكن أرغب إلا في الذهاب والجلوس من غير كلام.

قالت جيسيكا وقد أفلحت في كسر امتناعي عن الكلام باستخدام اسمه: «إدوارد كولن ينظر إليك مجدداً. أستغرب جلوسه وحيداً اليوم».

رفعت رأسي بسرعة وتابعت نظراتها فرأيت إدوارد يبتسم ابتسامة خبيثة وينظر إليّ من طاولة فارغة في الجهة المعاكسة لمكان جلوسه المعتاد. وعندما التقط عينيّ رفع يده وأشار إلي أن أذهب لأجلس معه. وعندما رحت أحدق فيه غير مصدقة غمزني بعينه.

سألت جيسيكا بدهشة مهينة تنبع من صوتها: «هل يقصدك أنت؟»

قلت لأتخلص منها: «لعله يحتاج مساعدتي في واجب البيولوجيا... همم... من الأفضل أن أذهب لأرى ما يريد».

شعرت بعينيها تحدقان في ظهري عندما مشيت باتجاهه.

عندما وصلت وقف خلف الكرسي المقابل له... لم أكن واثقة.

سألني مبتسماً: «ألا تجلسين معي اليوم؟»

جلست على نحو آلي وأنا أنظر إليه بحذر وريبة. مازال يبتسم.

كان يصعب التصديق أن شخصاً بهذا الجمال يمكن أن يكون حقيقياً. خشيت أن يختفي فجأة وأن أستيقظ من حلمي.

بدا أنه ينتظرني ليقول لي شيئاً.

أفلحت في الكلام أخيراً فقلت: «هذا شيءٌ مختلف».

قال: «أنا...» توقف لحظة ثم اندفعت الكلمات من فمه اندفاعاً: «بما أنني ذاهب إلى الجحيم فقد قررت أن أفعل ذلك بشكل كامل».

انتظرت أن يقول شيئاً مفهوماً. لكن الثواني مرت وهو صامت.

قلت له أخيراً: «تعرف أنني لا أفهم قصدك أبداً».

ابتسم من جديد وقال: «أعرف!»... ثم غير الموضوع: «أظن أن أصدقاءك غاضبين لأنني سرقتك منهم».

«لن يموتوا بسبب هذا». كنت أشعر بنظراتهم تخترق ظهري.

قال بنظرة خبيثة تلتمع في عينيه: «لكنني قد لا أعيدك إليهم».

شعرت بغصة.

ضحك قائلاً: «تبدين خائفة».

قلت: «لا!» لكن صوتي كان متكسراً... يا لسخافتي... «الواقع أنك فاجأتني... ما سبب هذا كله؟»

«قلت لك... تعبت من محاولة البقاء بعيداً عنك. وها أنا ذا أستسلم». مازال يبتسم... لكن بعينين جادتين.

كررت بحيرة: «تستسلم؟»

«نعم... أستسلم فأكف عن محاولة أن أكون طيباً. سأفعل ما أرغب فيه الآن... وليكن ما يكون». خبت ابتسامته وهو يتحدث وتسللت الحدة إلى صوته.

«لم تفهميني هذه المرة أيضاً!»... عادت إلى الظهور ابتسامته المعابثة التي تقطع الأنفاس.

«دائماً أقول أكثر مما يجب عندما أتحدث إليك... هذه مشكلة من المشاكل».

قلت متجهمة: «لا تقلق... لست أفهم شيئاً مما تقول».

«أنا أعتمد على هذا».

«إذن، هل نحن أصدقاء الآن؟»

قال متأملاً... متشككاً: «أصدقاء...»

«أم لا!»

ابتسم قائلاً: «يمكننا أن نحاول... كما أظن. لكنني أحذرك الآن من أنني لست صديقاً جيداً لك»... كان تحذير حقيقي يطل من خلف ابتسامته.

قلت له: «أنت تكرر هذا كثيراً»... كنت أحاول تجاهل الرجفة المفاجئة في معدتي... وكنت أحاول المحافظة على هدوء صوتي.

«نعم، لأنك لا تستمعين إلي. مازلت أنتظر أن تصدقي ذلك. إذا كنت ذكية فسوف تتجنبينني».

«أعتقد أنك أوضحت رأيك في مسألة ذكائي أيضاً».

ابتسم ابتسامة اعتذار.

«إذن، طالما أنني لست... ذكية، سنحاول أن نكون أصدقاء!»... كنت أحاول جاهدة أن ألخص تلك الصفقة الغريبة.

«هذا يبدو صحيحاً تقريباً».

نظرت إلى يدي المتشابكتين حول زجاجة عصير الليمون... لم أعرف ما الذي يجب أن أفعله الآن.

سألني بفضول: «بم تفكرين؟»

نظرت في عينيه الذهبيتين العميقتين... شعرت بالذهول... وكما العادة قلت الحقيقة فوراً: «أحاول أن أفهم... ما أنت!»

بدا التوتر على وجهه لكن ابتسامته ظلت كما هي... مع بعض الجهد.

سألني بنبرة حاول أن يجعلها لامبالية: «وهل تلاقين نجاحاً في هذا؟»

قلت معترفة: «ليس كثيراً».

ابتسم وقال: «وما هي نظرياتك؟»

احمر وجهي. كنت أتذبذب بين نقيضين طيلة الشهر الماضي. لا يبدو أن لدي طريقة للحسم.

سألني وهو يميل برأسه جانباً ويبتسم ابتسامة مغرية إلى حد مذهل: «ألن تخبريني؟»

هززت رأسي: «هذا محرج جداً».

قال متذمراً: «هذا محبط حقاً كما تعلمين».

قلت بسرعة: «لا!»... ضاقت عيناي وقلت: «لا أستطيع أن أفهم لماذا يكون محبطاً... لماذا يحبطك أن يرفض شخص إخبارك عما يفكر فيه... حتى إذا كنت تمضي وقتك كله في قول عبارات صغيرة مصممة حتى تمنعه من النوم في الليل وهو يفكر بما يمكن أن يكون قصدك منها... لماذا يكون هذا محبطاً؟»

رأيته يكشر قليلاً.

تابعت حديثي وقد راح انزعاجي كله يعبر عن نفسه بحرية: «وأكثر من هذا... افترض أيضاً أنك تقوم بسلسلة من الأشياء الغريبة... من إنقاذ حياته بطريقة لا يصدقها العقل إلى معاملته في اليوم التالي مثلما يعاملون كلباً شارداً... ثم لا تشرح له أياً من هذا كله حتى بعد أن وعدته بذلك... هذا أيضاً غير محبط أبداً».

«أنت غاضبة قليلاً، ألست كذلك؟»

«لا أحب المعايير المزدوجة».

رحنا نتبادل نظرات حادّة... من غير ابتسام.

نظر من فوق كتفي... وفجأة ابتسم بطريقة غير متوقعة فقلت:

«ماذا؟»

ابتسم ثانية: «يبدو أن صديقك يظن أنني أزعجك... وهو يفكر الآن فيما إذا كان عليه أن يأتي ليضع حداً لشجارنا».

قلت ببرود شديد: «لا أعرف عمّن تتكلم. لكنني واثقة من أنك مخطئ».

«لست مخطئاً. لقد قلت لك من قبل... من السهل قراءة معظم الناس».

«إلا أنا، طبعاً!»

«نعم!... إلا أنتِ»... تغير مزاجه فجأة... اكتأبت عيناه وقال:

«لا أفهم السبب!»

كان علي أن أشيح بنظري لشدة نفاذ نظرته. ورحت أشغل نفسي بالتركيز على انتزاع غطاء زجاجة الليمون. أخذت جرعة كبيرة ورحت أحدق في الطاولة ولا أراها.

سألني مغيراً الموضوع: «ألست جائعة؟»

«لا!»... لم أكن أرغب في القول إن معدتي كانت مملوءة... بالفراشات.

«وأنت؟»... نظرت إلى الطاولة الفارغة أمامه.

قال: «لا... لست جائعاً». لم أفهم تعبير وجهه... بدا كمن يستمتع بنكتة لا يفهمها غيره.

قلت بعد لحظة من التردد: «هل أستطيع أن أطلب منك معروفاً؟»

بدا عليه الانتباه فجأة: «هذا يتوقف على الشيء الذي تطلبينه».

«ليس بالشيء الكثير».

انتظر كلامي... بدا عليه الفضول والحذر معاً.

«هل يمكنك... من أجلي أنا... أن تخبرني مسبقاً عندما تقرر تجاهلي في المرة القادمة... حتى أكون مستعدة فقط». كنت أنظر إلى زجاجة الليمون أثناء كلامي وأمر بإصبعي على فوهتها الدائرية.

«هذا يبدو منصفاً»... وعندما نظرت إليه رأيته يضغط على شفتيه حتى لا ينفجر ضاحكاً.

«شكراً».

قال: «والآن، هل أحصل منك على إجابة واحدة بالمقابل؟»

«واحدة فقط!»

«أخبريني بواحدة من نظرياتك عني».

يا للبؤس: «ليس على هذا السؤال تحديداً».

«أنت لم تحددي نوعها... وعدتني بإجابة واحدة».

قلت مذكرة إياه: «لكنك لم تف بوعودك أيضاً».

«نظرية واحدة فقط... لن أضحك».

«بل ستضحك!»... كنت واثقة من هذا.

أطرق برأسه ثم رفعه ونظر إلي عبر أهداب عينيه الطويلة... كانت نظرته نفاذة.

«أرجوك!»... قالها همساً وهو يميل صوبي.

تبخر كل شيء من رأسي... يا ربي... كيف يفعل هذا؟

سألته وأنا أشعر بدوار في رأسي: «ماذا؟»

«أرجو أن تخبريني بنظرية واحدة فقط»... كانت عيناه تواصلان توجيه تلك النظرة الحارقة إلي.

«آه، طيب، لقد قرصك عنكبوت مشع!»... هل يمارس التنويم المغناطيسي أيضاً؟ أم أنني مجرد ضعيفة لا أمل منها؟

قال هازئاً: «ليست نظرية مبتكرة كثيراً».

قلت مستاءة: «آسفة، هذا كل ما لدي».

راح يضايقني: «لم تقتربي من الحقيقة».

«لا يوجد عنكبوت؟»

«أبداً».

«ولا شيء مشع؟»

«أبداً».

تنهدت: «بئس الأمر».

قال مبتسماً: «لا تزعجني الحجارة الفضائية أيضاً».

«قلت إنك لن تضحك... هل تتذكر هذا؟»

حاول جاهداً أن يسيطر على تعبير وجهه.

حذرته قائلة: «سأعرف الحقيقة في النهاية».

«أتمنى ألا تحاولي!»... أصبح جاداً من جديد.

«لماذا...؟»

«ماذا لو لم أكن بطلاً خارقاً؟ ماذا لو كنت شخصاً سيئاً؟»... كانت ابتسامته مرحة مبتهجة، لكن عينيه لم تفصحا عن شيء... صار لكثير من الأشياء التي قالها معنى مفاجئ فقلت: «آه! أفهم هذا».

«هل تفهمين حقاً؟»... ظهر تعبير حاد على وجهه كما لو أنه خشي أن يكون قد أسرف في الكلام من غير قصد.

«هل أنت خطير؟»... قلتها كمن يحزر أمراً... ثم تسارع نبضي عندما أدركت بحدسي صدق تلك الكلمات. لقد كان خطيراً. وهو يحاول أن يوصل إلي هذه الفكرة طيلة الوقت.

اكتفى بالنظر إلي. وكان ملء عينيه تعبير لم أستطع فهمه.

همست قائلة وأنا أهز رأسي: «لكنك لست سيئاً... لا! لا أعتقد أنك سيّئ».

«أنت مخطئة»... قالها بصوت لا يكاد يسمع. أطرق برأسه ثم خطف غطاء الزجاجة وصار يقلبه بين أصابعه. حدقت فيه وأنا أتساءل عن سبب شعوري بالخوف. لقد كان يعني ما يقول... كان هذا واضحاً. لكنني لم أشعر إلا بشيء من القلق... كنت أحس أنني مسحورة أكثر من أي إحساس آخر. هكذا أشعر كلما كنت بجانبه.

دام صمتنا حتى انتبهت إلى أن الكافتيريا صارت شبه فارغة.

قفزت واقفة وقلت: «ستتأخر عن الدرس!»

قال وهو يقلب الغطاء بين أصابعه بسرعة شديدة: «لن أذهب إلى الصف اليوم».

«لماذا؟»

رفع رأسه مبتسماً، لكن عينيه ظلتا مضطربتين: «مفيد للصحة أن لا يذهب المرء إلى الصف من حين لآخر».

قلت: «حسناً! أنا ذاهبة»... كنت أكثر جبناً من أن أغامر.

عاد إلى التركيز على الغطاء الذي يقلبه بأصابعه وقال: «إذن، أراك لاحقاً».

وقفت مترددة... ممزقة... لكن الجرس الأول جعلني أسرع خارجة من الباب. ألقيت عليه نظرة سريعة فرأيت أنه لم يتحرك أبداً.

عندما سرت شبه راكضة إلى الصف كان رأسي يدور بأسرع من دوران غطاء الزجاجة بين أصابعه. قليلة جداً هي الأسئلة التي حصلت على إجاباتها إذا ما قورنت بالأسئلة الجديدة الكثيرة التي نشأت... لقد توقف المطر، على الأقل.

كان حظي طيباً... وصلت قبل أن يصل الأستاذ بانر إلى الصف. جلست بسرعة في مقعدي ولاحظت مايك وأنجيلا ينظران إلي. بدا مايك غاضباً، وبدت أنجيلا مدهوشة... بل منزعجة بعض الشيء.

دخل الأستاذ بانر طالباً الهدوء من الطلاب. كان يحمل علباً صغيرة

بين ذراعيه. وضع العلب على طاولة مايك وطلب منه توزيعها على الطلاب.

«الآن، أريد أن يأخذ كل منكم قطعة من كل صندوق»... قال هذا وهو يخرج من جيب قميصه المخبري الأبيض زوجاً من القفازات المطاطية. ارتدى القفازات وبدا لي صوت المطاط وهو يأخذ مكانه على يديه منذراً بالشؤم. قال الأستاذ: «هذه بطاقة كاشفة» وحمل بيده بطاقة بيضاء عليها أربعة مربعات ورفعها حتى نراها. «وهذا قضيب رباعي الشعب»، ورفع شيئاً بدا مثل ملقط شعر من غير أسنان. «... وهذا مشرط مجهري معقم»، ورفع قطعة صغيرة من البلاستيك الأزرق ثم فتحها. كان نصل المشرط غير مرئي من تلك المسافة، لكنني شعرت بتقلص في معدتي.

«سأدور عليكم حاملاً دورقاً من الماء من أجل تحضير بطاقاتكم. لذلك أرجو أن لا يبدأ أحد قبل وصولي إليه». بدأ من طاولة مايك فوضع بحذر نقطة من الماء على كل مربع من المربعات الأربع. «أريد من كل منكم أن يجرح إصبعه جرحاً صغيراً جداً باستخدام المشرط...» أمسك بيد مايك وغرس الحافة المدببة في قمة إصبعه الأوسط. آه، لا... انبجس سائل دبق أمام جبيني.

قال الأستاذ وهو يطبق ما يقول: «ضعوا قطرة صغيرة على كل شعبة من شعب القضيب» وأمسك بإصبع مايك ثم عصرها حتى خرجت نقطة دم. ابتلعت ريقي بصعوبة وأحسست بتخبط معدتي.

«ثم ضعوا نقطة الدم على البطاقة»، ورفع البطاقة حتى نرى الدم عليها. أغمضت عيني محاولة أن أسمع الأستاذ من خلال الطنين الذي أصم أذني.

«سوف يقوم الصليب الأحمر بجولة لتحديد زمر الدم في بورت آنجلس في عطلة نهاية الأسبوع القادمة»... بدا فخوراً بنفسه... «يجب

أن يحصل كل من لم يبلغ الثامنة عشر بعد على موافقة والديه... على مكتبي أوراق مطبوعة لتلك الغاية».

تابع السير في الغرفة موزعاً نقاط الماء. وضعت خدي على غطاء الطاولة الأسود البارد محاولة أن أعود إلى وعيي. كنت أسمع من حولي الزعقات والتذمرات والضحكات الصادرة عن زملائي وهم يثقبون أصابعهم. رحت أتنفس ببطء من فمي.

سألني الأستاذ بانر: «بيلا... هل أنت بخير؟» كان صوته قريباً جداً من رأسي وبدا حذراً متنبهاً.

قلت بصوت خافت: «أنا أعرف زمرة دمي يا أستاذ»... خفت أن أرفع رأسي.

«هل تشعرين بدوار؟»

تمتمت: «نعم يا أستاذ»... كنت ألوم نفسي لأنني لم أقرر عدم المجيء إلى الصف عندما سنحت لي الفرصة.

قال الأستاذ: «من فضلكم، هل يستطيع أحد منكم أن يأخذ بيلا إلى الممرضة؟»

لم أكن بحاجة لأن أرفع رأسي حتى أعرف أن مايك هو الذي تطوع لهذه المهمة.

سألني الأستاذ: «هل تستطيعين السير؟»

همست: «نعم!»... فقط أخرجوني من هنا... قلت في نفسي... سأخرج زحفاً إذا اقتضى الأمر.

بدا مايك متحمساً عندما أمسك بمعصمي ووضع ذراعي حول كتفيه. استندت إليه في طريقنا إلى خارج الصف.

سار بي مايك ببطء في الخارج... توقفت عندما صرنا عند زاوية الكافتيريا بعيداً عن الصف بحيث لا يرانا الأستاذ بانر إن كان يراقبنا.

رجوت مايك: «دعني أجلس دقيقة واحدة من فضلك».

ساعدني في الجلوس على حافة الممر.

حذرته قائلة: «دع يدك في جيبك»... مازلت أشعر بالدوخة. استلقيت على جانبي ووضعت خدي على إسمنت الممر البارد وأغمضت عيني. ساعدني هذا قليلاً.

قال مايك بعصبية: «أوه! اخضرّ لونك يا بيلا».

سمعت صوتاً مختلفاً من بعيد: «بيلا؟»

«لا! أرجو أن يكون هذا الصوت المألوف إلى حدّ الرعب مجرد خيال».

«ما المشكلة... هل أصيبت؟»... صار صوته أقرب الآن وبدا عليه القلق. لم يكن الأمر مجرد خيال. فتحت عيني رغماً عنهما متمنية أن أموت في تلك اللحظة، أو أن لا أتقيأ على أقل تقدير.

بدا التوتر على مايك: «أعتقد أنها فقدت الوعي. لا أعرف ما حدث... إنها لم تجرح إصبعها بعد».

«بيلا»... صار صوت إدوارد بجانبي تماماً الآن وبدا عليه الانفراج: «هل تستطيعين سماعي؟»

«لا!»... قلتها بصوت كالأنين: «اذهب عني».

ضحك إدوارد.

راح مايك يوضح له بنبرة دفاعية: «كنت أذهب بها إلى الممرضة. لكنها توقفت هنا ورفضت أن تتابع».

قال إدوارد: «سوف آخذها أنا». مازلت أستطيع أن أسمع تلك الابتسامة في صوته: «تستطيع أن تعود إلى الصف».

اعترض مايك قائلاً: «لا! يفترض أن آخذها أنا».

فجأة، اختفى الممر الذي تحتي ففتحت عيني بدهشة. كان إدوارد قد حملني بين ذراعيه بسهولة كما لو أن وزني كان خمسة كيلوغرامات لا خمسة وخمسين.

«أنزلني!»... أرجوك يا ربي لا تدعني أتقيأ عليه. لكنه بدأ السير قبل أن أنهي كلمتي.

صاح مايك الذي أصبح خلفنا بعشر خطوات الآن: «انتظر!»

تجاهله إدوارد وقال لي مبتسماً: «منظرك بائس».

قلت بصوت كالأنين: «أرجعني إلى الممر!». لم تكن تموجات حركة المشي تساعدني في شيء. كان يحملني بعيداً عن جسمه... كان يحملني بسهولة متلقياً وزني كله بذراعيه فقط... لم يبد عليه أي جهد.

سألني: «إذن!.. أغمي عليك بسبب منظر الدم؟»... بدا هذا مسلياً بالنسبة له.

لم أجبه بشيء. أغمضت عينيّ من جديد ورحت أقاوم الغثيان بكل قوة وأنا أطبق شفتيّ بشدة.

تابع إدوارد مستمتعاً بالحديث: «حتى أنه لم يكن دمك أنت».

لا أعرف كيف فتح الباب وهو يحملني لكنني شعرت بالدفء فجأة فعرفت أننا صرنا داخل الغرفة.

سمعت صوتاً أنثوياً يشهق: «أوه، ماذا بها؟»

قال إدوارد: «أغمي عليها في درس البيولوجيا».

فتحت عينيّ. كنت في غرفة المكتب، وكان إدوارد يسير باتجاه باب الممرضة. أسرعت الآنسة كوب ذات الشعر الأحمر، وهي موظفة الاستقبال في المكتب الأمامي، فسبقتني حتى تفتح الباب له. رفعت الممرضة التي لها مظهر الجدات رأسها عن الرواية التي بيدها ونظرت بدهشة عندما كان إدوارد يدخلني إلى الغرفة ثم يضعني برفق فوق الورق الذي يغطي السرير الوحيد المغلف بقماش بني. ثم ذهب فوقف بجانب الجدار الآخر من الغرفة أي على أبعد مسافة ممكنة مني. كانت عيناه تلمعان مستثارتين.

قال كمن يطمئن الممرضة الخائفة: «لقد أغمي عليها قليلاً فقط...

إنهم يجرون فحص الزمر الدموية في مخبر البيولوجيا».

هزت الممرضة رأسها بحكمة وقالت: «دائماً يصاب أحدهم بالإغماء».

كتم إدوارد ضحكته.

قالت الممرضة: «عليك الاستلقاء دقيقة واحدة فقط يا حبيبتي... سيزول الأمر سريعاً».

قلت: «أعرف هذا!»... كان غثياني يتلاشى منذ الآن.

سألتني: «هل يحدث هذا معك كثيراً».

اعترفت قائلة: «أحياناً»... سعل إدوارد حتى يخفي ضحكة أخرى.

قالت له: «تستطيع الذهاب إلى صفك الآن».

«علي أن أظل معها!»... قال ذلك بسلطة واثقة جعلت الممرضة تمتنع عن إضافة أي كلمة... لكنها زمت شفتيها.

قالت لي: «سأحضر لك بعض الثلج حتى تضعيه على جبينك يا عزيزتي». ثم خرجت مسرعة من الغرفة.

قلت له وأنا أغمض عيني: «لقد كنت محقاً».

«عادة ما أكون محقاً... لكن بم كنت محقاً هذه المرة؟»

قلت: «الهروب من الدرس شيء صحي». ثم رحت أحاول التنفس بانتظام.

«لقد أخفتني لحظةً هناك»... قالها كمن يعترف. كان صوته كصوت من يعترف بضعف معيب. «ظننت أن مايك نيوتن كان يجر جثتك حتى يدفنك في الغابة».

«ها ها!»... مازالت عيناي مغلقتين لكنني شعرت أنني أعود إلى الوضع الطبيعي مع كل دقيقة تمر.

«بصدق... رأيت جثثاً لونها أفضل من لونك في تلك اللحظة. وقلقت لأنني قد اضطر إلى الانتقام ممن قتلك».

«مسكين مايك... لابد أنه غاضب جداً».

قال إدوارد مبتهجاً: «لابد أنه يكرهني كثيراً الآن».

جادلته قائلة: «لا تستطيع أن تعرف ذلك»... لكنني تساءلت فجأة عما إذا كان يستطيع حقاً.

«رأيت وجهه... كان ذلك واضحاً عليه».

«كيف رأيتني؟ ظننت أنك تختبئ من الدرس». صار وضعي جيداً الآن... لابد أن الدوار كان سيفارقني بسرعة أكبر لو أنني أكلت شيئاً عند الغداء. لكن، لعل من حسن حظي أن معدتي كانت فارغة.

«كنت في السيارة أستمع إلى الموسيقى»... إجابة عادية جداً... فاجأتني.

سمعت صوت الباب ففتحت عينيّ ورأيت الممرضة تحمل كيساً بارداً في يدها.

«خذي يا عزيزتي!»... وضعت الكيس على جبهتي وقالت: «يبدو عليك التحسن».

قلت: «أظن أنني بخير الآن». انتصبت جالسة. لم أشعر بالدوار... فقط بعض الطنين في أذني. ظلت الجدران الخضراء بلون النعناع ثابتة في مكانها.

رأيت أنها توشك أن تجعلني أستلقي من جديد، لكن الباب فتح في تلك اللحظة ومدت الآنسة كوب رأسها منه: «لدينا واحد آخر!»

قفزت إلى الأرض حتى أخلي السرير من أجل المريض الجديد.

ناولت الممرضة الكيس: «خذي، لم أعد بحاجة إليه».

ظهر مايك في الباب. كان يسند الآن لي ستيفنز الشاحب، وهو

صبي آخر معنا في صف البيولوجيا. تراجعنا أنا وإدوارد حتى الجدار لنفسح لهم طريقاً.

تمتم إدوارد: «لا يا بيلا! اذهبي إلى غرفة المكتب».

نظرت إليه باستغراب فقال: «ثقي بي.. اذهبي».

استدرت وأمسكت بالباب قبل أن يغلق وخرجت من غرفة الممرضة. أحسست بإدوارد خلفي تماماً.

قال مدهوشاً: «لقد استمعت إلي فعلاً هذه المرة!»

قلت وأنا أجعد أنفي قرفاً: «شممت رائحة الدم». لم يكن لي مغمى عليه بسبب مشاهدته الأشخاص الآخرين كما حدث معي.

قال إدوارد معترضاً: «لا يستطيع الناس شم رائحة الدم».

«أنا أستطيع... هذا سبب إغمائي. إن رائحته مثل الصدأ... والملح».

كان ينظر إلي نظرة لم أستطع سبر غورها فسألته: «ماذا؟»

«لا شيء!»

في تلك اللحظة خرج مايك من الباب وهو ينقل نظراته بيني وبين إدوارد. كانت نظرته إلى إدوارد تؤكد ما قاله عنه منذ قليل. نظر مايك إليّ بعينين كئيبتين.

قال بنبرة اتهام: «يبدو وضعك أفضل».

قلت له محذرة: «دع يدك في جيبك ولا تخرجها».

قال مايك: «لم تعد يدي تنزف. هل تعودين إلى الدرس؟»

«هل تمزح؟ إذا ذهبت إلى الدرس فسأعود إلى هنا فوراً».

«نعم، أظن ذلك... هل ستذهبين في عطلة نهاية الأسبوع؟ إلى الشاطئ!»

فيما كان يتكلم ألقى نظرة غاضبة أخرى صوب إدوارد الذي كان

يقف قرب الطاولة من غير حراك كأنه تمثال... كان ينظر بعيداً... في الفراغ.

حاولت أن أقول بصوت ودي إلى أقصى حد: «طبعاً، قلت إنني سأذهب».

«نلتقي جميعاً الساعة العاشرة في متجر والدي». قفزت عيناه نحو إدوارد من جديد وكأنه يتساءل عما إذا كان أفصح عن معلومات أكثر من اللازم. كان واضحاً من لغة جسده أن الدعوة ليست مفتوحة للجميع.

وعدته: «أراك هناك».

قال وهو يتحرك صوب الباب غير واثقٍ بعد: «إذن، أراك في قاعة الرياضة».

أجبته: «طبعاً!»

نظر إلي من جديد بوجه مقطب قليلاً ثم خرج من الباب ببطء وقد تهدل كتفاه. غمرني شعور التعاطف والشفقة. وتخيلت رؤية وجهه خائب الأمل مجدداً... في قاعة الرياضة.

قلت بصوت كالأنين: «قاعة الرياضة!»

لم ألاحظ إدوارد عندما تحرك نحوي. لكنه تكلم الآن في أذني: «أستطيع الاهتمام بذلك. اذهبي واجلسي... ما عليك إلا أن تظهري بعض الشحوب».

لم يكن هذا صعباً... أنا شاحبة دائماً. وقد تركت إغماءتي بعض العرق على وجهي. جلست على إحدى الكراسي القابلة للطي وأسندت رأسي إلى الجدار مغلقة عيني. الإغماء يرهقني دائماً.

سمعت إدوارد يتحدث بصوت خافت عند الطاولة.

«آنسة كوب!»

«نعم؟»... لم أكن قد سمعتها عائدة إلى طاولتها.

«لدى بيلا درس رياضة الآن. لا أعتقد أنها ارتاحت بالقدر الكافي. الحقيقة أعتقد أن علي أن أذهب بها إلى منزلها الآن. هل تعتقدين أن بوسعك إعفاءها من درس الرياضة؟»

كان صوته عذباً كالعسل. أستطيع أن أتخيل كم كانت عيناه عذبتين في تلك اللحظة أيضاً.

قالت الآنسة كوب بارتباك: «وهل تريد أن أعفيك أنت أيضاً يا إدوارد؟»... لماذا لا أستطيع أن أفعل هذا؟

«لا!... لدي الآن درس لدى السيدة غوف... لن تمانع أبداً».

«طيب! كل شيء على ما يرام إذن. هل تشعرين أنك صرت أفضل يا بيلا؟» أومأت بضعف ثم رفعت رأسي قليلاً.

«هل تستطيعين المشي أم أحملك ثانية؟»... كان ظهره إلى الموظفة... ورأيت تعبير تهكم ساخر على وجهه.

«سأمشي!»

وقفت بحذر فوجدت أنني مازلت بخير. فتح الباب أمامي بابتسامة مهذبة لكن السخرية كانت واضحة في عينيه. خرجت إلى البرد... كان مطر خفيف قد بدأ يهطل. جو لطيف!... هذه أول مرة أستمتع بذلك البلل المستمر الهاطل من السماء... كان المطر يغسل ذلك العرق اللزج عن وجهي.

قلت لإدوارد وهو يسير خلفي في طريقنا إلى الخارج: «شكراً... لا بأس في أن يغمى علي حتى أتخلص من درس الرياضة».

«على الرحب والسعة»... كان ينظر أمامه مباشرة... كان يحدق في المطر.

«هل تذهب إذن؟ أقصد يوم السبت!» كنت آمل أن يذهب رغم أن الأمر بدا مستبعداً تماماً. لم أستطع تخيله ذاهباً في تلك الرحلة مع بقية أولاد المدرسة. إنه لا ينتمي إلى ذلك العالم نفسه. لكنني آمل فقط أن

يعطيني ما يدعم تلك اللمسة الأولى من الحماسة التي أحسست بها تجاه الرحلة.

ظل ينظر أمامه من غير تعبير على وجهه: «إلى أين أنتم ذاهبون بالضبط؟»

«سنذهب إلى لابوش... إلى الشاطئ الأول». تمعنت في وجهه محاولة قراءته. بدت عيناه متقلصتين إلى أبعد حد.

ألقى علي نظرة سريعة من زاوية عينه مبتسماً ابتسامة ظريفة ساخرة: «الحقيقة، لا أظن أنني مدعو».

قلت: «لقد دعوتك الآن!»

«دعينا، أنا وأنت، لا نضغط أكثر من هذا على مايك المسكين هذا الأسبوع. لا أريده أن يغضب». كانت عيناه ترقصان... كان مستمتعاً بتلك الفكرة أكثر مما ينبغي.

«مايك المسكين!»... تمتمت وأنا منشغلة البال بطريقة قوله «أنت وأنا». أحببت ذلك أكثر مما ينبغي.

صرنا الآن قرب موقف السيارات. انعطفت يساراً نحو سيارتي لكن شيئاً أمسك بسترتي وسحبني إلى الخلف.

«أين تظنين نفسك ذاهبة؟»... سألني بغضب شديد. كان يمسك بسترتي ملء يده.

شعرت بالانزعاج: «ذاهبة إلى المنزل!»

«ألم تسمعيني أعد بالآنسة كوب أن آخذك إلى البيت بأمان؟ هل تظنين أنني سأتركك تقودين السيارة وأنت في هذه الحالة؟»... كان صوته ما يزال غاضباً.

قلت متذمرة: «ما بها حالتي؟ وماذا عن سيارتي؟»

«سأطلب من أليس أن توصلها بعد المدرسة!» كان الآن يجرني من

سترتي نحو سيارته. وكان تفادي السقوط هو كل ما استطعت فعله. أظنه سيستمر في جرّي... حتى إذا سقطت.

قلت له بإصرار: «اتركني!»... تجاهلني... رحت أتعثر على طول الممر الرطب حتى وصلنا إلى سيارة الفولفو. هناك أفلتني أخيراً... تعثرت واستندت إلى باب السيارة الأيمن.

دمدمت متذمرة: «أنت ملحاح كثيراً!»

«الباب مفتوح!»... لم يجبني إلا بهذه الكلمات ثم فتح بابه وجلس في مقعده.

«أنا قادرة تماماً على قيادة السيارة إلى المنزل بنفسي!»... وقفت بجانب السيارة وأنا أغلي من الغضب. اشتد المطر الآن ولم أكن أضع قبعتي... كان الماء يقطر من شعري ويدخل في ظهري.

فتح النافذة ومال نحوي من داخل السيارة: «ادخلي السيارة يا بيلا».

لم أجبه. كنت أحسب في عقلي مدى فرصتي في الوصول إلى سيارتي قبل أن يستطيع الإمساك بي. كان علي الاعتراف بأن الفرصة ضعيفة جداً.

هددني وقد حزر ما أخطط له: «سأجرّك من جديد!»

حاولت المحافظة على ما يمكن من كرامتي وأنا أدخل السيارة. لم أنجح كثيراً. كنت أبدو مثل قطة غريقة... وكان حذائي مشبعاً بالماء.

قلت بجفاف: «هذا غير ضروري إطلاقاً».

لم يجبني. عبثت أصابعه بأزرار السيارة فزاد التدفئة وخفض صوت الموسيقى. وعندما أقلعت السيارة خارجة من الموقف كنت أتأهب لمعاقبته بصمتي... اتخذ وجهي كل الجمود المطلوب... لكنني انتبهت إلى عزف الموسيقى فغلب فضولي تصميمي وسألته بدهشة: «أهذه كلير دو لون؟»

«هل تعرفين دوبوسي؟»... أوحى صوته بالدهشة أيضاً.

اعترفت قائلة: «ليس كثيراً... أمي تستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية كثيراً... أما أنا فأحب بعض مقطوعاتي المفضلة فقط».

«هذه من المقطوعات المفضلة عندي أيضاً»... وراح يحدق بعيداً في المطر مستغرقاً في أفكاره.

أصغيت إلى الموسيقى مسترخية على المقعد الجلدي الرمادي الفاتح. كان من المستحيل علي ألا أستجيب إلى تلك الألحان المألوفة المهدئة. حوَّلِ المطر شكل كل ما هو خارج النافذة إلى مجرد لطخات رمادية وخضراء. بدأت أدرك أن السيارة تسير بسرعة كبيرة... لكنها كانت مستقرة جداً إلى درجة جعلتني لا أحس بالسرعة. كان منظر البلدة حين يبدو ويختفي خلف الأشجار هو ما يدل على السرعة.

سألني فجأة: «كيف هو شكل والدتك؟»

التفت إليه فرأيته يدرسني بعينين فضوليتين.

قلت: «هي تشبهني كثيراً، لكنها أجمل مني!»... رفع حاجبيه مستغرباً... «إن لدي الكثير من تشارلي. أما هي فإنها أكثر انطلاقاً مني، وأكثر شجاعة. إنها غير مسؤولة... وغريبة الأطوار قليلاً... ولها طبخات لا يمكنك توقعها. إنها صديقتي الأولى!»... كففت عن الكلام... الحديث عنها يجعلني أشعر بالاكتئاب.

«ما عمرك يا بيلا؟»... بدا في صوته انزعاج لم أستطع تخمين سببه. كان قد أوقف السيارة، فأدركت أننا صرنا عند بيت تشارلي. كان المطر غزيراً جداً إلى درجة كادت تمنعني من رؤية المنزل نفسه. كان الوضع كما لو أن السيارة غارقة في نهر.

أجبته ببعض الحيرة: «أنا في السابعة عشرة».

«لا يبدو هذا عليك».

حملت نبرة صوته ما يشبه التأنيب. جعلني هذا أضحك.

سألني بصوت فضولي من جديد: «ماذا؟»

«تقول أمي دائماً إنني ولدت ولي من العمر خمسة وثلاثون عاماً، وإنني أتقدم في السن كل عام». ضحكت ثم تنهدت «فعلاً، لابد لأحد منا أن يكون هو الكبير». صمتّ ثانية واحدة «أنت أيضاً لا تبدو بعمر طالب في المدرسة الثانوية».

قذفني بتكشيرة ثم غير الموضوع: «ولماذا تزوجت أمك فيل؟»

فوجئت بتذكره ذلك الاسم. لم أذكره أمامه إلا مرة واحدة قبل شهرين.

أجبته بعد لحظة: «أمي... إنها صغيرة جداً قياساً بعمرها. وأظن أن فيل يجعلها تشعر أن سنها أصغر. إنها مجنونة بحبه على أي حال!»... هززت رأسي. كان انجذابها إلى فيل سراً مستغلقاً بالنسبة لي.

سألني: «هل أنت راضية عن ذلك؟»

فأجبته: «وهل لهذا أهمية؟ أريد أن تكون سعيدة... وهو الرجل الذي تريده».

قال: «هذا كرم كبير... لكنني أتساءل...»

«ماذا؟»

«هل تعاملك بالكرم نفسه حسب رأيك؟ مهما يكن خيارك؟»... بدا عليه الاهتمام الشديد وراحت عيناه تبحثان في عيني.

قلت متلعثمة: «أنا... أنا أظن ذلك... لكنها الأم بعد كل حساب... الأمر مختلف قليلاً».

قال كمن يضايقني: «إذن، لا يوجد من يخاف عليك أكثر من اللازم».

أجبته بابتسامة عريضة: «ما الذي تعنيه بالخوف؟ هل تقصد الخوف

من أن أثقب وجهي في أماكن كثيرة لأضع أقراطاً وأن أضع وشماً كبيراً؟»

«أظن أن هذا واحد من التعريفات الممكنة».

«وما هو تعريفك أنت؟»

لكنه تجاهل سؤالي وطرح علي سؤالاً آخر: «هل تظنين أنني يمكن أن أكون مخيفاً؟»... رفع حاجبه وأضاءت وجهه ابتسامة خفيفة.

فكرت برهة إن كان من الأفضل أن أكذب أو أن أقول الحقيقة. اخترت الحقيقة: «همم... أعتقد أنك يمكن أن تكون مخيفاً إن أردت!»

تلاشت ابتسامته وهو يقول: «وهل أنت خائفة مني الآن؟»... صار وجهه جاداً بشكل مفاجئ.

«لا!»... لكن إجابتي كانت متسرعة... عادت ابتسامته.

«والآن، هل ستخبرني عن أسرتك؟»... سألته هذا حتى أغير الموضوع، وقلت: «لابد أنها قصة أكثر إثارة للاهتمام من قصتي».

بدا عليه الحذر على الفور: «ما الذي تودين معرفته؟»

قلت: «لقد تبناك آل كولن... صحيح؟»

«نعم!»

ترددت لحظة: «ما الذي حدث لوالديك؟»

قال بنبرة محايدة: «ماتا منذ سنين كثيرة».

غمغمت قائلة: «أنا آسفة».

«الحقيقة أنني لا أتذكرهما بشكل واضح. كارلايل وإيزمي هما والديّ منذ زمن طويل».

«وهل تحبهما؟»... لم يكن هذا سؤالاً... كان حبه واضحاً من طريقة حديثه عنهما.

ابتسم وقال: «نعم... لا أستطيع تخيل شخصين أفضل منهما».

«أنت محظوظ جداً».

«أعرف أنني محظوظ».

«وماذا عن أخيك وأختك؟»

ألقى نظرة إلى ساعة السيارة وقال: «أخي وأختي وجاسبر وروزالي سينزعجون إذا جعلتهم ينتظرونني تحت المطر».

«آه، آسفة... أظن أن عليك أن تمضي!»... لم أكن أرغب في الخروج من السيارة.

قال مبتسماً: «الأرجح أنك تريدين أن تعود سيارتك إلى المنزل قبل أن يعود والدك حتى لا تضطرين إلى إخباره بما حدث في درس البيولوجيا».

تنهدت وقلت: «أنا متأكدة من أنه سمع بما جرى. لا أسرار في فوركس!»

ضحك... لكن ضحكته كانت حادة بعض الشيء.

ألقى نظرة على المطر الذي كان يهطل مثل ستارة سميكة: «استمتعي على الشاطئ... إن الجو مناسب من أجل حمام شمسي».

«ألن أراك غداً؟»

«لا! إيميت وأنا نعتزم بدء عطلة نهاية الأسبوع باكراً هذه المرة».

«ماذا ستفعلون؟»... يمكن للصديق أن يطرح هذا السؤال... صحيح؟ رجوت أن لا تكون الخيبة شديدة الوضوح في صوتي.

«سنذهب في رحلة بالسيارة إلى براري صخور الماعز جنوب رينير مباشرة»... تذكرت قول تشارلي إن آل كولن يذهبون كثيراً في رحلات تخييم فقلت: «جيد، آمل أن تستمتعوا»... حاولت إظهار بعض الحماسة. لكنني لا أعتقد أنه انخدع بذلك. كانت ابتسامة تطل برأسها عند زاويتي فمه.

«هل تقومين بشيء من أجلي في عطلة نهاية الأسبوع هذه؟»... استدار ونظر إلى وجهي نظرة مباشرة مستخدماً كل ما في عينيه الذهبيتين من نار.

أومأت برأسي مستسلمة.

«لا تشعري بالإهانة... لكنني أراك من هؤلاء الأشخاص الذين يجذبون الحوادث إليهم كما يفعل المغناطيس. لذلك... حاولي ألا تسقطي في المحيط وألا تدهسك سيارة... أو أي شيء... موافقة؟»... قال هذا وهو يبتسم ابتسامة خبيثة.

تلاشى استسلامي أثناء حديثه فحدقت فيه وقلت بحدة: «سأرى ما أستطيع فعله!»... ثم قفزت إلى المطر. صفقت الباب خلفي بقوة زائدة.

كانت الابتسامة ما تزال على وجهه عندما قاد سيارته مبتعداً.

6

قصص مخيفة

عندما جلست في غرفتي محاولة التركيز على الفصل الثالث من مسرحية ماكبث، سمعت صوت سيارتي. لعلي ظننت، رغم صوت المطر الغزير، أنني سمعت صوت المحرك. لكني نظرت من النافذة فرأيتها واقفة هناك.

لم أكن أترقب يوم الجمعة... بل كنت غير راغبة في قدومه. كانت تنتظرني طبعاً تعليقات كثيرة عن حادثة إغمائي. ولعل جيسيكا خاصة سُرَّت بهذه القصة. لحسن الحظ لم يقل مايك شيئاً ولم يبد لي أن أحداً عرف شيئاً عن تدخل إدوارد. لابد أن لدى جيسيكا أسئلة كثيرة عن جلوسي مع إدوارد في الكافتيريا.

سألتني: «ما الذي أراده إدوارد كولن أمس؟»

أجبت بصدق: «لا أعرف!... لم يتكلم بوضوح».

قالت محاولة اصطيادي: «بدا عليك غضب شديد!»

حاولت أن لا يظهر أي تعبير على وجهي: «حقاً!»

«هل تعرفين أنني لم أشاهده أبداً من قبل جالساً مع أي شخص... عدا أفراد أسرته... كان ذلك غريباً».

وافقتها: «إنه شيء غريب!»... بدا عليها الانزعاج وراحت تعبث بشعرها الداكن نافذة الصبر... عرفت أنها كانت تأمل في سماع شيء يمكن أن تصنع منه قصة جيدة ترويها للآخرين.

كان أسوأ شيء فيما يخص يوم الجمعة هو أنني مازلت آمل قدومه رغم معرفتي أنه لن يأتي. وعندما دخلت إلى الكافتيريا مع جيسيكا ومايك لم أستطع منع نفسي من النظر إلى طاولته فرأيت روزالي وأليس وجاسبر جالسين متقاربي الرؤوس... كانوا يتحدثون. لم أستطع دفع الكآبة التي أغرقتني عندما أيقنت أنني لا أعرف كم من الوقت سأنتظر قبل أن أراه من جديد.

على طاولتي المعتادة كان الجميع منشغلين بوضع خطط اليوم التالي. دبت الحيوية في مايك من جديد... كان مفرط الثقة في رجل الأرصاد الجوية في البلدة الذي وعده بنهار مشمس غداً. أما أنا فكان علي أن أرى ذلك قبل أن أصدقه. لكن الجو أكثر دفئاً اليوم... قد لا تكون الرحلة بائسة تماماً.

تلقيت عدة نظرات غير ودية من لورين أثناء فترة الغداء. لم أفهم تلك النظرات إلى أن خرجنا من الغرفة معاً. كنت أسير خلفها تماماً لا تفصلني إلا مسافة قدم واحدة عن شعرها الحريري الفضي... من الواضح أنها لم تنتبه لوجودي.

سمعتها تقول لمايك: «... لا أعرف لماذا لا تجلس بيلا مع أولاد كولن من الآن فصاعداً»... نطقت اسمي بنبرة حادة... لم أنتبه من قبل إلى بشاعة صوتها الأنفي المزعج... فوجئت بما فيه من خبث. الحقيقة أنني لم أكن أعرفها جيداً... لم أكن أعرفها إلى حد يجعلها تكرهني... أو لعل هذا ما أظنه فقط!

أجابها مايك: «إنها صديقتي، وهي تجلس معنا». كان صوته يشي بالوفاء... لكنه كان محتاطاً بعض الشيء. تمهلت حتى أسمح لجيسيكا وأنجيلا بتجاوزي. لم أكن راغبة في سماع المزيد.

في الليل بدا تشارلي وقت العشاء متحمساً لرحلتي إلى لابوش في الصباح. أظن أنه كان يشعر بالذنب لأنه يتركني في البيت وحيدة أيام

العطلات الأسبوعية. لكنه أنفق سنوات كثيرة في تكوين عاداته ولم يكن سهلاً عليه تغييرها الآن. من الطبيعي أنه كان يعرف أسماء جميع الأولاد الذاهبين إلى الرحلة، وأسماء آبائهم وأمهاتهم؛ بل لعله كان يعرف أسماء أجدادهم أيضاً. بدا محبذاً لتلك الرحلة. تساءلت عما إذا كان سيوافق على ذهابي إلى سياتل مع إدوارد كولن. لم أكن لأخبره بذلك.

سألته عرضاً: «أبي! هل تعرف مكاناً اسمه صخور الماعز أو شيء من هذا القبيل؟ أظن أنه جنوب جبل رينير».

«نعم... لماذا؟»

ابتسمت: «كان بعض الأولاد يتحدثون عن التخييم هناك».

بدت عليه الدهشة: «ليس مكاناً جيداً للتخييم!... فيه كثير من الدببة... أكثر الناس يذهبون إليه في موسم الصيد».

تمتمت قائلة: «أوه! لعلني لم أسمع اسم المكان بشكل صحيح».

كنت أريد الاستمرار في النوم، لكن وهجاً غير مألوف أيقظني. فتحت عيني فرأيت شعاعاً من ضوء أصفر نقي يخترق نافذتي. لم أصدق ذلك... لم أصدق ذلك! هرعت إلى النافذة لأنظر فرأيت الشمس. كانت في غير موضعها الصحيح من السماء... كانت منخفضة جداً... وبدت أبعد من المعتاد... لكنها كانت شمساً حقيقية. كانت الغيوم تحتشد في الأفق... لكن رقعة كبيرة من الزرقة كانت واضحة في الوسط. تمهلت عند النافذة قدر ما استطعت... خفت أن تختفي تلك الزرقة إذا تركت النافذة.

كان متجر نيوتن للتجهيزات الرياضية عند طرف البلدة من جهة الشمال. رأيته من قبل، لكنني لم أتوقف عنده أبداً... فمنذ زمن طويل جداً لم أكن بحاجة إلى أي مواد مما يلزم للرحلات. ميزت سيارتي مايك وتايلر عند موقف السيارات. وعندما أوقفت سيارتي بجانبهما رأيت مجموعة تقف عند مقدمة سيارة مايك. كان إريك هناك مع صبيين

آخرين. كنت متأكدة من أنهما بين وكونر. كانت جيسيكا هناك أيضاً تحيط بها أنجيلا ولورين. وكانت معهن ثلاث فتيات من بينهن واحدة أتذكر أنها وقعت في درس الرياضة يوم الجمعة. قذفتني تلك الفتاة بنظرة قذرة عندما نزلت من سيارتي وهمست شيئاً في أذن لورين. هزت لورين شعرها الحريري الذي له لون الذرة ثم نظرت إلي باحتقار.

سيكون واحداً من تلك الأيام التعيسة إذن.

على الأقل، كان مايك سعيداً برؤيتي... صاح بفرح: «لقد جئت! قلت لك إنه سيكون يوم مشمساً، أليس كذلك؟»

ذكرته قائلة: «قلت لك إنني قادمة!»

أضاف مايك: «نحن ننتظر الآن لي وسامانثا... إلا إذا كنت قد دعوت أحداً».

«لا، أبداً!»... إنها كذبة صغيرة قلتها وأنا آمل أن لا يكشفها أحد منهم. لكنني تمنيت أيضاً أن تقع المعجزة ويظهر إدوارد... بدا الرضى على وجه مايك فقال: «هل تركبين سيارتي؟... إما سيارتي أو سيارة والدة لي».

«طبعاً»... ابتسم مايك سعيداً... ما أسهل أن يكون سعيداً!

وعدني قائلاً: «يمكنك الجلوس عند النافذة في المقعد الأمامي»... أخفيت غمي. لم يكن من السهل أن أجعل مايك وجيسيكا سعيدين في وقت واحد. كنت أرى جيسيكا تنظر إلينا عابسة الآن.

رغم ذلك، عمل العدد في صالحي. لقد أحضر لي شخصين إضافيين فصارت كل الأمكنة في السيارات ضرورية. أفلحت في وضع جيسيكا بيني وبين مايك في المقعد الأمامي. بدت جيسيكا راضية، لكن مايك بدا غير مسرور كثيراً بذلك.

كانت المسافة بين فوركس ولابوش 15 ميلاً فقط. وكان القسم الأكبر من الطريق مظللاً بغابات خضراء كثيفة رائعة. كان نهر كيلايوت

العريض يمر تحت الطريق مرتين. سررت لجلوسي عند النافذة. أنزلنا النوافذ لأن السيارة كانت مزدحمة بتسعة أشخاص... حاولت امتصاص أكبر قدر ممكن من الشمس.

سبق لي الذهاب إلى شواطئ لابوش عدة مرات أثناء العطلات الصيفية التي أمضيتها مع تشارلي... لذلك كان منظر الشاطئ الأول مألوفاً عندي... كان على شكل هلال طوله أكثر من كيلومتر. كان لون الماء رمادياً داكناً... وكان الشاطئ صخرياً. رأيت عدة جزر بارزة من مياه الميناء ذات اللون الفولاذي. وكانت تحفّ بتلك المياه جروف شديدة الانحدار صاعدة نحو قمم غير متساوية. وكانت تتوج تلك القمم أشجار تنوب قاسية المظهر شاهقة العلو. كان عند الشاطئ شريط ضيق من الرمل عند حافة الماء وبعده كانت الأرض تتحول إلى ملايين الحجارة الضخمة الناعمة... كان لون الحجارة رمادياً موحداً من بعيد، أما من مسافة قريبة فهي تجمع كل ألوان الحجارة الممكنة: الأخضر البحري، والقرميدي، والأزرق الرمادي، ولون الخزامى، واللون الذهبي الباهت. كان خط المد مرسوماً بجذوع أشجار ضخمة جرفتها مياه البحر وجعلها الملح بيضاء مثل العظام. كان بعضها مكوماً عند حافة الغابة... وكان بعضها مستلقياً في عزلة بعيداً عن متناول الأمواج.

أتت ريح خفيفة من جهة الأمواج... كانت باردة لطيفة... ومالحة. كانت طيور البجع تعوم فوق الأمواج التي تطير فوقها النوارس ونسر وحيد. مازالت الغيوم تحف بالسماء مهددة بالهجوم في أي لحظة... لكن الشمس كانت الآن تتألق بشجاعة عبر تلك الرقعة الكبيرة من السماء الزرقاء.

اخترنا طريق النزول نحو الشاطئ. كان مايك في المقدمة يقودنا نحو حلقة من الجذوع الخشبية. وكان من الواضح أن تلك الجذوع استخدمت من قبل في حفلات مثل حفلتنا. راح إريك والصبي الذي

أظن أن اسمه بين يجمعان الأغصان المتكسرة والأخشاب التي جرفها البحر من أكوام جافة عند حافة الغابة. وسرعان ما صار لديهما كومة حطب مخروطية الشكل أقاماها فوق موضع نيران قديم.

سألني مايك: «هل رأيت من قبل نار الأخشاب التي جرفها البحر؟»... كنت أجلس على أحد المقاعد التي ابيضت فصارت بلون العظام... وكانت بقية البنات متجمعات إلى يميني ويساري... وكنّ يتهامسن بحماس. ركع مايك قرب كومة الحطب وأشعل واحداً من العيدان الصغيرة باستخدام قداحة.

وعندما وضع العود المشتعل تحت الكومة بحذر قلت له: «لا! لم أشاهدها من قبل».

«سوف تحبينها إذن... انتبهي إلى الألوان»... أشعل عوداً صغيراً آخر وضعه بجانب الأول. بدأت ألسنة اللهب تتصاعد من الخشب الجاف.

قلت بدهشة: «إنها زرقاء».

«هذا بسبب الملح... جميلة، أليست جميلة؟»... أشعل عوداً ثالثاً فوضعه في زاوية لم تصل النار إليها بعد ثم جاء فجلس جانبي. لحسن حظي، كانت جيسيكا جالسة إلى الناحية الأخرى منه. استدارت إليه محاولة الاستحواذ على اهتمامه. ورحت أراقب ألسنة اللهب الغريبة... ألسنة زرقاء وخضراء تفرقع صاعدة نحو السماء.

بعد نصف ساعة من الثرثرة، أراد بعض الأولاد الذهاب إلى البرك القريبة التي خلّفها المد. كانت تلك مشكلة. فمن ناحية، أنا أحب تلك البرك... إنها تسحرني منذ أن كنت طفلة. وهي من بين الأشياء القليلة التي كنت آمل رؤيتها عند عودتي فوركس. أما من ناحية أخرى، فقد وقعت في تلك البرك مرات كثيرة في الماضي. الوقوع ليس مشكلة عندما يكون معك سبعة أشخاص من بينهم والدك. تذكرت ما قاله إدوارد... لم يكن يقصد الوقوع في المحيط!

كانت لورين هي من اتخذ القرار بدلاً مني. لم تكن تريد الذهاب... ولم يكن حذاؤها يصلح لذلك. قررت معظم الفتيات، ومنهن جيسيكا وأنجيلا، البقاء عند الشاطئ أيضاً. انتظرت حتى قال تايلر وإريك إنهما سيبقيان مع البنات، ثم نهضت بسرعة لأنضم إلى المجموعة التي تريد الذهاب. منحني مايك ابتسامة عريضة عندما رآني قادمة.

لم تكن نزهتنا إلى البرك طويلة جداً لكنني كرهت فقدان رؤية السماء أثناء السير في الغابة. كان الضياء الأخضر في الغابة متناثراً على نحو غريب مختلطاً مع ضحكات المراهقين... كان الجو في الغابة مظلماً موحشاً يثير الانقباض إلى حد جعله غير متناسب مع الصخب الجذل من حولي. كنت أراقب خطواتي بحذر شديد وأتفادى الجذور عند قدمي والأغصان عند رأسي... سرعان ما صرت أسير خلف الجميع. خرجنا أخيراً من غياهب الغابة الزمردية ورأينا الشاطئ الصخري من جديد... كان وقت الجَزْر... وكان جدول من مياه المد يجري بالقرب منا عائداً إلى البحر. وعلى حافتي هذا الجدول كانت تتناثر برك ضحلة لا تعرف الجفاف أبداً... كانت تمور بالحياة.

كنت أحاذر الانحناء كثيراً فوق هذه البرك. أما الآخرون فما كانوا يعرفون الخوف. كانوا يتقافزون فوق الصخور وينحنون بتهور فوق الحواف. عثرت على مكان مستقر من أجل الجلوس والمراقبة... صخرة على حافة واحدة من أكبر البرك... جلست على الصخرة بحذر مسحورة بحوض الكائنات المائية الذي تحتي. كانت باقات من شقائق البحر الزاهية تتماوج من غير انقطاع في التيار غير المرئي. وكانت أصداف كثيرة غريبة الشكل تتناثر على الحواف وتخفي السرطانات البحرية المختبئة بينها. وكانت نجوم البحر ملتصقة من غير حراك على الصخور، أو على بعضها. في حين كانت سمكة أنقليس سوداء صغيرة

لها خطان أبيضان تتحرك بين الأعشاب البحرية الخضراء اللامعة تنتظر عودة البحر إليها. كنت مأخوذة بالمشهد تماماً إلا جزءاً صغيراً من عقلي كان يتساءل عما يفعله إدوارد الآن ويحاول تخيل ما يقوله لو كان الآن معي في هذا المكان.

جاع الأولاد أخيراً فنهضت متيبسة حتى ألحق بهم. حاولت السير في الغابة بشكل أفضل وعدم التخلف عنهم هذه المرة... طبيعي أنني وقعت عدة مرات. أصابت راحتيَّ خدوش صغيرة وتبقعت ركبتا الجينز باللون الأخضر... كان يمكن أن يحدث أسوأ من ذلك.

عندما عدنا إلى الشاطئ الأول كان عدد من تركناهم خلفنا قد ازداد. وعندما اقتربنا صار بإمكاننا تمييز القادمين الجدد من شعرهم الأسود وجلودهم النحاسية... إنهم مراهقون من محمية الهنود جاؤوا من أجل قضاء بعض الوقت معنا.

كان توزيع الطعام قد بدأ فأسرع الأولاد لينالوا حصصهم في حين راح إريك يعرّف القادمين الجدد على كل واحد منا لحظة دخوله دائرة الجذوع التي جرفها البحر. كنت وأنجيلا آخر الواصلين. وعندما نطق إريك أسماءنا لاحظت صبياً أصغر سناً جالساً على الحجارة قرب النار يلتفت إليّ باهتمام. جلست قرب أنجيلا وأحضر مايك لنا بعض الشطائر ومجموعة من علب المشروبات الغازية حتى نختار منها ما نريد، في حين راح الولد الذي كان يبدو الأكبر بين الضيوف يذكر أسماء السبعة الذين معه. لم ألتقط شيئاً مما قاله إلا أن واحدة منهم كانت تدعى جيسيكا أيضاً. أما الصبي الذي التفت إلي عند دخولي فكان اسمه جايكوب.

كان الجلوس بجانب أنجيلا مريحاً فهي شخص هادئ يسهل الوجود بالقرب منه... لم تكن تشعر بحاجة إلى ملء كل لحظة صمت بالثرثرة. تركت لي حرية التفكير من غير مقاطعة بينما كنا نتناول طعامنا. كنت أفكر في مدى تباين مرور الوقت في فوركس... يمر مثل الضباب

أحياناً... وتبرز صور منفردة تكون أكثر وضوحاً من غيرها. ثم، في أوقات أخرى، تكون كل ثانية مهمة تحفر نفسها حفراً في عقلي. كنت أعرف سبب هذا التباين معرفة تامة... وهذا ما أفزعني.

راحت الغيوم تتقدم وتتزايد أثناء الغداء... راحت تتسلق السماء الزرقاء وتحجب الشمس لحظات قصيرة فتلقي ظلالاً متطاولة على الشاطئ وتجعل لون الأمواج داكناً. وعندما أنهينا طعامنا بدأ الناس يتفرقون هنا وهناك مثنى وثلاثاً. سار بعضهم حتى حافة الأمواج محاولين تجنب الصخور على تلك الأرض الخشنة. وكان البعض يحاولون تكوين مجموعة ثانية للذهاب إلى برك المد. أما مايك فتوجه... وجيسيكا معه مثل ظله... إلى الدكان الوحيد في القرية. ذهب معه بعض الأولاد المحليين، أما بقيتهم فانضموا إلى الذاهبين إلى البرك. وعندما تبعثر الجميع هنا وهناك كنت أجلس وحدي فوق جذع شجرة في حين كان لورين وتايلر منشغلين بالحديث عن جهاز تشغيل الأقراص المدمجة الذي قال أحد الأشخاص إنه سيجلبه معه. كان ثلاثة من أولاد محمية الهنود متحلّقين حول النار. وكان منهم الصبي المدعو جايكوب والصبي الأكبر الذي تولى تقديم زملائه.

بعد دقائق قليلة من ذهاب أنجيلا مع المتنزهين جاء جايكوب وجلس محلها... بجانبي. بدا أنه في الرابعة عشرة، أو في الخامسة عشرة. وكان له شعر أسود لامع طويل مربوط بحلقة مطاطية عند رقبته. كان جلده جميلاً حريرياً خمري اللون. كانت عيناه قاتمتين، وكانتا غائرتين خلف وجنتيه المرتفعتين. وكانت بقية بسيطة من الاستدارة الطفولية ما تزال مرئية على ذقنه. على وجه الإجمال، كان وجهه جميلاً جداً. لكن رأيي الإيجابي في شكله تحطم عندما خرجت أولى الكلمات من فمه.

«أنت إيزابيلا سوان، صحيح؟»

كأنني عدت إلى اليوم الأول في المدرسة.

تنهدت وقلت مصححة: «بيلا!»

«أنا جايكوب بلاك»... مد يده بحركة ودية... «لقد اشتريتِ سيارة والدي».

شعرت بالانفراج فشددت على يديه وقلت: «أنت ابن بيلي! أعتقد أنني يجب أن أتذكرك».

«لا!... أنا أصغر أفراد الأسرة... قد تتذكرين شقيقتيَّ الكبيرتين».

«إنهما ريتشل وريبيكا»، تذكرت الفتاتين فجأة. كان تشارلي وبيلي يضعوننا معاً مرات كثيرة أثناء زياراتي إلى فوركس حتى ننشغل عنهما أثناء قيامهما بصيد الأسماك. كنا خجولات جداً إلى حد منعنا من أن نكون صديقات حقاً. وطبيعي أنني كنت أطلق نوبات غضب كثيرة حتى أنهي نزهات الصيد عندما بلغت أحد عشر عاماً.

«هل هما هنا؟»... رحت أنظر إلى البنات عند الشاطئ متسائلة ما إذا كنت قادرة على معرفتهما الآن.

هز جايكوب رأسه وقال: «لا! حصلت ريتشل على منحة دراسية في ولاية واشنطن. أما ريبيكا فقد تزوجت شخصاً من ساموا يمارس ركوب الأمواج... إنها تعيش في هاواي الآن».

«تزوجت... واو!»... لقد دهشت فعلاً. لم تكن الشقيقتان التوأم أكبر مني إلا بسنة واحدة أو أكثر قليلاً.

سألني: «هل أعجبتك السيارة؟»

«لقد أحببتها. إنها تعمل بشكل ممتاز».

ضحك وقال: «نعم... لكنها بطيئة جداً. ارتحت كثيراً عندما اشتراها تشارلي. ما كان أبي ليتركني أبني سيارة غيرها مع وجود تلك السيارة الممتازة عندنا».

قلت معترضة: «ليست بطيئة جداً».

«هل حاولت جعلها تسير أسرع من تسعين كيلومتراً في الساعة؟»
«لا».
ابتسم قائلاً: «جيد! لا تحاولي».
لم أستطع الامتناع عن رد ابتسامته بمثلها. وقلت مدافعة عن سيارتي: «إنها ممتازة في حوادث الاصطدام».
ضحك من جديد وقال موافقاً: «لا أعتقد أن دبابة تستطيع أن تحطم ذلك الوحش العتيق».
سألته معجبة: «أنت تبني سيارات إذن!»
قال ممازحاً: «نعم، عندما يكون لدي وقت فراغ وقطع سيارات مجانية. هل تعرفين أين يمكن أن أحصل على أسطوانة رئيسية لسيارة فولكسفاكن رابيت موديل 1986؟»... كانت في صوته بحة لطيفة.
ضحكت وقلت: «آسفة... لم أصادف أي أسطوانة في الآونة الأخيرة... لكنني سأبحث عنها»... وكأنني كنت أعرف ما هي تلك الأسطوانة... كان الحديث معه يسيراً جداً.
ابتسم ابتسامة لامعة وهو ينظر إليّ نظرة إعجاب كنت قد بدأت أتعلم كيف أميزها. لم أكن وحدي من لاحظ تلك النظرة... سألته لورين التي كانت تجلس إلى الناحية الأخرى من النار: «هل تعرف بيلا يا جايكوب؟»... خيل لي أنها قالت ذلك بنبرة وقحة.
ضحك مبتسماً لي ثانية: «نعرف بعضنا نوعاً ما... منذ ولادتي».
«ما ألطف هذا!»... لم يوح صوتها بأنها ترى الأمر لطيفاً أبداً... ضاقت عيناها الشاحبتان الشبيهتان بعيون الأسماك... نادتني من جديد وهي تراقب وجهي بانتباه: «بيلا! كنت أقول لتايلر منذ قليل إن من السيّئ جداً أن أحداً من أسرة كولن لم يأت معنا اليوم... ألم يفكر أحد في دعوتهم؟»... كان تعبير الاهتمام الذي في وجهها غير مقنع إطلاقاً.
«هل تقصدين أسرة الدكتور كارلايل كولن؟»... سألها الصبي

الطويل الأكبر سناً قبل أن أستطيع الرد... أزعجها ذلك كثيراً. كان صوته عميقاً جداً... كان رجلاً أكثر منه صبياً.

استدارت لورين صوبه نصف استدارة وسألته كمن يتحدث مع شخص أدنى منه: «نعم! هل تعرفهم؟»

«لا يأتي آل كولن إلى هنا!»... قالها بنبرة أغلقت الحديث، وتجاهل سؤالها.

حاول تايلر أن يجذب انتباه لورين من جديد فسألها عن رأيها في أسطوانة كانت في يدها، لكنها كانت مشغولة عنه.

حدَّقت في الصبي ذي الصوت العميق... فاجأني كلامه كثيراً... لكنه كان ينظر بعيداً إلى الغابة المظلمة من خلفنا. لقد قال إن أسرة كولن لا تأتي إلى هنا، لكن نبرته أوحت بشيء أكثر من هذا... كأن القدوم إلى هنا ما كان متاحاً لهم... كأنه ممنوع عليهم. ترك ذلك الصبي انطباعاً غريباً عندي. حاولت تجاهل الأمر من غير نجاح.

قاطع جايكوب أفكاري: «هل أوصلتك فوركس إلى الجنون، أم ليس بعد؟»

قلت مع تكشيرة صغيرة: «هذا أقل ما يقال!»... فابتسم ابتسامة فاهمة.

كنت ما أزال أفكر في تلك العبارة المقتضبة عن أسرة كولن... جاءتني فكرة مفاجئة. كانت خطة حمقاء، لكنني لم أكن أملك أفكاراً أفضل. رجوت أن يكون جايكوب الصغير ما يزال قليل الخبرة فيما يخص الفتيات حتى لا يرى في محاولاتي اليائسة نوعاً من المغازلة.

سألته محاولة تقليد طريقة إدوارد في النظر إلى الأعلى من خلال أهدابه: «هل تود الذهاب معي في نزهة إلى الشاطئ؟»... لم يكن لنظرتي تأثير يشبه تأثير نظرة إدوارد، لكن جايكوب قفز مستعداً للذهاب.

عندما مشينا شمالاً بين الصخور الكثيرة نحو الجدار البحري

المكون من الجذوع التي جرفتها المياه كانت الغيوم قد غطت السماء تماماً فجعلت لون البحر داكناً وخفضت درجة الحرارة. دفنت يدي عميقاً في جيوب سترتي.

سألته محاولة أن أبدو حمقاء ورحت أرفرف برموشي كما أرى الفتيات يفعلن في التلفزيون: «إذن، عمرك ستة عشرة عاماً؟»

اعترف وقد شعر بالإطراء: «أكملت الرابعة عشرة منذ فترة بسيطة».

ملأت دهشة كاذبة وجهي: «حقاً! شكلك يوحي بأنك أكبر من ذلك».

قال موضحاً: «أنا طويل قياساً بعمري».

«هل تأتي إلى فوركس كثيراً؟»... سألته بمكر كما لو أنني كنت آمل أن أسمع رداً إيجابياً. بدوت حمقاء حتى في نظر نفسي. خشيت أن يشمئز مني ويتهمني بالكذب والاحتيال، لكنه مازال يبدو مسروراً بكلامي.

أقر عابساً: «ليس كثيراً... أما عندما أنهي صنع سيارتي فسوف أستطيع الذهاب أينما أردت... بعد أن أحصل على رخصة قيادة السيارة».

«من هو الصبي الذي كانت لورين تتحدث معه؟ يبدو كبيراً بعض الشيء على القدوم على رحلتنا». تعمدت تصنيف نفسي ضمن الأصغر سناً محاولة توضيح أنني أفضل جايكوب.

قال لي: «إنه سام... وهو في التاسعة عشرة».

سألته ببراءة: «ما الذي كان يقوله عن أسرة الدكتور؟»

«أسرة كولن! أوه... لا يفترض فيهم المجيء إلى محميتنا!»... نظر بعيداً باتجاه جزيرة جيمس فيما كان يؤكد ما ظننت أني فهمته من صوت سام.

«لم لا؟»

التفت إلي وعض على شفته: «يفترض أن لا أقول شيئاً عن ذلك».

حاولت أن أبتسم ابتسامة مغرية: «أوه، لن أخبر أحداً. إنه مجرد فضول»... وتساءلت في سري ما إذا كانت ابتسامتي سمجة أكثر مما ينبغي... ابتسم رداً على ابتسامتي... لقد تأثر بها. ثم ارتفع حاجبه وبدا صوته مبحوحاً أكثر من ذي قبل: «هل تحبين قصص الرعب؟»... سألني هذا السؤال بصوت يوحي بالشؤم.

«أحبها كثيراً»... قلت هذا وأنا أبذل جهداً للنظر إليه.

مشى جايكوب إلى جذع قريب كانت جذوره ناتئة كأنها أرجل عنكبوت عملاق شاحب. جثم بسهولة فوق واحد من تلك الجذوع المعوجة. أما أنا فجلست على جذع الشجرة تحته. راح ينظر إلى الصخور في الأسفل وراحت ابتسامة تحوم عند أطراف شفاهه العريضة. كان واضحاً أنه يحاول أن يروي قصة جيدة... رحت أركز على منع عيني من فضح اهتمامي الشديد.

بدأ يقول: «هل تعرفين أي قصة من قصصنا القديمة التي تتحدث عن المكان الذي أتينا منه نحن الكويلوت؟»

قلت: «في الحقيقة... لا!».

«ثمة أساطير كثيرة يزعم بعضها أنه منحدر منذ الطوفان... يقال إن الكويلوت القدامى ربطوا قواربهم إلى قمم أعلى الأشجار فوق الجبل من أجل النجاة، كما في قصة نوح والسفينة»... ابتسم مظهراً قلة ثقته في تلك القصص العتيقة. ثم تابع: «تزعم أسطورة أخرى أننا انحدرنا من الذئاب... وأن الذئاب مازالوا أخوة لنا. يمنعنا قانوننا القبلي من قتلهم».

عند ذلك انخفض صوته قليلاً وتابع: «ثم هناك قصص عن "الباردين"».

«الباردون؟»... سألته دون أن أحاول إخفاء حيرتي الآن.

«نعم! ثمة قصص عن الباردين تبلغ من القدم ما تبلغه أسطورة

الذئاب. وثمة قصص أحدث عهداً بكثير. تقول الأسطورة إن جدي الأكبر كان يعرف بعضهم. وهو من أبرم معهم معاهدة تلزمهم بالبقاء بعيداً عن أرضنا».

شجعته على الاستمرار: «جدك الأكبر؟»

«كان جدي الأكبر زعيم القبيلة... مثل والدي. الباردون هم الأعداء الطبيعيون للذئب... لا أقصد أنهم أعداء الذئاب حقاً بل أعداء الذئاب التي صارت بشراً مثل أجدادنا... يمكنك تسميتهم المستذئبون».

«وهل للمستذئبين أعداء؟»

«لهم عدو واحد».

نظرت إليه نظرة جادة محاولة جعل نفاذ صبري يبدو إعجاباً.

تابع جايكوب: «وهكذا ترين أن الباردين هم أعداؤنا التقليديون. لكن قطيع الباردين الذي جاء إلى أرضنا في زمن جدي الأكبر كان مختلفاً. لم يكونوا يصطادون كما يصطاد الآخرون من بني جنسهم... كان يفترض أنهم ليسوا خطرين على القبيلة. لذلك أبرم جدي الأكبر هدنة معهم. إذا وعدوا بالبقاء خارج أرضنا فلن نكشف أمرهم أمام شاحبي الوجوه»... قال الكلمات الأخيرة وهو يغمز بعينه صوبي.

«إذا لم يكونوا خطرين، فلماذا... ؟»... حاولت الفهم وأنا أتعمد جاهدة منعه من إدراك مدى جديتي فيما يخص قصته الغريبة.

«ثمة خطر دائماً على بني البشر عند وجودهم بالقرب من الباردين حتى لو كانوا متحضرين كما هو حال تلك المجموعة منهم. لا يمكن معرفة متى يعجزون عن مقاومة جوعهم الشديد». قال هذا متعمداً جعل نبرته توحي بالشؤم.

«ما الذي تقصده بكلمة متحضرين؟»

«زعموا أنهم لا يصطادون البشر. يفترض أنهم كانوا يستطيعون العيش من صيد الحيوانات بدلاً من البشر».

حاولت المحافظة على حيادية صوتي: «إذن، ما علاقة هذا بأسرة كولن؟ هل هم مثل الباردين الذين عرفهم جدك الأكبر؟»

قال: «لا!»... توقف برهة... «إنهم هم نفسهم».

لاشك في أنه ظن التعبير الذي ظهر على وجهي رعباً ناجماً عن قصته. ابتسم مسروراً وتابع يقول: «ثمة مزيد منهم الآن... أنثى جديدة وذكر جديد... أما البقية فهم كما كانوا. في زمن جدي الأكبر كانوا يعرفون زعيم تلك الجماعة، كارلايل... لقد كان هنا ثم ذهب حتى قبل أن يصل قومكم»... كان يحاول منع نفسه من الابتسام.

سألته أخيراً: «فما هم إذن؟ ما هم الباردون؟»

ابتسم ابتسامة مظلمة وأجاب بصوت يبعث القشعريرة: «إنهم شاربو الدماء. قومك يطلقون عليهم اسم مصاصو الدماء».

رحت أنظر إلى حافة الشاطئ الخشنة بعد جوابه ذاك... لم أكن أعرف ما التعبير الذي ظهر على وجهي.

ضحك فرحاً: «هل اقشعر جلدك؟»

تابعت التحديق في الأمواج وقلت ممتدحة: «أنت راوية قصص جيد!»

«قصص مجنونة تماماً، أليست مجنونة؟ لا عجب في أن أبي لا يريد أن نتحدث عنها أمام أحد».

مازلت غير قادرة على النظر إليه لأنني مازلت غير قادرة على ضبط تعبير وجهي: «لا تقلق... لن أشي بك».

قال ضاحكاً: «أظن أنني خرقت اتفاقية جدي الآن!»

«سأحمل هذا السر معي إلى القبر»... هكذا وعدته... ثم ارتجفت.

«لنكن جادين مع ذلك... لا تقولي شيئاً لتشارلي. لقد جن غضباً

من والدي عندما سمع أن بعضنا رفضوا الذهاب إلى المستشفى لأن الدكتور كولن بدأ العمل فيه».

«لن أقول له!... لن أقول له طبعاً».

«إذن، هل تظنين الآن أننا حفنة من السكان الأصليين المتطيرين المؤمنين بالخرافات... أم ماذا؟»... سألني بصوت لعوب شابه شيء من القلق. لم أكن قد أزحت عيني عن المحيط حتى تلك اللحظة.

التفتّ إليه وابتسمت ابتسامة طبيعية إلى أقصى حد استطعته: «لا! أظن أنكم بارعون جداً في رواية القصص المرعبة. مازال جلدي مقشعراً... هل تراه؟»... رفعت ذراعي أمامه حتى يراها.

ابتسم بفخر.

عند تلك اللحظة نبهنا صوت تصادم الحجارة عند الشاطئ إلى اقتراب شخص منا. وفي لحظة واحدة استدار رأسانا فرأينا مايك وجيسيكا على بعد خمسين متراً منا... كانا يسيران صوبنا.

ناداني مايك بصوت يوحي بالانفراج وهو يلوح بيده: «ها أنت يا بيلا».

سألني جايكوب وقد انتبه إلى نبرة الغيرة في صوت مايك: «هل هو صديقك؟»... فاجأني مدى وضوح الأمر.

همست: «لا! قطعاً لا». كنت شديدة الامتنان لجايكوب وددت أن أسعده قدر ما أستطيع. غمزت له بعيني وأنا أستدير بحذر حتى لا يراني مايك. ابتسم جايكوب سعيداً بتلك المغازلة.

قال: «عندما أحصل على شهادة القيادة...»

«عليك أن تأتي إلى فوركس... نستطيع التسكع هناك لبعض الوقت». شعرت بالذنب عندما قلت ذلك... كنت أستغله. لكنني أستلطفه فعلاً. إنه شخص يمكنني مصادقته بسهولة.

وصل مايك إلينا وجيسيكا تسير على بعد خطوات قليلة خلفه.

رأيت عيناه تقيسان جايكوب... بدا راضياً بسبب صغر سنه الواضح.

سألني رغم أن الإجابة كانت واضحة أمامه: «أين كنتما؟»

تطوعت بالقول: «كان جايكوب يروي لي بعض القصص المحلية. وكان ذلك أمراً ممتعاً حقاً».

ابتسمت لجايكوب بخبث، فأجابني بابتسامة.

«طيب!»... صمت مايك برهة وهو يعيد تقييم الموقف بحذر بعد أن شاهد انسجامنا... «نحن نحزم أمتعتنا من أجل الذهاب... يبدو أنها ستمطر قريباً».

نظرنا جميعاً إلى السماء المدلهمّة. واضح أنها ستمطر.

قفزت وقلت: «أنا قادمة».

قال جايكوب: «لقد أسعدني لقاؤك من جديد»... كان يتعمد إزعاج مايك.

«أسعدني لقاؤك أيضاً. سوف أكون مع تشارلي عندما يأتي لرؤية بيلي»... لقد وعدته بالمجيء!

كبرت ابتسامته: «سيكون هذا أمراً لطيفاً».

أضفت بصوت جاد: «و... شكراً لك!»

وضعت قبعة معطفي على رأسي في حين رحنا نسير عبر الصخور نحو مكان وقوف السيارات. بدأت قطرات قليلة من المطر تترك بقعاً قاتمة عند سقوطها فوق الصخور. وعندما وصلنا كان الباقون يضعون الأمتعة في السيارات. جلست في المقعد الخلفي مع أنجيلا وتايلر معلنة أنني استنفذت دوري في الجلوس عند النافذة الأمامية. اكتفت أنجيلا بالنظر إلى العاصفة القادمة. وراحت لورين تتلوى في المقعد الأوسط محاولة استقطاب اهتمام تايلر كله. وهكذا صار بوسعي أن أرخي رأسي على المسند وأغمض عيني وأحاول ألا أفكر... قدر ما أستطيع.

7

كابوس

قلت لتشارلي إن لدي واجبات مدرسية كثيرة اليوم وإنني لا أريد أن آكل. كانوا يعرضون مباراة لكرة السلة. وكان مهتماً بها رغم عدم إدراكي أهميتها بطبيعة الحال. وهكذا لم يلاحظ أي شيء غير طبيعي في شكلي أو صوتي.

أقفلت الباب عندما صرت في غرفتي. بحثت في مكتبي عن السماعات الرأسية فوصلتها إلى مشغل الأسطوانات ووضعت فيه أسطوانة أهداني إياها فيل يوم عيد الميلاد. كانت لإحدى فرقه المفضلة... لكن ما فيها من صراخ وموسيقى مرتفعة كان أكثر مما يتحمله ذوقي. وضعتها في مكانها ثم استلقيت على سريري. وضعت السماعات وضغطت مفتاح التشغيل ثم رفعت الصوت حتى آلمتني أذناي. أغمضت عيني، لكن الضوء أزعجني فوضعت الوسادة فوق النصف العلوي من وجهي.

أصغيت إلى الموسيقى بانتباه شديد محاولة فهم الكلمات والتمييز بين نغمات الإيقاع المعقدة. وعندما أنهيت الأسطوانة للمرة الثالثة صرت أعرف كل الكلمات التي يرددها الكورس، على الأقل. فوجئت بأنني أحببت تلك الفرقة رغم كل شيء، وذلك بعد أن تجاوزت الضجيج المزعج. علي أن أشكر فيل ثانية.

لقد نجح الأمر... جعلت تلك الإيقاعات الصاخبة التفكير

مستحيلاً... وهذه هي كل غايتي. استمعت إلى الأسطوانة مجدداً حتى صرت أغني معها جميع الأغاني إلى أن سقطت نائمة أخيراً.

فتحت عيني فوجدت نفسي في مكان مألوف. أدركت في إحدى زوايا وعيي أنني أحلم... وعرفت ضياء الغابة الأخضر. كنت أستطيع سماع صوت الأمواج تتكسر على الصخور في مكان قريب مني. وعرفت أنني أستطيع رؤية الشمس إن وجدت المحيط. كنت أحاول تتبع الصوت، لكن جايكوب بلاك كان هناك وكان يشدني من يدي محاولاً إعادتي إلى الجزء الأكثر ظلمة في تلك الغابة.

سألته: «جايكوب! ما الأمر؟»... كان الرعب بادياً على وجهه بينما راح يجذبني بكل قوته محاولاً التغلب على مقاومتي. لم أكن أريد الذهاب إلى ظلمة الغابة.

همس مذعوراً: «اركضي يا بيلا... عليك أن تركضي!»

«من هنا... يا بيلا!»... عرفت صوت مايك يناديني من قلب الظلام بين الأشجار لكنني لم أستطع رؤيته.

«لماذا؟»... سألت وأنا مازلت أقاوم قبضة جايكوب... كنت أتلهف إلى رؤية الشمس الآن.

لكن جايكوب أفلت يدي وعوى مرتجفاً فجأة ثم سقط على أرض الغابة المظلمة. رحت أنظر إليه مذعورة وهو يتلوى على الأرض.

صرخت: «جايكوب!»... لكنه كان قد ذهب. وفي مكانه رأيت ذئباً بنياً ضخماً أسود العينين. أشاح الذئب بوجهه عني مشيراً إلى الشاطئ... كان شعر ظهره وكتفيه منتصباً... وكانت زمجرة خافتة تخرج من بين أنيابه الظاهرة.

صرخ مايك من خلفي مجدداً: «بيلا... اهربي!»... لكنني لم أهرب. كنت أنظر إلى ضوء يتقدم نحوي من ناحية الشاطئ.

عند ذلك خرج إدوارد من بين الأشجار. كان جلده يلمع قليلاً.

وكانت عيناه سوداوين خطرتين. مد يده مشيراً إليّ أن أذهب نحوه. وكان الذئب يزمجر عند قدمي.

تقدمت خطوة باتجاه إدوارد فابتسم... كانت أسنانه حادة مدببة.

قال بصوت هامس كالهرير: «ثقي بي!»

خطوت خطوة أخرى.

قذف الذئب بنفسه في الفراغ الفاصل بيني وبين مصاص الدماء... كانت أنيابه متجهة إلى أوردة رقبته.

صرخت بأعلى صوتي: «لا...» وانتصبت قافزة من سريري.

جعلت حركتي المفاجئة السماعات تجر مشغل الأسطوانات من فوق الطاولة الصغيرة فسقط على الأرض الخشبية.

كان نور الغرفة ما يزال مضاء. وكنت ما أزال في ملابسي الكاملة بما في ذلك حذائي. التفتّ، مشوّشة، إلى الساعة فوق طاولة الزينة. كانت تشير إلى الخامسة والنصف صباحاً.

تنهدت واستلقيت على ظهري ثم انقلبت على وجهي ورميت حذائي من رجلي. كان تعبي شديداً يمنعني من النوم. انقلبت على ظهري وخلعت الجينز بطريقة خرقاء وأنا أحاول البقاء في وضع أفقي. شعرت بوجود ربطة الشعر على رأسي وشعرت بضغط مزعج عند مؤخرة جمجمتي. انقلبت إلى جانبي ونزعت شريط الشعر المطاطي ورحت أمشط خصلات شعري بأصابعي. سحبت الوسادة فأعدتها فوق وجهي.

كان هذا كله عديم الجدوى طبعاً. لقد استحضر وعيي الباطن تلك الصور التي كنت أحاول تجنبها جاهدة. علي أن أواجهها الآن.

انتصبت جالسة فشعرت بدوار في رأسي استمر نحو دقيقة ريثما صعد الدم إليه. قلت في نفسي: عليَّ أن أستحم أولاً... كنت سعيدة بتأجيل الأمر قدر استطاعتي. أمسكت بحقيبة الحمام.

لكن حمّامي لم يطل بقدر ما كنت آمل. ومع أنني أمضيت وقتاً

كافياً في تجفيف شعري فقد أحسست بأني استنفذت كل ما يمكن أن أفعله في الحمام. لففت جسمي بمنشفة كبيرة وعدت إلى غرفتي. لم أعرف إن كان تشارلي قد ذهب أم أنه مازال نائماً. ذهبت إلى النافذة... لم أر سيارته... هل ذهب إلى الصيد من جديد؟

ارتديت ثياباً مريحة ثم رتبت سريري... لم أكن أرتبه أبداً. لم أعد أستطيع تأجيل الأمر. ذهبت إلى طاولتي وشغّلت الكمبيوتر العتيق.

كنت أكره استخدام الإنترنت هنا... خدمات الإنترنت المجانية رديئة. كان مجرد تحقيق الاتصال بالإنترنت يستغرق وقتاً طويلاً جعلني أقرر الذهاب لتحضير صحن من رقائق الحبوب مع الحليب بدلاً من الانتظار.

بدأت آكل ببطء. كنت أمضغ كل لقمة بتأنٍّ شديد. وعندما انتهيت غسلت الصحن والملعقة ثم جففتهما ووضعت كل منهما في مكانه. صعدت درجات السلم أجر قدميّ جراً. ذهبت إلى جهاز تشغيل الأسطوانات في البداية فرفعته عن الأرض ووضعته في منتصف الطاولة تماماً. فصلت السماعات ووضعتها في درج مكتبي. ثم أعدت تشغيل الأسطوانة نفسها وأرجعتها حتى ذلك الموضع ذي الضجيج الشديد.

استدرت نحو كمبيوتري. طبعاً، كانت الشاشة مملوءة بالإعلانات. جلست في مقعدي القاسي القابل للطي ورحت أغلق جميع تلك النوافذ الصغيرة. وصلت أخيراً إلى محرك البحث. أغلقت بضعة إعلانات ظهرت مجدداً ثم كتبت في شريط البحث كلمة واحدة: مصاص الدماء.

استغرق البحث زمناً طويلاً... طويلاً إلى درجة الغضب. وعندما ظهرت النتائج كان فيها كل ما هب ودب... من الأفلام إلى العروض التلفزيونية إلى الألعاب إلى المعادن في باطن الأرض إلى شركات التجميل.

ثم وجدت موقعاً واعداً: مصاصو الدماء، من الألف إلى الياء.

انتظرت بصبر ريثما تم تحميل الموقع ورحت أغلق الإعلانات فور ظهورها على الشاشة. انتهى التحميل أخيراً... خلفية بيضاء بسيطة ونص باللون الأسود... كان منظرها أكاديمياً. كان على صفحة الموقع الرئيسية عبارتا ترحيب:

على امتداد عالم الأشباح والشياطين المظلم الشاسع لا نجد شخصية أكثر هولاً وأكثر إثارة للرعب والخوف من شخصية مصاص الدماء، رغم تمتعه بسحر مخيف؛ فهو ليس شبحاً ولا شيطاناً لكنه يجمع الطبائع المظلمة للاثنين ويوحد صفاتهما الغامضة المرعبة.

القس مونتاغ سامرز

إن كان في عالمنا هذا رواية صحيحة حقاً فهي رواية مصاصي الدماء. لا ينقص الرواية شيء: التقارير الرسمية والشهادات الخطية بقلم أشخاص معروفين تماماً... جراحون ورجال دين وقضاة... بل إن الإثباتات القضائية أكثر اكتمالاً. رغم هذا كله... من عساه يؤمن بوجود مصاصي الدماء؟.

روسو

كانت بقية الموقع تعداداً مرتباً أبجدياً لجميع أساطير مصاصي الدماء في مختلف أنحاء العالم. وكان أولها، داناغ، عن مصاص دماء فلبيني يفترض أنه كان مسؤولاً عن زراعة نبة القلقاس في تلك الجزر. تقول الأسطورة إن الداناغ ظل يعمل مع البشر سنين كثيرة. لكن الشراكة انتهت ذات يوم عندما جرحت امرأة إصبعها وقام أحد الداناغ بمص الجرح مستمتعاً بطعم الدم فامتص دمها كله.

رحت أقرأ بانتباه باحثة عن كل ما يمكن أن يبدو مألوفاً... لست أقول قابلاً للتصديق. بدا لي أن أكثر أساطير مصاصي الدماء تتحدث عن

نساء جميلات شيطانات وعن ضحايا من الأطفال. وبدا لي أيضاً أنها مركبة تركيباً حتى تفسر نسبة الوفيات المرتفعة بين الأطفال الصغار وحتى تمنح الرجال عذراً لعدم وفائهم لزوجاتهم. وكان في كثير من تلك القصص أرواح من غير أجسام وتحذيرات من الدفن غير الصحيح. لم أجد كثيراً مما يشبه الأفلام التي شاهدتها. وكان القليل مما وجدته، مثل إيشتري العبري ويوبير البولندي، مهتماً في المقام الأول بموضوع شرب الدم.

جذبت ثلاثة عناوين انتباهي: فراكولاتشي الروماني، وهو كائن جبار لا يموت يستطيع الظهور على هيئة بشري جميل شاحب الجلد؛ ونيلابسي السلوفاكي الذي هو مخلوق شديد السرعة والقوة يستطيع ذبح قرية كاملة في ساعة واحدة بعد منتصف الليل؛ وكذلك ستريغوني بينيفيتشي.

لم أجد عن هذا الأخير إلا جملة قصيرة واحدة:

ستريغوني بينيفيتشي: *مصاص دماء إيطالي يقال إنه يناصر الخير وإنه عدو لدود لجميع مصاصي الدماء الأشرار.*

كان ذلك مريحاً... جملة صغيرة واحدة تلخص الأسطورة الوحيدة من بين مئات الأساطير فتزعم وجود مصاصي دماء أخيار.

لكنني رغم ذلك لم أجد إلا القليل مما يوافق قصص جايكوب أو ملاحظاتي الخاصة. أنشأت دليلاً صغيراً في ذهني عندما كنت أقرأ. ثم رحت أقارنه بكل أسطورة من تلك الأساطير... السرعة والقوة والجمال والجلد الشاحب والعيون التي يتغير لونها؛ ثم معلومات جايكوب: شاربو الدماء، وأعداء المستذئبين، والجلود الباردة، والخلود. قليلة جداً هي الأساطير التي توافق ولو واحداً من هذه العوامل كلها.

ثم واجهت مشكلة ثانية... مشكلة تذكرتها من خلال العدد القليل من أفلام الرعب التي شاهدتها. وقد جاءت قراءتي اليوم لتدعمها: لا

يستطيع مصاصو الدماء الظهور نهاراً فالشمس تحرقهم وتحيلهم رماداً. إنهم ينامون في التوابيت طيلة النهار ثم يخرجون ليلاً.

شعرت بغضب شديد. ضغطت على مفتاح الطاقة الرئيسي في الجهاز دون أن أنتظر ريثما يتوقف عن العمل بشكل نظامي. أحسست بشعور من الحرج الغامر رغم انزعاجي. كان هذا سخيفاً كله. كنت أجلس في غرفتي أبحث عن مصاصي الدماء في الإنترنت... ماذا أصابني؟... قررت أن أكثر اللوم يقع على مجيئي إلى فوركس... بل إلى شبه جزيرة أولمبيك كلها.

شعرت بحاجة شديدة إلى الخروج من المنزل، لكن أقرب مكان أرغب في الذهاب إليه يقع على مسيرة ثلاثة أيام بالسيارة. لبست حذائي على أي حال دون أن أعرف وجهتي، ونزلت إلى الطابق السفلي. ارتديت معطفي الواقي من المطر دون أن أنظر إلى حالة الجو ثم خرجت من الباب.

كانت الغيوم ملء السماء، لكن المطر لم يبدأ بعد. تجاهلت سيارتي وتوجهت إلى الشرق ماشية فعبرت فناء البيت صوب الغابة التي استولت على جزء منه. لم يطل الوقت حتى صار المنزل والطريق غير مرئيين ولم أعد أسمع صوتاً غير صوت تفتت التربة الرطبة تحت قدميّ وبعض صرخات طائر أبو زريق المفاجئة.

كان درب ضيّق يمضي داخل الغابة وإلا لما خاطرت بالتجول على غير هدى. كان إحساسي بالاتجاهات معدوماً... يمكن أن أضيع في محيط أبسط من هذا بكثير. كان الدرب يتلوى ماضياً في الغابة أعمق فأعمق... كان اتجاهه العام نحو الشرق، بقدر ما كنت أستطيع التحديد. كنت ألتفّ حول أشجار السيتكا الصنوبرية وحول أجمات الشوكران والطقسوس والقيقب. لم أكن أعرف أسماء الأشجار المحيطة بي إلا على نحو غامض... وكان كل ما أعرفه مستمداً مما سمعته من

تشارلي وهو يشير إلى تلك الأشجار أثناء مرورنا بالسيارة أيام طفولتي. لم أكن أعرف أسماء كثير من الأشجار. ولم أكن واثقة من أسماء بعضها بسبب كثرة النباتات الطفيلية الخضراء التي تغطيها.

ظللت أمضي في هذا الدرب بقدر ما كان غضبي يدفعني. وعندما بدأ غضبي يخف أبطأت من سيري. سقطت عدة قطرات من الشجرة التي فوقي لكنني لم أعرف إن كانت قد بدأت تمطر أو إن كان ذلك من بقايا أمطار الأمس... قطرات حملتها أشجار الأوراق عالياً فوقي وراحت تنقط ببطء الآن عائدة إلى الأرض. كانت شجرة سقطت مؤخراً... عرفت أن زمن سقوطها لم يكن بعيداً لأن السراخس لم تكن قد غطتها كلها... وكانت تستند إلى جذع واحدة من شقيقاتها مشكلة مقعداً صغيراً محمياً لا يبعد عن الدرب إلا خطوات قليلة. مشيت فوق السرخس وجلست جلسة مريحة بعد أن تأكدت من أن معطفي المطري يفصل ثيابي عن مجلسي الرطب وملت برأسي إلى الخلف ناظرة إلى الشجرة الحية.

لم يكن مجيئي إلى هنا تصرفاً سليماً. كان علي معرفة هذا... لكن أين أذهب غير هنا؟ كانت الغابة داكنة الخضرة، وكانت شبيهة بالمشهد الذي رأيته في حلمي الأمس شبهاً حرمني صفاء الذهن. والآن، بعد أن توقف صوت وقع حذائي على الأرض الرطبة، صار الصمت ثاقباً. صمتت الطيور أيضاً... وكان تواتر القطرات يزداد... لابد أنها تمطر الآن... هناك في الأعلى. كانت السراخس من حولي أعلى من رأسي بعد أن جلست. وكنت أعرف أن من الممكن أن يمر شخص على الدرب... على بعد ثلاث خطوات مني... دون أن يراني.

هنا بين الأشجار كان من الأسهل كثيراً أن أصدق تلك السخافات التي أشعرتني بالحرج في البيت. لم يتغير شيء في هذه الغابة منذ آلاف السنين. في هذه البقعة الضبابية الخضراء تبدو جميع الأساطير

والحكايات من مئات الأماكن ممكنة أكثر مما بدت لي ممكنة في غرفة نومي.

قسرت نفسي على التركيز على السؤالين الأكثر أهمية من بين الأسئلة التي كان لابد لي من الإجابة عليها... لكنني فعلت ذلك من غير رغبة.

عليّ أن أقرر أولاً إن كان ما قاله جايكوب عن أسرة كولن يمكن أن يكون صحيحاً.

سرعان ما أجابني عقلي بنفي صارخ. كان من السخف أن أفكر في إمكانية صحة هذه الأفكار. لكن، ماذا بعد ذلك؟ سألت نفسي... ما من تفسير منطقي لبقائي حية حتى هذه اللحظة. أعدت في ذهني ترتيب الأشياء التي لاحظتها بنفسي: السرعة المستحيلة... والقوة المستحيلة... وتغير لون العينين من الأسود إلى الذهبي ثم عودتهما إلى الأسود. الجمال فوق البشري... والجلد البارد الشاحب. ثم أيضاً... مجموعة أشياء رحت أسجلها ببطء... كيف يبدو عليهم أنهم لا يأكلون أبداً؟... الجلال المقلق المريب الذي يغلف حركاتهم. وكذلك طريقته في الحديث أحياناً بتواتره غير المألوف وعباراته التي تناسب أسلوب رواية من بداية القرن العشرين أكثر مما تناسب صفاً مدرسياً في القرن الحادي والعشرين. ثم عدم ذهابه إلى درس البيولوجيا يوم اختبار الزمرة الدموية (فئة الدم). وهو لم يرفض الذهاب في رحلة الشاطئ إلا عندما عرف أين كنا ذاهبين. وهو أيضاً يبدو كمن يعرف كل ما يفكر فيه الناس من حوله... إلا أنا. وقد قال لي إنه خطر... شرير...

هل يمكن أن تكون أسرة كولن من مصاصي الدماء؟ لابد أنهم شيء ما!

كان يجري أمام عيني غير المصدقتين شيء خارج إطار إمكانية التفسير العقلاني. لم يكن إدوارد كولن إنساناً سواء حسب رواية

جايكوب عن «الباردين» أو حسب نظريتي أنا عن البطل الخارق. لقد كان شيئاً أكثر من ذلك.

إذن، لن يكون جوابي الآن إلا: ربما!

ثم يأتي أهم الأسئلة كلها: ما الذي أفعله إن كان هذا صحيحاً؟

إذا كان إدوارد مصاص دماء... لا أكاد أستطيع جعل نفسي أفكر في هذه الكلمات... فماذا علي أن أفعل؟ كان إطلاع أي شخص آخر على الأمر غير وارد أبداً. حتى أنا لا أستطيع أن أصدق...إن قلت لأحد فسوف يظنني مجنونة.

بدا لي خياران عمليان فقط. الخيار الأول هو الأخذ بنصيحة إدوارد: أن أكون ذكية فأتجنبه قدر الإمكان. ألغي خططنا وأعود إلى تجاهله قدر ما أستطيع. أن أتظاهر بوجود جدار زجاجي سميك لا يخترق بيننا في الصف الواحد الذي أجبرنا على الوجود فيه معاً. أن أقول له أن يتركني وحدي... وأن أكون جادة هذه المرة.

داهمتني موجة مفاجئة من الألم اليائس عندما فكرت في هذا الخيار. لكن عقلي رفض هذا الألم وانتقلت سريعاً إلى الخيار الثاني.

لا أستطيع أن أقوم بشيء مختلف. فبعد كل حساب، ولو كان إدوارد شيئاً شريراً حقاً، فهو لم يفعل شيئاً حتى يؤذيني... حتى الآن. بل الواقع هو أنه تصرف سريعاً جداً حتى ينقذني من شاحنة تايلر. سريعاً جداً... قلت في نفسي... لعل ذلك مجرد رد فعل عفوي محض من جانبه. لكنه رد فعل باتجاه إنقاذ حياة إنسان... فهل يمكن أن يكون صاحب رد فعل عفوي من هذا النوع شريراً؟ هكذا رددت على نفسي... تاه عقلي في تلك الدوائر التي لا إجابة عنها.

شيء واحد كنت واثقة منه... إن كنت واثقة من أي شيء أصلاً! كان إدوارد المظلم في حلم الليلة الماضية مجرد انعكاس لخوفي من الكلمة التي قالها جايكوب لا انعكاساً لخوفي من إدوارد نفسه. وعندما

صرخت رعباً عند وثبة الذئب لم يكن خوفي على الذئب هو ما جعل شفتيّ تصيحان بكلمة «لا». كنت خائفة عليه هو من الأذى... حتى عندما كان يناديني مظهراً أنيابه الحادة... كنت خائفة عليه هو!

من هنا عرفت أن لدي إجابة. لم أكن أعرف إن كان لدي خيار حقاً. كنت متورطة جداً... منذ الآن. والآن... بعد أن عرفت... إن كنت عرفت... لا أستطيع أن أفعل شيئاً بشأن سرّي المخيف. هذا لأنني عندما فكرت فيه، في صوته، في عينيه الساحرتين، في تلك القوة المغناطيسية في شخصيته، لم أكن أريد شيئاً أكثر من أن أكون معه الآن... في هذه اللحظة. وحتى لو كان إدوارد... أوه... لم أستطع التفكير في ذلك. ليس هنا... ليس وأنا وحدي في الغابة التي تزداد ظلمتها. ليس عندما يجعل المطر الضياء شحيحاً تحت أجمات الغابة مثل الضياء وقت الشفق وعندما يكون صوت سقوطه يشبه وقع الأقدام على الأرض الترابية. ارتجفت ثم نهضت مسرعة من مكان اختبائي قلقة من أن يكون ذلك الدرب قد اختفى تحت المطر.

لكني وجدت الدرب... واضحاً آمناً... متعرجاً في طريقه خارجاً من تلك المتاهة الخضراء التي تقطر ماء. سرت على الدرب مسرعة... كنت أشد قبعتي حول وجهي... ورحت أسير سريعاً بين الأشجار مذهولة لبعد المسافة. بدأت أتساءل إن كنت في طريقي الصحيح إلى خارج الغابة، أو إن كنت قد سرت على الدرب في الاتجاه المعاكس متوغلة إلى قلبها. لكنني... قبل أن يستبد بي الخوف... بدأت أرى بعض الفرجات بين الأغصان المتشابكة. ثم سمعت صوت سيارة تمر على الطريق... ثم غدوت حرة... رأيت مرج فناء بيت تشارلي أمامي، ورأيت البيت نفسه يرحب بي... يعدني بالدفء وبجوارب جافة.

كانت الوقت ظهراً عندما عدت إلى المنزل. صعدت إلى غرفتي لأرتدي ثيابي... جينز وقميص قصير الأكمام... لأنني لم أكن أعتزم

الخروج. لم يقتض التركيز على واجبي المدرسي لهذا اليوم جهداً كبيراً مني... كان ذلك موضوعاً عن ماكبث ليوم الأربعاء... اكتفيت راضية بكتابة مسودة عامة، وكان ذهني أكثر صفاء من أي وقت منذ... منذ الخميس بعد الظهر... على الأقلّ.

هكذا كان تصرّفي دائماً. كان اتخاذ القرارات هو الجزء الشاق بالنسبة لي... الجزء الذي كان اجتيازه مشقة حقيقية. لكني كنت أنفذ قراري فور اتخاذه... وعادة ما كنت أشعر بالراحة والانفراج لأن القرار قد اتخذ. وفي بعض الأحيان كان قنوطٌ يشوب ذلك الانفراج، كما في قرار مجيئي إلى فوركس. لكن ذلك أفضل من استمرار صراعي مع البدائل المختلفة.

أما قراري الآن فكان قبولي به سهلاً إلى درجة الحماقة... سهلاً إلى حد خطير.

وهكذا كان يومي هادئاً... منتجاً. أنهيت كتابة موضوع ماكبث قبل الثامنة. عاد تشارلي إلى المنزل بصيد وفير جعلني أسجل في ذهني ملاحظة بشأن جلب كتاب عن وصفات إعداد الأسماك عندما أذهب إلى سياتل الأسبوع القادم. لم تكن القشعريرة التي تسري في ظهري كلما فكرت في تلك السفرة لتختلف كثيراً عن تلك التي أصابتني عندما تنزهت مع جايكوب بلاك. فكرت في نفسي... لابد من وجود اختلاف. يجب أن أكون خائفة... كنت أعرف ذلك... لكنني لم أشعر بالنوع المُفتَرَض من الخوف.

كانت ليلتي من غير أحلام... لقد كنت متعبة بسبب استيقاظي المبكر كثيراً وبسبب سوء نومي في الليلة الماضية. استيقظت، للمرة الثانية منذ وصولي إلى فوركس، على ضوء الشمس الأصفر الساطع ليوم مشمس آخر. هرعت إلى النافذة ففاجأتني سماء زرقاء صافية من دون غيوم... كان في البعيد غيمات صغيرة بيضاء لا يمكن أن تحمل أي

مطر. فتحت النافذة ففوجئت بأنها انفتحت بصمت وأنها لم تكن ملتصقة رغم أنني لم أفتحها منذ عدد من السنين لا يعلمه إلا الله... ورحت أعب الهواء الجاف نسبياً. كان الجو دافئاً تقريباً... من غير ريح. راح دمي يجري سريعاً في عروقي.

كان تشارلي على وشك إنهاء فطوره عندما نزلت من غرفتي. وسرعان ما لاحظ مزاجي المبتهج.

قال: «إنه يوم جميل في الخارج».

قلت مبتسمة: «نعم!»

أجابني بابتسامة جعدت زوايا عينيه البنيتين. عندما ترى تشارلي يبتسم يصبح سهلاً أن تفهم سبب زواجه السريع المبكر من أمي. كان أكثر تلك الرومانسيات التي عاشها في ذلك الوقت قد ذوى قبل أن أعرفه، أي قبل أن يتناقص شعره البني المجعد (مثل لون شعري إن لم يكن بمثل بنيته أيضاً) وقبل أن يكشف ببطء عن مساحة متزايدة من الجلد اللامع عند جبهته. أما عندما يبتسم فقد كنت أرى شيئاً من ذلك الرجل الذي هرب مع رينيه لما كان عمرها يزيد سنتين فقط عن عمري الآن.

تناولت فطوري مبتهجة وأنا أراقب الغبار يتحرك في ضوء الشمس المتدفق عبر النافذة الخلفية. صاح تشارلي مودعاً ثم سمعت صوت سيارته تغادر المنزل. ترددت عند باب البيت وأنا أضع يدي على معطفي المطري. كان من المغري تركه في البيت والخروج خفيّة، ولكن هذا خطر فقد ينهمر المطر فجأة. تنهدت ثم لففته تحت ذراعي وخرجت إلى الضوء الساطع الذي لم أره منذ شهور.

تمكنت بكثير من الجهد أن أفتح نافذة سيارتي فتحاً كاملاً. كنت من أول الواصلين إلى المدرسة... لم أنظر إلى الساعة في عجلتي لمغادرة المنزل. أوقفت السيارة وتوجهت إلى المقاعد نادرة الاستخدام عند الناحية الجنوبية من الكافتيريا. كانت المقاعد ما تزال رطبة قليلاً

فجلست فوق معطفي المطري سعيدة لأنني وجدت له فائدة. كان واجبي المدرسي جاهزاً... هذه نتيجة الحياة الاجتماعية البطيئة... لكنني لم أكن واثقة من صحة حلي لبعض مسائل المثلثات. أخرجت كتابي بهمة ونشاط، لكنني... في منتصف تحققي من المسألة الأولى... غرقت في أحلام اليقظة ورحت أراقب ضياء الشمس يرقص على الأشجار ذات اللحاء الأحمر. رحت من غير قصد أرسم أشكالاً على هوامش الورقة التي فيها مسائل المثلثات. وبعد دقائق قليلة أدركت فجأة أنني رسمت خمسة أزواج من الأعين الداكنة راحت تحدق بيّ من تلك الصفحة. أخرجت ممحاتي فأزلت تلك العيون.

«بيلا!»... سمعت صوتاً يناديني... بدا مثل صوت مايك.

نظرت من حولي فرأيت أن كثيراً من الطلاب قد وصلوا إلى المدرسة بينما كنت أجلس هناك شاردة الذهن. كان الجميع في قمصانهم القصيرة، بل كان بعضهم يرتدي سراويل قصيرة أيضاً رغم أن الجو مازال بارداً بعض الشيء. كان مايك قادماً نحوي في سروال قصير بلون الكاكي وقميص رياضي... كان يلوح بيده.

قلت ملوحة له: «مرحباً مايك!»... لم أكن لأستطيع التحفظ في صباح مثل هذا الصباح.

جاء وجلس بجانبي وكانت ذؤابات شعره المرتبة تلمع في ضوء الشمس. كانت ابتسامته ملء وجهه. كان مسروراً جداً برؤيتي إلى حد لم أستطع معه منع شعوري بالرضا.

«لم ألاحظ من قبل أن شعرك فيه شيء من اللون الأحمر»... قال وهو يمسك بين أصابعه خصلة من شعري كانت ترفرف مع النسيم الخفيف.

«في ضوء الشمس فقط».

شعرت بشيء من عدم الراحة عندما وضع تلك الخصلة خلف أذني.

«يوم عظيم... أليس عظيماً؟»

قلت موافقة: «هكذا أحبه».

قال بنبرة تملكية قليلاً: «ماذا فعلت البارحة؟»

«اشتغلت معظم الوقت على موضوع ماكبث»... لم أقل له إنني أنجزته... لا حاجة لأن أظهر بمظهر التباهي.

ضرب جبهته بظاهر يده: «أوه، نعم!... إنه مطلوب ليوم الخميس، صحيح؟»

«همم!... ليوم الأربعاء على ما أظن».

قال عابساً: «الأربعاء!... هذا ليس جيداً... عن أي شيء كتبت موضوعك؟»

«عما إذا كانت معالجة شكسبير للشخصيات الأنثوية تنطلق من كرهه للنساء».

نظر إلي كأنني أتكلم باللاتينية ثم قال: «أعتقد أن علي أن أعمل عليه هذه الليلة. كنت أريد أسألك إن كانت لديك رغبة في الخروج».

فاجأني ذلك فقلت: «أوه!»... لماذا لم أعد أستطيع إجراء محادثة سارة مع مايك من غير أن يصبح الأمر مربكاً؟

«نستطيع أن نذهب إلى العشاء أو غير ذلك... وأستطيع أن أعمل على موضوع شكسبير بعد عودتي» قال هذا مبتسماً بأمل.

كرهت أن أكون في هذا الموقف: «مايك... لا أعتقد أنها فكرة صائبة».

تغير تعبير وجهه وقال بعينين يقظتين: «لماذا؟» قفزت أفكاري إلى إدوارد وتساءلت ما إذا كان هذا ما خطر ببال مايك أيضاً.

هددته قائلة: «أظن... وسوف أضربك بسرور حتى الموت إذا قلت هذا الكلام أمام أي شخص... أن هذا سيجرح مشاعر جيسيكا».

فوجئ تماماً. كان واضحاً أنه لم يكن يفكر في ذلك الاتجاه أبداً: «جيسيكا؟»

«نعم يا مايك... هل أنت أعمى؟»

استنشق نفساً عميقاً... لقد داخ تماماً... «أوه!»... استفدت من ذلك حتى أنجو بنفسي.

«حان وقت الدرس... لا أستطيع التأخر أكثر». جمعت كتبي ووضعتها في الحقيبة.

سرنا صامتين باتجاه المبنى رقم 3... كان تعبير وجهه ذاهلاً. وتمنيت أن تأخذه أفكاره في الاتجاه الصحيح مهما تكن الأفكار التي كان مستغرقاً فيها.

كانت جيسيكا تثرثر متحمسة عندما رأيتها في درس المثلثات. كانت تعتزم الذهاب الليلة مع أنجيلا ولورين إلى بورت آنجلس لشراء فساتين من أجل الحفلة. وقد أرادت أن أذهب معهن أيضاً رغم أنني لم أكن في حاجة إلى فستان. لم أستطع حسم أمري. لطيف أن أخرج من البلدة مع بعض الصديقات، لكن لورين ستكون معنا. من يعلم ما يمكن أن أفعله الليلة... لكن ليس هذا هو الاتجاه الذي يجب أن أسمح لأفكاري بأن تذهب فيه. كنت سعيدة بضياء الشمس طبعاً. لكنه لم يكن مسؤولاً تماماً عن مزاجي المبتهج، بل لم يكن مسؤولاً عنه حتى ولو جزئياً.

لذلك قلت لها: «ربما!»... تذرعت بأن علي التحدث مع تشارلي أولاً.

في طريقنا إلى درس اللغة الإسبانية لم تكن جيسيكا تتحدث إلا عن الحفلة. وعندما انتهى الدرس، متأخراً خمس دقائق، واصلت كلامها ونحن ذاهبتان إلى الغداء كما لو أن شيئاً لم يقاطعه. كنت غارقة جداً في الترقب المضني فلم أنتبه إلى معظم كلامها. كان يؤلمني التوق... لا

إلى رؤيته وحده... بل إلى رؤية أبناء كولن كلهم حتى أقارن بينهم وبين الشكوك الجديدة التي تغزو ذهني. وعندما تجاوزت مدخل الكافتيريا شعرت بأول وخزة خوف حقيقية تتغلغل عبر ظهري وتستقر في معدتي. هل سوف يستطيعون معرفة أفكاري؟ ثم اجتاحني شعور مختلف... هل ينتظرني إدوارد ليجلس معي من جديد؟

نظرت أولاً إلى طاولتهم... كما هي عادتي. سرت في معدتي رجفة الرعب عندما رأيتها فارغة. بما بقي لدي من أمل راحت عيناي تتجولان في بقية أنحاء الكافتيريا أملاً في العثور عليه جالساً وحده... ينتظرني. كانت الكافتيريا شبه ممتلئة بالطلاب... تأخرنا بسبب درس اللغة الإسبانية... لكنني لم أعثر على إدوارد أو على أحد من أسرته. غمرتني خيبة أمل ساحقة.

رحت أسير خلف جيسيكا على غير هدى وقد أقلعت عن التظاهر بالإصغاء إليها. كنا متأخرين إلى حد أن الجميع كانوا جالسين إلى الطاولة. تجنبت الكرسي الفارغ بجانب مايك وذهبت إلى كرسي آخر بجانب أنجيلا. لاحظت على نحو غائم أن مايك سحب الكرسي بأدب من أجل جيسيكا وأن وجهها أشرق رداً على تلك الحركة.

سألتني أنجيلا بصوت خافت بعض الأسئلة عن موضوع ماكبث فأجبتها على نحو طبيعي بقدر ما استطعت... لكنني كنت أغرق في بؤسي. دعتني أيضاً للذهاب معهم الليلة... وافقت الآن متمسكة بأي شيء يمكن أن يلهيني.

عرفت أنني كنت أتمسك بآخر أهداب الأمل عندما دخلت إلى صف البيولوجيا فرأيت مقعده الفارغ وشعرت بموجة شديدة من خيبة الأمل.

مر ما بقي من ذلك النهار بطيئاً... فارغاً. في الصالة الرياضية كانت لدينا محاضرة عن تنس الريشة... إنه العذاب التالي المخطط من

أجلي. لكن على الأقل، لم يكن علي في المحاضرة إلا أن أجلس وأصغي بدلاً من التعثر والسقوط في أرجاء القاعة. أما أفضل ما في الأمر فهو أن المدرب لم ينه محاضرته مما كان يعني أنني سأجلس في درس الرياضة غداً أيضاً. ولا بأس إن كانوا يعتزمون تسليحي بمضرب في اليوم التالي قبل أن يطلقوني على بقية الطلاب.

كنت سعيدة بمغادرة المدرسة فهكذا أكون حرة في العبوس والاستغراق في أفكاري الكئيبة قبل أن أذهب الليلة مع جيسيكا ورفيقاتها. لكن جيسيكا اتصلت فألغت الخطة كلها بمجرد دخولي إلى منزل تشارلي. حاولت أن أشعر بالسرور لأن مايك دعاها إلى العشاء... شعرت بالراحة فعلاً لأنه بدأ يهتم بها أخيراً... لكن حماستي عندما تحدثت معها بدت زائفة... حتى في أذني أنا. قالت إننا سنذهب للتسوق ليلة الغد.

لم يترك هذا أي شيء يعترض استغراقي في أفكاري. كان لدي سمك بالصلصة من أجل الغداء، ومعه سلطة وخبز من عشاء الأمس. لم يكن لدي ما أفعله في المطبخ. أمضيت نصف ساعة في التركيز على واجبي المدرسي، لكنه انتهى أيضاً. تفقدت بريدي الإلكتروني وقرأت مجموعة رسائل من أمي... كانت رسائلها تزداد نزقاً. تنهدت وكتبت لها رداً سريعاً:

«أمي

أنا آسفة. لكنني كنت خارج المنزل. ذهبت إلى الشاطئ مع بعض الأصدقاء. وكان علي كتابة موضوع للمدرسة».

كانت أعذاري بائسة فتوقفت عند تلك النقطة. وكتبت:

«الشمس ساطعة في الخارج اليوم... أعرف هذا، فقد فوجئت بالشمس أيضاً... لذلك سأخرج لأتشمس حتى أمتص كل ما أستطيع امتصاصه من فيتامين د. أحبك. بيلا».

قررت قتل ساعة كاملة في قراءة لا علاقة لها بالمدرسة. كانت لدي مجموعة صغيرة من الكتب جلبتها معي إلى فوركس. كان أعتق هذه الكتب مجلداً يضم مختارات من أعمال جين أوستن. أخذت ذلك الكتاب وتوجهت إلى الفناء الخلفي حاملة في طريقي لحافاً قديماً من خزانة البياضات.

وعندما صرت في الفناء المربع الصغير طويت اللحاف نصفين ووضعته خارج متناول ظلال الأشجار فوق المرج الكثيف الذي يحتفظ دائماً بشيء من البلل مهما استمرت الشمس.

استلقيت على بطني رافعة كاحلي في الهواء ورحت أقلب قصص تلك المجموعة محاولة أن أختار من بينها قصة يمكن أن تشغل أفكاري إلى أقصى حد ممكن. كانت قصتاي المفضلتان في العادة هما «كبرياء وتحامل» و«العاطفة والعقل» وغالباً ما كنت اقرأ الأولى، لذلك بدأت الآن قراءة الثانية. لم أتذكر أن اسم بطل هذه القصة هو إدوارد إلا بعد أن بدأت قراءة الفصل الثالث. تحولت غاضبة إلى قصة «حديقة مانسفيلد»، لكن اسم بطلها كان إدموند... إنه قريب جداً من إدوارد. ألم يكن لديهم أسماء أخرى أواخر القرن التاسع عشر؟ أغلقت الكتاب بعنف وانزعاج ثم انقلبت على ظهري. رفعت أكمامي بأقصى ما استطعت وأغمضت عيني. قلت لنفسي بعنف: لن أفكر إلا في حرارة الشمس على جلدي. كان النسيم ما يزال لطيفاً، لكنه ألقى بعض خصلات شعري على وجهي فراحت تدغدغني قليلاً. جمعت شعري كله فوق رأسي وجعلته ينتشر على اللحاف ثم عدت إلى التركيز على حرارة الشمس التي تداعب أهدابي ووجنتيَّ وأنفي وشفتيَّ وذراعيّ ورقبتي وتتغلغل عبر قميصي الرقيق...

انتبهت على صوت سيارة تشارلي تستدير على بلاط الممر. جلست مشدوهة فأدركت أن ضوء الشمس قد ذهب واختفى خلف الأشجار...

وأنني سقطت في النوم. نظرت من حولي مشوّشة... وشعرت فجأة أنني لم أكن وحدي.

قلت بصوت متسائل: «تشارلي؟»... لكنني لم أسمع صوت إغلاق باب سيارته أمام المنزل.

قفزت بانفعال أحمق والتقطت كتبي واللحاف الذي صار رطباً الآن. ركضت داخلة المنزل حتى أضع بعض الزيت ليسخن فوق الموقد... أدركت أن طعامنا سيتأخر. كان تشارلي يعلق حزام مسدسه ويخلع حذاؤه عندما دخلت إلى المنزل.

قلت متثائبة: «آسفة يا أبي... الغداء غير جاهز بعد... سقطت نائمة في الفناء».

قال: «لا تنزعجي... أريد أن أعرف نتائج المباراة قبل كل شيء».

تابعت التلفزيون مع تشارلي بعد الطعام... كنت أبحث عن شيء أفعله. لم يكن فيه ما أود مشاهدته. لكن تشارلي يعرف أنني لا أحب البيسبول، لذلك قلب المحطة إلى مسلسل سخيف لم يستمتع به أي منا. بدا تشارلي سعيداً رغم ذلك لأننا كنا نفعل شيئاً معاً. رغم اكتئابي، شعرت بالسرور لأن هذا أسعده.

قلت له أثناء أحد الإعلانات: «أبي! جيسيكا وأنجيلا ذاهبتان ليلة غد لانتقاء فساتين من بورت آنجلس. وهما تريدان مني أن أساعدهما في الاختيار... هل لديك مانع إن ذهبت معهما؟»

سألني: «جيسيكا ستانلي؟»

تنهدت وأعطيته التفاصيل: «نعم... وأنجيلا ويبر». بدت عليه الحيرة: «لكنك لن تذهبي إلى الحفلة! أليس هذا صحيحاً؟»

«لن أذهب يا أبي، لكنني سأساعدهما في اختيار الفساتين... أنت تعرف ذلك... تقديم نقد بنّاء!»... لو كنت أتحدث مع امرأة لما احتجت إلى هذا الشرح.

قال موقناً إنه لا يفهم أمور البنات هذه: «طيب! لا بأس... لكن، لديكم مدرسة في اليوم التالي!»

«سنذهب بعد المدرسة فوراً حتى نعود باكراً. ألن يزعجك أن تتناول الغداء وحدك؟»

قال مذكراً: «بيلا! ظللت أطعم نفسي سبعة عشر عاماً قبل أن تأتي».

تمتمت: «لا أعرف كيف بقيت حياً!»... ثم أضفت بصوت أوضح: «سأترك لك في البراد بعض الأشياء من أجل إعداد شطائر باردة... في الرف العلوي».

في اليوم التالي كان الصباح مشمساً أيضاً. استيقظت مع أمل متجدد حاولت قمعه. ولأن الجو صار أكثر دفئاً ارتديت قميصاً داكن الزرقة له قبة مثلثة... كنت أرتديه في أبرد أيام الشتاء عندما كنت في فينيكس.

خططت وقت وصولي إلى المدرسة بشكل لا يترك لي وقتاً أكثر مما يلزمني من الوصول إلى الصف. وعندما وصلت رحت أدور حتى أجد مكاناً لإيقاف السيارة؛ كان قلبي بين قدميّ لأنني كنت أيضاً أبحث عن سيارة الفولفو الفضية... من الواضح أنها لم تكن هناك.

أوقفت السيارة في الصف الأخير وأسرعت إلى درس اللغة الإنكليزية فوصلت إليه مبهورة الأنفاس قبل أن يرن الجرس الأخير.

كان الأمر مثل اليوم السابق. لم أستطع منع بذور الأمل من التفتح في ذهني... لكنها سحقت من غير رحمة عندما رحت أفتش قاعة الطعام عبثاً... وعندما جلست وحيدة إلى الطاولة في درس البيولوجيا.

عادت خطة الذهاب إلى بورت آنجلس إلى واجهة الحديث اليوم أيضاً. وقد ازدادت جاذبية في نظري لأن لورين كانت مشغولة بالتزامات أخرى. كنت مشتاقة إلى الخروج من البلدة حتى أكف عن الالتفات في كل لحظة أملاً في رؤيته يظهر فجأة كما يفعل دائماً. عاهدت نفسي على

أن أكون في مزاج حسن الليلة حتى لا أفسد فرحة أنجيلا وجيسيكا بشراء الفساتين. لعلي أقوم أيضاً بشراء بعض الملابس لنفسي. رفضت التفكير في إمكانية قيامي بالتسوق وحيدة في سياتل عند نهاية الأسبوع... ما عدت مهتمة بتلك الترتيبات السابقة. من المؤكد أنه لن يلغيها دون أن يخبرني على الأقل.

بعد المدرسة لحقت بي جيسيكا إلى المنزل في سيارتها الميركوري البيضاء القديمة حتى أضع كتبي في البيت وأوقف سيارتي. وعندما دخلت المنزل مشطت شعري بأصابعي وشعرت بشيء من الإثارة عندما رحت أفكر في أنني سأخرج من فوركس. تركت ملاحظة لتشارلي على الطاولة شرحت له فيها كيف يجد طعامه. ثم أخذت محفظتي من حقيبتي المدرسية فأفرغتها في حقيبة يد نسائية نادراً ما أستخدمها... خرجت من البيت جرياً لأنضم إلى جيسيكا بعد ذلك ذهبنا إلى بيت أنجيلا فوجدناها بانتظارنا. شعرت بالإثارة تزداد ازدياداً صاروخياً عندما تجاوزت بنا السيارة حدود البلدة.

8

بورت آنجلس

كانت جيسيكا تقود السيارة أسرع من أبي. وهكذا وصلنا إلى بورت آنجلس في الرابعة. مضى زمن طويل منذ أن ذهبت في نزهة مع صديقاتي آخر مرة... كان اندفاع الأستروجين منشطاً. استمعنا إلى أغاني الروك الصاخبة في حين كانت جيسيكا تثرثر عن الأولاد الذين نتحدث معهم. لقد كان عشاؤها مع مايك جيداً جداً وهي تأمل أن يصلا ليلة السبت إلى مرحلة القبلة الأولى. ابتسمت في نفسي مسرورة. كانت أنجيلا فرحة بالذهاب إلى الحفلة، لكنها لم تكن مهتمة بإريك فعلاً. حاولت جيسيكا جعلها تعترف بالشخص الذي تفضله لكنني قاطعتها بعد قليل بسؤال عن الفساتين... حتى أنقذ أنجيلا... فأهدتني نظرة شكر.

كانت بورت آنجلس بلدة جميلة صغيرة جذابة للسياح وكانت أكثر ترتيباً وجاذبية من فوركس. لكن أنجيلا وجيسيكا كانتا تعرفانها جيداً، لذلك لم تكن لديهما رغبة في إهدار أي وقت على طريق النزهة الخشبي بجانب الخليج. قادت جيسيكا السيارة إلى المتجر الكبير الوحيد في البلدة الذي كان يقع على مبعدة شوارع قليلة من المقهى اللطيف في منطقة الخليج.

كانت حفلة الرقص شبه رسمية. ولم نكن نعرف المقصود بتلك العبارة تحديداً. بدت جيسيكا وأنجيلا غير مصدقتين عندما قلت لهما إنني لم أذهب أبداً إلى حفلة راقصة في فينيكس.

«ألم تذهبي مع صديقك أو مع أحد؟»... سألتني جيسيكا بشك في حين كنا داخلين من باب المتجر.

حاولت إقناعها من غير أن أعترف بمشكلتي مع الرقص: «لم أذهب فعلاً... لم يكن لدي صديق في يوم من الأيام أو حتى شيء يشبه ذلك. لم أكن أخرج كثيراً».

سألتني جيسيكا: «لم لا؟»

أجبتها بصدق: «لم تأتني دعوة من أحد!»

بدا عليها الشك وذكرتني بقولها: «الناس يدعونك إلى مرافقتهم هنا... وأنت ترفضين».

كنا في قسم الفتيات الآن فرحنا ننظر إلى الرفوف بحثاً عن ملابس مناسبة.

صححت أنجيلا بهدوء: «صحيح! إلا بالنسبة لتايلر».

قلت بحدة: «عفواً!... ماذا قلت؟»

قالت جيسيكا بعينين مرتابتين: «أخبر تايلر الجميع أنه سيرافقك في حفلة التخرج».

«ماذا قال؟»... بدا الاختناق على صوتي.

همست أنجيلا لجيسيكا: «قلت لك إن الأمر غير صحيح!»

بقيت صامتة. كنت ما أزال في حالة صدمة تحولت سريعاً إلى انزعاج وغضب. لكننا عثرنا على رفوف الفساتين... أمامنا الآن عمل نقوم به.

ضحكت جيسيكا مسرورة فيما رحنا نقلب الملابس: «هذا هو سبب عدم حب لورين لك!»

صررت على أسناني: «هل تعتقدين أنه سيكف عن شعوره بالذنب بسبب الحادث إذا دهسته بسيارتي؟ وهل سيقلع عن محاولة إصلاح الأمر ويعتبر أننا تعادلنا؟»

ابتسمت جيسيكا: «ربما! إذا كان هذا هو السبب الذي جعله يفعل ذلك».

كانت مجموعة الفساتين كبيرة فعلاً... ووجدت جيسيكا وأنجيلا عدة أشياء لتجربتها. أما أنا فجلست على كرسي منخفض داخل غرفة تبديل الملابس بجانب المرآة ورحت أحاول السيطرة على غضبي.

كانت جيسيكا في حيرة بين فستانين. فستان طويل أسود دون حمالات، وفستان أزرق لامع يصل حتى الركبتين وله حمالتان ضيقتان جداً. شجعتها على أخذ الفستان الأزرق... فلماذا لا ترتدي ما يخطف الأنظار؟ اختارت أنجيلا فستاناً وردياً يلائم قوامها الطويل جيداً ويلقي انعكاسات عسلية على شعرها البني الفاتح. أكثرت من امتداح الفستانين وساعدت على إعادة بقية الملابس إلى الرفوف. كانت العملية كلها أقصر وأسهل بكثير من رحلات تسوق كثيرة مع رينيه عندما كنا في فينيكس. أعتقد أن الأمر عائد إلى محدودية الخيارات.

توجهنا إلى قسم الأحذية والاكسسوارات. اكتفيت بالمراقبة والتعليق في حين راحتا تجربان مختلف الأشياء. لم أكن في مزاج يسمح بأن أشتري شيئاً لنفسي مع أنني كنت بحاجة إلى حذاء جديد. كانت إثارة الحفلة تتلاشى في أعقاب انزعاجي من تايلر مفسحة مجالاً لعودة الكآبة إلى نفسي.

«أنجيلا!»... قلت لها بتردد حين كانت تجرب زوجاً من الأحذية له شرائط وكعب مرتفع... كانت سعيدة بأنها ترافق شاباً طويلاً إلى حد يسمح لها بارتداء حذاء عالي الكعب. أما جيسيكا فكانت قد ذهبت إلى ركن المجوهرات... بقينا وحدنا.

«ماذا؟»... قالت ذلك وهي تمد ساقها وتلوي كاحلها حتى ترى الحذاء بشكل أفضل.

جبنت عن قول ما كنت أفكر فيه: «يعجبني هذا الحذاء».

قالت مبتسمة: «أظن أنني سأشتريه رغم أنه لا يناسب شيئاً من ملابسي إلا هذا الفستان».

شجعتها: «طبعاً! اشتريه... إنه يباع بسعر مخفض». ابتسمت وأعادت إغلاق علبة فيها حذاء أبيض يبدو عملياً.

حاولت الكلام من جديد: «همم! أنجيلا...»... نظرت إلي مستغربة.

قلت ونظري مثبت على حذائي: «هل من الطبيعي أن يتغيب أبناء كولن عن المدرسة كثيراً؟»... فشلت فشلاً بائساً في محاولتي الظهور بمظهر اللامبالاة.

«نعم! عندما يكون الجو جميلاً يذهبون إلى التخييم طيلة الوقت... حتى الدكتور. إنهم يحبون الخروج كثيراً». قالت هذا بصوت هادئ وهي تتفحص حذاءها أيضاً. لم تطرح أي سؤال؛ لو كانت جيسيكا مكانها لطرحت مئات الأسئلة. بدأت أحب أنجيلا فعلاً.

أهملت متابعة الموضوع عندما عادت جيسيكا لترينا الزينة التي اختارتها حتى تناسب حذاءها الفضي.

كنا نعتزم تناول غداءنا في مطعم إيطالي عند طريق النزهة الخشبي، لكن شراء الفساتين لم يستغرق الزمن الذي توقعناه. ستأخذ جيسيكا وأنجيلا ملابسهما الجديدة إلى السيارة ثم تذهبان مشياً حتى الخليج... قلت لهما إنني سأقابلهما بعد ساعة في المطعم وإنني سأبحث عن مكتبة. كانتا راغبتين في الذهاب معي، لكنني شجعتهما على الذهاب. قلت لهما إنني أنسى كل شيء حولي عندما أكون بين الكتب، لذلك أفضل أن أذهب وحدي. ذهبتا إلى السيارة تثرثران بسعادة. أما أنا فمضيت في الاتجاه الذي دلتني جيسيكا عليه.

وجدت المكتبة بسهولة، لكنها لم تكن كما أريد. كانت الواجهات تغص بكتب عن تحقيق الأحلام والمعالجة الروحانية. لم أدخل إلى

المكتبة. ومن خلال الزجاج رأيت سيدة خمسينية لها شعر أشيب طويل يمتد على ظهرها... كانت ترتدي فستاناً من الستينات وتبتسم لي ابتسامة مرحّبة من خلف طاولتها. قررت عدم التورط في حديث معها. لابد أن في هذه البلدة مكتبة حقيقية.

تجولت في الشوارع التي بدأت تزدحم بسبب انصراف الناس من أعمالهم. سرت غير عارفة طريقي، لكني ظننت أنني متجهة إلى قلب البلدة. لم أكن منتبهة إلى وجهتي بالقدر الكافي... لقد كنت أصارع خيبتي... أحاول جاهدة عدم التفكير فيه وفي ما قالته أنجيلا... وكنت، أكثر من أي شيء آخر، أحاول كبح آمالي فيما يخص السفر يوم السبت... خشيت أن تصيبني خيبة أمل أشد ألماً من سابقاتها... جاءني هذا كله عندما رفعت رأسي فرأيت سيارة فولفو فضية واقفة في الشارع... قلت في نفسي: إنه مصاص دماء غبي لا يعتمد عليه.

رحت أسير صوب الجنوب نحو بعض المتاجر ذات الواجهات الزجاجية فقد بدت لي واعدة. لكنني وجدت أنها لم تكن إلا محلاً للتصليح ومحلاً آخر فارغاً. مازال أمامي وقت طويل حتى أذهب لملاقاة جيسيكا وأنجيلا. وكان علي أن أسيطر على مزاجي قبل لقائهما مجدداً. مررت أصابعي في شعري عدة مرات وتنفست عميقاً قبل أن أواصل سيري.

عندما اجتزت شارعاً آخر، بدأت أدرك أنني ذاهبة في الاتجاه الخاطئ. كان المشاة القلائل الذين صادفتهم يسيرون شمالاً... وبدا لي أن أكثر المباني في هذه المنطقة مستودعات. قررت أن أستدير شرقاً عند المنعطف التالي ثم أعود في الاتجاه المعاكس مسافة عدة تقاطعات حتى أجرب حظي في شارع آخر أثناء توجهي إلى المطعم الإيطالي.

رأيت مجموعة من أربعة شبان تأتي من عند الزاوية التي كنت أتوجه إليها... لم تكن ملابسهم توحي بأنهم عائدون من العمل...

وما كانت لهم هيئة السياح. وعندما اقتربوا مني أدركت أنهم ليسوا أكبر مني كثيراً... كانوا يضحكون بصوت مرتفع ويتبادلون النكات ويتدافعون بالأيدي. حاولت السير على حافة الرصيف من الداخل حتى أفسح لهم مجالاً للمرور... كنت أسير بسرعة ناظرة إلى الزاوية التي أمامي.

عندما مروا بجانبي، صاح واحد منهم: «مرحباً! أنت!»... لابد أنه يتحدث معي... ما من أحد آخر حولنا. نظرت إليه بشكل آلي. توقف اثنان منهم... وخفف الباقيان سرعتهما. يبدو أن من تكلم هو الشاب الأقرب إلي... رجل متين البنية داكن الشعر في أوائل العشرينات. كان يرتدي قميصاً قطنياً مفتوحاً فوق قميص داخلي قذر... وكان يرتدي صندلاً وجينزاً مهلهلاً. تقدم نصف خطوة باتجاهي.

أجبته برد فعل عفوي: «أهلاً!» ثم أدرت وجهي ومشيت صوب الزاوية بسرعة.

سمعتهم يضحكون بصوت عال من خلفي.

صاح أحدهم ثانية: «انتظري!»... لكنني تابعت سيري حول الزاوية ورأسي مطرق إلى الأرض. مازلت أسمع ضجيجهم من خلفي.

وجدت نفسي على رصيف يؤدي إلى خلف عدد من المستودعات قاتمة اللون لكل منها بوابة ضخمة من أجل تفريغ الشاحنات... وكانت تلك البوابات مقفلة بسبب انتهاء وقت العمل. كان الجانب الجنوبي من الشارع من غير رصيف... مجرد سياج عليه أسلاك شائكة تسور ساحة بدت مثل مستودع لقطع محركات السيارات. يبدو أنني تجاوزت كثيراً ذلك الجزء من البلدة الذي يذهب إليه الزوار عادة. أدركت أن الظلام بدأ يحل... عادت الغيوم أخيراً تتكوم عند الأفق الغربي فعجلت اختفاء الشمس. مازالت السماء صافية من جهة الشرق. لكنها بدأت تظلم... وكانت تتخللها غيوم خفيفة وردية وبرتقالية. شعرت برجفة مفاجئة

جعلتني ألف نفسي بذراعي فقد تركت سترتي في السيارة. مرت بي سيارة شاحنة صغيرة... ثم صار الشارع مقفراً.

ازدادت الظلمة بشكل مفاجئ... نظرت فوق كتفي إلى الغيمة التي سببت ذلك فرأيت رجلين يسيران بهدوء على مسافة خمسة أمتار خلفي.

كانا من المجموعة نفسها التي مررت بها عند الزاوية... ولم يكن الشخص الذي كلمني من بينهما. نظرت أمامي فوراً وأسرعت الخطى. شعرت برجفة جديدة لم تكن بسبب البرد هذه المرة. كانت حقيبتي معلقة عند وسطي... وكان سيرها الطويل على الكتف الآخر... هكذا يجب وضع الحقيبة حتى لا يخطفها أحد. تذكرت الآن أين وضعت علبة بخاخ الفلفل... مازالت في حقيبتي تحت سريري... لم أفتحها أبداً. لم تكن معي نقود كثيرة... عشرين دولاراً أو أكثر قليلاً... فكرت في أن أجعل محفظتي تسقط إلى الأرض «مصادفة» وأن أتركها وأمضي. لكن صوتاً صغيراً مذعوراً همس في زاوية من عقلي محذراً من أنهم قد يكونوا أسوأ من مجرد لصوص.

أصغيت بانتباه إلى وقع أقدامهم الهادئ... كانت خطواتهم هادئة بشكل غير طبيعي إذا قورنت بالضجيج الشديد الذي كان صادراً عنهم قبل قليل. لم أشعر أنهم يحاولون زيادة سرعتهم أو الاقتراب مني أكثر. قلت لنفسي: اهدئي... من قال إنهم يتبعونك؟... واصلت السير بأسرع ما أستطيع دون أن أجري. كنت أركز انتباهي على المنعطف الذي صار الآن على مسافة أمتار قليلة مني. مازلت أستطيع سماعهم يسيرون خلفي على نفس المسافة مني. جاءت سيارة زرقاء من جهة الجنوب ومرت بجانبي سريعاً. فكرت في القفز أمامها لكنني ترددت غير واثقة من أنهم يتبعونني فعلاً... ثم مضت السيارة.

وصلت إلى الزاوية. لكنني تبينت من نظرة سريعة أنها بداية ممرّ سيارات مسدود يفضي إلى خلفية بناء آخر. كنت قد بدأت الانعطاف

فصار علي أن أسرع بتصحيح مساري وأعود إلى الرصيف. انتهى الشارع عند الزاوية التالية. وكانت تنتصب عندها إشارة «قف» للسيارات. ركزت انتباهي إلى وقع الخطوات الخافت من خلفي حتى أقرر ما إذا كان علي الجري. بدا صوت خطواتهم أبعد من السابق، لكنني كنت أعرف أنهم يستطيعون اللحاق بي رغم ذلك. وكنت واثقة من أنني سأتعثر وأسقط إذا حاولت زيادة سرعتي... صار صوت الخطوات أبعد من خلفي. غامرت بإلقاء نظرة خاطفة من فوق كتفي فرأيت أنهم صاروا على مسافة عشرة أمتار مني... شعرت ببعض الراحة. لكنهما كانا ينظران نحوي.

بدا لي أن العودة إلى الرصيف استغرقت دهراً. حافظت على انتظام خطواتي... وكانت مسافة الرجلين عني تزداد قليلاً مع كل خطوة. لعلهما أدركا أنهما سببا لي الخوف من غير قصد. رأيت سيارتين متوجهتين شمالاً تعبران التقاطع الذي كنت أسير نحوه فتنفست الصعداء. سأجد بعض الناس عندما أنتهي من هذا الشارع المهجور. وصلت إلى التقاطع وانعطفت حول الزاوية مطلقة زفرة ارتياح.

لكنني توقفت.

كان الشارع محاطاً من جانبيه بجدران مصمتة دون نوافذ أو أبواب. ورأيت من بعيد... على مسافة تقاطعين... سيارات ومصابيح شوارع وعدداً من الناس... لكن ذلك كان بعيداً جداً. وفي منتصف ذلك الشارع قبالة المبنى الغربي كان الرجلان الآخران من المجموعة... كانا ينظران إلي بابتسامة مستثارة عندما تجمدت واقفة على الرصيف. عرفت عند ذلك أن السائرين خلفي لم يكونا يلاحقاني... كانا يسوقاني سوقاً إلى هنا.

توقفت ثانية واحدة... لكنها بدت وقتاً طويلاً جداً. استدرت وانطلقت إلى الجانب الآخر من الشارع. أحسست بيأس أنها محاولة عديمة الجدوى... صار صوت الخطوات من خلفي أعلى من ذي قبل.

حطم الهدوء المتوتر صوت الرجل ذي الشعر الداكن: «ها أنتم!»... فأجفلني. في الظلمة المتزايدة، بدا كأنه ينظر إلى ما خلفي.

«نعم!»... قالها صوت مرتفع من خلفي فجعلني أجفل ثانية... حاولت زيادة سرعتي... «قمنا بجولة صغيرة!»

كان علي أن أبطئ الآن. لقد كانت المسافة بيني وبين الرجلين الواقفين تتقلص بسرعة كبيرة. كنت أستطيع الزعيق عالياً، فملأت رئتي بالهواء مستعدة للزعيق، لكن حلقي كان شديد الجفاف ولم أعرف إن كنت أستطيع الزعيق بصوت عالٍ. نزعت سير حقيبتي فأمسكتها بيد واحدة استعداداً للتخلي عنها أو لاستخدامها سلاحاً... حسب الحاجة.

انفصل أحد الرجلين عن الجدار عندما رآني أتوقف. ثم سار عبر الشارع نحوي.

حذرته بصوت أردته أن يبدو قوياً دون خوف: «ابتعد عني!»... لكن ما توقعته بشأن حلقي الجاف كان صحيحاً... لم يخرج صوتي.

قال لي: «لا تكوني هكذا يا حلوة!»... فبدأ الضحك الصاخب من خلفي.

تأهبت... باعدت بين قدمي محاولة أن أتذكر، رغم رعبي، ما أعرفه من الدفاع عن النفس، وهو قليل... قبضة اليد إلى الأعلى لكسر أنف الخصم... إدخال الإصبع في محجر العين ومحاولة اقتلاعها... وطبعاً، الضرب بالركبة بين الساقين. عاد الصوت المتشائم نفسه في ذهني فذكرني أن لا فرصة لدي، على الأرجح، حتى في مواجهة واحد منهم... فكيف وهم أربعة؟ قبل أن يستطيع الخوف أن يشلني قلت لذلك الصوت: اسكت!... لن أستسلم من غير قتال... حاولت ترطيب حلقي حتى أستطيع الصراخ جيداً.

فجأة... رأيت أضواء سيارة تأتي من عند الزاوية... كادت السيارة تصدم الرجل الذي اقترب مني فاضطر إلى القفز عائداً إلى الرصيف...

اندفعت في الشارع... سوف تتوقف هذه السيارة. وإلا فسوف تصدمني. لكن السيارة الفضية انعطفت فجأة على نحو غير متوقع وتوقفت فرأيت بابها مفتوحاً على مسافة أقدام قليلة مني.

أمرني صوت غاضب: «اصعدي إلى السيارة».

عجيب كيف اختفى خوفي القاتل فجأة فور سماعي صوته... عجيب كيف أحاط بي شعور من الأمان... حتى قبل أن أصبح داخل السيارة. قفزت داخل السيارة وأغلقت الباب. كانت مظلمة من الداخل. لم يضئ المصباح الداخلي عند فتح الباب. رأيت وجهه بشكل غائم على ضوء لوحة عدادات السيارة. زعقت عجلات السيارة عندما انعطفت بحدة صوب الشمال... كان تسارعها كبيراً جداً... انعطفت قليلاً باتجاه الرجال الذين أذهلتهم المفاجئة. رأيتهم يقفزون إلى الرصيف بلمح البصر في حين عاد مسار السيارة إلى الاستقامة ومضت سريعاً باتجاه الميناء.

قال لي: «ضعي حزام الأمان». أدركت عندها أنني أمسك المقعد بيدي الاثنتين. أطعته بسرعة... جاءني صوت لسان الحزام المعدني عندما استقر في مكانه عالياً جداً في تلك الظلمة. انعطف بحدة إلى اليسار وزاد من سرعة السيارة متجاوزاً عدة إشارات ثم توقّف من غير أن يتمهل.

لكنني شعرت بأمان كامل... لم أهتم في تلك اللحظة بشأن وجهتنا... إطلاقاً. نظرت إلى وجهه براحة عميقة... راحة تتجاوز إنقاذي المفاجئ. رحت أدرس ملامحه في ذلك الضوء الشحيح وأنا أنتظر عودة تنفسي إلى حالته الطبيعية... حتى أدركت أن تعبير وجهه كان غاضباً إلى حد قاتل.

سألته: «هل أنت بخير؟»... فاجأتني خشونة صوتي.

قال باقتضاب فظ: «لا!»... كانت نبرة صوته جافة.

جلست صامتة أراقب وجهه... كانت عيناه المتقدتان تحدقان إلى الأمام إلى أن توقفت السيارة فجأة. نظرت من حولي، لكن الظلام كان شديداً فلم أر شيئاً سوى أشكال غامضة لأشجار داكنة على جانب الطريق.

لم نكن داخل البلدة.

سألني بصوت جاف كان يحاول ضبطه: «بيلا؟»

«نعم!»... مازال صوتي خشناً... حاولت تنظيف حنجرتي بصمت.

«هل أنت بخير؟»... مازال لا ينظر إلي. لكن الغضب كان واضحاً على وجهه.

قلت بنعومة: «نعم».

قال آمراً: «قولي شيئاً مسلّياً من فضلك».

«عفواً! ماذا؟»

استنشق الهواء بعصبية وشرح لي مغمضاً عينيه ضاغطاً أنفه بين سبابته وإبهامه: «تحدثي عن أي شيء غير مهم ريثما أستعيد هدوئي».

رحت أفتش في ذهني عن شيء لا أهمية له: «سوف أدهس تايلر كراولي بالسيارة غداً قبل المدرسة!»

مازال يضغط على أنفه... لكن زاوية فمه انفرجت قليلاً وقال: «لماذا؟»

«يقول للجميع إنه سيصحبني إلى حفلة التخرج... إما أنه مجنون أو أنه مازال يحاول الاعتذار عن أنه كاد يقتلني في ذلك الحادث... أنت تذكره... وهو يظن أن حفلة التخرج وسيلة مناسبة للاعتذار. لذلك فكرت أن أعرّض حياته إلى الخطر حتى نصبح متعادلين ويكف عن محاولته هذه. لست بحاجة إلى أعداء. وأظن أن لورين ستكف عن معاداتي إذا ابتعد عني. لعل علي تحطيم سيارته، رغم ذلك. إذا لم تعد

لديه سيارة فلن يستطيع أخذ أي فتاة إلى حفل التخرج»... هكذا رحت أثرثر.

«سمعت شيئاً عن ذلك»... بدا صوته مرتاحاً قليلاً.

سألته غير مصدقة وقد عاد إلي انزعاجي القديم: «هل سمعت حقاً؟»... «إذا أصيب جسمه كله بالشلل فلن يستطيع الذهاب إلى حفلة التخرج أيضاً»... دمدمت وأنا أدخل هذا التحسين على خطتي.

تنهد إدوارد وفتح عينيه أخيراً.

سألته: «أفضل؟»

«في الحقيقة، لا!»

انتظرت، لكنه لم يتكلم ثانية. أسند رأسه إلى المقعد وراح يحدق في سقف السيارة. كان وجهه متوتراً.

«ما الأمر؟»... خرج صوتي همساً.

«بيلا، أنا أعاني مشكلة مع مزاجي أحياناً»... كان يهمس أيضاً... نظر من النافذة وضاقت عيناه: «لكن لن يفيدني في شيء لو أنني عدت لأصطاد هؤلاء الـ...» لم يكمل جملته. أشاح بوجهه محاولاً السيطرة على غضبه من جديد. ثم واصل كلامه: «هذا ما أحاول إقناع نفسي به... على الأقل!»

«أوه!»... بدت هذه الكلمة غير كافية. لكن لم يخطر ببالي ما هو أفضل منها.

ظللنا جالسين في الظلمة. نظرت إلى ساعة السيارة... تجاوزت الساعة السادسة والنصف.

تمتمت: «لابد أن أنجيلا وجيسيكا قلقتان الآن... كان يفترض أن أنضم إليهما».

أدار محرك السيارة دون أي كلمة وانعطف بها بهدوء ثم زاد من سرعتها باتجاه البلدة. سرعان ما دخلنا شوارع البلدة. كانت السيارة

تمضي بسرعة كبيرة منعطفة بيسر بين السيارات البطيئة في الشارع. أوقف السيارة في فسحة بدت لي أصغر من أن تتسع لها. لكنه انزلق في تلك الفسحة بكل سهولة من المحاولة الأولى. نظرت من النافذة فرأيت مطعم «لا بيلا إيطاليا»... كانت جيسيكا وأنجيلا تغادران المطعم مبتعدتين عن حيث كنا.

قلت: «كيف عرفت أين...؟»... لكنني هززت رأسي متخلية عن السؤال. سمعت صوت بابه ينفتح، ونظرت فرأيته يخرج من السيارة.

سألته: «ماذا تفعل؟»

ابتسم ابتسامة صغيرة لكن عينيه ظلتا صارمتين: «آخذك إلى الغداء!»... خرج من السيارة وأغلق الباب. ارتبكت وأنا أفك حزام الأمان. ثم أسرعت بالخروج من السيارة. كان ينتظرني على الرصيف.

قال قبل أن أستطيع الكلام: «اذهبي لإيقاف جيسيكا وأنجيلا قبل أن أضطر إلى إنقاذهما أيضاً. لا أعتقد أنني سأستطيع ضبط نفسي إذا صادفت أصدقاءك من جديد!»

ارتجفت بسبب ذلك التهديد في صوته.

صرخت في إثرهما: «جيسيكا! أنجيلا!»... لوحت بيدي عندما استدارتا فعادتا مسرعتين إلي. وفي وقت واحد، تغير تعبير الراحة الواضح على وجهيهما إلى تعبير دهشة عندما شاهدتا الشخص الواقف بجانبي. وقفتا مترددتين على مسافة صغيرة منا.

قالت جيسيكا بريبة: «أين كنتما؟»

اعترفت بإذعان: «لقد ضعت! ثم صادفت إدوارد»... وأشرت إليه.

سأل بصوته الحريري الذي لا يقاوم: «هل تمانعون في انضمامي إليكم؟»... فهمت من التعبير الذي ارتسم على وجهيهما أنه لم يستخدم مواهبه مع أي منهما من قبل.

قالت جيسيكا همساً: «آآ... لا طبعاً!»

قالت أنجيلا: «الواقع يا بيلا هو أننا أكلنا فيما كنا ننتظر... آسفة!»

ابتسمت: «لا بأس أبداً. . لست جائعة».

قال إدوارد بصوت منخفض لكنه آمر: «أعتقد أنك يجب أن تأكلي شيئاً». نظر إلى جيسيكا بصوت أعلى قليلاً: «هل تسمحن لي بأن أقوم بإيصال بيلا إلى منزلها الليلة؟ بهذه الطريقة، لن تكونا مضطرتين إلى انتظارها ريثما تأكل».

«أوه! لا مشكلة... كما أظن...» عضت على شفتها محاولة أن تفهم من وجهي ما إذا كان هذا ما أريده فعلاً. أشرت إليها بالإيجاب. لم أكن أريد شيئاً أكثر من أن أكون وحدي مع منقذي الدائم. عندي أسئلة كثيرة لا أستطيع قصفه بها إلا إذا كنا وحدنا.

كانت أنجيلا أسرع من جيسيكا فقالت: «لا بأس! نراكم غداً، بيلا... إدوارد!»... أمسكت بيد جيسيكا وشدتها صوب السيارة التي كانت واقفة على مسافة قريبة منا. وعندما صارتا داخل السيارة استدارت جيسيكا ولوحت بيدها... كان وجهها يشع فضولاً. لوحت لها ثم انتظرت حتى ابتعدت السيارة... استدرت ووقفت قبالته: «صدقاً، لست جائعة!»... قلت بإصرار وأنا أبحث في وجهه. كان تعبيره غير مقروء.

ذهب إلى باب المطعم ففتحه، وكان على وجهه تعبير معاند... واضح!... لا مزيد من النقاش. دخلت المطعم وأطلقت زفرة استسلام عندما مررت بإدوارد الواقف عند الباب.

لم يكن المطعم مزدحماً... ما كان ذلك وقت الموسم السياحي في بورت آنجلس. جاءت المضيفة إلينا... فهمت النظرة في عينيها عندما راحت تعاين إدوارد... رحبت به بحرارة زائدة!... فوجئت بأن ذلك أزعجني. أزعجني كثيراً!... كانت أطول مني بعشر سنتيمترات، وكان شعرها مصبوغاً باللون الأشقر.

«هل لديك طاولة لشخصين؟»... كان صوته مغرياً سواء كان يقصد ذلك أو لا. رأيت عينيها تنظران إلي ثم تشيحان بعيداً مرتاحتين لمظهري العادي وللمسافة التي كان إدوارد يحافظ عليها بيننا دون أن يلمسني. قادتنا إلى طاولة كبيرة تتسع لأربعة أشخاص. كانت الطاولة في وسط المنطقة الأكثر ازدحاماً في المطعم.

هممت بالجلوس، لكن إدوارد هز رأسه وقال للمضيفة بصوت هادئ مصر: «هل لديك طاولة أكثر خصوصية؟»... لست واثقة، لكنني أظن أنه ناولها بقشيشاً. لم أر من قبل أحداً يرفض طاولة في مطعم إلا في الأفلام القديمة.

قالت: «طبعاً!»... بدت عليها الدهشة مثلي... استدارت ثم تقدمتنا والتفت حول حاجز رأيت خلفه حلقة صغيرة من الكراسي... كانت كلها فارغة... «ما رأيك بهذه؟»

«ممتازة!»... ابتسم إدوارد ابتسامته المشرقة فجعلها تحس بالدوار لحظةً.

هزت رأسها طارفة بعينيها: «ستأتي العاملة فوراً لتسجيل طلبكم»... ثم مضت بخطى غير ثابتة.

قلت له منتقدة: «لا يجوز أن تفعل هذا بالناس... هذا ليس عدلاً».

«أفعل ماذا؟»

«أقصد أن تبهر الناس بهذا الشكل... لعلها تستعيد أنفاسها في المطبخ الآن».

بدت عليه الحيرة.

قلت بتردد: «مهلاً! لابد أنك تعرف مدى تأثيرك على الناس».

مال برأسه جانباً وبدا الفضول في عينيه: «هل أبهر الناس؟»

«ألم تلاحظ هذا؟ هل تعتقد أن هذا سهل على الجميع؟»

تجاهل سؤالي: «هل أبهرك أنت؟»

قلت معترفة: «مرات كثيرة!»

جاءت عاملة الخدمة في تلك اللحظة... كان الترقب ظاهراً على وجهها. لابد أن المضيفة أخبرتها عن إدوارد... لم تظهر أي خيبة على وجه الفتاة الجديدة... وضعت خصلة من شعرها الأسود القصير خلف أذنها ثم ابتسمت بدفء لا مبرر له: «مرحباً! أنا آمبر. وسوف أخدمكم الليلة. ماذا تشربون؟»... لم تفتني ملاحظة أنها كانت تتحدث معه فقط.

نظر إدوارد إلي.

«سأشرب كولا»... بدت إجابتي مثل سؤال.

قال: «اثنان من الكولا».

قالت له بابتسامة أخرى لا داعي لها: «سأحضرهما فوراً»... لكنه لم ير ابتسامتها تلك. كان ينظر إلي.

سألته عندما ذهبت: «ماذا؟»

ظلت نظراته ثابتة على وجهي: «كيف تشعرين الآن؟»

أجبته وقد فاجأني توتره: «أنا بخير».

«هل تشعرين بدوار أو غثيان أو برد...؟»

«ولماذا أشعر بهذا؟»

ابتسم عندما سمع نبرة صوتي الحائرة.

«في الواقع... أنا أنتظر لأرى كيف يكون شكلك عندما أبهرك!»... ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الماكرة الرائعة.

قلت بعد أن استعدت أنفاسي: «لا أعتقد أن ذلك سيحدث... أنا ناجحة جداً في كبت التعبير عن الأشياء غير السارة».

«لن يتغير الأمر... سوف أشعر براحة أكبر عندما تتناولين بعض الطعام».

جاءت عاملة الخدمة سريعاً حاملة الشراب مع سلة من قطع الخبز. أولتني ظهرها عندما راحت تضع ما بيديها على الطاولة.

سألت العاملة إدوارد: «هل أنتم جاهزون للطلب؟»

سألني: «بيلا؟»... استدارت العاملة صوبي من غير رغبة.

اخترت أول ما وقعت عليه عيني في القائمة: «همم... أريد معكرونة بالفطر».

استدارت العاملة إليه مبتسمة: «وأنت؟»

قال: «لا أريد شيئاً!»... طبعاً... لا يريد شيئاً.

«أخبرني إذا غيرت رأيك»... مازالت ابتسامتها الدافئة كما هي، لكنه لم يكن ينظر إليها، فابتعدت غير راضية.

أمرني قائلاً: «اشربي!»

بدأت أشرب طائعة. ثم رحت أشرب بنهم وقد فاجأني عطشي. عندما دفع كأسه نحوي أدركت أنني أفرغت كأسي كلها.

تمتمت وأنا مازلت أشعر بالعطش: «شكراً».

... امتدت برودة الشراب إلى صدري فارتجفت.

«هل تشعرين بالبرد؟»

قلت وأنا أرتجف من جديد: «إنه الشراب!»

قال بنبرة لوم: «ألم تجلبي سترة؟»

«نعم!»... نظرت إلى الكرسي الفارغ بجانبي... «آه، تركتها في سيارة جيسيكا».

خلع إدوارد سترته. لاحظت فجأة أنني لم أنتبه من قبل إلى ملابسه. لا أقصد اليوم فقط، بل دائماً. يبدو أنني لا أستطيع النظر إلى غير وجهه. أرغمت نفسي على تفحص ثيابه. كان الآن يخلع سترته الجلدية البنية الخفيفة. كان يرتدي تحتها قميصاً عاجياً مستدير الياقة على

قياسه تماماً... وكانت عضلات صدره واضحة من تحته.

ناولني السترة غير عابئ باحتجاجي.

قلت من جديد: «شكراً». وارتديت السترة.

كانت سترته باردة... كما تكون سترتي عندما أتناولها صباحاً عن المشجب وأرتديها. ارتجفت من جديد. كانت رائحتها لطيفة. استنشقت الرائحة من جديد محاولة تحديد تلك الرائحة الطيبة. لم تكن مثل رائحة الكولونيا. كانت أكمام السترة طويلة جداً فرددتها إلى الخلف حتى أحرر كفيّ.

قال وهو يراقبني: «يبدو هذا اللون جميلاً عليك!»... فوجئت فأطرقت برأسي واحمرّ وجهي... طبعاً.

دفع إلي سلة الخبز فقلت محتجة: «لست أشعر بالصدمة حقاً».

«يجب أن تشعري بالصدمة... هذا ما يشعر به أي شخص عادي. لا تبدو عليك الصدمة أبداً»... بدا غير مرتاح... حدق في عينيّ فرأيت كم كانت عيناه فاتحتين... فاتحتين أكثر مما ظننت... كان لونهما ذهبياً خفيفاً.

اعترفت قائلة: «أشعر بأمان شديد معك!»... كنت مسحورة، فوجدت نفسي أقول الحقيقة من جديد.

لم يكن مسروراً بما قلت... عبس وهز رأسه متمتماً كمن يتحدث مع نفسه: «صار الوضع أكثر تعقيداً مما تصورت».

التقطت قطعة خبز وقضمت طرفها وأنا أدرس تعبير وجهه... متى يصبح الوضع مناسباً حتى أبدأ أسئلتي؟

«عادة ما تكون في مزاج أفضل عندما يكون لون عينيك فاتحاً هكذا»... قلت هذا محاولة انتزاعه من الأفكار التي جعلته عابساً، مهما تكن تلك الأفكار.

نظر إلي بدهشة: «ماذا؟»

مضيت في حديثي: «عادة ما تكون منزعجاً عندما تكون عيناك داكنتين... أتوقع انزعاجك عندما أراهما داكنتين... لدي نظرية عن ذلك».

ضاقت عيناه: «نظريات جديدة؟»

«همم... همم!» رحت أمضغ قطعة الخبز محاولة إظهار اللامبالاة.

قال بابتسامة صغيرة مداعبة، لكن عينيه ظلتا مشدودتين: «آمل أن تكون نظريتك أكثر إبداعاً هذه المرة... أم أنك ما زلت تسرقين نظرياتك من الكتب الفكاهية؟»

اعترفت: «لا، لم أسرقها من كتاب فكاهي... لكنني لم أتوصل إليها وحدي أيضاً». قال يحثني على المتابعة: «وماذا؟»

لكن العاملة جاءت في تلك اللحظة حاملة طعامي. أدركت أننا كنا منحنيين... متقاربين، وذلك لأننا انتصبنا عند ظهورها. وضعت الطبق أمامي... كان شهي المظهر... ثم استدارت بسرعة نحو إدوارد.

سألته: «هل غيرت رأيك؟ هل تريد أن أجلب لك شيئاً؟»... لعلني تخيلت معنى مزدوجاً في كلماتها.

«لا، شكراً لك، لكن مزيداً من الكولا سيكون أمراً جيداً»... قال هذا مشيراً بيده إلى الكأسين الفارغتين أمامي.

«طبعاً!»... حملت الكأسين ومضت.

قال: «كنت تقولين...؟»

«سأخبرك بذلك في السيارة. إذا...» توقفت لحظة.

قال بصوت منذر وهو يرفع حاجبه: «لديك شروط!»

«لدي بعض الأسئلة طبعاً!»

«طبعاً!»

عادت العاملة بكأسين جديدتين. وضعتهما على الطاولة ثم ذهبت... لم تنطق بكلمة هذه المرة.

أخذت رشفة من كأسي.

مازال وجهه صارماً... استحثني بقوله: «طيب! تابعي».

بدأت بأبسط الأسئلة... هكذا ظننت: «لماذا أنت في بورت آنجلس؟»

أطرق برأسه وضم راحتيه الكبيرتين ببطء فوق الطاولة. لمعت عيناه باتجاهي من خلال أهدابه... «السؤال التالي؟»... أحسست من صوته أنه ابتسم ابتسامة متكلفة.

قلت معترضة: «لكن، هذا أسهل الأسئلة».

كرر قوله: «السؤال التالي؟»

أطرقت بانزعاج. فتحت غلاف أدوات الطعام. أمسكت الشوكة وغرزتها بحذر في قطعة من المعكرونة. وضعتها في فمي ببطء... مازال نظري مثبتاً إلى الطاولة... بدأت أمضغ اللقمة وأفكر. كان الفطر لذيذاً. ابتلعت ما بفمي وأخذت رشفة من كأسي قبل أن أرفع رأسي من جديد.

«طيب، إذن!»... نظرت غاضبة إليه وتابعت الكلام ببطء: «لنقل، على سبيل الافتراض طبعاً، إن... شخصاً... يستطيع معرفة ما يفكر فيه الناس... يقرأ ما برؤوسهم... مع وجود استثناءات قليلة...»

صحح قائلاً: «مع استثناء واحد... على سبيل الافتراض...»

«لا بأس... مع استثناء واحد. عند ذلك...»

شعرت بالنشوة لعبثه. لكنني حاولت أن أبدو غير مهتمة.

«كيف يجري ذلك؟ ما هي الحدود؟ كيف يحدث... أن أحداً... يجد شخصاً آخر في الوقت المناسب تماماً؟ كيف يعرف أنه في مأزق؟»

لم أكن واثقة من أن شيئاً يمكن أن يفهم من أسئلتي المضطربة.

قال: «تتحدثين على سبيل الافتراض طبعاً!»

«طبعاً!»

«طيب! إذا... ذلك الشخص...»

اقترحت: «لنطلق عليه اسم جو».

ابتسم ساخراً: «جو! لا بأس... إذا كان جو منتبهاً فعلاً فلا حاجة لأن يكون التوقيت دقيقاً تماماً»... هز رأسه مع نظرة غريبة في عينيه: «أنت فقط من يمكن أن يقع في المتاعب في بلدة بهذا الصغر. هل تعرفين أنك كدت تفسدين سجلها العريق من حيث ندرة الجرائم فيها منذ عشرة سنين؟»

ذكرته بصوت بارد: «كنا نتحدث عن حالة افتراضية».

ضحك لي... كانت عيناه دافئتين.

وافقني القول: «نعم! كنا نتحدث عن حالة افتراضية... هل ندعوك باسم جين؟»

سألته غير قادرة على لجم توتري: «كيف عرفت؟»... أدركت أنني رحت أنحني نحوه من جديد.

بدا عليه التردد كأنه ممزق بين أفكار متضاربة. التحمت عيناه بعيني فعرفت أنه يتخذ القرار في تلك اللحظة بأن يخبرني الحقيقة أو لا يخبرني بها.

تمتمت: «تعرف أنك تستطيع الثقة بي!»... مددت يدي دون تفكير محاولة لمس يديه المعقودتين لكنه أزاحهما إلى الخلف قليلاً... سحبت يدي.

جاءني صوته شبه هامس: «لا أعرف إن كان لدي خيار بعد الآن... لقد كنت مخطئاً... أنت أشد ملاحظة مما اعتقدت».

«ظننت أنك أنت المحق دائماً».

«هكذا أكون عادةً»... هز رأسه من جديد... «أخطأت الحكم عليك في أمر آخر أيضاً. أنت لست مغناطيساً يجتذب الحوادث... ليس هذا التعريف واسعاً بما يكفي لوصفك. أنت مغناطيس لجميع أنواع المشاكل. إن كان ثمة شيء خطير ضمن دائرة قطرها عشرة كيلومترات فسوف يعثر عليك دون أي شك».

قلت له كمن يحزر أمراً: «وأنت تصنف نفسك ضمن فئة الأشياء الخطيرة!»

صار وجهه بارداً من غير تعبير: «من غير شك!»

مددت يدي عبر الطاولة من جديد... سحب يديه إلى الخلف قليلاً من جديد... تجاهلت حركته... وبخجل لمست ظهر يده برؤوس أصابعي. كان جلده بارداً صلباً كالحجر.

«شكراً لك!»... كان صوتي ينضح شكراً وعرفاناً... «إنها المرة الثانية».

رق وجهه وقال: «فلنحاول ألا نصل إلى الثالثة... موافقة؟»

تجهم وجهي... لكني أومأت برأسي موافقة. أبعد يده عن يدي ثم وضع يديه تحت الطاولة... لكنه مال باتجاهي.

أقر متعجلاً: «لقد لحقت بك إلى بورت آنجليس... لم أحاول من قبل المحافظة على حياة شخص بعينه... هذا الأمر أصعب مما كنت أظن. لكن، لعل الصعوبة بسبب كونك أنت هي ذلك الشخص. فالناس عادة يمضون أيامهم من غير هذه الكمية الكبيرة من المصائب»... توقف قليلاً فتساءلت ما إذا كان لحاقه بي يزعجني؛ لكنني شعرت بموجة عارمة من الفرحة. راح ينظر إلي. لعله يستغرب الآن سبب تلك الابتسامة غير الإرادية على شفتي.

قلت مخمنة ومحاولة إلهاء نفسي: «هل فكرت في يوم من الأيام

في أن أجلي قد حان يوم حادثة الشاحنة... وأنك كنت تتدخل في مسار القدر؟»

قال بصوت قاس يصعب تحمل سماعه: «لم تكن المرة الأولى!»... حدقت فيه مدهوشة لكنه كان مطرق الرأس: «حان أجلك منذ رأيتك أول مرة».

شعرت بنوبة من الخوف بسبب كلماته وتذكرت للحظة نظرته السوداء العنيفة نحوي في ذلك اليوم الأول... لكن شعور الأمان الغامر الذي أُحسَه في وجوده قلل من خوفي. لم يبق أثر من الخوف في نظراتي عندما رفع عينيه أخيراً حتى يقرأ عينيّ.

سألني ووجهه الملائكي يبدو جاداً: «هل تتذكرين؟»

قلت: «نعم!»... كنت هادئة تماماً.

«وها أنت جالسة هنا»... كان في صوته شيء من عدم التصديق.

«نعم... أجلس هنا... بسببك أنت!»... توقفت لحظة ثم قلت: «لأنك عرفت كيف تجدني اليوم...»

ضغط على شفتيه... ضاقت عيناه... نظر إلي نظرة من يحاول اتخاذ قرار. اتجهت عيناه إلى صحني المملوء ثم عادتا إلي: «أنا أتكلم... وأنت تأكلين»... قالها كمن يقترح صفقة.

وضعت بسرعة لقمة جديدة في فمي.

«كان اللحاق بك أصعب مما يجب أن يكون... أستطيع عادة العثور على أي شخص بسهولة كبيرة إذا كنت قد استمعت إلى أفكاره من قبل»... نظر إلي قلقاً فأدركت أنني تجمدت. أجبرت نفسي على ابتلاع اللقمة ثم وضعت في فمي لقمة غيرها.

«كنت أتعقبك من خلال جيسيكا دون كبير انتباه... كما قلت لك، أنت وحدك من يمكن أن يصادف المتاعب في بورت آنجلس... لم أنتبه في البداية إلى أنك ذهبت وحدك. ثم، عندما أدركت أنك ما عدت مع

جيسيكا، ذهبت أبحث عنك في المكتبة التي رأيتها في أفكارها. عرفت أنك لم تدخلي إلى تلك المكتبة وأنك توجهت جنوباً... وعرفت أيضاً أنك ستعودين أدراجك قريباً. لذلك رحت أنتظرك باحثاً بشكل عشوائي في أفكار الناس الذين في الشارع حتى أرى إن كان احد منهم قد رآك فأعرف مكانك. لم يكن لدي سبب للشعور بالقلق... لكني شعرت بريبة غريبة...». كان سارحاً في أفكاره محدقاً في شيء يتجاوزني وناظراً إلى أشياء لم أكن أستطيع تخيلها.

«تابعت قيادة السيارة في دوائر... وواصلت الإصغاء إلى أفكار الناس. غربت الشمس أخيراً. وكنت على وشك ترك السيارة والبحث عنك سيراً على الأقدام. وعند ذلك...» توقف عن الكلام مطبقاً أسنانه بغضب مفاجئ... كان يبذل جهداً من أجل تهدئة نفسه.

همست: «عند ذلك... ماذا؟»... تابع التحديق فوق رأسي.

«عند ذلك سمعت ما كانوا يفكرون فيه»... كشّر قليلاً فارتفعت شفته العليا كاشفةً أسنانه... «رأيت وجهك في أفكاره»... انحنى إلى الأمام فجأة مغطياً عينيه بيده فظهر مرفقه فوق الطاولة. كانت حركته سريعة إلى حد أجفلني.

«كان الأمر صعباً جداً... لا تستطيعين تخيل مدى صعوبته... أن أكتفي بأخذك وأتركهم... أحياء!» كان وجهه الآن مختفياً خلف ذراعه... «كنت أستطيع تركك تعودين مع جيسيكا وأنجيلا. لكني خفت أن أعود من أجل البحث عنهم إذا تركتني وحدي»... اعترف بهذا هامساً.

جلست هادئة أشعر بالدوار... كانت أفكاري مشوشة. كانت يديّ معقودتان في حضني. وكنت مستندة بضعف إلى ظهر الكرسي. مازال يغطي وجهه بيده... كان ساكناً جداً كأنه نحت من ذلك الحجر الذي لمسته في جلد يده.

نظر إلي أخيراً. بحثت عيناه عن عيني... كانتا غاصتين بأسئلته هو... سألني: «هل أنت جاهزة للعودة إلى البيت؟»

قلت: «أنا جاهزة للذهاب». كنت راضية جداً لأن أمامنا ساعة نمضيها في السيارة معاً. لم أكن مستعدة لوداعه الآن.

جاءت عاملة الخدمة كما لو أننا ناديناها... لعلها تراقبنا. سألت إدوارد: «كيف الحال؟»

«الحساب من فضلك... شكراً لك»... كان صوته هادئاً لكنه أكثر خشونة... مازال يعكس توتر حديثه... أفقدها صوته رشدها... نظر إليها منتظراً.

قالت متلعثمة: «طبعاً!... تفضل» وأخرجت مصنفاً جلدياً صغيراً من جيب مريلتها السوداء، ثم ناولته إياه.

ظهرت ورقة نقدية في يده فوضعها في المصنف وأعاده إليها... «احتفظي بالباقي!»... قال هذا مبتسماً. ثم وقف فوقفت أيضاً.

ابتسمت له ابتسامة مغرية من جديد: «تمتعوا بأمسية لطيفة».

لم يرفع عينيه عني عندما شكرها... حاولت كتم ابتسامتي.

سار قريباً مني حتى الباب... مازال يحاذر لمسي. تذكرت ما قالته جيسيكا عن علاقتها مع مايك وكيف أنهما كادا يبلغان مرحلة القبلة الأولى. تنهدت... بدا أن إدوارد سمعني فنظر إلي مستغرباً... نظرت إلى الرصيف... كنت مرتاحة لأنه لم يسمع أفكاري... كما يبدو.

فتح لي باب السيارة ثم أغلقه بلطف بعد دخولي. نظرت إليه يلتف من أمام السيارة... ومن جديد... أذهلتني رشاقة مشيته. لعلني يجب أن أكون قد اعتدت عليها الآن... لكن لا! كنت أشعر أن إدوارد ليس شخصاً يمكن الاعتياد عليه.

عندما جلس في السيارة أدار المحرك، ثم وضع التدفئة على درجة مرتفعة فقد صار الجو الآن شديد البرودة... عرفت أن الطقس الجميل

انتهى. كنت أشعر بالدفء في سترته... وكنت أضع أنفي فيها لأشم عطرها عندما أظن أنه لا يراني.

قاد إدوارد السيارة عبر الشوارع دون أي التفاتة... كما بدا لي... ثم استدار بها نحو الطريق السريع.

قال بصوت ذي مغزى: «جاء دورك الآن!»

9

نظرية

سألته فيما كان يزيد سرعة السيارة كثيراً في الطريق الهادئ: «هل أستطيع طرح سؤال إضافي واحد؟»... بدا أنه لا يولي الطريق أي انتباه.

تنهد ثم قال موافقاً: «سؤال واحد!»... ضغط على شفتيه متوجساً.

«... قلت إنك عرفت أنني لم أدخل المكتبة وأنني توجهت جنوباً. كيف عرفت ذلك؟»

أشاح بوجهه مفكراً.

قلت غاضبة: «ظننت أننا تجاوزنا مرحلة الهروب من الإجابة».

كاد يبتسم: «طيب! تعقبت رائحتك».

نظر إلى الطريق أمامه مفسحاً لي الوقت حتى أستجمع أفكاري. لم أجد إجابة معقولة لكلامه. لكنني حفظت بعناية ما قاله حتى أفكر فيه لاحقاً. حاولت التركيز من جديد. كنت أريد أن أدعه ينهي كلامه... الآن بعد أن بدأ يشرح لي أخيراً.

«أنت لم تجب على واحد من أسئلتي الأولى...» توقفت عن الكلام لحظة.

نظر إلي غير موافق: «أي سؤال؟»

«كيف يحدث ذلك... أقصد قراءة الأفكار؟ هل تستطيع قراءة

أفكار أي شخص، في أي مكان؟ كيف تفعل ذلك؟ هل يستطيع بقية أفراد أسرتك...؟»... شعرت بسخفي لأنني كنت أطلب منه توضيحاً لأمر لا يصدق.

قال: «ليس هذا سؤالاً واحداً!»... لكنني اكتفيت بأن شبكت أصابعي وحدقت فيه منتظرة.

«لا! أنا فقط. وأنا لا أستطيع سماع أفكار أي شخص، في أي مكان. يجب أن أكون قريباً منه بعض الشيء. كلما كان ''صوت'' الشخص مألوفاً أكثر كلما استطعت سماعه على مسافة أبعد... لكن ليس على مسافة تتجاوز كيلومترات قليلة». توقف عن الكلام مفكراً ثم قال: «هذا يشبه قليلاً وجود المرء في قاعة كبيرة مملوءة بأشخاص يتحدثون جميعاً... يكون ذلك مثل همهمة... مثل طنين من الأصوات في الخلفية... حتى يركز المرء على صوت واحد يصبح ما يفكر فيه ذلك الشخص واضحاً... في معظم الأوقات أتجاهل ذلك كله فهو يشتت الانتباه كثيراً. وعندما أتجاهله يكون من الأسهل علي أن أبدو طبيعياً»... عبس عندما نطق الكلمة الأخيرة... «بهذا الشكل أتجنب أن أخطئ فأجيب على أفكار من يتحدث معي بدل الإجابة على كلماته».

سألته بفضول: «لماذا تظن أنك لا تستطيع سماع أفكاري؟»

نظر إلي... كانت عيناه غامضتين... قال متمتماً: «لا أعرف!... الفكرة الوحيدة التي تخطر ببالي هي أن عقلك لا يعمل كما تعمل عقولهم. كما لو أن موجة أفكارك غير الموجة التي أستطيع سماعها»... ابتسم لي ابتسامة مرحة مفاجئة.

قلت: «عقلي لا يعمل جيداً! هل أنا شخص غير طبيعي؟»... أزعجتني هذه الكلمات أكثر مما ينبغي... ربما لأن تخمينه أصاب الهدف. هكذا كانت شكوكي... أحرجني ذلك التأكيد لها.

قال ضاحكاً: «أسمع أصواتاً في رأسي.. لكنك قلقة من أن تكوني

شخصاً غير طبيعي... لا تجزعي، فهذه مجرد نظرية»... اكتسب وجهه تعبيراً جدياً... «وهذا ما يعيدنا إليك!»

تنهدت... كيف أبدأ يا ترى؟

ذكرني بلطف: «لقد تجاوزنا الآن مرحلة الهروب من الإجابة!»

أبعدت عيني عن وجهه للمرة الأولى. ورحت أحاول العثور على الكلمات. لكنني رأيت مؤشر السرعة مصادفة.

صرخت: «يا لطيف!... خفف السرعة».

فوجئ بهذا: «ماذا بك؟»... لكن سرعة السيارة لم تنخفض.

«أنت تسير بسرعة مئة وستين كيلومتراً في الساعة»... مازلت أصرخ. ألقيت نظرة خوف من النافذة، لكن الظلمة لم تسمح لي برؤية شيء. لم يكن الطريق مرئياً إلا ضمن حزمة طويلة من الضوء المزرق الصادر عن مصابيح السيارة الأمامية. كانت الغابة على جانبي الطريق مثل جدار أسود... وكانت صلبة مثل جدار فولاذي إذا انحرفت السيارة عن الطريق وهي تسير بهذه السرعة.

قال دون أن يخفف السرعة: «استرخي يا بيلا!»

قلت له: «هل تحاول قتلنا؟»

«لن نصطدم بشيء».

حاولت السيطرة على صوتي: «ولماذا أنت مسرع هكذا؟»

استدار صوبي مبتسماً تلك الابتسامة الماكرة: «أنا أقود هكذا دائماً».

«أبق نظرك على الطريق أمامك».

«بيلا! لم يحدث معي أي حادث سيارة... ولم أتلق أي مخالفة سير من رادار السرعة على الطريق».

قلت غاضبة: «ظريف جداً! هل تتذكر أن تشارلي شرطي؟ لقد

نشأت على التقيد بالقانون... ثم، إذا تحطمت سيارتك على جذع شجرة فالأرجح أنك لن تصاب بأذى!»

قال موافقاً مع ضحكة قصيرة قاسية: «هذا مرجح فعلاً... أما أنت فقد تتأذين!»... تنهد ثم رأيت مؤشر السرعة ينخفض تدريجياً حتى المئة... «هل ارتحت؟»

«تقريباً!»

تمتم قائلاً: «أكره قيادة السيارة ببطء».

«وهل هذا هو البطء؟»

قاطعني: «كفاك تعليقاً على قيادتي!... مازلت أنتظر سماع نظريتك الأخيرة».

عضضت على شفتي. نظر إلي... كانت عيناه العسليتان لطيفتين بشكل غير متوقع... وعدني قائلاً: «لن أضحك!»

«ما أخشاه أكثر من الضحك هو أن تغضب مني».

«وهل نظريتك سيئة إلى هذا الحد؟»

«نعم!... إنها سيئة جداً».

انتظر... كنت أنظر إلى يدي حتى لا أرى تعبير وجهه.

قال بصوت هادئ: «تكلمي».

اعترفت قائلة: «لا أعرف كيف أبدأ».

«لماذا لا تبدئي من البداية؟... قلت إنك لم تصلي إلى هذه النظرية بمفردك».

«صحيح».

راح يستحثني: «ما الذي أوصلك إليها... كتاب؟ فيلم؟»

«لا!... كان ذلك يوم السبت... عند الشاطئ». غامرت بإلقاء نظرة خاطفة على وجهه. بدت عليه الحيرة.

تابعت: «صادفت هناك صديقاً عائلياً قديماً... إنه جايكوب بلاك... والده ووالدي أصدقاء منذ طفولتي».

مازالت الحيرة بادية على وجهه.

«والده من زعماء قبيلة الكويليت!»... راقبت وجهه بانتباه. ظهرت عليه علائم انزعاج... «تمشينا معاً...» هنا حذفت من قصتي كل ما قمت به لاستدراج جايكوب إلى الكلام... «وقد قص علي بعض القصص القديمة محاولاً إخافتي على ما أظن. قص علي واحدة...» وهنا ترددت.

قال إدوارد: «تابعي».

«... عن مصاصي الدماء». أدركت أنني أهمس همساً. لم أكن أستطيع النظر إلى وجهه الآن. لكنني رأيت أصابعه تشد على عجلة القيادة.

قال بصوت مازال هادئاً: «وقد خطرت في بالك فوراً!»

«لا! لقد... ذكر اسم أسرتك».

ظل صامتاً يحدق في الطريق.

أحسست بالقلق فجأة... قلقت على جايكوب.

قلت بسرعة: «يظن جايكوب أن هذه ليست إلا خرافات سخيفة. لم يكن يتوقع أن أتوقف عندها». لم يبد هذا كافياً فكان علي أن أعترف: «الذنب ذنبي... لقد أجبرته على إخباري بتلك القصة».

«لماذا؟»

«قالت لورين شيئاً عنك... كانت تحاول إزعاجي. وعند ذلك قال صبي من تلك القبيلة، وهو أكبر من جايكوب، إن أسرتك لا تأتي إلى محمية الهنود. لكن كلامه بدا كأنه يحمل معنى مختلفاً. لذلك، أخذت جايكوب جانباً واستدرجته في الكلام»... اعترفت بهذا ثم رفعت رأسي.

فاجأتني ضحكته. نظرت إليه. كان يضحك، لكن عينيه كانتا غاضبتين، وكانتا تنظران إلى الطريق أمامه.

سألني: «كيف استدرجته في الكلام؟»

«حاولت مغازلته... لقد نجح الأمر بأفضل مما كنت أتوقع»... تلونت كلماتي بنبرة عدم التصديق عندما تذكرت ما حدث.

ابتسم وقال: «أتمنى لو شاهدت ذلك... لكنك تتهمينني بأنني أنا الذي أسبب الدوار للناس... مسكين جايكوب بلاك».

احمر وجهي ونظرت إلى الليل من نافذتي.

بعد دقيقة سألني: «ماذا فعلت بعد ذلك؟»

«قمت ببعض البحث على الإنترنت».

قال بصوت لا يكاد يبدو عليه أي اهتمام: «وهل أقنعك ذلك البحث؟»... لكني رأيت يديه تضغطان بشدة على عجلة القيادة.

«لا!... لم أجد ما يلائم الوضع... كان معظم ما وجدته سخيفاً. ثم...» توقفت عن الكلام.

«ماذا؟»

همست: «قررت أن لا أهمية للأمر».

جعلتني نبرته أرفع رأسي إليه: «لا أهمية للأمر؟»... تمكنت أخيراً من اختراق قناعه المتقن. كان الشك بادياً على وجهه، لكني لم أجد فيه إلا أثراً بسيطاً من الغضب الذي كنت أخشاه.

قلت بنعومة: «لا!... لا يهمني ما أنت».

داخلت صوته نبرة قاسية مستفزة: «لا تبالين إن كنت وحشاً؟ إن لم أكن إنساناً؟»

«لا!»

ظل صامتاً يحدق في الطريق أمامه. كان وجهه بارداً من غير تعبير.

زفرت وقلت: «أنت غاضب... ما كان يجب أن أقول شيئاً».

قال: «لا!»... لكن صوته كان قاسياً مثل وجهه... «من الأفضل أن أعرف بم تفكرين... حتى لو كانت أفكارك مجنونة».

قلت متحدية: «إذن، أنا مخطئة من جديد؟»

«لا أقصد هذا... أقصد عبارتك ''لا أهمية للأمر''»... قال باختصار وهو يضغط على أسنانه.

قلت بصوت لاهث: «هل نظريتي صحيحة إذن؟»

«وهل من أهمية للأمر؟»

استنشقت نفساً عميقاً: «في الحقيقة لا!»... «لكن لدي فضول!»... استطعت السيطرة على صوتي، على الأقل.

قال فجأة: «فضول! بشأن ماذا؟»

«كم عمرك؟»

أجاب فوراً: «سبعة عشر».

«منذ متى وأنت في هذا العمر؟»

شد شفتيه ونظر إلى الطريق أمامه: «منذ فترة»... إنه يعترف أخيراً!

«جيد!»... ابتسمت مسرورة لأنه مازال صادقاً معيّ. حدق في بعينين منتبهتين كما كان يفعل كثيراً من قبل عندما يتوقع أن تصيبني صدمة. ابتسمت له ابتسامة مشجعة فعبس وجهه.

«لا تضحك!... لكن، كيف تستطيع الخروج وقت النهار؟»

ضحك وقال: «أسطورة».

«ألا تحرقك الشمس؟»

«أسطورة».

«هل تنام في تابوت؟»

«أسطورة»... تردد لحظة ثم قال بصوت خالطته نبرة غريبة: «أنا لا أستطيع النوم».

احتجت دقيقة كاملة حتى استوعبت ذلك: «إطلاقاً؟»

قال بصوت لا يكاد يسمع: «لا أنام أبداً!»... استدار ونظر إلي... كان على وجهه تعبير توق حزين. استولت عيناه الذهبيتان على عيني ففقدت تسلسل أفكاري. ظللت أنظر إليه حتى أدار وجهه.

«لم تطرحي علي أهم سؤال حتى الآن»... كان صوته قاسياً الآن. وعندما نظر إلي من جديد كانت عيناه باردتين.

رمشت عيناي.. مازلت أشعر بدوار: «وما هو؟»

سألني ساخراً: «ألست مهتمة بمعرفة نوع غذائي؟».

تمتمت: «أوه! ذلك السؤال!»

كان صوته من غير تعبير: «نعم، ذلك السؤال!... ألا تريدين أن تعرفي إن كنت أشرب الدم؟»

قلت مجفلة: «لقد ذكر جايكوب شيئاً عن ذلك».

سألني بصوت محايد: «وماذا قال جايكوب؟»

«قال إنكم لا... تصطادون الناس. وقال إن من المفترض أنكم لستم خطرين لأنكم تصطادون الحيوانات فقط».

حمل صوته تشككاً عميقاً: «قال إننا غير خطرين؟»

«ليس بالضبط... قال إن من المفترض أنكم غير خطرين. لكن الكويليت مازالوا غير مستعدين للسماح لكم بدخول أرضهم... من باب التحسب فقط!»

نظر أمامه... لكنني لم أستطع معرفة ما إذا كان ينظر إلى الطريق أم لا.

«هل كان محقاً؟... بشأن عدم اصطياد الناس؟»... حاولت أن أحافظ على صوت حيادي قدر ما استطعت.

همس: «إن لدى الكويليت ذاكرة قوية!»... اعتبرت ذلك تأكيداً.

قال محذراً: «لا تدعي هذا يشعرك بالرضى رغم ذلك... إنهم محقون في المحافظة على مسافة بيننا وبينهم. مازلنا خطرين».

«لا أفهم!»

شرح ببطء: «نحن نحاول!... وعادة ما نكون ناجحين جداً في كل أمر نحاوله. لكننا نخطئ أحياناً. أنا مثلاً... أسمح لنفسي بأن أكون وحيداً معك».

«هل هذه خطيئة؟»... سمعت حزناً في صوتي لكنني لم أعرف إن كان قد سمعه مثلي.

تمتم: «خطيئة خطيرة جداً!»

كنا صامتين الآن. رحت أراقب أضواء السيارة تنحني مع تعرجات الطريق. كانت تتحرك بسرعة كبيرة جداً؛ بدا الأمر غير حقيقي... مثل لعبة من ألعاب الفيديو. أدركت أن الوقت يمر سريعاً جداً مثلما يمر الطريق من تحتنا. وخشيت كثيراً ألا تسنح لي فرصة أخرى لأن أكون معه مثل هذه المرة... مثل هذه الصراحة؛ لقد زالت الجدران بيننا هذه المرة. لقد أوحت كلماته بوضع نهاية للحديث... لكنني رفضت هذه الفكرة. لم أكن أستطيع إهدار دقيقة واحدة من وقتي معه.

قلت بقنوط: «حدثني أكثر»... لم أكن مبالية بما يقول. كنت أريد أن أسمع صوته من جديد.

نظر إلي سريعاً وقد فوجئ بالتغير في نبرة صوتي: «ما الذي تريدين معرفته أيضاً؟»

اقترحت بصوت مازال فيه بعض القنوط: «قل لي لماذا تصطادون الحيوانات بدلاً من الناس؟» أدركت أن عيني مبللتان... ورحت أقاوم حزناً يحاول اجتياحي.

كان صوته منخفضاً جداً: «لا أريد أن أكون وحشاً».

«لكن الحيوانات غير كافية؟»

صمت قليلاً: «لست متأكداً طبعاً. لكنني سأقارن ذلك مع العيش على التوفو وحليب الصويا... ندعو أنفسنا نباتيين... إنها مزحة فيما بيننا. هذا لا يشبع الجوع تماماً... أو العطش إن شئت الدقة. لكنه يسمح لنا بالمحافظة على القوة الكافية للمقاومة... معظم الوقت»... ظهرت نبرة مشؤومة في صوته «يكون ذلك صعباً جداً بعض الأحيان».

سألته: «هل هو صعب جداً عليك الآن؟»

تنهد قائلاً: «نعم».

«لكنك لست جائعاً الآن!»... قلت ذلك بثقة من يقرر أمراً وليس كمن يطرح سؤالاً.

«ما الذي يجعلك تظنين هذا؟»

«عيناك!... قلت لك إن لدي نظرية. ألاحظ أن مزاج الناس... الرجال خاصة... يصبح سيئاً عند الجوع».

ضحك وقال: «أنت شديدة الملاحظة حقاً!»

لم أجبه... رحت أستمع إلى صوت ضحكته وأسجله في ذاكرتي.

عندما صمت سألته: «هل كنت تصطاد مع إيميت في عطلة نهاية الأسبوع؟»

«نعم!»... صمت قليلاً كأنه يتخذ قراراً بشأن مواصلة الكلام... «لم أكن أريد الذهاب. لكن ذلك كان ضرورياً. من الأسهل قليلاً أن أكون معك عندما لا أكون ظمآناً».

«لماذا لم تكن تريد الذهاب؟»

«أقلق... عندما أكون بعيداً عنك». كانت عيناه رقيقتين، لكنهما متوترتين. أحسست أنهما تذيبان عظامي... «لم أكن مازحاً عندما قلت لك يوم الخميس الماضي أن تنتبهي حتى لا تسقطي في البحر أو

تدهسك سيارة... كنت قلقاً عليك. بعدما حدث الليلة، يدهشني أنك اجتزت نهاية أسبوع كاملة دون إصابة». هز رأسه ثم بدا كمن تذكر شيئاً: «ليس من دون أي إصابة على الإطلاق».

«ماذا؟»

قال مذكراً: «يداك!»... نظرت إلى راحتي يدي... إلى الخدوش التي كادت تشفى. ما كانت عينه لتفوّت شيئاً...

تنهدت: «لقد وقعت!»

«هذا ما ظننته»... ارتفعت زاويتا فمه... «أفترض... لأنك أنت... أن الأمر كان يمكن أن يصبح أسوأ من هذا... هذه الإمكانية كانت تعذبني طيلة فترة غيابي. كانت ثلاثة أيام طويلة جداً. لقد أتعبت أعصاب إيميت»... ابتسم لي ابتسامة حزينة.

«ثلاثة أيام؟ ألم تعودا اليوم؟»

«لا، عدنا يوم الأحد».

«إذن، لماذا لم يأت أحد منكم إلى المدرسة؟»... انزعجت... بل غضبت عندما فكرت في مدى الخيبة التي عانيتها بسبب غيابه عن المدرسة.

«سألتني قبل قليل ما إذا كانت الشمس تؤذيني... إنها لا تؤذيني. لكنني لا أستطيع التجول في ضوء الشمس... على الأقل، ليس حيث يستطيع أي شخص أن يراني».

«لماذا؟»

وعدني: «سوف أريك شيئاً».

فكرت في الأمر لحظة.

قلت: «كنت تستطيع الاتصال معي».

بدا عليه الارتباك: «لكنني كنت أعرف أنك بأمان».

«لكنني لم أكن أعرف مكانك. أنا...» ترددت وخفضت عيني.

«ماذا؟»... كان صوته المخملي مغرياً بالكلام.

«لم يعجبني ذلك. لم يعجبني ألا أراك. إنه يجعلني قلقة أيضاً»... احمرّ وجهي لأنني قلت ذلك بصوت مرتفع.

كان هادئاً... نظرت إليه نظرة مستطلعة فرأيت الألم في تعبير وجهه.

قال بأنين هادئ: «آه!... هذا خاطئ».

لم أفهم رد فعله: «ماذا قلت؟»

«ألا ترين يا بيلا؟ أن أجعل نفسي بائساً شيء، وأن أجعلك معنية بي إلى هذا الحد شيء آخر تماماً». حول عينيه المعذبتين إلى الطريق. وراحت الكلمات تخرج من فمه سريعة إلى حد جعلني أكاد لا أفهمها... «لا أريد معرفة أن لديك هذه المشاعر»... كان صوته خافتاً، لكنه ملحّ... جرحتني كلماته... «هذا خاطئ. إنه ليس آمناً. أنا خطر يا بيلا... افهمي هذا... أرجوك!»

«لا!»... قلتها وأنا أحاول أن لا أبدو مثل طفل مشاكس.

أنّ قائلاً: «أنا جاد تماماً».

«وأنا جادة أيضاً. لقد قلت لك... لا يهمني ما أنت. تأخر الوقت كثيراً».

خرج صوته خشناً خافتاً: «لا تقولي هذا أبداً».

عضضت على شفتي وكنت سعيدة بأنه ما كان قادراً على معرفة مدى الألم الذي سببته كلماته. رحت أنظر إلى الطريق. لابد أننا اقتربنا الآن. كانت السيارة تسير بسرعة كبيرة جداً.

سألني بصوت لا يزال جافاً: «فيم تفكرين؟»

اكتفيت بهز رأسي... لم أكن واثقة من قدرتي على الكلام.

أحسست بنظرته على وجهي، لكنني أبقيت عيني مصوبتين إلى الأمام.

«هل تبكين؟»... بدا الخوف في صوته. لم أنتبه إلى أن الدمع الذي في عيني بدأ يسيل. مسحت خدي بيدي... نعم! كانت على خدي تلك الدمعات الخائنة التي وشت بي.

قلت: «لا!»... لكن صوتي خرج متكسراً.

رأيته يمد يده اليمنى إليّ متردداً... لكنه توقف ثم أعادها ببطء إلى عجلة القيادة.

قال بصوت يحترق أسفاً: «آسف!»... عرفت أنه لم يكن يعتذر عن تلك الكلمات التي أحزنتني فقط.

كانت الظلمة تنزلق بصمت.

قال بعد دقيقة: «قولي لي»... أحسست أنه يكافح حتى يتكلم بنبرة أكثر رقة.

«ماذا؟»

«فيم كنت تفكرين الليلة قبل أن أظهر عند تلك الزاوية؟ لم أستطع أن أفهم تعبير وجهك... لم يظهر عليك خوف شديد بل بدوت كمن يركز تركيزاً شديداً على أمر ما».

«كنت أحاول تذكر كيفية مواجهة شخص يهاجمني... أنت تعرف ذلك... الدفاع عن النفس. كنت أستعد لتحطيم أنفه». تذكرت صورة الرجل ذي الشعر الداكن فاجتاحتني موجة من الكراهية.

«هل كنت تفكرين في مقاتلهم؟»... أزعجه ذلك... «ألم تفكري في الهرب؟»

قلت معترفة: «أقع كثيراً عندما أجري».

«وماذا عن الصراخ طلباً للمساعدة؟»

«كنت سأصرخ».

هز رأسه: «لقد كنت محقة!... لابد أنني أحارب القدر عندما أحاول أن أبقيك حية».

تنهدت. بدأت سرعة السيارة تنخفض... لقد دخلنا أطراف فوركس. استغرق الطريق أقل من عشرين دقيقة.

سألته: «هل أراك غداً؟»

ابتسم: «نعم... عليّ تقديم موضوعي أيضاً... سأحجز لك كرسياً من أجل الغداء».

كان سخيفاً بعد كل ما مر بنا الليلة أن يجعلني ذلك الوعد البسيط أشعر بتقلص في معدتي فأصير غير قادرة على الكلام.

صرنا أمام منزل تشارلي. كانت أنواره مضاءة. وكانت سيارتي واقفة في مكانها. كل شيء كان طبيعياً. كان الأمر أشبه بالاستيقاظ من حلم. أوقف إدوارد السيارة، لكنني لم أتحرك.

«هل تعدني أن تكون هناك غداً؟»

«أعدك».

فكرت في وعده لحظة ثم هززت رأسي. خلعت سترته وأنا أشم تلك الرائحة مرة أخيرة.

قال لي: «احتفظي بها... ليس لديك سترة من أجل صباح الغد».

ناولته السترة: «لا أريد أن أضطر إلى شرح الأمر أمام تشارلي».

ابتسم وقال: «أوه! صحيح».

ترددت وأنا أضع يدي على مقبض الباب... كنت أحاول إطالة تلك اللحظة.

قال بنبرة مختلفة... جادة... لكنها مترددة: «بيلا؟»

«نعم؟»... استدرت نحوه بتوق زائد.

«هل تعديني بشيء؟»

قلت: «نعم»... وسرعان ما ندمت على موافقتي غير المشروطة. ماذا لو طلب مني أن أظل بعيدة عنه؟ لست أستطيع الوفاء بهذا الوعد.

«لا تسيري في الغابة وحدك».

نظرت إليه بحيرة: «لماذا؟»

عبس وجهه، وضاقت عيناه ثم راح ينظر عبر النافذة من خلفي: «أنا لست أخطر شيء هناك على الدوام... لا حاجة لأن نتكلم في هذا الأمر أكثر من ذلك».

ارتجفت قليلاً للبرودة المفاجئة في صوتي... لكنني ارتحت مع ذلك. فهذا وعد يمكنني الوفاء به... قلت: «كما تريد».

قال متنهداً: «أراك غداً»... عرفت أنه يريد أن أذهب الآن.

فتحت الباب دونما رغبة: «إلى الغد».

«بيلا!»... استدرت فرأيته يميل نحوي. كان وجهه الشاحب الجميل على مسافة سنتيمترات قليلة من وجهي. توقف قلبي عن الخفقان.

قال: «نامي جيداً». أصابت أنفاسه وجهي فأذهلتني. كانت تلك الرائحة نفسها التي شممتها في سترته... لكنها أكثر تركيزاً... شعرت بدوار في رأسي ورحت أرمش بعينيّ... اعتدل جالساً.

لم أكن أستطيع الحركة قبل أن يستعيد دماغي بعض التوازن. خرجت من السيارة بتثاقل ممسكة بإطار النافذة. أظن أنني سمعته يضحك، لكن ذلك الصوت كان خافتاً جداً... وما كنت واثقة من سماعه.

انتظر حتى صرت عند باب البيت. ثم سمعت سيارته تتراجع إلى الخلف. استدرت فرأيت السيارة تختفي خلف الزاوية. أدركت أن الجو بارد جداً.

أخرجت المفتاح بحركة آلية وفتحت الباب ثم دخلت. صاح تشارلي من غرفة المعيشة: «بيلا؟»

«نعم يا أبي، هذه أنا». دخلت لأراه... كان يتابع مباراة بيسبول.

«لقد عدت باكراً».

«حقاً!»... فوجئت بهذا.

قال: «لم تبلغ الساعة الثامنة بعد... هل استمتعتم؟»

«نعم... استمتعنا كثيراً»... دار رأسي عندما حاولت أن أتذكر مخططاتي الخاصة ليوم الحفلة... «لقد عثرت جيسيكا وأنجيلا على فستانين مناسبة».

«هل أنت بخير؟»

«أنا متعبة جداً... لقد مشيت كثيراً».

«طيب! من الأفضل أن تستلقي»... بدا عليه بعض القلق. تساءلت في نفسي عن شكل وجهي.

«سوف أتصل مع جيسيكا أولاً».

سألني بدهشة: «ألم تكوني معها الآن؟»

«نعم... نسيت سترتي في سيارتها. أريد تذكيرها بأن تجلبها معها غداً».

«لا بأس! انتظري حتى تصل إلى منزلها».

قلت موافقة: «صحيح».

ذهبت إلى المطبخ وسقطت في إحدى الكراسي خائرة القوى. كنت أشعر حقاً ببعض الضعف الآن... هل ستستولي علي الصدمة في النهاية؟ قلت لنفسي: تماسكي!

رن الهاتف فجأة فأجفلني... خطفت السماعة خطفاً.

قلت مبهورة الأنفاس: «ألو!»

«بيلا؟»

«نعم يا جيسيكا... كنت على وشك الاتصال بك».

بدا على صوتها الارتياح... والمفاجئة: «هل وصلت إلى البيت؟»

«نعم! لقد تركت سترتي في سيارتك... هل تستطيعين إحضارها غداً إلى المدرسة؟»

قالت تطالبني: «طبعاً!... لكن، قولي لي ما جرى».

«همم! غداً... في درس المثلثات... موافقة؟»

فهمت الأمر سريعاً: «آه، هل والدك في المنزل؟»

«نعم... صحيح».

«لا بأس، سأتحدث إليك غداً. إلى اللقاء». كان نفاذ الصبر واضحاً في صوتها.

«إلى اللقاء يا جيسيكا».

صعدت إلى غرفتي ببطء... كان ضباب كثيف يلف عقلي. رحت أستعد للنوم دون انتباه إلى ما كنت أفعله. لم أدرك أنني أتجمد برداً إلا عندما صرت في الحمام... كان الماء ساخناً جداً... يحرق جلدي. ظللت أرتجف عدة دقائق قبل أن يتمكن الماء الساخن من إرخاء عضلاتي المتصلبة. وقفت تحت الدوش غير قادرة على الحركة لشدة تعبي حتى نفذ الماء الساخن.

خرجت بعد أن لففت جسدي بمنشفة كبيرة محاولة المحافظة على حرارة الماء الساخن حتى لا تعود تلك الرجفة المؤلمة. ارتديت ملابس النوم بسرعة ودسست نفسي تحت اللحاف ثم تكورت على نفسي لافة ذراعيّ على جسمي حتى أحتفظ بالدفء. هزت جسمي عدة رجفات صغيرة.

مازال عقلي يدور بشكل مدوّخ... كان مليئاً بصور لم أستطع

فهمها... وبصور كنت أحاول إبعادها. لم يبد أي شيء واضحاً في البداية... لكن بعض الأمور المؤكدة بدأت تتضح مع اقترابي التدريجي من الاستسلام للنوم.

كنت متأكدة تماماً من ثلاثة أشياء. الأول، إدوارد مصاص دماء. الثاني، ثمة جزء منه يريد أن يشرب من دمي... لم أكن أعرف مدى قوة ذلك الجزء. الثالث، أنا أحبه حباً غير مشروط... أحبه حباً لا عودة عنه.

10

الاستجواب

في الصباح، كان من الصعب علي كثيراً أن أجادل ذلك الجزء من عقلي الذي كان واثقاً من أن الليلة الماضية لم تكن إلا حلماً. لم يكن المنطق في صفي... المنطق السليم. تشبثت بالأجزاء التي لا يعقل أنني تخيلتها... كرائحته مثلاً. كنت واثقة من أنني لا أستطيع تخيل رائحة مثلها... حتى في حلمي.

كان الضباب يخيم مظلماً خارج نافذتي... هذا ممتاز. ما كان لديه سبب لعدم الحضور إلى المدرسة. ارتديت ثياباً ثقيلة عندما تذكرت أن سترتي ليست معي. هذا دليل جديد على أن ذاكرتي تعمل جيداً.

عندما هبطت إلى الطابق السفلي كان تشارلي قد ذهب... كان الوقت أكثر مما ظننت. ابتلعت قطعة كعك بثلاث قضمات وأتبعتها برشفة حليب من العلبة مباشرة. ثم خرجت مسرعة من الباب. آمل ألا يهطل المطر قبل أن أرى جيسيكا.

الضباب أكثر كثافة من المعتاد... كان مثل الدخان. وكان الرذاذ الضبابي بارداً كالثلج عندما يلامس الجلد المكشوف على الوجه أو الرقبة. لم أكن لأطيق الانتظار حتى تعمل التدفئة في سيارتي. كان الضباب كثيفاً إلى درجة جعلتني أسير عدة أقدام قبل أن أدرك وجود سيارة أمامي... سيارة فضية. قفز قلبي من مكانه وارتجف، ثم راح يدق سريعاً.

لم أعرف من أين جاء، لكنني رأيته هناك فجأة... كان يفتح باب السيارة من أجلي. سألني مسروراً بتعبير وجهي عندما فاجأني من جديد: «هل تريدين ركوب السيارة معي اليوم؟»... كان في صوته شيء من عدم الثقة. لقد كان يعطيني الخيار حقاً... كنت حرة في الرفض. وكان جزء منه يأمل أن أرفض... أي أمل يائس!

قلت محاولة أن أحافظ على هدوء صوتي: «نعم، شكراً». وعندما دخلت إلى السيارة الدافئة لاحظت سترته البنية الفاتحة نفسها معلقة على مسند الكرسي. أغلق الباب خلفي... وبسرعة عجيبة صار جالساً في مقعده بجانبي وأدار السيارة.

قال بصوت حذر: «أحضرت السترة من أجلك. لا أريد أن تبردي»... لاحظت أنه لم يكن يرتدي سترة... كان يرتدي قميصاً رمادياً خفيفاً ذا ياقة مثلثة وأكمام طويلة. وكان قميصه ملتصقاً بعضلات صدره. شكراً لوجهه، فهو يجعلني لا أنظر إلى جسمه.

قلت: «لست رقيقة إلى تلك الدرجة»... لكنني وضعت السترة في حضني وأدخلت ذراعي في كميها الطويلين... كنت أحاول معرفة إن كانت تلك الرائحة طيبة فعلاً بقدر ما تخيلت لقد كانت أطيب مما تخيلت!

«ألست بتلك الرقة حقاً؟»... قال ذلك بصوت منخفض جداً إلى درجة جعلتني غير واثقة إن كان يقصد أن أسمعه فعلاً.

سرنا، مسرعين دائماً، عبر الشوارع الغارقة في الضباب. كان إحساسنا غريباً، إحساسي أنا على الأقل. لقد سقطت جميع الأسوار ليلة أمس... تقريباً جميع الأسوار. لم أعرف إن كنا ما نزال بالصراحة نفسها اليوم. شعرت أنني معقودة اللسان فانتظرته حتى يتكلم.

استدار متصنعاً الابتسامة: «ماذا؟ أليس لديك عشرين سؤالاً اليوم؟»

شعرت بالراحة فسألته: «وهل تزعجك أسئلتي؟»

«ليس بقدر ما تزعجني ردود أفعالك». بدا مازحاً... لكنني لم أكن واثقة من ذلك.

عبست وقلت: «هل ردود فعلي سيئة؟»

«لا!... تلك هي المشكلة. أنت تتلقين كل شيء ببرودة أعصاب أكثر مما يجب... هذا غير طبيعي. هذا يجعلني أرتاب في ما تفكرين حقاً».

«أنا أخبرك دائماً ما أفكر فيه».

اتهمني: «أنت تنقحين أفكارك».

«ليس كثيراً».

«بالقدر الكافي لدفعي إلى الجنون».

«لن يعجبك سماعها كما هي!»... كهذا غمغمت شبه هامسة. لكني ندمت على كلماتي فور خروجها من فمي. كان الألم في صوتي خفياً جداً... تمنيت ألا يلاحظه.

لم يبد أي استجابة. هل أفسدت مزاجه؟ كان وجهه غير مقروء لي عندما وصلنا إلى موقف السيارات في المدرسة. خطر لي خاطر متأخر فقلت: «أين بقية أفراد أسرتك؟»... ألقيت هذا السؤال وأنا أكثر من سعيدة بوجودي وحيدة معه؛ لكنني تذكرت أن سيارته تكون ممتلئة عادة.

قال مبتسماً بينما كان يوقف السيارة بجانب سيارة حمراء لامعة ذات سقف قابل للطي... كان سقفها مرفوعاً... «هذه سيارة روزالي... أليست باذخة؟»

همست: «همم، واو!... إذا كانت لديها هذه السيارة فلماذا تركب سيارتك أنت؟»

«كما قلت لك... إنها باذخة جداً. نحن نحاول عدم التميز عن الآخرين».

«لستم تنجحون في ذلك»... ضحكت وأنا أهز رأسي ثم خرجنا من السيارة. لم أكن متأخرة على الدروس على أي حال... وفرت قيادته المجنونة كثيراً من الوقت... «لماذا إذن قادت روزلي السيارة اليوم إذا كنتم غير راغبين في التميز؟»

«ألم تلاحظي؟ أنا أحطم جميع القواعد الآن!»

لاقاني عند مقدمة السيارة. وسار على مقربة شديدة مني بينما توجهنا إلى المدرسة. أردت أن ألغي تلك المسافة القليلة فأمد يدي لألمس يده... لكنني خفت ألا يحب ذلك.

تساءلت بصوت مرتفع: «لماذا تقتنون سيارات كهذه؟ إذا كنتم لا تريدون لفت الأنظار!»

قال بابتسامة عابثة: «إنه تسيب! جميعنا يحب القيادة السريعة».

دمدمت بصوت خفيض جداً: «شخصيات غريبة!»

كانت جيسيكا تنتظرني محتمية تحت سقف الكافتيريا البارز إلى الخارج... كادت عيناها تخرجان من محجريهما. ما أطيبها... كانت سترتي على ذراعها.

قلت عندما صرنا على مقربة منها: «مرحباً جيسيكا. شكراً لأنك تذكرت السترة»... ناولتني السترة من غير كلام.

قال إدوارد بأدب: «صباح الخير يا جيسيكا»... ليس ذنبه أن صوته لا يقاوم إلى هذه الدرجة. وليس ذنبه ما تستطيع عيناه فعله.

تلعثمت جيسيكا: «آآ... مرحباً»... حولت عينيها المتسعتين صوبي محاولة استجماع أفكارها... «أراك في درس المثلثات»... رمقتني بنظرة محّملة بالمعاني... أما أنا فحاولت إخفاء تنهيدة ثقيلة... ماذا أقول لها؟... «حسناً! أراك هناك».

ذهبت... لكنها توقفت مرتين لتنظر إلينا من فوق كتفها.

تمتم إدوارد: «ما الذي ستروينه لها؟»

همست: «مهلاً! ظننت أنك لا تستطيع قراءة أفكاري!»

قال مجفلاً: «أنا لا أستطيع قراءتها»... لكن فكرة لمعت في عينيه... «أستطيع قراءة أفكارها هي... سوف تنتظرك لتنصب لك كميناً في الصف».

نزعت سترته وناولته إياها... ثم لبست سترتي. طوى السترة على ذراعه.

«إذن! ما الذي تعتزمين قوله لها؟»

«ساعدني قليلاً!... ما الذي تريد هي معرفته؟»

هز رأسه مبتسماً بمكر: «هذا ليس عدلاً».

«غير صحيح! إذا لم تطلعني على ما تعرفه... يكون ذلك غير عادل».

فكر قليلاً بينما رحنا نسير. وقفنا أمام باب صفي.

قال لي أخيراً: «تريد أن تعرف ما إذا كنا نلتقي سراً. وتريد أن تعرف شعورك ناحيتي».

«يا سلام! وماذا أقول لها؟»... حاولت جعل تعبير وجهي يبدو بريئاً تماماً. كان الطلاب يمرون بنا داخلين إلى الصف... لعلهم كانوا يحدقون فينا، لكنني لم أكد ألاحظ وجودهم.

قال: «همم...» صمت لحظة والتقط خصلة من الشعر أفلتت من ربطة شعري فأعادها إلى مكانها. قفز قلبي من مكانه... «أظن أنك يمكن أن تجيبي بنعم على السؤال الأول... إذا لم يكن لديك مانع... هذا أسهل من أي تفسير آخر».

قلت بصوت ضعيف: «لا مانع عندي».

«أما سؤالها الثاني... فسوف أصغي إلى أفكارها حتى أسمع إجابتك فأعرفها أنا أيضاً». ارتفعت زاوية فمه بتلك الابتسامة المعوجَّة

التي أحبها. لم أستطع التقاط أنفاسي بالسرعة الكافية حتى أجيب على ما قاله... استدار ومضى.

صاح من فوق كتفه: «أراك وقت الغداء». توقف ثلاثة أشخاص عند باب الصف ينظرون إليّ مستغربين.

دخلت الصف مسرعة... كان وجهي محمرّاً، وكنت مرتبكة. إنه غشاش! لقد جعلني الآن أكثر قلقاً بشأن ما أقوله لجيسيكا. جلست في مقعدي وخبطت حقيبتي على الأرض.

قال مايك من المقعد المجاور: «صباح الخير بيلا»... نظرت فرأيت في وجهه نظرة غريبة... شبه مستاءة.

«كيف وجدت بورت آنجلس؟»

«لقد كانت...» لم أجد طريقة صادقة لتلخيص ما أريد قوله... أكملت جملتي العرجاء... «عظيمة. اشترت جيسيكا فستاناً جميلاً جداً».

سألني وقد توهجت عيناه: «هل قالت شيئاً عن ليلة الاثنين؟»... ابتسمت مرتاحة لهذا التحول في الحديث.

أكدت له: «قالت إنها أمضت وقتاً ممتعاً جداً».

قال متحمساً: «هل قالت ذلك حقاً؟»

«هذا ما قالته تماماً».

ارتفع صوت الأستاذ ماسون طالباً الهدوء. ثم طلب منا تسليم مواضيعنا. مرَّ درس اللغة الإنكليزية ثم درس السياسة كما يمر الحلم... كنت مشغولة البال بالطريقة التي يجب أن أشرح بها الأمر لجيسيكا... عذبتني فكرة استماع إدوارد إلى ما أقوله من خلال أفكارها. ما أسوأ هذه الموهبة التي عنده أحياناً... إلا عندما تنقذ حياتي.

تبدد الضباب كله تقريباً بنهاية الساعة الثانية. لكن الجو بقي مظلماً بسبب الغيوم الكثيفة المنخفضة... ابتسمت للسماء.

كان إدوارد محقاً طبعاً. عندما دخلت إلى درس المثلثات وجدت جيسيكا جالسة في الصف الأخير من المقاعد تكاد تقع عن مقعدها لشدة لهفتها. ذهبت مرغمة فجلست بجانبها محاولة إقناع نفسي بأن من الأفضل الانتهاء من الأمر سريعاً.

قبل أن أجلس في مقعدي قالت بصوت آمر: «أخبريني كل شيء».

«ما الذي تريدين معرفته؟»

«ما الذي حدث في تلك الليلة؟»

«دعاني إلى العشاء ثم أخذني إلى منزلي». راحت تحدق بي... كان الشك ظاهراً على وجهها... «وكيف وصلتم إلى البيت بتلك السرعة؟»

«إنه يقود السيارة كالمجنون... شيء مرعب»... قلت هذا وأنا أتمنى أن يسمعني.

«هل كان ذلك موعداً بينكما... هل قلت له أن يلاقيك هناك؟»

لم أفكر في هذا: «لا!... فوجئت تماماً برؤيته هناك».

تقلصت شفتاها من الخيبة بسبب الصدق الواضح في صوتي. ثم راحت تستحثني: «لكنه أوصلك إلى المدرسة اليوم!»

شرحت لها: «نعم... كانت تلك مفاجئة لي أيضاً. لقد لاحظ ليلة أمس أن سترتي ليست معي».

«وهل ستخرجان معاً من جديد؟»

«عرض أن يأخذني إلى سياتل يوم السبت فهو يعتقد أن سيارتي لا تستطيع السفر هذه المسافة... هل يعتبر هذا خروجاً معه؟»

أومأت برأسها: «نعم!»

«طيب!... الإجابة نعم».

«وا... اا... او»... قالتها ممطوطة جداً... «إدوارد كولن!»

قلت مستسلمة: «أعرف!... واو عادية لا تكفي».

«انتظري!»... رفعت يديها في وجهي كأنها توقف سيارة... «هل قبلك؟»

غمغمت: «لا!... ليس الأمر هكذا».

بدت عليها الخيبة... وبدت علي أنا أيضاً.

«هل تظنين... يوم السبت... ؟»... قالت ذلك رافعة حاجبيها.

«أشك في ذلك...» كان عدم الرضا واضحاً في صوتي.

«عن ماذا تحدثتما؟»... قالت هامسة تستحثني على إعطائها مزيداً من المعلومات. بدأ الدرس، لكن الأستاذ فارنر لم يكن شديد التدقيق... ولم نكن وحدنا من تابع الحديث.

أجبتها همساً: «لا أدري يا جيسيكا... أشياء كثيرة!»... «تحدثنا قليلاً عن موضوع اللغة الإنكليزية»... قليلاً جداً... أعتقد أنه ذكر الأمر عرضاً.

راحت ترجوني: «من فضلك يا بيلا... أعطني بعض التفاصيل».

«طيب... لا بأس. إليك هذه: كان عليك رؤية كيف حاولت عاملة الخدمة مغازلة إدوارد... كان ذلك واضحاً جداً. لكنه لم يلتفت إليها إطلاقاً»... فليفهم من هذا ما يريد.

قالت: «هذه علامة جيدة... وهل كانت جميلة؟»

«جميلة جداً... تسعة عشر أو عشرين سنة!»

«هذا أفضل... لابد أنه معجب بك».

«أظن ذلك... لكني لست واثقة... إنه كتوم دائماً»... قلت هذا من أجله.

قالت همساً: «لا أعرف من أين تأتيك الشجاعة حتى تكوني وحدك معه».

صدمني كلامها: «الماذا؟»... لكنها لم تفهم رد فعلي.

«إنه... رهيب. لست أعرف ماذا يمكن أن أقول له لو كنت مكانك»... كشرت... لعلها تذكرت نظرته هذا الصباح أو نظرته ليلة أمس عندما وجه قوة عينيه الطاغية نحوها.

قلت بتسليم: «عندما أكون معه أعاني فعلاً مشكلة في ضبط أفكاري».

«آه، صحيح! إنه جميل إلى حد لا يصدق». ابتسمت جيسيكا كما لو أن هذا يبرر أي خلل... لعلها بررت أخطاءها معه بهذه الطريقة.

قلت: «فيه أشياء كثيرة غير ذلك».

«حقاً! مثل ماذا؟»

تمنيت لو أنني تجاهلت الأمر. تمنيت ذلك بقدر ما كنت آمل أنه كان يمزح بشأن الإصغاء... «لا أستطيع شرح ذلك بوضوح... لكنه... عدا عن شكله... لا يصدق أيضاً»... إنه مصاص الدماء الذي يريد أن يكون طيباً... إنه من يطوف محاولاً إنقاذ أرواح الناس حتى لا يكون وحشاً... نظرت بعيداً صوب باب الصف.

قالت ضاحكة: «هل هذا معقول؟»

تجاهلتها وحاولت أن أتظاهر بالإصغاء إلى الأستاذ فارنر.

لكنها لم تكن تنوي الصمت: «إنه يعجبك إذن؟»

قلت باقتضاب: «نعم».

راحت تحثني: «أقصد... هل يعجبك فعلاً؟»

قلت مجدداً وقد احمرّ وجهي: «نعم!»... تمنيت أن تحذف تلك الإجابة من ذاكرتها.

تعمدت طرح سؤال لا أستطيع الإجابة عليه بكلمة واحدة: «إلى أي مدى يعجبك؟»

همست: «يعجبني كثيراً جداً... أكثر مما أعجبه. لكنني لا أعرف كيف أتجنب ذلك»... تنهّدت... وزاد احمراري.

لحسن الحظ... طلب الأستاذ فارنر من جيسيكا الإجابة على سؤاله.

لم تسنح لها فرصة ثانية لفتح الموضوع من جديد أثناء الدرس. وعندما رن الجرس قمت بحركة للهروب فقلت لها: «في درس الإنكليزية سألني مايك إن كنت قد قلت لي شيئاً عن ليلة الاثنين».

نجحت في تحويل وجهة أفكارها تحويلاً تاماً... لهثت تقول: «هل تمزحين! وماذا قلت له؟»

«قلت له إنك استمتعت كثيراً... ولقد أعجبه ذلك».

قالت بلهفة: «أخبريني ما قاله بالضبط... وماذا أجبته بالضبط؟»

أمضينا فترة الاستراحة بين الدرسين ثم درس اللغة الإسبانية نناقش تفاصيل ما قاله مايك. ما كنت لأمضي معها في هذا الكلام كله لو لم أكن خائفة من عودة الحديث إلى موضوعي أنا.

ثم رن جرس الغداء. لابد أن تعبير وجهي جعل جيسيكا تنتبه عندما قفزت من مقعدي ملقية كتبي داخل حقيبتي.

لقد عرفت: «لن تجلسي معنا اليوم، صحيح؟»

«لا أظن!»... لم أكن واثقة من عدم اختفائه من جديد.

لكنه كان ينتظرني في الخارج قرب باب الصف مستنداً إلى الجدار... كان يبدو مثل تماثيل آلهة الإغريق. نظرت جيسيكا... ثم مضت: «أراك فيما بعد يا بيلا!»... كان صوتها محملاً بالمعاني.

«مرحباً!»... كان صوته مرحاً ومنزعجاً في وقت واحد... لقد كان يستمع إلينا... هذا واضح.

«مرحباً».

لم أستطع التفكير في شيء أقوله غير ذلك... أما هو فلم

يتكلم... كان يتركني أنتظر... كما افترضت... لذلك، سرنا نحو الكافتيريا صامتين. كان سَيْري مع إدوارد في فترة الغداء المزدحمة مثل يومي الأول في المدرسة... كان الجميع ينظرون إلي.

تقدمني باتجاه صف الانتظار... مازال صامتاً، لكن عينيه كانتا تستديران إلى وجهي من لحظة لأخرى... كان الترقب بادياً فيهما. بدا لي أن انزعاجه راح يزداد فيطغى على تعبير السرور في وجهه... رحت أعالج سحاب سترتي بعصبية.

مضى فملأ صينية بالطعام.

قلت معترضة: «ماذا تفعل؟ هل تضع كل هذا الطعام من أجلي؟»

هز رأسه وهو يتقدم ليدفع ثمن الطعام.

«نصفه لي طبعاً».

نظرت بدهشة.

سبقني باتجاه الطاولة التي جلسنا إليها في المرة الماضية. ومن الناحية الأخرى لتلك الطاولة الطويلة نظرت إلينا مجموعة من الطلاب نظرة استغراب عندما جلسنا متقابلين. بدا إدوارد ذاهلاً: «خذي ما تريدين!»... قال ذلك وهو يدفع الصينية باتجاهي.

قلت وأنا ألتقط تفاحة وأقلبها بين يدي: «أشعر بالفضول... ماذا تفعل لو تحداك أحد أن تأكل بعض الطعام؟»

كشر قليلاً وهز رأسه: «أنت فضولية دائماً!»... حدق في عيني ورفع شريحة من البيتزا من الصينية وقضم منها ملء فمه... راح يمضغها ببطء... ثم ابتلعها... رحت أنظر إليه بعينين مشدوهتين.

سألني بتعطف: «إذا تحداك أحد أن تأكلي تراباً... فسوف تأكلين التراب. أليس كذلك؟»

جعدت أنفي: «فعلتها ذات مرة... بسبب التحدي... كان طعمه سيئاً جداً».

ضحك وقال: «أظن أن هذا لا يدهشني». بدا أن شيئاً يجذب انتباهه من خلفي.

قال: «جيسيكا تدرس كل ما أقوم به الآن... ستحدثك عن ذلك فيما بعد». دفع بقية البيتزا صوبي. جعل ذكر جيسيكا بعض الانزعاج السابق يعود إلى ملامحه.

وضعت التفاحة وتناولت قطعة من البيتزا... حولت نظري عنه عالمة أنه سيبدأ الكلام.

«إذن، كانت عاملة الخدمة جميلة، صحيح؟»

«ألم تلاحظ جمالها؟»

«لا!.. لم انتبه إليها. كان ذهني مشغولاً».

«يا للفتاة المسكينة!»... صار بوسعي إظهار الكرم الآن.

«ثمة أمر قلته لجيسيكا... إنه يقلقني». إنه يرفض تشتيت انتباهه... كان صوته مبحوحاً... نظر إلي من خلال أهدابه... كانت عيناه مضطربتين.

«لا يدهشني أنك سمعت شيئاً لم يعجبك. تعرف ما يقال عن مسترقّي السمع».

«قلت لك إنني سأستمع».

«حذرتك من أنك لن تكون مسروراً لسماع كل ما أفكر فيه».

قال موافقاً: «صحيح!»... لكن صوته مازال قاسياً... «لكنك لست مصيبة تماماً، رغم ذلك. أرغب في معرفة كل ما تفكرين فيه. أتمنى فقط... أن لا تفكري في بعض الأشياء».

«ثمة تمييز إذن!»

«لكن هذا ليس هو الأمر الهام في هذه اللحظة».

«ما هو الهام إذن؟»... كان واحدنا يميل صوب الآخر فوق الطاولة

الآن. كانت كفاه معقودتين تحت ذقنه... أما أنا فكنت أميل إلى الأمام واضعة يديّ على رقبتي. كان علي تذكير نفسي بأننا وسط قاعة الطعام المزدحمة. لعل أعيناً فضولية كثيرة كانت مصوبة إلينا. كان من السهل جداً أن ننعزل ضمن حيزنا الخاص المتوتر.

تمتم قائلاً: «هل تظنين حقاً أنك مهتمة بي أكثر من اهتمامي بك؟»... كان يميل أكثر باتجاهي وهو يتكلم... كانت عيناه الذهبيتان القاتمتان حادتين.

حاولت أن أتذكر كيف أتنفس. كان علي أن أنظر بعيداً قبل أن أستطيع التنفس من جديد.

قلت هامسة: «ها أنت تفعلها من جديد؟»

اتسعت عيناه بدهشة: «ماذا أفعل؟»

قلت معترفة: «أنت تدوّخني!»... حاولت التركيز عندما نظرت إليه من جديد.

عبس قائلاً: «أوه!»

تنهدت: «هذا ليس ذنبك!... لا تستطيع تفادي ذلك».

«هل ستجيبين على سؤالي؟»

أطرقت برأسي وقلت: «نعم!»

ظهر عليه الانزعاج من جديد: «نعم ستجيبين أم نعم بمعنى أنك تظنين ذلك حقاً».

«نعم أظن ذلك حقاً». ظلت عيناي مثبتتين إلى الطاولة تتبعان عروق الخشب... طال الصمت... رفضت بعناد أن أكون البادئة بكسر الصمت هذه المرة... رحت أقاوم إغراء استراق النظر إلى تعبير وجهه.

تكلم أخيراً... كان صوته مخملياً ناعماً: «أنت مخطئة».

رفعت رأسي فرأيت نظرة لطيفة في عينيه. همست معترضة: «أنت

لا تعرف!»... هززت رأسي بشك مع أن قلبي ارتجف لكلماته... أردت كثيراً أن أصدقها.

«ما الذي يجعلك تظنين ذلك؟»... كانت عيناه نديتين ثاقبتين... كانتا تحاولان استخراج الحقيقة من عقلي.

نظرت إليه محاولة أن أحافظ على وضوح تفكيري رغم وجهه الذي أمامي... محاولة العثور على سبيل للشرح. رأيت صبره ينفذ وأنا أبحث عن الكلمات... كان صمتي مزعجاً له. بدأ يعبس. أزحت يديّ عن رقبتي ورفعت إصبعي: «دعني أفكر!»... قلتها بإصرار. انفرجت تعابير وجهه... لقد أرضاه أنني كنت أرتب إجابتي. وضعت يدي على الطاولة ثم رفعت يدي اليسرى فشبكت كفي. رحت أنظر إلى يدي... أثني أصابعي ثم أفتحها... تكلمت أخيراً.

«حسن! عدا ما هو واضح... أحياناً...» ترددت قليلاً... «لا أستطيع أن أكون واثقة... لست أجيد قراءة أفكار الآخرين... لكنك أحياناً تبدو كمن يحاول أن يقول وداعاً... لكنك تقول شيئاً آخر». هذا كل ما استطعت قوله عن العذاب الذي تثيره في نفسي كلماته أحياناً.

همس: «هذا كلام ذكي»... ها هو العذاب يظهر من جديد وهو يؤكد مخاوفي... «لكن، هذا بالضبط سبب كونك مخطئة»... بدأ يشرح لي، لكن عينيه ضاقتا فجأة... «ماذا تقصدين بقولك ''ما هو واضح''؟»

«طيب! انظر إلي». قلتها من غير داع لأنه كان يحدق في وجهي فعلاً... «أنا فتاة عادية تماماً... ربما باستثناء الأشياء السيئة من قبيل تعرضي للموت مرات كثيرة ومن قبيل حركاتي الخرقاء التي تجعلني شبه مقعدة... أما أنت...» أشرت بيدي إليه... إلى كل الكمال الذي فيه.

تغضن حاجباه بغضب في البداية ثم استويا وظهرت في عينيه نظرة مدركة: «أنت لا ترين نفسك بوضوح... هل تعرفين هذا؟ لكنني

أعترف أنك فظيعة فعلاً من ناحية تلك الأشياء السيئة». ضحك بعصبية: «لكنك لا تعرفين ما كانت تقوله كل أنثى في هذه المدرسة لنفسها في يومك الأول هنا».

رمشت عيناي بدهشة... تمتمت لنفسي: «لا أصدق هذا...»

«ثقي بي... هذه المرة فقط... أنت لست عادية أبداً».

كان الحرج الذي شعرت به أقوى من سروري بالنظرة التي بدت في عينيه عندما قال تلك الكلمات.

ذكرته سريعاً بما كنت أقوله قبل قليل... «لكنني لست أقول وداعاً!»

هز رأسه: «ألا ترين؟ هذا ما يثبت صحة قولي. أنا أهتم بك أكثر لأنني لو كنت أستطيع فعل ذلك...»... بدا كمن يصارع الفكرة «... إذا كان تركك هو التصرف الصحيح... إذن... فأنا أسبب الألم لنفسي حتى لا أؤلمك... حتى أحافظ على سلامتك».

حدقت فيه: «أنت تعتقد أنني لن أفعل الشيء نفسه لو كنت مكانك؟»

«لن تضطري إلى الاختيار أبداً».

وفجأة، تغير مزاجه الذي لا أستطيع التنبؤ به. أعادت ترتيب وجهه ابتسامة عابثة مدمرة: «طبعاً! بدأت المحافظة على سلامتك تصبح مثل وظيفة بدوام كامل تستلزم حضوري دائماً».

«لم يحاول أحد أن يقتلني اليوم»... ذكرته بهذا وأنا أشعر براحة غامرة لأننا تحولنا إلى موضوع أخف. لم أكن أريده أن يتحدث عن الوداع أكثر من ذلك. إذا اضطررت... سوف أضع نفسي تحت الخطر عمداً حتى أبقيه قريباً مني... طردت هذه الفكرة سريعاً حتى لا تقرأها عيناه السريعتان على وجهي. ستوقعني هذه الفكرة في مشكلة من غير شك.

«لكن!»

«لكن!»... كنت أستطيع المضي في النقاش... لكنني الآن أردته أن ينتظر الكوارث.

مازال تعبير وجهه عادياً: «لدي سؤال آخر لك».

«هيا!»

«هل أنت بحاجة حقاً إلى الذهاب إلى سياتل هذا السبت. أم أن هذا مجرد حجة تستخدمينها لصد هؤلاء المعجبين كلهم؟»

تذكرت بانزعاج: «هل تعرف؟ لم أسامحك بعد على ما فعلته بتايلر»... قلت محذرة: «أنت المذنب في جعله يظن أنني سأذهب إلى حفلة التخرج معه».

ضحك: «أوه! كان سيجد فرصة حتى يطلب ذلك منك دون مساعدتي. لكنني كنت أرغب في رؤية وجهك».

لو لم تكن ضحكته ساحرة إلى ذلك الحد لكان غضبي أكبر.

سألني مستمراً في الضحك: «لو أنني طلبت منك مرافقتي يوم ذاك فهل كنت سترفضين؟»

قلت معترفة: «على الأرجح، لا! لكنني كنت سألغي ذلك فيما بعد فأتظاهر بالمرض أو بأن قدميّ تؤلمني».

ظهرت عليه الحيرة: «ولماذا تفعلين ذلك؟»

هززت رأسي بحزن: «أعتقد أنك لم تشاهدني في صالة الرياضة إطلاقاً. لو شاهدتني لفهم قصدي».

«هل تقصدين أنك لا تستطيعين السير على سطح ثابت مستوٍ دون أن تجدي شيئاً تتعثرين به؟»

«طبعاً».

قال بصوت واثق تماماً: «لن تكون هذه مشكلة... هذا يعتمد على من يراقصك». رأى أنني على وشك الاحتجاج فقاطعني: «لكنك لم

تقولي لي... هل أنت مصممة على الذهاب إلى سياتل؟ هل تمانعين في قيامنا بشيء مختلف؟»

لم أكن لأهتم بأي شيء آخر بعد أن قال كلمة «قيامنا».

قلت: «أنا مستعدة لمناقشة خيارات أخرى... لكن علي أن أطلب منك معروفاً».

بدا عليه القلق كما يحدث كلما سألته سؤالاً غير محدد... «ما هو؟»

«هل أستطيع قيادة السيارة؟»

عبس وقال: «لماذا؟»

«حسن! عندما قلت لتشارلي إنني ذاهبة إلى سياتل سألني تحديداً إن كنت ذاهبة وحدي... وفي ذلك الوقت كنت أعتزم الذهاب وحدي. إذا سألني مرة ثانية فالأرجح أنني سأكذب. لكن لا أعتقد أنه سيسأل مرة ثانية. وإذا تركت سيارتي في البيت فسوف أجعله يطرح السؤال دون ضرورة... وأيضاً لأن قيادتك تخيفني».

قال مستغرباً: «من بين كل الأشياء التي يمكن أن تجعلك تخافين مني... لم تجدي الآن سوى الخوف من قيادتي!» هز رأسه متأففاً؛ لكن عينيه صارتا جديتين: «ألا ترغبين في إخبار والدك أنك تمضين النهار معي؟»... كان في سؤاله شيء لم أفهمه.

«مع تشارلي... الاختصار أفضل دائماً»... كنت واثقة من ذلك... «أين سنذهب على أية حال؟»

«سيكون الجو جميلاً... لذلك سأبتعد عن أعين الناس... أما أنت فبوسعك البقاء معي... إذا أحببت!»... من جديد... كان يترك الخيار لي.

«سوف تريني ما الذي تقصده... بشأن الشمس؟»... سألته وقد أثارتني فكرة اكتشاف مجهول جديد.

ابتسم: «نعم!»... ثم توقف قليلاً... «لكن، إذا لم تريدي أن تكوني... وحدك معي. فإنني أظل أفضل عدم ذهابك إلى سياتل وحدك. أرتجف عندما أتخيل المشاكل التي يمكن أن تقعي فيها في مدينة بهذا الحجم.»

استغربت: «فينيكس أكبر من سياتل بثلاث مرات... من حيث السكان ومن حيث الامتداد...»

قاطعني: «لكن من الواضح أن أَجَلَك لم يكن قد حان في فينيكس. لذلك أنا أفضل أن تظلي قريبة مني». عند ذلك فعلت عيناه ذلك الشيء المدوخ غير العادل من جديد.

لم أستطع المناقشة... لا مع عينيه ولا مع فكرته... هذا عبث على أية حال... «الواقع أنني لا أمانع أن أكون وحيدة معك».

تنهد مفكراً: «أعرف! لكن، يجب أن تخبري تشارلي».

«ولماذا أفعل ذلك؟»

غدت عيناه قاسيتين فجأة: «حتى تعطيني حافزاً صغيراً يجعلني أعيدك إلى البيت».

ابتلعت ريقي... لكنني صممت بعد لحظة: «أظن أنني أقبل المخاطرة».

زفر غاضباً ونظر بعيداً.

اقترحت عليه: «دعنا نتحدث في شيء آخر».

سألني: «ما الذي تريدين الحديث فيه؟»... مازال منزعجاً.

نظرت من حولي لأتأكد من أن أحداً لا يسمعنا. وعندما تجولت عيناي في الغرفة رأيت أخته أليس تنظر إلي... أما بقية إخوته فكانوا ينظرون إليه. حولت نظري بسرعة إليه وسألته أول سؤال خطر ببالي: «لماذا ذهبتم إلى "صخور الماعز" الأسبوع الماضي... أمن أجل

الصيد؟ قالت تشارلي إن ذلك المكان ليس مناسباً للرحلات... بسبب الدببة!».

نظر إلي كما لو كنت غافلة عن أمر شديد الوضوح... فسألته همساً: «الدببة؟»... فابتسم ابتسامة ساخرة... قلت حتى أخفي صدمتي: «هذا ليس موسم الدببة كما تعلم».

قال: «لو قرأت جيداً لعرفت أن القانون يمنع اصطياد الدببة بالأسلحة فقط».

راح يتسلى بمراقبة وجهي بينما رحت أستوعب الفكرة ببطء.

قلت بصعوبة: «الدببة؟»

«إيميت يفضل الدب البني!»... مازال صوته محايداً، لكن عينيه كانتا تنتظران رد فعلي... حاولت استجماع شتات نفسي.

قلت: «همم!»... أخذت قضمة جديدة من البيتزا... حجة حتى أنظر إلى الطاولة. رحت أمضغ ببطء ثم شربت رشفة كبيرة من كأسي دون أن انظر إلى إدوارد.

أخيراً، قابلت نظرته المتسائلة وقلت بعد لحظة: «إذن! وما الذي تفضله أنت؟»

رفع حاجبه والتوت زاوية شفته... لم يعجبه سؤالي: «الأسد الجبلي».

قلت بنبرة مهذبة محايدة: «آه!»... ونظرت إلى كأسي من جديد. قال محاولاً تقليد نبرتي: «علينا طبعاً أن ننتبه حتى لا نسبب الضرر للبيئة من خلال هذا الصيد غير القانوني. نحاول التركيز على مناطق فيها أعداد كبيرة من تلك الوحوش... وفيها من الأنواع بقدر ما نريد. ثمة غزلان ووعول كثيرة هناك... وهي تفي بالغرض أيضاً... لكن، ما المتعة فيها!»... راح يبتسم كمن يناكدني.

«وأين ذلك؟»... تمتمت وأنا أقضم البيتزا من جديد.

«بداية الربيع هي موسم الدببة التي يفضلها إيميت... عندها تستيقظ من سباتها الشتوي... وتكون سريعة الاهتياج»... ابتسم كأنه تذكر نكتة قديمة.

أومأت برأسي مؤيدة: «لا شيء أكثر متعة من دب بني مهتاج!»

ضحك وهز رأسه: «أخبريني فيم تفكرين حقاً؟... من فضلك».

قلت معترفة: «أحاول تصور الأمر... لكنني لا أستطيع... كيف تصطادون دباً دون أسلحة؟»

«لدينا أسلحة»... أظهر أسنانه اللامعة بابتسامة خاطفة مهددة. حاولت كتم ارتجافي قبل أن يفضحني... «لكنها ليست من بين الأسلحة التي تخطر ببالهم وهم يكتبون قوانين الصيد. لو شاهدت هجوم الدب في التلفزيون لاستطعت تصور كيف يصطاده إيميت».

لم أستطع كبح الرجفة التي سرت في ظهري. التفت لأنظر إلى إيميت... لحسن حظي لم يكن ينظر ناحيتي... بدت العضلات الكثيفة التي تلف ذراعيه وجذعه أكثر هولاً الآن.

تابع إدوارد نظراتي ثم ضحك... حدقت فيه غاضبة ثم سألته بصوت منخفض: «وهل أنت مثل الدب أيضاً؟»

قال بخفة: «بل أشبه بالأسد. أو هذا ما يقال لي... ربما يكون هذا سبب تفضيلي صيد الأسود في حين يفضل إيميت صيد الدببة».

حاولت أن أبتسم... كررت كلمته: «ربما!»... لكن رأسي كان ممتلئاً بصور متعارضة لم أستطع التوفيق بينها... «وهل هذا شيء يمكن أن أراه؟»

«قطعاً لا!»... صار وجهه أكثر بياضاً من المعتاد... وغدت عيناه غاضبتين فجأة. ارتددت إلى الخلف مصعوقة خائفة من ردة فعله... رغم أنني ما كنت لأقول له ذلك أبداً. ارتد إلى الخلف مثلي وعقد ساعديه على صدره.

سألته عندما استطعت التحكم بصوتي من جديد: «هل هذا مخيف جداً بالنسبة لي؟»

قال بصوت قاطع: «لو كانت هذه هي المشكلة... لأخذتك اليوم... أنت بحاجة إلى جرعة من الخوف. لا شيء يمكن أن يفيدك أكثر منها».

قلت بإلحاح محاولة تجاهل تعبير وجهه الحانق: «ما المشكلة إذن؟»

حدق فيّ دقيقة كاملة... ثم قال: «فيما بعد». وبلحظة واحدة صار واقفاً على قدميه: «سنتأخر على الدرس».

نظرت من حولي فدهشت عندما رأيت أنه محق وأن الكافتيريا صارت شبه فارغة. عندما أكون معه يصبح المكان والزمان ضبابيين فأعجز عن الانتباه إليهما. قفزت واقفة وأخذت حقيبتي عن مسند الكرسي.

قلت: «إذن،... فيما بعد!»... لن أنسى ذلك.

11

تعقيدات

كان الجميع ينظرون إلينا عندما سرنا معاً نحو طاولة المخبر. لاحظت أنه لم يعد يبعد كرسيه حتى يجلس بعيداً عني بالقدر الذي تسمح به الطاولة. جلس قريباً جداً مني... كان ذراعانا متلامسين تقريباً.

دخل الأستاذ بانر الغرفة... يا للتوقيت الرائع... كان يجر إطاراً معدنياً طويلاً على عجلات، عليه جهاز تلفزيون وجهاز فيديو ضخمين قديمين... إنه يوم عرض الأفلام... كان تحسن مزاج الصف كله واضحاً.

أدخل الأستاذ بانر شريط الفيديو في الجهاز ثم مضى إلى الجدار حتى يطفئ الضوء.

عندها... عندما أظلمت الغرفة... صرت فجأة شديدة الإحساس بقرب إدوارد مني. صعقتني الكهرباء غير المتوقعة التي سرت في جسدي... أدهشتني إمكانية أن أحس به أكثر مما أحس به عادة. كادت تجتاحني رغبة مجنونة في أن أمد يدي فألمسه وأمسد على وجهه ولو مرة واحد في تلك الظلمة. عقدت ذراعي بشدة على صدري وشددت قبضتي. لابد أنني أفقد عقلي.

ظهرت أول صورة فأضاءت الغرفة قليلاً جداً. اتجهت عيناي نحوه دون إرادة مني. ابتسمت بخجل عندما رأيته في وضع مثل وضعي..

كانت ذراعاه معقودتين على صدره... قبضتاه مشدودتين... وكانت عيناه أيضاً منحرفتين تنظران إلي. ابتسم مثل ابتسامتي. أفلحت عيناه في التوهج حتى في ذلك الظلام. حوّلت نظري عنه قبل أن أضطر إلى تهوية وجهي بيدي... من السخف تماماً أن أشعر بهذا الدوار.

بدت تلك الساعة طويلة جداً. لم أستطع التركيز على الفيلم... بل لم أعرف عن أي شيء يتحدث. حاولت الاسترخاء دون جدوى، لكن التيار الكهربائي الذي كان نابعاً من مكان في جسده لم يتوقف أبداً. كنت، من حين لآخر، أسمح لنفسي باستراق نظرة صوبه... لكن الاسترخاء لم يظهر عليه هو أيضاً. كانت الرغبة الجارفة في لمسه ترفض التلاشي... رحت أغرس قبضتي في أضلاعي حتى آلمتني أصابعي.

تنفست الصعداء عندما أشعل الأستاذ بانر الضوء في نهاية الدرس فمددت ذراعيّ أمامي وفتحت أصابعي المتيبسة... سمعت ضحكة إدوارد بجانبي.

همس: «كان هذا مثيراً للاهتمام»... كان صوته مظلماً... كانت عيناه حذرتان.

ما كنت قادرة على الإجابة إلا بـ«إمم!»

سألني وهو ينهض بليونة: «هل نذهب؟»

كدت أئن حزناً... حان وقت درس الرياضة! وقفت بحذر... خشيت أن يكون توازني قد تأثر بفعل ذلك التوتر الجديد الغريب الذي نشأ بيننا.

مشى معي صامتاً حتى قاعة الرياضة... توقف عند الباب... استدرت لأودعه. فاجأني وجهه... كان تعبيره ممزقاً متألماً... كان جميلاً بشكل جارح بعث من جديد ذلك الألم الذي يحاول إجباري على لمسه. التصقت كلمات الوداع بحنجرتي.

رفع يده متردداً... كان صراع يحتدم في عينيه... ثم مر بأطراف

أصابعه على وجنتي. كان جلده بارداً كعادته، لكن أثر أصابعه على جلدي كان حاراً جداً... كما لو أن حرقاً أصابني ولم أشعر بألمه بعد.

استدار دون أي كلمة. ثم سار بعيداً.

دخلت القاعة... كان رأسي يدور... وكانت مشيتي مرتعشة. ذهبت إلى غرفة تبديل الملابس ورحت أبدل ملابسي مذهولة... لم أشعر بوجود الناس من حولي إلا على نحو غامض. لم أعد إلى الواقع تماماً إلا عندما أعطوني مضرباً. لم يكن المضرب ثقيلاً... لكنه بدا خطيراً في يدي. رأيت عدداً من الأولاد ينظرون إلي بخوف. أمرنا المدرب كلوب بأن ننتظم أزواجاً.

لحسن حظي... مازال لدى مايك قدر من الفروسية... لقد جاء فوقف بجانبي وقال: «هل تريدين أن نكون فريقاً واحداً؟»

«شكراً يا مايك... لست مضطراً إلى فعل هذا كما تعلم»... قلت مكشرة تكشيرة اعتذار.

ابتسم مايك: «لا تقلقي!... سأظل بعيداً عن طريقك»... أحياناً، يكون من السهل جداً أن أحب مايك.

لم تسر الأمور بسلام. أفلحت على نحو ما في إصابة رأسي وفي إصابة كتف مايك بالمضرب في حركة واحد. أمضيت بقية الساعة في زاوية الملعب الخلفية... وأبقيت المضرب خلفي طلباً للأمان. كان مايك يلعب جيداً رغم إصابة كتفه. لقد فاز وحده بثلاثة أشواط من أصل أربعة. وعندما صفر المدرب أخيراً معلناً انتهاء الوقت منحني مايك خمس نقاط لا فضل لي فيها.

قال مايك ونحن خارجان من الملعب: «إذن!»

«إذن ماذا؟»

سألني بنبرة مستاءة: «أنت وكولن... هاه؟»... زالت مشاعري الودية تجاهه.

قلت: «هذا ليس من شأنك يا مايك؟»... ورحت ألعن جيسيكا في سري بأسوأ ما أعرفه من لعنات.

لكنه قال مدمدماً: «هذا لا يعجبني...»

قلت بحدة: «ليس ضرورياً أن يعجبك».

لكنه تجاهلني وتابع كلامه: «إنه ينظر إليك... كما لو أنه ينظر إلى شيء يؤكل».

ابتلعت الهستيريا التي راحت تهدد بالانفجار، لكن ضحكة صغيرة أفلحت في الإفلات رغم جهودي. نظر إلي مايك غاضباً. لوحت له بيدي وهربت إلى غرفة تبديل الملابس.

ارتديت ملابسي بسرعة... كان شيء أقوى من الفراشات يرفرف على غير هدى ويصدم جدران معدتي... صار جدالي مع مايك مجرد ذكرى بعيدة. تساءلت إن كنت سأجد إدوارد بانتظاري... لعل عليّ ملاقاته عند سيارته! ماذا لو كان إخوته معه؟ شعرت بموجة خوف حقيقي. هل يعرفون أنني أعرف؟ وهل يفترض بي أن أعرف أنهم يعرفون أنني أعرف، أم لا؟

عندما خرجت من صالة الرياضة، كنت شبه مصممة على الذهاب مشياً إلى منزلي حتى من غير النظر نحو موقف السيارات. لكنني لم أكن بحاجة إلى مزيد من القلق. كان إدوارد ينتظرني مستنداً إلى جدار الصالة الخارجي... كان وجهه الذي يقطع الأنفاس مرتاحاً الآن. وعندما مشيت بجانبه جاءني إحساس عجيب بالارتياح.

همست مع ابتسامة كبيرة: «مرحباً».

كانت ابتسامته الجوابية مشرقة: «مرحباً! كيف كان درس الرياضة؟»

تغير وجهي قليلاً، لكنني كذبت: «ممتاز».

«حقاً!»... لم يقتنع. تحولت نظراته قليلاً... نظرت عيناه من

فوق كتفي... رأيتهما تضيقان قليلاً. التفت خلفي فرأيت ظهر مايك مبتعداً عنا.

قلت متسائلة: «ماذا؟»

عادت عيناه إليّ... مازال بعض الانزعاج فيهما: «مايك نيوتن يثير أعصابي».

صدمني الخوف: «هل كنت تستمع من جديد؟»... اختفت كل آثار مزاجي الطيب المفاجئ.

سألني بصوت بريء: «كيف رأسك الآن؟»

«أنت شخص لا يصدق»... استدرت ثم رحت أسير صوب موقف السيارات مع أنني لم أقرر الذهاب إلى هناك. لكنه ظل بجانبي.

«أنت التي قلت إنني لم أرك في صالة الرياضة... وهذا ما أثار فضولي»... لم يبد أي اعتذار في صوته... لذلك تجاهلته.

مشينا صامتين حتى سيارته... صمت غاضب محرج من جانبي... لكن، كان علي أن أقف قبل السيارة بخطوات قليلة... كان يحيط بها جمع من الناس... كلهم صبيان.

عند ذلك أدركت أنهم لم يكونوا متجمعين حول الفولفو بل حول سيارة روزالي الحمراء... كانت في عيونهم شهوة لا يخطئها النظر. لم ينظر أحد منهم إلى إدوارد عندما شق طريقه بينهم ليفتح باب سيارته. أما أنا فركبت إلى جانبه... ولم يلاحظني أحد أيضاً.

تمتم إدوارد: «سيارة باذخة!»

سألته: «ما نوعها؟»

«إنها إم 3».

«لست خبيرة بلغة السيارات!»

«إنها بي إم دبليو». راح يركز انتباهه غير ناظر إلي... كان يحاول

الرجوع بالسيارة دون أن يصدم أحداً من المتجمعين.

أومأت برأسي... نعم! لقد سمعت بهذا النوع من السيارات.

سألته فيما كان يناور حذراً للخروج من موقف السيارات: «هل مازلت غاضباً؟»

«طبعاً!»... تنهد ثم قال: «هل تسامحيني إذا اعتذرت؟»

قلت بإصرار: «ربما... إذا كنت جاداً في اعتذارك. وإذا وعدتني ألا تفعلها من جديد».

صارت عيناه ماكرتين فجأة: «ماذا إذا كنت جاداً في اعتذاري، وإذا وافقت على السماح لك بالقيادة يوم السبت؟»... لقد أحبط شروطي كلها!

فكرت قليلاً ثم رأيت أن ذلك يمكن أن يكون أفضل عرض أحصل عليه فقلت: «اتفقنا».

«إذن، أنا آسف جداً لأنني أزعجتك»... لمع الصدق في عينيه لحظة قصيرة... رقص قلبي... ثم صارت عيناه عابثتين... «وسوف أكون عند بابك في الصباح الباكر يوم السبت».

«همم! لن يساعدنا من ناحية تشارلي أن يجد عند بابه سيارة فولفو واقفة لسبب غير مفهوم».

صارت ابتسامته مترفعة الآن: «لا أعتزم إحضار السيارة».

«كيف...؟»

قاطعني: «لا تشغلي بالك... سأكون عندك... دون سيارة».

تغاضيت عن ذلك... كانت لدي أسئلة أكثر إلحاحاً.

سألته عارفة أنه يدرك قصدي: «هل حان الوقت؟»

عبس وقال: «أفترض هذا».

حافظت على تعبير وجهي مهذباً... ورحت أنتظر.

أوقف السيارة فرفعت رأسي مدهوشة... كنا عند منزل تشارلي طبعاً... كنا واقفين خلف سيارتي. من الأسهل علي أن لا أرفع رأسي عندما أكون معه حتى نصل إلى وجهتنا. عندما نظرت إليه من جديد رأيته يحدق فيّ متفحصاً.

«مازلت ترغبين في أن تعرفي لماذا لا تستطيعين رؤيتي وأنا أصطاد؟»... بدا وجهه جاداً، لكني ظننت أنني لمحت أثراً من الفكاهة عميقاً في عينيه.

قلت: «كنت أتساءل عن ردود أفعالك».

«وهل أخفتك؟»... نعم، كان في عينيه فكاهة بكل تأكيد.

كذبت: «لا!»... لكنه لم يصدق.

«أعتذر لأنني أخفتك»... قالها مع ابتسامة صغيرة، لكن وجهه خلا من كل أثر للمزاح... «يزعجني حتى تصورك موجودة هناك... عندما نصطاد»... ضغط على فكيه بشدة.

«هل يكون ذلك سيئاً؟»

أجابني من خلال أسنانه المطبقة: «إلى أقصى حد!»

«لأن... ؟»

عب نفساً عميقاً وراح يحدق عبر زجاج السيارة في الغيوم الكثيفة المتلاطمة التي بدت منخفضة جداً كأنها في متناول اليد. ثم بدأ يتكلم ببطء... من غير رغبة: «عندما نصطاد نطلق العنان لحواسنا... ولا ندع عقولنا تحكم سلوكنا... حاسة الشم خاصة... فإذا كنت قريبة مني عندما أفقد السيطرة على نفسي بتلك الطريقة...» هز رأسه مواصلاً تحديقه الحزين في الغيوم الكثيفة.

ضبطت تعبير وجهي بحزم متوقعة أن يلقي علي نظرة سريعة ليرى رد فعلي... هذا ما حدث فعلاً، لكن وجهي لم يفصح عن شيء.

لكن أعيننا تلاقت... وازداد الصمت عمقاً... وتغير. بدأت

شرارات من تلك الكهرباء التي أحسستها ظهر اليوم تشحن الجو من حولنا في حين واصل تحديقه في عيني بلا هوادة. لم أدرك أنني كففت عن التنفس إلا عندما بدأ رأسي يدور. وعندما استنشقت نفساً عميقاً مجلجلاً كسر الصمت أغمض إدوارد عينيه.

«بيلا! أظن أن عليك أن تدخلي منزلك الآن»... كان صوته الخافت خشناً... تعلقت عيناه بالغيوم من جديد...

فتحت الباب فساعدني تيار الهواء القطبي الذي اندفع إلى السيارة على استعادة وعيي. خفت أن أتعثر لأنني كنت في تلك الحالة فخرجت من السيارة بحذر وأغلقت الباب دون أن أنظر خلفي. لكن أزيز فتح النافذة الآلية جعلني أستدير.

ناداني: «أوه، بيلا!»... كان صوته الآن أكثر اعتدالاً. كان منحنياً صوب النافذة المفتوحة وعلى وجهه ابتسامة صغيرة.

«نعم؟»

«غداً دوري».

«دورك في ماذا؟»

كبرت ابتسامته وكشفت عن أسنانه اللامعة: «دوري في طرح الأسئلة».

ثم ذهب... أسرعت السيارة وهي تنحدر عبر الشارع ثم اختفت خلف الزاوية قبل أن أستجمع أفكاري. ابتسمت في طريقي إلى المنزل. واضح أنه يعتزم رؤيتي غداً... وهذا يكفي.

كان إدوارد نجم أحلامي في تلك الليلة... كالعادة. لكن مناخ وعيي الباطن تغير. كان عابقاً بتلك الكهرباء التي أحسستها في ذلك اليوم... رحت أتقلب وأتقلب... صحوت مرات كثيرة. ولم أغرق في نوم عميق من غير أحلام إلا عند ساعات الصباح الأولى.

وعندما استيقظت صباحاً كنت لا أزال متعبة... منفعلة أيضاً.

ارتديت كنزة بنية مدورة الياقة مع بنطلون الجينز... وتنهدت حالمة بأيام البنطلون القصير والقمصان ذات الحمالات الرفيعة. كان الفطور عادياً هادئاً كما توقعت. تولى تشارلي قلي البيض لنفسه... أما أنا فتناولت صحناً من رقاقات الحبوب. سألت نفسي ما إذا كان قد نسي مشروعي لهذا السبت. لكنه أجاب على سؤالي الذي لم أطرحه عندما وقف ليضع صحنه في المجلى.

ذهب إلى المجلى ووضع الصحن ثم فتح الماء وقال: «بخصوص هذا السبت...»

انكمشت خوفاً: «نعم يا أبي!»

«هل ما زلت مصممة على الذهاب إلى سياتل؟»

«هكذا هي الخطة!»... قلت ذلك مكشرة وتمنيت لو أنه لم يثر الموضوع حتى لا أضطر إلى تلفيق أنصاف الحقائق.

وضع قليلاً من سائل التنظيف في الصحن ودعكه بالفرشاة: «هل أنت واثقة من أنك لا تستطيعين العودة في الوقت المناسب للذهاب إلى الحفلة».

حدقت فيه: «لن أذهب إلى الحفلة يا أبي».

سألني محاولاً إخفاء قلقه متظاهراً بالتركيز على تنظيف الصحن: «ألم يوجه إليك أحد الدعوة؟»

تجنبت حقل الألغام وقلت: «في هذه الحفلة تختار الفتاة من تريد دعوته».

«أوه!»... قالها عابساً وراح يجفف الصحن.

أحسست بتعاطف معه. لابد أن دور الأب صعب... صعب تخاف أن لا تجد ابنتك صبياً يعجبها، ثم تخاف أيضاً إن هي وجدت ذلك الصبي. كم يكون الأمر مخيفاً... هكذا فكرت مرتعدة... إذا كان لدى تشارلي أي فكرة عما يعجبني في الواقع.

بعد ذلك خرج تشارلي ملوحاً بيده لوداعي. صعدت إلى الأعلى لأنظف أسناني وأجمع كتبي. وعندما سمعت سيارة تشارلي تنطلق لم أستطع الانتظار أكثر من ثواني قليلة قبل أن أنظر من النافذة. كانت السيارة الفضية واقفة هناك تنتظر... تماماً حيث كانت سيارة تشارلي. نزلت سريعاً وخرجت من الباب الأمامي متسائلة في نفسي كم يمكن أن يدوم هذا النظام اليومي الغريب؟.. وتمنيت ألا ينتهي.

كان ينتظر في السيارة... لم يبد عليه أنه يراقب حركتي عندما أغلقت باب البيت من خلفي دون أن اهتم بإقفاله. مشيت نحو السيارة... توقفت لحظة بخجل قبل أن أفتح الباب وأدخل. كان يبتسم مرتاحاً... وكالعادة كان كاملاً جميلاً إلى حد معذّب.

جاءني صوته حريرياً: «صباح الخير. كيف حالك اليوم؟»... تجولت عيناه على وجهي كما لو أن سؤاله يحمل شيئاً أكثر من المجاملة الصباحية العادية.

«بخير... شكراً»... أنا دائماً بخير... وأكثر... عندما أكون بالقرب منه.

توقفت عيناه عند الدوائر التي تحت عيني: «يبدو عليك التعب».

«لم أستطع النوم»... اعترفت وألقيت شعري فوق كتفي بحركة تلقائية حتى أختبئ خلفه.

قال مازحاً: «لم أستطع النوم أيضاً». أدار المحرك أيضاً... صرت معتادة الآن على صوته الهادئ. لابد أن زئير محرك سيارتي سيخيفني عندما أعود إلى قيادتها من جديد.

ضحكت وقلت: «أظن أن هذا صحيح. وأعتقد أنني نمت أكثر منك قليلاً».

«أكيد!»

«ماذا فعلت ليلة أمس؟»

ضحك: «لا، أبداً!... اليوم دوري في طرح الأسئلة».

«آه! صحيح... ما الذي تريد معرفه؟»... تغضنت جبهتي. لم أستطع تخيل أن أي شيء مما يخصني يمكن أن يثير اهتمامه بأي شكل من الأشكال.

سألني بوجه جاد: «ما لونك المفضل؟»

قلت مستغربة: «إنه يتغير من يوم لآخر».

مازال جاداً: «وما لونك المفضل اليوم؟»

«لعله البني!»... كنت أميل عادة إلى اختيار لون ملابسي تبعاً لمزاجي.

صدرت عنه شخرة غاضبة... ثم تخلى عن تعبير وجهه الجاد وسألني مشككاً: «البني؟»

قلت متذمرة: «نعم بالتأكيد! البني لون دافئ. أنا أفتقد اللون البني. كل ما يفترض أن يكون بنياً... جذوع الأشجار والصخور والتراب... أجده هنا مغطى باللون الأخضر».

بدا مسحوراً بصخبي. ثم غرق في التفكير دقيقة واحدة وهو ينظر في عيني. قال أخيراً: «أنت محقة»... عاد جاداً... «البني لون دافئ». مد يده بسرعة، لكنه مازال متردداً بعض الشيء، فأزاح شعري إلى خلف كتفي.

وصلنا إلى المدرسة الآن. استدار نحوي عندما دخلت السيارة ساحة الوقوف: «ما الموسيقى الموجودة في جهاز تشغيل الأسطوانات عندك الآن في هذه اللحظة؟»... ألقى هذا السؤال بوجه عابس جاد كأنه يطلب مني الاعتراف بجريمة قتل.

تذكرت أنني لم أخرج الأسطوانة التي جاءتني هدية من فيل. وعندما ذكرت اسم تلك الفرقة ابتسم إدوارد ابتسامة خبيثة وظهر تعبير غريب في عينيه. فتح علبة تحت مشغل الأسطوانات في سيارته وأخرج

واحدة من نحو ثلاثين أسطوانة كانت مصفوفة هناك في ذلك الحيز الصغير... ثم ناولني إياها وقال: «دوبوسي؟»

كانت الأسطوانة نفسها... رحت أنظر إلى غلافها المألوف ولم أرفع نظري.

ظل الأمر على ذلك النحو طيلة النهار. عندما أوصلني إلى صف اللغة الإنكليزية، وعندما لاقاني بعد درس الإسبانية، وخلال ساعة الغداء كلها، كان يسألني دون توقف عن كل تفصيل صغير قليل الأهمية من تفاصيل وجودي. الأفلام التي أحبها والأفلام التي أكرهها... والأماكن القليلة التي ذهبت إليها والأماكن الكثيرة التي لم أذهب إليها... وكذلك الكتب... الكتب والكتب... من غير نهاية.

لا أتذكر المرة الأخيرة التي تكلمت فيها بهذه الكثرة. وفي مرات كثيرة كنت أنتبه لنفسي واثقة من أنني أضجرته. لكن وجهه المستعد دائماً لتلقف كلماتي، وسيل أسئلته الذي لا ينتهي، أجبراني على الاستمرار. غالباً ما كانت أسئلته سهلة... قليل منها فقط جعلت وجهي يحمَرّ. لكن احمرار وجهي في كل مرة كان يجرّ جولة جديدة من الأسئلة.

وعندما سألني عما أفضله من الحجارة الكريمة ذكرت التوباز دون تفكير... كان يطلق أسئلته بسرعة جعلتني أشعر كأني أخضع لواحد من تلك الاختبارات النفسانية التي تطلب منك الإجابة بأول كلمة تخطر في بالك. كنت واثقة من أنه سيتابع أسئلته دون انقطاع لولا الاحمرار الذي كان يصيب وجهي. احمرّ وجهي هذه المرة لأن العقيق هو الحجر الذي كنت أفضله، حتى منذ فترة قريبة جداً. وبينما رحت أحدق في عينيه اللتين بلون التوباز، كان من المستحيل أن لا أعرف سبب هذا التحول المفاجئ... طبيعي أنه لم ينتظر ريثما أعترف بسبب شعوري بالإحراج.

أخيراً أمرني بعد أن فشل الإقناع... فشل فقط لأنني أبقيت عينيّ في أمان بعيداً عن وجهه: «قولي لي ما السبب!»

قلت مستسلمة متنهدة: «إنه لون عينيك اليوم»... ورحت أحدق في يدي وألعب بخصلة من شعري... «أعتقد انك لو سألتني بعد أسبوعين فسأقول إنه العقيق»... في صدقي المتردد هذا أعطيته معلومات أكثر مما كان ضرورياً... خفت أن يثير ذلك غضبه الغريب الذي يشب كلما انزلقت فكشفت عن تعلقي به بوضوح زائد.

لكن صمته كان قصيراً جداً إذ انطلق يسأل من جديد: «وما نوع الأزهار المفضل عندك؟»

أطلقت زفرة راحة وتابعت ذلك الاختبار النفساني.

كان درس البيولوجيا مشكلة أيضاً فقد واصل إدوارد طرح أسئلته حتى دخل الأستاذ بانر القاعة جاراً أجهزة العرض معه من جديد. وعندما مدّ الأستاذ يده ليطفئ الأنوار لاحظت أن إدوارد أزاح كرسيه مبتعداً عني قليلاً. لكن هذا ما كان مفيداً... فعندما أظلمت القاعة عادت تلك الشرارات الكهربائية من جديد... وعاد ذلك التوق الذي لا يدفعني دون هوادة إلى مد يدي عبر المسافة الصغيرة الفاصلة بيننا حتى ألمس جلده البارد... كما حدث البارحة.

ملت فوق الطاولة واضعة ذقني على ذراعي المتشابكتين... كانت أصابعي المختبئة تتشبث بحافة الطاولة محاولة تجاهل ذلك الدافع غير العقلاني الذي جعلني أضطرب. لم أنظر إليه... خفت أن أجده ينظر إلي فيصبح ضبط النفس مهمة أكثر صعوبة. حاولت صادقة أن أتابع الفيلم. لكنني... عندما انتهى الدرس... لم أكن أعرف ما شاهدته فيه. تنفست الصعداء عندما أضاء الأستاذ بانر النور... وسمحت لنفسي أخيراً باستراق نظرة إلى إدوارد... كان ينظر إلي... كانت نظرة عينيه متضاربة.

نهض ثم وقف ساكناً ينتظرني. مشينا نحو صالة الرياضة صامتين، كما فعلنا أمس. وكما حدث أمس أيضاً... لمس وجهي دون أي

كلمة... هذه المرة مسد وجهي بظهر يده الباردة من صدغي حتى فكي... ثم استدار ومضى.

مضى درس الرياضة سريعاً... اكتفيت بالفرجة على مايك يلعب وحده. لم يتحدث معي اليوم إما رداً على تعبير وجهي الفارغ أو لأنه مازال غاضباً بسبب مشاجرتنا الكلامية أمس. شعرت بالاستياء لذلك... قليلاً... في زاوية صغيرة من عقلي. لكنني لم أستطع تركيز انتباهي عليه.

أسرعت لتغيير ملابسي لا ألوي على شيء... كلما أسرعت في ذلك كلما كان لقائي معه أقرب. جعلني ذلك الضغط أكثر خراقة من المعتاد. لكنني صرت عند الباب في النهاية وشعرت بالراحة نفسها عندما رأيته واقفاً هناك فغطت وجهي ابتسامة تلقائية. ابتسم لي ثم انطلق في أسئلته من جديد.

صارت أسئلته مختلفة الآن ولم تعد الإجابة عليها سهلة كما كانت. أراد أن يعرف ما الذي اشتاق إليه في فينيكس. وراح يلح علي حتى أصف له الأشياء التي لم يكن يعرفها. جلسنا ساعات أمام منزل تشارلي في حين كانت السماء تزداد ظلمة ثم انهمر المطر من حولنا في طوفان مفاجئ.

حاولت وصف أشياء لا أستطيع وصفها مثل رائحة الكريوسوت الذي يستخدم لحماية السطوح الخشبية... رائحة مرة، صمغية قليلاً، لكنها لطيفة... أو مثل الصوت الذي يحدثه زيز الحصاد في تموز، أو عري الأشجار من أوراقها، أو حتى اتساع مساحة السماء ممتدة من الأفق إلى الأفق بلونها الأزرق المبيض دون أن يشوش صفاءها شيء إلا تلك الجبال المنخفضة التي تكسوها صخور بركانية أرجوانية. لكن أصعب شيء كان شرح سبب جمال هذه الأشياء في نظري... تفسير ذلك الجمال الذي لم يكن يعتمد على الخضرة القليلة التي تبدو نصف

ميتة أكثر الوقت... جمال يأتي أكثره من شكل الأرض العارية ومن برك الوديان الضحلة بين التلال الصغيرة وكيف تعكس هذه البرك أشعة الشمس. وجدت نفسي أستخدم يدي في محاولة وصف ذلك كله.

جعلتني أسئلته الهادئة المستحثة أتكلم بحرية ناسية في الضوء الخافت لذلك النهار العاصف الشعور بالحرج من احتكار الحديث كله. أخيراً، عندما فرغت من وصف تفاصيل غرفتي المبعثرة سكت إدوارد ولم يطرح علي سؤالاً آخر.

سألته مرتاحة: «هل انتهيت؟»

«مازلت في البداية... لكن وقت وصول والدك قد حان».

«تشارلي!»... تذكرت وجوده فجأة وتنهدت. نظرت إلى السماء التي جعلها المطر قاتمة... لكنها لم تفصح عن شيء. تساءلت بصوت مرتفع وأنا انظر إلى الساعة: «ما الوقت الآن؟»... فوجئت... سيصل تشارلي إلى المنزل الآن.

تمتم إدوارد ناظراً إلى الأفق الغربي الذي حجبته الغيوم: «إنه الغروب»... كان صوته منشغلاً كأن أفكاره مضت بعيداً. حدقت فيه بينما راح ينظر عبر زجاج السيارة إلى لاشيء.

كنت مستمرة في النظر إليه عندما التفتت عيناه فجأة فالتقطت عيني.

قال مجيباً على سؤال لم أقله... لكنه رآه في عيني: «إنه أكثر أوقات النهار أماناً بالنسبة لنا... إنه أسهل الأوقات. لكنه أكثرها حزناً على نحو ما... فهو نهاية يوم آخر وعودة الليل. الظلمة شيء يسهل التنبؤ به كثيراً، ألا تظنين ذلك؟»... ثم ابتسم ابتسامة حزينة.

عبست وقلت: «أحب الليل. ما كنا لنرى النجوم لولا الظلام. لكن رؤيتها هنا مستحيلة تقريباً».

ضحك فخفت وطأة الكآبة على الفور.

قال: «سيكون تشارلي هنا خلال دقائق. لذلك... ما لم تكوني راغبة في إخباره أنك ستكونين معي يوم السبت...»

«شكراً! لا... شكراً!»... جمعت كتبي وشعرت أن جسمي تيبس بعد هذه الفترة الطويلة من الجلوس... «إذن، غداً دوري في الأسئلة؟»

ظهر غضب مازح على وجهه: «لا، أبداً! قلت لك إنني مازلت في البداية. ألم أقل هذا؟»

«وماذا بقي لديك؟»

«ستعرفين غداً»... مال ومد يده ليفتح بابي فجعل قربه المفاجئ قلبي ينبض مجنوناً. لكن يده تجمدت عند مقبض الباب وتمتم قائلاً: «هذا ليس جيداً».

«ما الأمر؟»... فوجئت برؤية عينيه المضطربتين... كان يضغط على فكيه.

نظر إلي لحظة قصيرة وقال مكتئباً: «مشكلة جديدة».

فتح الباب بحركة خاطفة ثم ابتعد عني سريعاً. انتبهت على ضوء السيارة إلى سيارة أخرى على مسافة قريبة منا... في مواجهتنا.

حذرني إدوارد محدقاً في السيارة الأخرى عبر شلال المطر: «صار تشارلي عند الزاوية». اندفعت خارجة من السيارة رغم ارتباكي وفضولي. صار صوت المطر أعلى عندما راح ينصب على سترتي. حاولت تمييز أشكال الناس في المقعد الأمامي للسيارة الأخرى، لكن الظلمة كانت شديدة، رأيت إدوارد في ضوء السيارة الجديدة... كان مستمراً في التحديق أمامه... وكانت نظراته مسمرة على شخص أو على شيء لم أستطع رؤيته. كان تعبير وجهه مزيجاً غريباً من القنوط والغضب.

زاد سرعة المحرك في تلك اللحظة فزعقت العجلات على الأرض الرطبة. اختفت الفولفو عن الأنظار خلال ثواني قليلة.

ناداني من مقعد السائق في تلك السيارة السوداء الصغيرة صوت ذو بحة مألوفة: «مرحباً يا بيلا!»

قلت بصوت متسائل وأنا أحاول التحديق عبر المطر: «جايكوب!» في تلك اللحظة ظهرت سيارة تشارلي عند الزاوية فرأيت ركاب سيارة جايكوب في ضوء سيارته.

كان جايكوب يخرج من السيارة... وكانت ابتسامته العريضة مرئية رغم الظلمة. وبجانبه كان رجل أكبر منه سناً بكثير... رجل متين البنية له وجه أذكره... وجه شديد الاتساع تكاد تستند وجنتاه إلى كتفي صاحبه... وله تجاعيد طويلة تمتد على جلده الأسمر المحمر كما لو أنه سترة جلدية قديمة. ثم رأيت عينيه المألوفتين إلى حد مفاجئ... عينين سوداوين تبدوان، في الوقت نفسه، شابتين جداً وعتيقتين جداً على ذلك الوجه العريض. إنه والد جايكوب، بيلي بلاك. عرفته فوراً رغم أنني، بعد خمس سنوات لم أره فيها، لم أتذكر اسمه عندما ذكره تشارلي يوم وصولي إلى فوركس. كان ينظر إلي باحثاً في وجهي فابتسمت له. كانت عيناه واسعتين... كما لو كان مصدوماً أو خائفاً... وكان منخراه متوهجين... خبت ابتسامتي.

«مشكلة جديدة»... هكذا قال إدوارد.

مازال بيلي ينظر إلي بعينين متوترتين قلقتين. سمعت أنيناً في داخلي. هل تعرّف بيلي على إدوارد بهذه السهولة؟ وهل يصدق حقاً تلك الأساطير المستحيلة التي رواها ابنه؟

كانت الإجابة واضحة في عيني بيلي: نعم! نعم، إنه يصدقها.

12

توازن

صاح تشارلي فور خروجه من سيارته: «بيلي!»

استدرت نحو المنزل وأومأت إلى جايكوب أن يتبعني إلى المدخل الأمامي. سمعت تشارلي من خلفي يحييهما بصوت مرتفع.

قال لائماً: «سأتظاهر أنني لم أرك خلف المقود يا جايكوب!»

قال جايكوب حين كنت أفتح الباب وأضيء النور أمام المنزل: «حصلنا على التراخيص اليوم في المحمية».

ضحك تشارلي: «طبعاً، بالتأكيد!»

«لابد أن أتجول بطريقة من الطرق!»... عرفت بسهولة صوت بيلي الصادح رغم السنين. جعلني صوته أشعر أنني صغيرة فجأة... أنني طفلة.

دخلت المنزل وتركت الباب مفتوحاً خلفي ثم أشعلت الضوء قبل أن أعلق سترتي. ثم وقفت في الباب أنظر بقلق إلى تشارلي وجايكوب يساعدان بيلي في الخروج من السيارة والجلوس في كرسيه المتحرك.

ابتعدت عن الباب عندما اندفع الثلاثة داخلين ينفضون ماء المطر عنهم.

قال تشارلي: «هذه مفاجأة!»

أجابه بيلي: «لقد مر زمن طويل... أرجو أن لا يكون الوقت غير

ملائم». نظرت عيناه السوداوان باتجاهي... كان فيهما تعبير غير مقروء.

«لا، أبداً. الوقت مناسب جداً. أتمنى أن تستطيع البقاء لمشاهدة المباراة معي».

ابتسم جايكوب: «هذه هي خطته... تعطل التلفزيون عندنا في الأسبوع الماضي».

نظر بيلي إلى ابنه متهكماً وأضاف: «وأيضاً، كان جايكوب يريد رؤية بيلا من جديد».

خفض جايكوب رأسه، أما أنا فرحت أقاوم موجة من الندم... لعلي كنت مقنعة أكثر مما ينبغي على الشاطئ!

سألتهم مستديرة باتجاه المطبخ: «هل أنتم جائعون؟»... كنت تواقة إلى الفرار من نظرات بيلي المتسائلة.

أجاب جايكوب: «لا! أكلنا قبل مجيئنا».

«وأنت يا تشارلي؟»... قلت من فوق كتفي وأنا أهرب ملتفة حول الزاوية.

أجابني: «نعم، بالتأكيد»... كان صوته يتحرك باتجاه غرفة الجلوس... باتجاه التلفزيون. سمعت صوت كرسي بيلي يتبعه. وضعت شطائر الجبن المشوي في المقلاة وبدأت تقطيع حبة من البندورة عندما شعرت بوجود شخص خلفي.

سألني جايكوب: «كيف هي أحوالك؟»

ابتسمت وقلت: «جيدة جداًا»... كانت مقاومة حماسته أمراً صعباً... «وماذا عنك؟ هل أنهيت تجميع سيارتك».

قال عابساً: «لا!... مازلت بحاجة إلى بعض الأجزاء. لقد استعرنا تلك السيارة». أشار بإبهامه في اتجاه الفناء الأمامي.

«آسفة لأنني لم أصادف أي... ما اسم الشيء الذي كنت تبحث عنه؟»

ابتسم: «أسطوانة رئيسية!»... وأضاف فجأة: «هل لديك مشكلة في سيارتك؟»

«لا!»

«سألتك لأنك لم تكوني تقودينها».

رحت أنظر في المقلاة. رفعت طرف إحدى الشطائر لأتفقد الجانب السفلي منها: «أوصلني أحد الأصدقاء».

«توصيلة لطيفة»... كان صوت جايكوب ناضحاً بالإعجاب... بالسيارة... «لكنني لم أعرف السائق. ظننت أنني أعرف معظم الشباب هنا».

أومأت برأسي دون تعليق ودون أن أرفع عينيّ عن المقلاة... ورحت أقلب الشطائر.

«يبدو أن والدي يعرفه من مكان ما».

«جايكوب، هل يمكن أن تناولني بعض الصحون؟ إنها في الخزانة فوق المجلى».

«طبعاً!»

جلب الصحون صامتاً. تمنيت أن يقف الحديث عند هذا الحد.

سألني فيما كان يضع صحنين على الطاولة بجانبي: «إذن، من هو؟»

تنهدت مهزومة: «إنه إدوارد كولن».

فاجأتني ضحكته. نظرت إليه. بدا محرجاً قليلاً.

قال: «هذا يفسر الأمر... عجبت لغرابة تصرف والدي».

اصطنعت تعبيراً بريئاً: «هذا صحيح... إنه لا يحب أسرة كولن».

قال جايكوب هامساً: «إنه عجوز مؤمن بالخرافات!»

لم أستطع منع نفسي من سؤاله: «هل تظن أنه سيقول شيئاً لتشارلي؟»... خرجت الكلمات من فمي متعجلة خفيضة.

نظر جايكوب إليّ لحظة فلم أستطع قراءة تعبير عينيه. لكنه أجاب أخيراً: «أشك في ذلك!... أظن أن تشارلي وبخه كثيراً في المرة الأخيرة. لم يتحدثا كثيراً منذ ذلك الوقت... لقاؤهما الليلة نوع من المصالحة كما أعتقد. لا أظن أنه يمكن أن يطرح الموضوع من جديد».

قلت محاولة إظهار لامبالاتي: «أوه!»

بقيت في غرفة الجلوس بعد أن جلبت طعام تشارلي. وتظاهرت بمتابعة المباراة في حين راح جايكوب يثرثر بجانبي. لم أكن أستمع إلى حديث الرجلين حقاً، لكنني كنت أراقب أي إشارة يمكن أن يرسلها بيلي... لي أنا... وكنت أحاول التفكير في طريقة لإيقافه عن الكلام إن بدأ الحديث في الأمر.

كان وقتاً طويلاً... كان علي واجبات مدرسية لم أنجزها بعد. لكنني خفت أن أترك بيلي وحيداً مع تشارلي. انتهت المباراة أخيراً.

«هل ستعودين مع أصدقائك إلى الشاطئ في وقت قريب؟»... سألني جايكوب كأنه يخبر والده بأن وقت الذهاب قد حان.

قلت بسرعة: «لست واثقة من ذلك».

قال بيلي: «كانت جلسة ممتعة يا تشارلي».

أجابه تشارلي مشجعاً: «تعال لنتابع المباراة القادمة معاً».

قال بيلي: «طبعاً! طبعاً!... سنأتي. تصبحون على خير»... استدارت عيناه نحوي واختفت ابتسامته وأضاف بصوت جاد: «انتبهي لنفسك يا بيلا!»

أدرت وجهي وتمتمت: «شكراً لك».

هممت بالصعود إلى غرفتي في حين كان تشارلي يودعهما عند الباب... سمعت صوته: «انتظري يا بيلا!»

تجمدت في مكاني... هل أخبره بيلي شيئاً قبل أن أعود إلى غرفة الجلوس؟

لكني وجدت تعبير وجه تشارلي مرتاحاً... مازال يبتسم سعيداً بتلك الزيارة غير المنتظرة.

«لم تسنح لي فرصة الحديث معك الليلة. كيف كان يومك؟»

«جيد!»... وقفت مترددة وأنا أضع قدماً واحدة على الدرجة الأولى من السلم ورحت أبحث في ذهني عن شيء يمكن أن أقوله له: «فاز فريقي اليوم بالمباريات الأربع جميعاً».

«واو! لم أعرف أنك تلعبين تنس الريشة!»

«الحقيقة أنني لا أستطيع اللعب... لكن شريكي لاعب جيد فعلاً».

سألني باهتمام ظاهر: «من هو؟»

قلت مترددة: «همم... إنه مايك نيوتن».

«آه! صحيح... قلت لي مرة أنه صديقك». سكت لحظة وقال: «أسرة لطيفة!»... ثم فكر قليلاً: «لماذا لا تدعيه إلى الحفلة هذا الأسبوع؟»

قلت محتجة: «أبي!... إنه يواعد صديقتي جيسيكا. كما أنني لا أستطيع الرقص كما تعلم».

دمدم قليلاً: «أوه!... نعم». ثم ابتسم لي معتذراً: «إذن، أظن أن ذهابك يوم السبت مناسب... لقد رتبت رحلة لصيد الأسماك مع شباب من قسم الشرطة. يتوقع أن يكون الجو دافئاً. أما إذا قررت تأجيل رحلتك حتى يستطيع أحد مرافقتك فسوف أعتذر عن رحلة الصيد من أجلك. أعرف أنني أتركك هنا في البيت وقتاً طويلاً جداً».

ابتسمت آملة أن لا يفضح وجهي مدى ارتياحي: «أبي! أنت تقوم بعمل كبير... لست أمانع في البقاء وحدي أبداً... أنا أشبهك كثيراً». غمزت له بعيني فابتسم ابتسامته المعهودة بعين نصف مغمضة.

كان نومي أفضل تلك الليلة. لم يسمح لي تعبي بأن أحلم. وعندما استيقظت في الصباح الرمادي كان مزاجي طيباً. بدت الليلة المتوترة مع بيلي وجايكوب غير مزعجة الآن... قررت نسيانها تماماً. فاجأت نفسي وأنا أصفر عندما رحت أسرح شعري... وأيضاً عندما نزلت إلى الطابق السفلي... لاحظ تشارلي ذلك.

قال تشارلي أثناء الإفطار: «أنت مبتهجة هذا الصباح».

ابتسمت وقلت: «إنه يوم الجمعة!»

أسرعت حتى أكون جاهزة لحظة مغادرة تشارلي. كانت حقيبتي جاهزة وحذائيَّ في قدميَّ، وكنت قد نظفت أسناني. لكن، رغم اندفاعي إلى الباب فور تأكدي من رحيل تشارلي، كان إدوارد أسرع مني. كان ينتظرني في سيارته اللامعة... كانت نوافذها مفتوحة ومحركها مطفأ.

لم أتردد هذه المرة. مضيت نحوه بسرعة وأنا أتعجل رؤية وجهه. ابتسم ابتسامته الخبيثة فتوقف تنفسي... وقلبي. هل يمكن أن تكون الملائكة أكثر جمالاً؟ ليس فيه شيء يمكن التفكير فيما هو أحسن منه.

سألني: «كيف نمت الليلة؟»... تساءلت ما إذا كانت لديه فكرة عن شدة إغراء صوته.

«نمت جيداً... كيف كانت ليلتك؟»

ابتسم كأنه سمع شيئاً طريفاً: «ممتعة!»... شعرت كما لو أنه تذكر نكتة لم أدركها.

سألته: «هل أستطيع سؤالك عما فعلته الليلة؟»

ابتسم: «لا! مازال دوري في السؤال».

راح اليوم يسألني عن الناس: المزيد عن رينيه... عاداتها، وماذا

كنا نفعل معاً في أوقات فراغنا. ثم سألني عن جدتي الوحيدة التي عرفتها، وعن أصدقائي القلائل في المدرسة... أحرجني عندما سألني عن الفتيان الذين كنت أواعدهم. ارتحت لأنني لم أواعد أحداً حقاً من قبل... فهذا يعفيني من الإطالة في أي حديث من هذا القبيل. بدت عليه الدهشة، مثل جيسيكا وأنجيلا، بسبب انعدام تجاربي العاطفية.

سألني بصوت جاد جعلني أتساءل عما يفكر فيه: «إذن، لم تلتق أبداً بشخص تريدينه؟»

أجبته بصدق أحسد عليه: «ليس في فينيكس!»... فشد على شفتيه.

صرنا في الكافتيريا الآن. انقضى هذا اليوم سريعاً فقد صار الأمر روتينياً. انتهزت فرصة صمته القصير فقضمت لقمة من كعكتي.

قال دون مقدمات فيما كنت أمضغ لقمتي: «كان يجب أن أدعك تقودين السيارة اليوم».

سألته: «لماذا؟»

«سأذهب مع أليس بعد الغداء».

فوجئت وخاب أملي: «أوه!... لا بأس... ليست المسافة بعيدة مشياً».

عبس بنفاذ صبر: «لن أجعلك تذهبين إلى بيتك مشياً. سنذهب لنجلب سيارتك ونتركها هنا من أجلك».

تنهدت: «المفتاح ليس معي. سأمشي... لا مشكلة عندي». كانت مشكلتي هي عدم بقائه معي.

هز رأسه: «ستكون سيارتك هنا... وسيكون المفتاح فيها... إلا إذا كنت تخافين أن يسرقها أحد»... ضحك لتلك الفكرة.

«لا بأس»... وافقت وضغطت على شفتي. كنت واثقة من أن مفتاح السيارة موجود في جيب الجينز الذي كنت أرتديه يوم الأربعاء...

وهو تحت كومة من الملابس في غرفة الغسيل. حتى لو دخل إلى المنزل... لا أدري ما الذي يعتزم فعله... فلن يجده. بدا كأنه يلمس التحدي في موافقتي فابتسم بثقة زائدة.

سألته بقدر ما استطعت من عفوية: «إذن! أين ستذهبون؟»

أجاب بنظرة قاتمة: «إلى الصيد... علي اتخاذ كل الاحتياطات الممكنة قبل أن أذهب معك غداً». بدا وجهه حزيناً... باكياً... «يمكنك إلغاء الأمر في أي لحظة... تعرفين هذا!».

أطرقت برأسي لخشيتي من قوة الإقناع التي في عينيه. كنت أرفض الاقتناع بأن أخاف منه مهما يكن الخطر حقيقياً. رحت أكرر في ذهني عبارة «لا يهمني!»

همست ناظرة إلى وجهه من جديد: «لا! لا أستطيع».

تمتم: «لعلك محقة»... بدا لون عينيه قاتماً عندما رحت أراقبهما.

غيرت الموضوع: «متى أراك غداً؟»... سألته هذا لكنني كنت أشعر بالقنوط لأنه سيذهب الآن.

قال: «هذا يعتمد... إنه يوم السبت؛ ألا تريدين إطالة النوم قليلاً؟»

أجبت بسرعة فائقة: «لا!»... فكبح ابتسامته.

قال: «موعدنا المعتاد إذن... هل سيكون تشارلي في البيت؟»

«لا! سيذهب إلى الصيد غداً»... ابتسمت سعيدة عندما تذكرت كيف سارت الأمور مع تشارلي بشكل مقنع تماماً.

صار صوته حاداً: «وإذا لم تعودي إلى المنزل... ماذا سيظن؟»

أجبته ببرودة: «لا فكرة عندي. يعرف أنني أعتزم غسيل الملابس... لعله يظن أنني سقطت في الغسالة!»

عبس، فأجبته بالمثل... كان حنقه أكثر تأثيراً من حنقي.

سألته عندما أيقنت أنني خسرت الجولة: «ما الذي تصطادونه اليوم؟»

«أي شيء نجده في المنتزه... لن نذهب بعيداً».

بدا لي أنه يجد نوعاً من التسلية في إشارتي العادية إلى أسراره.

قلت متسائلة: «ولماذا تذهب مع أليس؟»

قال عابساً: «أليس أكثرهم... عوناً».

سألته بقليل من الخوف: «والآخرون؟ ما هم؟»

ارتفع حاجبه قليلاً: «إنهم كثيرو الشكوك... غالباً».

التفتّ خلفي سريعاً لأنظر إليهم. كانوا جالسين ينظرون... كلٌّ في اتجاه... تماماً كما كانوا يوم رأيتهم أول مرة. لكنهم كانوا الآن أربعة فقط لأن أخيهم الجميل برونزي الشعر كان يجلس قبالتي على هذه الطاولة... بعينين محزونتين.

قلت مخمنة: «إنهم لا يحبونني!»

قال معترضاً لكن عينيه كانتا بريئتين جداً: «ليس الأمر هكذا، لكنهم لا يفهمون لماذا لا أستطيع تركك».

«وأنا لا أستطيع فهم ذلك أيضاً».

هز رأسه ببطء ورفع نظره إلى السقف قبل أن تتلاقى عيوننا من جديد: «قلت لك... أنت لا ترين نفسك بوضوح إطلاقاً... أنت لست مثل أي شخص آخر أعرفه... أنت تسحرينني».

حدقت فيه واثقة من أنه يتعمد مضايقتي الآن.

ابتسم كأنه فهم ما فكرت فيه. وقال متمتماً وهو يلمس جبهته لمساً خفيفاً: «بالنظر إلى المزايا التي أملكها... فإن قدرتي على فهم طبيعة البشر أكبر من عادية. يمكن توقع أفعال البشر وردود أفعالهم. أما أنت... أنت لا تفعلين أبداً ما أتوقعه. أنت تفاجئينني دائماً».

أشحت بوجهي ونظرت إلى إخوته من جديد... كنت محرجة... غير راضية. جعلتني كلماته أشعر كما لو أنني في تجربة علمية. أحببت أن أضحك على نفسي لأنني توقعت غير هذا.

تابع يقول: «إن تفسير هذا الجزء سهل»... شعرت أن عينيه استقرتا على وجهي لكنني لم أستطع النظر إليه فقد خفت من إمكانية أن يستطيع قراءة ما فيهما... «لكن ثمة شيء آخر... شيء لا يسهل التعبير عنه بالكلمات... »

عندما كان يتكلم كنت مستمرة في النظر إلى إخوته. وفجأة استدارت روزالي، أخته الشقراء رائعة الجمال، ونظرت إلي. لا لم تنظر... حدقت غاضبة بعينين باردتين قاتمتين. أردت أن أشيح بوجهي عن نظرتها. لكن عينيها لم تسمحا لعيني بالحركة إلى أن قطع إدوارد جملته وأصدر صوتاً غاضباً هامساً... لم يكن أكثر من هسيس...

أدارت روزالي رأسها فشعرت بالراحة لتحرري... عدت بنظري إليه... أعرف أنه استطاع رؤية الارتباك والخوف في عيني.

غدا وجهه متوتراً وهو يوضح لي: «أنا آسف لهذا. إنها قلقة فقط. أنت تعرفين... لن يكون الأمر خطيراً بالنسبة لي وحدي إذا... بعد قضاء كل هذا الوقت معك أمام الناس...» سكت وأطرق برأسه.

«إذا؟»

«إذا انتهى الأمر... بشكل سيّئ». ألقى رأسه بين يديه كما فعل في بورت آنجلس تلك الليلة. كان عذابه واضحاً... أردت كثيراً أن أريحه، لكنني ما كنت أعرف كيف أفعل ذلك. امتدت يدي إليه من تلقاء ذاتها، لكنني سرعان ما تركتها تسقط على الطاولة... خفت أن تزيد لمستي الأمر سوءاً. أدركت ببطء أن كلماته يجب أن تخيفني. انتظرت مجيء ذلك الخوف، لكنني لم أشعر إلا بالألم لألمه.

شعرت بالقنوط أيضاً... قنوط لأن روزالي قاطعت ما كان يقوله.

لم أكن أعرف كيف أجعله يتابع حديثه من جديد... مازال رأسه بين يديه.

حاولت التحدث بصوت طبيعي: «هل عليك الذهاب الآن؟»

«نعم»... رفع وجهه... كان شديد الجدية لحظة قصيرة ثم تغير وابتسم: «لعل ذلك أفضل. مازالت لدينا 15 دقيقة من ذلك الفيلم الفظيع في درس البيولوجيا... لا أظن أنني أستطيع احتماله أكثر مما فعلت».

أجفلت... كانت أليس بشعرها القصير الداكن المنتشر مثل هالة حول وجهها الرائع الفاتن تقف خلف كتفه. كان جسدها الدقيق رشيقاً نابضاً بالجلال مع أنها تقف ساكنة تماماً.

«أليس»... حياها دون أن يزيح نظره عني. فأجابته: «إدوارد»... كان صوتها الصادح بمثل جاذبية صوته تقريباً.

«أليس... هذه بيلا؛ بيلا... هذه أليس». قال هذا وهو يشير بيده... كانت على وجهه ابتسامة معوجة.

«مرحباً يا بيلا!»... كانت عيناها السوداوين اللامعتين من غير تعبير، لكن ابتسامتها كانت ودية... «لطيف أن أقابلك أخيراً».

نظر إدوارد إليها نظرة خاطفة.

تمتمت بخجل: «أهلاً أليس!»

توجهت إليه بالسؤال: «هل أنت جاهز؟»

أجابها دون كبير اهتمام: «تقريباً! أراك عند السيارة».

ذهبت دون أن تضيف أي كلمة... كانت مشيتها انسيابية جداً متموجة فأحسست بوخزة حسد حادة.

سألته وأنا أستدير نحوه: «هل علي أن أقول ''استمتعوا'' أم أن هذا لا يعبر عن الحال؟»

ابتسم: «نعم!... ''استمتعوا'' تفي بالغرض مثل أي تعبير آخر».

«استمتعوا إذن!» حاولت جاهدة أن أبدو صادقة من كل قلبي، لكن هذا لم يخدعه بطبيعة الحال.

مازال يبتسم: «سأحاول!... أما أنت فحاولي أن تكوني بأمان... أرجوك».

«آمنة في فوركس!!... يا للتحدي».

«إنه تحدٍّ بالنسبة لك... عديني».

قلت: «أعدك أن أحاول أن أكون بأمان».

«... سأغسل الملابس اليوم... لابد أنه عمل محفوف بالمخاطر!»

قال ممازحاً: «لا تقعي في الغسالة!»

«سوف أحاول».

وقف عند ذلك، فنهضت أيضاً.

تنهدت وقلت: «أراك غداً».

قال مداعباً: «يبدو هذا لك وقتاً طويلاً جداً، صحيح!»... فأجبت بإيماءة حزينة.

«سأكون عندك في الصباح»... قال واعداً وهو يبتسم ابتسامته الشقية. انحنى عبر الطاولة حتى يلمس وجهي فمسد وجنتي بلطف. ثم استدار ومضى. ظلت نظراتي تتبعه حتى اختفى.

داهمني إغراء شديد بأن أغيب عما بقي من دروس لهذا اليوم... درس الرياضة خاصة. لكن تحذيراً غريزياً منعني. عرفت أنني إن اختفيت الآن فسوف يعتقد مايك وغيره أنني ذهبت مع إدوارد. إن إدوارد قلق بشأن الوقت الذي نمضيه معاً أمام الناس... إذا سارت الأمور بشكل سيئ. رفضت القبول بالفكرة الأخيرة ورحت أركز على جعل الأمر أكثر أماناً بالنسبة له.

عرفت بحدسي... وأحسست أنه يعرف أيضاً... أن يوم غد

سيكون محورياً. لا يمكن أن تستمر علاقتنا متوازنة على حد السكين كما هي الآن. لابد أن نسقط إلى هذا الجانب أو ذاك... هذا متوقف تماماً على قراره هو... أو على إحساسه. أما قراري أنا فقد اتخذته... اتخذته قبل أن أختار اختياراً واعياً... وكنت عازمة على الثبات عليه. كان ابتعادي عنه مستحيلاً لأن شيئاً لم يكن يخيفني... يعذبني... أكثر من فكرة الابتعاد.

ذهبت إلى الصف مثل أي تلميذة مثابرة. لكنني... بصدق... لم أعرف ماذا جرى في درس البيولوجيا. كان ذهني مشغولاً جداً بأفكار عن يوم غد. وفي درس الرياضة عاد مايك يكلمني من جديد... تمنى لي وقتاً طيباً في سياتل. لكنني أوضحت له... بحذر... أنني ألغيت الرحلة لأنني غير واثقة من سيارتي.

سألني فجأة: «هل ستذهبين إلى الحفلة مع كولن؟»

«لا!... لن أذهب إلى الحفلة».

ثم قال باهتمام شديد: «ماذا ستفعلين إذن؟»

كان رد فعلي الطبيعي هو أن أقول له إن هذا ليس من شأنه. لكنني خرجت بكذبة لامعة: «سأغسل الملابس!... ثم علي أن أدرس كثيراً من أجل اختبار المثلثات وإلا فسوف أفشل فيه».

«هل سيساعدك كولن في الدراسة؟»

«إدوارد!... لن يساعدني في الدراسة... لقد ذهب إلى مكان ما لقضاء عطلة نهاية الأسبوع»... لاحظت مدهوشة أن كذبتي خرجت من فمي طبيعية أكثر مما توقعت.

قال: «أوه!... هل تعرفين؟ يمكنك أن تأتي إلى الحفلة مع مجموعتنا... سيكون ذلك لطيفاً... وسنرقص كلنا معك».

تصورت وجه جيسيكا في عقلي فخرج صوتي أكثر حدة مما يجب: «لن أذهب إلى الحفلة يا مايك!»

قطب وجهه: «لا بأس! كان هذا مجرد عرض».

عندما انتهت المدرسة أخيراً ذهبت إلى موقف السيارات دونما حماسة. لم تكن لدي رغبة خاصة في الذهاب إلى البيت مشياً، لكنني لم أفهم كيف يمكنه أن يعثر على المفتاح... عندها، من جديد بدأت أعتقد أن لا شيء مستحيل عليه... صدق ظني... كانت سيارتي تقف في المكان نفسه الذي أوقف فيه سيارته صباحاً. هززت رأسي غير مصدقة. ثم فتحت الباب غير المقفل فرأيت المفتاح في مكانه.

رأيت ورقة بيضاء مطوية فوق مقعدي. جلست في السيارة وأغلقت الباب ثم فتحتها. كانت فيها كلمتان بخط يده الرشيق.

«كوني بأمان».

أرعبني صوت السيارة عندما زأر محركها... ضحكت ساخرة من نفسي.

عندما وصلت إلى البيت وجدت الباب مغلقاً لكنه غير مقفول، تماماً كما تركته في الصباح. عندما دخلت توجهت فوراً إلى غرفة الغسيل. بدت الغرفة كما تركتها أيضاً. بحثت عن بنطلون الجينز بين الملابس المتسخة ثم تفقدت جيوبه. كانت فارغة. هززت رأسي وقلت في نفسي: لعلي علقت مفاتيحي ولم أتركها في جيب الجينز!

أذعنت للإحساس نفسه الذي جعلني أكذب على مايك فاتصلت بجيسيكا لأتمنى لها قضاء وقت طيب في الحفلة. وعندما تمنت لي وقتاً طيباً مع إدوارد أخبرتها أنني ألغيت الرحلة إلى سياتل. بدت عليها خيبة أمل أكثر مما هو طبيعي بالنسبة لشخص ثالث. ودّعتها ووضعت السماعة. كان تشارلي شارد الذهن وقت العشاء... لعله مشغول بشيء في عمله، أو لعلها إحدى مباريات كرة السلة... أو لعله أحبَّ اللازانيا التي أعددتها له... كان توقع ما يدور في ذهن تشارلي صعباً!

قلت لأقطع شروده: «أنت تعرف يا أبي...»

«ماذا يا بيلا؟»

«أظن أنك محق بشأن ذهابي إلى سياتل. قد أنتظر حتى تستطيع جيسيكا، أو غيرها، الذهاب معي».

فاجأه هذا فقال: «أوه! لا بأس... إذن، هل تريدين أن أبقى في البيت؟»

«لا! لا تغير برنامجك. لدي مليون شيء أفعله... واجبات مدرسية وغسيل... وعلي أيضاً أن أذهب إلى المكتبة وإلى البقالية. سأخرج من المنزل عدة مرات... اذهب واستمتع بالصيد».

«هل أنت واثقة من هذا؟»

«طبعاً يا أبي!... كما أن علي تصحيح درجة حرارة الثلاجة فهي أعلى مما يجب بالنسبة للأسماك... أظن أنك ستجلب أسماكاً تكفينا سنتين أو ثلاث سنوات».

ابتسم: «لطيف أن يعيش المرء معك يا بيلا».

«ومعك أيضاً!»... قلت ذلك ضاحكة. كان صوت ضحكي غريباً، لكن يبدو أنه لم يلاحظ ذلك. أحسست بالذنب كثيراً لأنني خدعته إلى درجة كادت تجعلني أعمل بنصيحة إدوارد وأخبره أين سأذهب... كادت، لكنني لم أقل شيئاً.

بعد العشاء قمت بطي الملابس ووضعت دفعة ملابس جديدة في آلة التجفيف. لكن هذا النوع من العمل لا يشغل إلا اليدين. كان لدى عقلي وقت فائض كثير... وكان يتمرد على سيطرتي. راحت أفكاري تتقلب هنا وهناك تقلباً عنيفاً يشبه الألم... وشاب تصميمي خوف غامض. كان علي مواصلة تذكير نفسي بأنني اتخذت قراري ولن أتراجع عنه. أخرجت ورقته من جيبي مرات كثيرة، أكثر مما يلزم، حتى أشرب الكلمتين الصغيرتين المكتوبتين عليها. كنت أتمسك فقط بإيماني في أن تلك الرغبة سوف تعلو في النهاية فوق كل رغبة أخرى. ماذا لدي من

خيارات؟ أأبعده عن حياتي؟ هذا ما لا أطيقه. كما أن حياتي كلها، منذ وصولي إلى فوركس، تبدو معلقة به.

لكن صوتاً خافتاً في رأسي ظل يتساءل قلقاً إن كان الأمر مؤلماً جداً... إذا سارت الأمور على نحو سيئ.

شعرت بالراحة عندما حان وقت النوم... الوقت المقبول للنوم. كنت أعلم أن توتري لن يدعني أنام. لذلك فعلت شيئاً لم أفعله من قبل... تناولت حبتين من دواء الرشح... ذلك النوع الذي يجعلني أنام ساعتين كاملتين. أنا لا أسمح لنفسي بهذا النوع من السلوك في العادة. لكن يوم الغد سيكون معقداً صعباً بالنسبة لي حتى دون أن أكون متعبة من قلة النوم. انتظرت ريثما يبدأ مفعول الدواء... جففت شعري النظيف ورحت أفكر في الملابس التي أرتديها غداً.

بعد أن صار كل شيء جاهزاً من أجل الصباح استلقيت في سريري أخيراً. شعرت بتوتر شديد ولم أستطع الكف عن الارتعاش. نهضت وبحثت في علبة الأسطوانات حتى وجدت مجموعة المقطوعات الليلية لشوبان. وضعتها في الجهاز بسرعة واستلقيت من جديد. ورحت أركز على إرخاء أعضاء جسدي واحداً بعد واحد. وفي لحظة من لحظات تمارين الاسترخاء هذه بدأ مفعول الدواء فسقطت سعيدة في نوم عميق.

استيقظت باكراً لأنني نمت نوماً عميقاً دون أحلام بفضل الدواء الذي استخدمته من غير داع. رغم راحتي، عادت إلي الأفكار المجنونة التي تصارعت في رأسي الليلة الماضية. ارتديت ثيابي سريعاً... وأصلحت وضع ياقتي ثم رحت أشد كنزتي بعصبية حتى تدلت فوق بنطلوني. استرقت نظرة سريعة من النافذة فرأيت أن تشارلي قد ذهب. كانت السماء مجللة بطبقة قطنية رقيقة من الغيوم. لم تبد تلك الغيوم من النوع الذي يستمر طويلاً.

تناولت إفطاري، لكنني لم أشعر بطعمه. وأسرعت فغسلت

الصحون فور فراغي من الطعام. نظرت من النافذة من جديد... لم يتغير شيء. كنت أهم بالنزول إلى الطابق السفلي بعد أن نظفت أسناني فسمعت نقرة خفيفة على الباب جَعَلَت قلبي يقفز في صدري.

طرت إلى الباب... تعثرت يدي بمقبضه... لكنني فتحته أخيراً... رأيته واقفاً هناك. لكن الإثارة اختفت كلها حين نظرت إلى وجهه وحل الهدوء محلها. تنفست الصعداء الآن... وبدت مخاوف الأمس حمقاء تماماً.

كان يبتسم في البداية، لكن وجهه كان كئيباً. أضاء وجهه عندما نظر إلي... ثم ضحك.

قال مبتسماً: «صباح الخير»

«ما الأمر؟»... نظرت إلى الأسفل لأتأكد من أنني لم أنس شيئاً مهماً... هل نسيت لبس حذائي... أو بنطلوني؟

ضحك من جديد: «نحن متشابهان!»... نظرت فرأيت أنه يرتدي كنزة خفيفة تشبه كنزتي ولها ياقة بيضاء، ويرتدي بنطلون جينز أزرق... مثلي. ضحكت معه مخفية وخزة من الانزعاج: لماذا يبدو شكله في هذه الملابس مثل عارض هرب من إحدى مجلات الأزياء... أما أنا فلا؟

أغلقت الباب خلفي. سبقني إلى سيارتي. انتظر عند الباب الأيمن وعلى وجهه تعبير شهيد! كان فهم ذلك التعبير سهلاً.

ذكرته واثقة من نفسي: «لقد اتفقنا!»... ثم جلست في مقعد السائق ومددت يدي لأفتح له الباب.

سألني: «أين نذهب؟»

«ضع حزام الأمان... أنا متوترة منذ الآن»... قذفته بنظرة غاضبة ثم تنهدت وكررت خلفه: «أين نذهب؟»

أمرني: «اذهبي إلى الطريق الشمالي 101».

فاجأتني صعوبة التركيز على الطريق مع تحديقه المستمر في

وجهي. حاولت التعويض عن ذلك بأن أقود السيارة بمزيد من الحذر عبر شوارع البلدة التي مازالت نائمة.

قال ساخراً: «هل نستطيع الخروج من فوركس قبل أن يحل الليل؟»

وبخته قائلة: «هذه السيارة كبيرة السن... إنها في عمر جدة سيارتك... أظهر لها بعض الاحترام».

سرعان ما صرنا خارج حدود البلدة... رغم سلبيته. وبدلاً من البيوت والمروج صرنا نرى من حولنا أجمات كثيفة وجذوع أشجار تكسوها الخضرة. هممت بسؤاله عن الطريق فأمرني في تلك اللحظة: «انعطفي إلى الطريق 110»... أطعت صامتة.

«سنسير الآن حتى ينتهي الطريق المعبّد».

خلت أنني سمعت أثر ابتسامة في صوته. لكنني خفت أن أخرج عن الطريق فأثبت صحة توقعه إذا نظرت إلى وجهه لأتأكد من ذلك.

سألته: «وماذا يوجد هناك... عندما ينتهي الطريق المعبد؟»

«درب!»

«هل سنمشي؟»... شكرت الله لأنني لبست حذاء الرياضة.

«ما المشكلة في المشي؟»... سألني كمن يتوقع وجود مشكلة.

«لا مشكلة!»... حاولت أن أجعل كذبتي مقنعة. هل يعتقد أن سيارتي بطيئة؟... فلير مشيتي إذن!

«لا تقلقي... إنها خمسة أميال فقط. لسنا مستعجلين».

خمسة أميال!... لم أجبه حتى لا يسمع الخوف في صوتي. خمسة أميال من الدروب الخداعة والحجارة المقلقلة التي تحاول لي كاحلي أو إسقاطي. سيكون هذا إذلالاً.

مضينا صامتين فترة من الزمن كنت خلالها أفكر في هذه المخاوف.

سألني بنفاذ صبر بعد لحظات: «فيم تفكرين؟»

كذبت من جديد: «أتساءل أين نذهب!»

«إنه مكان أحب الذهاب إليه عندما يكون الطقس جميلاً»... بعد أن قال هذا نظرنا معاً من النافذة إلى الغيوم المتلاشية.

«قال تشارلي إن اليوم سيكون دافئاً».

سألني: «وهل قلت له أين تذهبين؟»

«لا!»

«لكن جيسيكا تظن أننا ذاهبان إلى سياتل معاً!»... بدا مبتهجاً بتلك الفكرة.

«لا!... قلت لها إنك ألغيت الفكرة... وهذا صحيح».

«ألا يعرف أحد أنك معي؟»... صار صوته غاضباً الآن.

«هذا يعتمد على... أظن أنك أخبرت أليس. أليس كذلك؟»

قال بنزق: «هذا ليس جيداً يا بيلا».

تظاهرت بعدم سماع جملته.

سألني عندما تجاهلته: «هل تزعجك الحياة في فوركس إلى درجة تجعلك أميل إلى الانتحار؟»

قلت مذكرة: «قلت لي إن وجودنا معاً أمام الناس يمكن أن يسبب لك المتاعب!»

«بالك مشغول إذن بالمتاعب التي يمكن أن تصيبني إذا... لم تعودي إلى البيت؟»... مازال صوته غاضباً... متهكماً على نحو لاذع.

أومأت برأسي لكنني لم أرفع عيني عن الطريق.

راح يدمدم بصوت منخفض... كان يتكلم بسرعة فلم أفهم شيئاً.

بقينا صامتين طيلة الطريق. كنت أستطيع الإحساس بموجات الاستياء الشديد تنبعث منه، لكنني لم أجد شيئاً أقوله.

ثم انتهى الطريق فتحول إلى درب ضيق عليه علامة خشبية صغيرة.

أوقفت السيارة على حافة الطريق الضيقة وخرجت منها... كنت أتذرع بقيادة السيارة حتى لا أنظر إليه... لم أعد أقود السيارة الآن، فكيف أتجنب النظر إليه؟... إنه غاضب مني! كان الجو دافئاً الآن... أكثر دفئاً من أي يوم مر منذ مجيئي إلى فوركس... كان رطباً، شبه حار، تحت تلك الغيوم. خلعت سترتي وربطتها على خصري. كنت سعيدة لأنني تذكرت أن أرتدي قميصاً خفيفاً دون أكمام خاصة لأنني مضطرة الآن إلى المشي مسافة خمسة أميال.

سمعته يغلق باب السيارة. نظرت فرأيته قد خلع سترته أيضاً. كان يتجه بعيداً عني إلى داخل الغابة خلف السيارة.

قال ملتفتاً من فوق كتفه: «من هنا»... مازال الانزعاج ظاهراً في عينيه... انطلق داخلاً إلى ظلمة الغابة.

«الدرب ليس من هنا!»... كان الرعب واضحاً في صوتي عندما أسرعت لأدور حول السيارة وألحق به.

«قلت إننا سنجد درباً عند نهاية الطريق، ولم أقل إننا سنسلكه».

سألته بقنوط: «دون درب؟»

استدار إلي بابتسامة ساخرة: «لن أتركك تضيعين!»... كتمت غصة في حلقي. كان قميصه الأبيض دون أكمام. وكان قد حل أزراره العلوية فرأيت جلد عنقه الأبيض الصقيل ينحدر سلساً نحو معالم صدره المرمية. صارت بنيته العضلية البديعة مرئية الآن ولم تعد مختفية خلف ملابسه. أدركت أنه بالغ الكمال وأحسست بتوق حاد. يستحيل أن يكون هذا الكائن الذي يشبه الآلهة من نصيبي.

حدق في وجهي مستغرباً تعبيره المعذب. قال سريعاً بصوت لونه ألم غير ألمي: «هل تريدين العودة إلى البيت؟»

«لا!»... سرت حتى صرت بجانبه. لم أكن أريد خسارة أي ثانية من الوقت المتاح لي معه.

سألني بصوت لطيف: «ما المشكلة؟»

أجبت: «لست بارعة في المشي هنا. عليك أن تكون صبوراً جداً».

«أستطيع أن أكون صبوراً... إذا بذلت جهداً كبيراً!»... ابتسم وراح ينظر في عيني محاولاً انتشالي من قنوطي المفاجئ غير المتوقع.

حاولت إجابة ابتسامته، لكن ابتسامتي كان غير مقنعة... راح يدرس وجهي.

وعدني: «سوف أعيدك إلى البيت». لم أعرف إن كان وعده غير مشروط أو مقتصراً على العودة الآن. فهمت أنه ظن الخوف هو الذي تلبسني. شكرت الله من جديد على أنني الشخص الوحيد الذي لا يستطيع إدوارد سماع أفكاره.

قلت بنبرة لاذعة: «إذا كنت تريدني أن أسير خمسة أميال في الغابة قبل مغيب الشمس فعليك أن تبدأ السير منذ الآن»... عبس محاولاً فهم نبرتي وتعبير وجهي. لكنه أقلع عن المحاولة بعض لحظة وسار أمامي إلى الغابة.

لم يكن الأمر بالصعوبة التي توقعتها. كان الطريق مستوياً أكثر الأحيان. وكان إدوارد يزيح الأغصان الرطبة وكتل الطحالب حتى أستطيع المرور. وعندما كنا نصادف شجرة ساقطة أو صخوراً في دربنا المستقيم كان إدوارد يساعدني بأن يمسك مرفقي ثم يتركني فور عبوري. كانت لمسته باردة على جلدي لكنها، رغم ذلك، كانت تجعل قلبي ينبض بجنون. مرتان... عندما حدث ذلك... لمحت نظرة في وجهه جعلتني أوقن أنه كان يسمع نبض قلبي.

حاولت إبقاء نظري بعيداً عن كماله قدر ما استطعت، لكنني كنت أنسى ذلك كثيراً. وفي كل مرة كان جماله يجعل الحزن يخترق قلبي.

كنا نسير صامتين معظم الوقت. وكان من حين لآخر يطرح سؤالاً

عارضاً لم يفطن إليه في استجوابه الذي امتد طيلة اليومين الماضيين.

سألني عن احتفالي بأعياد ميلادي، وعن المعلمين في مدرستي السابقة، وعن الحيوانات الأليفة التي كانت لدي في طفولتي فكان علي الاعتراف بأني اضطررت إلى الإقلاع عن محاولة اقتناء حيوانات أليفة بعد أن قتلت ثلاث سمكات، واحدة بعد الأخرى. ضحك عندما سمع هذا. كانت ضحكته أعلى مما اعتدت سماعه منه... وكانت أصداء ضحكته تعود إلينا، مثل الجرس، منعكسة من الغابة الخالية.

استغرق المشي طيلة الصباح... بسببي. لكنه لم يظهر ما يشير إلى نفاذ صبره. انبسطت الغابة من حولنا مثل متاهة لا آخر لها... وبدأت أشعر بالتوتر لخشيتي من أننا لن نعثر على الطريق من جديد. أما هو، فكان مرتاحاً تماماً... مرتاحاً في تلك المتاهة الخضراء. لم يبد عليه أي شك في صحة اتجاه سيرنا.

بعد ساعات كثيرة تغير الضوء الذي كان ينفذ عبر الأشجار... تحول لونه الزيتوني إلى لون أخضر أكثر ألقاً. صار النهار مشمساً... تماماً كما قال لي من قبل. وللمرة الأولى منذ دخولنا إلى الغابة شعرت بموجة من الإثارة سرعان ما تحولت إلى نفاذ صبر.

سألته عابثة: «ألم نصل بعد؟»... وتظاهرت بالعبوس.

ابتسم عندما لاحظ تغير مزاجي: «تقريباً... هل ترين الضياء هناك؟»

نظرت في الغابة الكثيفة: «همم! هل المفروض أن أراه؟»

ابتسم ساخراً: «لعل الوقت مازال مبكراً قليلاً حتى تراه عيناك!»

همهمت: «هل يجب أن أذهب إلى طبيب العيون؟»... الآن صارت السخرية أكثر وضوحاً في ابتسامته.

لكن، بعد مئة متر، صرت أرى الضياء بين الأشجار البعيدة... ضياء أصفر بدلاً من النور الأخضر المحيط بنا. أسرعت في مشيتي،

وكان توقي إلى الوصول يزداد مع كل خطوة. جعلني أسير أمامه الآن... وسار خلفي دون صوت.

وصلت إلى حافة تلك البركة من النور. اجتزت آخر أجمة فدخلت أجمل مكان رأيته في حياتي. كان مرجاً صغيراً... مستديراً تماماً... كان مليئاً بالأزهار البرية... بنفسجية وصفراء وبيضاء. ومن مكان قريب سمعت موسيقا خرير جدول مائي. كانت الشمس في كبد السماء... وكانت تلقي على تلك الدائرة غلالة من النور الساطع.

مشيت ببطء ورهبة فوق العشب الطري... بين الأزهار المتمايلة... في ذلك الهواء الدافئ الناعم. توقفت عند منتصف المسافة راغبة في تقاسم هذا الجمال معه. لكنني لم أجده خلفي حيث توقّعته. استدرت وراحت عيناي تبحثان عنه بإحساس مفاجئ بالخطر. رأيته أخيراً... مازال تحت ظلال الأشجار الكثيفة عند حافة المرج. كان يراقبني بعينين يقظتين. عند ذلك تذكرت ما جعلني جمال هذا المكان أنساه... لغز إدوارد مع الشمس... اللغز الذي وعدني أن يكشفه أمامي اليوم.

سرت خطوة باتجاهه. كان الفضول ملء عيني. لكن عينيه كانتا حذرتين مترددتين. ابتسمت له مشجعة وأشرت له بيدي ثم تقدمت صوبه خطوة أخرى. رفع يده محذراً فترددت ووقفت في مكاني.

بدا كأنه يأخذ نفساً عميقاً ثم تقدم إلى وهج شمس الظهيرة.

13

اعترافات

صدمني مظهر إدوارد في ضياء الشمس. لم أستطع التعود عليه رغم أنني واصلت النظر إليه طيلة بعد الظهر. كان جلده، الأبيض رغم تورده قليلاً بسبب ذهابه إلى الصيد أمس، يتلألأ بالمعنى الحرفي للكلمة كما لو كانت على سطحه آلاف الماسات الصغيرة. استلقى على العشب ساكناً تماماً. كان قميصه مفتوحاً فوق صدره المنحوت المتوهج... كانت ذراعاه العاريتان متوهجتين أيضاً. كانت أهداب عينيه الصقيلة الشاحبة مغلقة مع أنه لم يكن نائماً طبعاً. كان تمثالاً كاملاً منحوتاً من حجر غير معروف... صقيلاً كالرخام... متلألئاً كالكريستال.

كانت شفتاه تتحركان من حين لآخر حركة سريعة كما لو أنهما ترتجفان. وعندما سألته قال إنه كان يغني لنفسه... لكن صوت ذلك الغناء كان أخفض مما أستطيع سماعه.

رحت أستمتع بالشمس أيضاً رغم أن الهواء لم يكن بالجفاف الذي يلائم ذوقي. كنت أود أن أستلقي مثله وأن أترك الشمس تدفئ وجهي. لكنني ظللت جالسة. أسندت ذقني إلى ركبتي غِير راغبة في تحويل عيني عنه. كان النسيم لطيفاً... كان يعبث بشعري ويجعل سيقان العشب المتمايلة حول جسده الساكن تضطرب.

صار هذا المرج الذي رأيته رائعاً أول الأمر باهتاً إذا ما قورن بروعة جماله.

مددت إصبعي مترددة... خائفة دائماً، حتى الآن، من اختفائه فجأة كما يختفي السراب فهو أجمل من أن يكون حقيقة... مررت بها على ظهر يده المتلألئة حيث كانت تستلقي بقربي. عجبت من جديد لملمسها الرائع الصقيل مثل الساتان... البارد مثل الحجر. وعندما نظرت إليه من جديد كانت عيناه مفتوحتين تنظران إلي... كانتا اليوم فاتحتين... أكثر دفئاً بعد الصيد. انثنت أطراف شفاهه عندما ابتسم بسرعة.

قال بصوت عابث: «ألا أخيفك؟»... لكنني لمست فضولاً حقيقياً في صوته الخافت.

«كالمعتاد!... ليس أكثر».

اتسعت ابتسامته... التمعت أسنانه في الشمس.

اقتربت أكثر... مددت يدي كلها لأتحسس تفاصيل ذراعه بأطراف أصابعي. رأيت أصابعي ترتجف وعلمت أنه سيلاحظ هذا الارتجاف... لا محالة.

سألته لأنه أغمض عينيه من جديد: «هل تمانع؟»... قال دون أن يفتح عينيه: «لا!... لا تستطيعين تخيل شعوري»... وتنهد.

واصلت متابعة تفاصيل عضلات ذراعه بلمسة خفيفة... ورحت أتابع الأثر المزرق الباهت للشرايين عند طية مرفقه. ثم مددت يدي الأخرى لأقلب يده. أدرك ما أريد فقلب يده بواحدة من حركاته السريعة التي تربكني. أجفلتني حركته فتجمدت أصابعي على ذراعه لحظة قصيرة.

تمتم: «آسف!»... أفلحت في النظر إلى وجهه قبل أن يغمض عينيه الذهبيتين من جديد... «سهل جداً أن أكون على طبيعتي تماماً معك». رفعت يده ورحت أقلبها يميناً وشمالاً وأراقب لمعان الشمس على كفه. قربتها من وجهي محاولة رؤية تلك الالتماعات الخفية في جلده.

همس: «قولي لي فيم تفكرين!»... نظرت فرأيت عينيه تنظران

إلي... منتبهتين فجأة... «مازال غريباً جداً بالنسبة لي... ألا أعرف!»

«حقاً! كلنا نشعر بذلك طيلة الوقت».

قال: «إنها حياة صعبة»... هل ثمة أثر من الأسف في صوته أم إنني أتخيل؟... «لكنك لم تخبريني».

قلت مترددة: «كنت أتمنى أن أستطيع معرفة ما تفكر فيه...»

«وماذا أيضاً؟»

«كنت أتمنى أن أستطيع تصديق أنك حقيقي... وكنت أتمنى لو أنني لست خائفة!»

«لا أريدك أن تخافي»... كان صوته مجرد همس الآن. سمعت ما لم يستطع قوله... إنني لا يجوز أن أخاف... وإن لا شيء يدعوني إلى الخوف.

«لم أكن أقصد ذلك الخوف... رغم أنه يستحق التفكير».

انتصب جالساً بسرعة شديدة... كان يستند إلى ذراعه أما يده اليسرى فمازالت في يدي. كان وجهه الملائكي قريباً جداً من وجهي. كان يجب أن أجفل مبتعدة بسبب هذا القرب الشديد غير المتوقع... لكنني لم أستطع الحركة... شلت عيناه الذهبيتان حركتي.

همس بصوت مصمم: «مم تخافين إذن؟»

لم أستطع الإجابة. وكما حدث معي من قبل... شممت رائحة أنفاسه على وجهي. رائحة حلوة لذيذة. لم تكن تشبه أي شيء. من غير تفكير... على نحو غريزي... ملت مقتربة من وجهه وأنا أتنفس عميقاً.

ثم ذهب... لم تعد يده في يدي. وفي اللحظة التي استغرقتها حتى أستعيد تركيز عيني كان يقف على مسافة أمتار مني. كان يقف عند حافة المرج الصغير تحت ظل كثيف لشجرة تنوب عملاقة. كان ينظر إلي بعينين داكنتين في ذلك الظل... لم أستطع قراءة وجهه.

أحسست بالصدمة والجرح يظهران على وجهي... وشعرت وخزاً في يدي الفارغتين... همست: «أنا... آسفة... إدوارد»... كنت اعرف أنه يستطيع سماع همسي.

صاح بصوت مرتفع يناسب سمعي: «أعطني لحظة فقط»... فجلست مكاني ساكنة تماماً.

عاد بعد عشر ثوان بدت لي طويلة جداً. كانت حركته أبطأ من المعتاد. توقف قبل عدة خطوات مني وجلس متربعاً على العشب. لم تفارق عيناه عيني. استنشق نفساً عميقاً مرتين... ثم ابتسم معتذراً.

قال متردداً: «أنا آسف جداً... جداً... لو قلت لك إنني مجرد إنسان فهل تفهمين؟»

أومأت برأسي غير قادرة تماماً على الابتسام لتلك النكتة. سرى الأدرينالين في عروقي مع إدراكي التدريجي للخطر. شم رائحة ذلك من حيث كان يجلس فصارت ابتسامته ساخرة معابثة.

«أنا أفضل مفترس في العالم... أليس هذا صحيحاً؟... كل ما فيّ يشدك صوبي... صوتي ووجهي... حتى رائحتي. وكأنني أحتاج إلى شيء من ذلك». وقف فجأة وابتعد... غاب عن نظري فوراً... لم أره من جديد إلا تحت تلك الشجرة نفسها... لقد دار حول ذلك المرج خلال نصف ثانية... ضحك بمرارة: «وكأنك أسرع مني!»

رفع يداً واحدة... ومن غير جهد كسر غصناً بسماكة قدمين مصدراً ضجة أصمت أذني. حمله بيده لحظة ثم رماه بسرعة تخطف الأنظار صوب شجرة عملاقة أخرى فارتجفت واهتزت لشدة الصدمة.

ثم رأيته يقف أمامي من جديد... على مسافة قدمين فقط... هادئاً مثل حجر.

قال بلطف: «وكأنك تستطيعين مقاتلتي!»

جلست من غير حركة... كان خوفي منه أكثر من أي وقت مضى.

لم أره من قبل متحرراً إلى هذه الدرجة من الواجهة الحريصة المدروسة التي يختفي خلفها. لم أره أقل شبهاً بالإنسان من قبل... أو أكثر جمالاً. جلست بوجه شاحب وعينين متسعتين... جلست مثل عصفور جمدته عينا أفعى.

بدت عيناه الجميلتان تغليان بإثارة متعجلة. لكنهما هدأتا مع مرور الثواني. ببطء... اكتست تعابيره قناع حزن قديم. همس: «لا تخافي»... كان صوته المخملي مغرياً... دون قصد... قال متردداً: «أعدك!... أقسم ألا أؤذيك»... بدا كمن يحاول إقناع نفسه... لا إقناعي!

همس من جديد مقترباً مني ببطء مبالغ فيه: «لا تخافي!»... جلس برشاقة لكن بحركة تعمد البطء فيها... صار وجهانا على مستوى واحد... لم تعد تفصل بينهما إلا مسافة قدم واحدة.

قال بصوت رسمي: «أرجوك سامحيني! أستطيع ضبط نفسي. لقد فاجأتني... لكنني في أحسن أحوال سلوكي الآن».

انتظر... لكنني لم أستطع الكلام.

قال غامزاً بعينه: «أنا لست عطشاً اليوم... صدقاً!»

كان لابد لي أن أضحك رغم أن صوتي جاء مرتجفاً مقطوع الأنفاس.

سألني بصوت حنون وهو يعيد يده إلى يدي: «هل أنت بخير؟»

نظرت إلى يده الباردة الناعمة... ثم إلى عينيه. كانتا لطيفتين... نادمتين. نظرت إلى يده من جديد وعدت إلى متابعة خطوطها برؤوس أصابعي. نظرت إليه وابتسمت بخجل.

رد على ابتسامتي بابتسامة دوختني... سألني بأسلوب لطيف يعود إلى قرن مضى: «إذن، أين كنا قبل أن أتصرف بتلك الفظاظة؟»

«لا أستطيع أن أتذكر».

ابتسم لكن الخجل بدا على وجهه: «أظن أننا كنا نتحدث عن سبب خوفك... عدا الأسباب الواضحة طبعاً».

«آه! صحيح!»

«فما السبب إذن؟»

نظرت إلى يده ورحت أرسم فوقها بإصبعي رسوماً وهمية على غير هدى... مرت الثواني.

تنهد: «كم أصاب بالقنوط سريعاً!»... نظرت في عينيه فأدركت فوراً أن الأمر جديد عليه تماماً كما هو جديد علي. كان هذا صعباً عليه بعد خبرته التي تمتد سنين طويلة. شجعتني تلك الفكرة.

«كنت خائفة... بسبب... لأن... من أجل... الأسباب الواضحة التي تمنعني من البقاء معك. وأخاف من أنني أحب البقاء معك أكثر مما ينبغي لي أن أحبه». كنت انظر إلى يده أثناء كلامي. كان من الصعب علي أن أقول هذه الكلمات بصوت مرتفع.

قال ببطء: «نعم!... صحيح... يجب أن تخافي من هذا. ليس من مصلحتك أبداً أن ترغبي في البقاء معي».

عبست.

قال متنهداً: «كان يجب أن أذهب منذ زمن بعيد... يجب أن أذهب الآن... لكنني لا أعرف إن كنت أستطيع»

غمغمت ببؤس مطرقة برأسي من جديد: «لا أريد أن تذهب».

«ولهذا تحديداً يجب أن أذهب. لكن... لا تقلقي. أنا كائن أناني. أحب رفقتك إلى حد يمنعني من فعل ما يجب أن أفعله».

«أنا سعيدة بهذا».

سحب يده من يدي... بلطف أكبر هذه المرة: «لا تكوني سعيدة به!»... كان صوته أخشن من المعتاد. خشناً بالقياس لصوته هو... لكنه كان أجمل من أي صوت بشري. كان يصعب علي مجاراته... وكانت تغيرات مزاجه المفاجئة تسبقني بخطوة دائماً.

«لا أتوق إلى رفقتك فقط! لا تنسي هذا أبداً... لا تنسي أبداً أنني أكثر خطراً عليك من أي شخص آخر»... صمت فنظرت إليه... رأيته يحدق في الغابة.

فكرت لحظة ثم قلت: «لا أظن أنني أفهم قصدك تماماً... لكنني لا أفهم الجزء الأخير من كلامك أبداً».

نظر إلي وابتسم... تغير مزاجه من جديد.

قال مازحاً: «كيف أشرح لك؟... ومن دون أن أخيفك ثانية... همممم!»... ومن غير أن يبدو عليه أي تفكير في حركته... وضع يده في يدي من جديد. أمسكت بها بشدة بيدي الاثنتين. راح ينظر إلى أيدينا.

قال: «هذا لطيف إلى حد مدهش... الدفء».

مرت لحظة قصيرة أعاد فيها استجماع أفكاره ثم قال: «تعرفين كيف أن كل شخص يستمتع بنكهة مختلفة... البعض يحبون الآيس كريم بالشوكولا... وغيرهم يحبه بالفريز!»

أومأت برأسي.

«آسف لأنني أشبّه الأمر بشيء يؤكل... لم تخطر ببالي طريقة أخرى للشرح».

ابتسمت فرد على ابتسامتي بابتسامة حزينة.

«تعرفين أن لكل شخص رائحته... عطره المختلف. وإذا وضعت شخصاً يحب الكحول في غرفة فيها بيرة رديئة... فسوف يشربها بسرور. لكنه يستطيع مقاومة ذلك إذا أراد... إذا كان كحولياً يريد الإقلاع عن الكحول. لكن، لنقل إنك تضعين في تلك الغرفة كأساً نادرة رائعة من البراندي عمرها مئة سنة... كأساً يملأ شذاها الغرفة كلها... فكم تظنين أنه يستطيع الصبر عليها؟»

جلسنا صامتين يحدق كل منا في عيني الآخر محاولاً قراءة أفكاره.

كسر الصمت قبلي: «لعل هذه ليست مقارنة صحيحة. قد يكون الامتناع عن شرب تلك الكأس من البراندي أمراً سهلاً جداً. ربما كان من الأفضل أن أفترض شخصاً مدمناً على الهيروين بدلاً من مدمن على الكحول!»

قلت مازحة من أجل تخفيف وطأة اللحظة: «أنت تقول إذن إنني النوع الذي تفضله من الهيروين!»

ابتسم سريعاً وبدا عليه الشكر لما بذلته من جهد: «نعم! أنت نوعي المفضل من الهيروين... تماماً»

سألته: «وهل يحدث ذلك كثيراً؟»

راح ينظر إلى قمم الأشجار مفكراً في إجابته.

قال مواصلاً التحديق في البعيد: «تحدثت مع إخوتي عن هذا. جاسبر يراكم متشابهين جميعاً... إنه آخر من انضم إلى أسرتنا. يصعب عليه كثيراً أن يمتنع عن البشر. لم يتح له الوقت بعد حتى يتحسس الفوارق في الروائح والنكهات». التفت إلي بسرعة وعلى وجهه تعبير اعتذار.

قال: «آسف!»

«لا مشكلة عندي! لا تشغل بالك بإمكانية إحساسي بالإهانة أو الخوف أو أي شيء. أعرف أن هذا ما تفكر فيه... أحاول أن أعرف على الأقل. اشرح لي... بقدر ما تستطيع».

استنشق نفساً عميقاً وحدق في السماء من جديد.

«لذلك لم يكن جاسبر واثقاً من أنه صادف من قبل شخصاً شديد...» تردد باحثاً عن الكلمة المناسبة... «الجاذبية كما أنت بالنسبة لي. وهذا ما يجعلني أعتقد أن ذلك لم يحدث معه. إيميت في أسرتنا منذ زمن أطول... وهو يفهم ما أعنيه. يقول إنه مر بهذا مرتين... مرة أقوى من الأخرى».

«وماذا عنك؟»

«أبداً!»

ظلت كلمته للحظة معلقة... هناك... في النسيم الدافئ.

سألته حتى أكسر الصمت: «ما الذي فعله إيميت؟»

كنت مخطئة في طرح هذا السؤال... أظلم وجهه وشد قبضة يده التي في يدي. ثم أشاح بنظره بعيداً. انتظرت... لكنه لم يكن يعتزم الإجابة.

قلت أخيراً: «أظن أنني فهمت».

نظر إلي... كان تعبيره حزيناً... باكياً: «حتى أقوانا جميعاً يسقط... هذا حالنا!»

«ما الذي تطلبه مني؟ هل تطلب إذني؟»... خرج صوتي أكثر حدة مما أردت. حاولت جعله أكثر لطفاً... يجب أن أعرف كم يكلفه هذا الصدق من عناء... «أقصد... ألا يوجد أمل؟»... يا لهدوئي عندما أتحدث عن موتي!

انسحق فؤاده: «لا، لا!... ثمة أمل طبعاً! أقصد أنني بالتأكيد لن...» ترك جملته معلقة هكذا. نظر إلي بعينين ألهبتا عيني: «الأمر مختلف بالنسبة لنا. أما إيميت... كانوا غرباء قابلهم مصادفة. كان هذا منذ وقت بعيد... لم يكن قد... تدرب ولم يكن حذراً كما هو الآن».

صمت يراقبني متوتراً بينما رحت أفكر في كلامه.

«لو تقابلنا... أوه... في زقاق مظلم أو في مكان من الأماكن...» آثرت الصمت.

«استخدمت كل طاقتي حتى لا أقفز في ذلك الصف المليء بالأطفال و...» صمت فجأة ونظر بعيداً... «عندما مررت بجانبي كان يمكنني... هناك... في تلك اللحظة... تدمير كل ما بناه كارلايل لنا. لو لم أكن أتجاهل عطشي مدة... سنوات كثيرة جداً، لما تمكنت من كبح نفسي».

صمت عابساً يحدق في الأشجار.

نظر إلي نظرة قاتمة... تذكرنا تلك اللحظة معاً: «لابد أنك ظننتني ممسوساً».

«لم أستطع فهم السبب. لم أفهم كيف كرهتني بهذه السرعة...!»

«كنت بالنسبة لي مثل شيطان جاء من جحيمي حتى يدمرني. كان العبير المنبعث من جلدك... ظننت أنه سوف يجعلني مجنوناً منذ ذلك اليوم الأول. في تلك الساعة فكرت في مئات الطرق من أجل جعلك تخرجين من الغرفة معي... من أجل الانفراد بك. لكني حاربت تلك الأفكار واحدة بعد أخرى... فكرت في أسرتي وفي أثر ذلك عليهم. كان علي أن أسرع بالخروج، أن أبتعد قبل أن أقول الكلمات التي تجعلك تتبعيني...»

في تلك اللحظة نظر إلى تعبير وجهي المترنح عندما رحت أحاول امتصاص ذكرياته المرة. كانت عيناه حارقتين من تحت أهدابه... مخدرتين... مميتتين.

قال: «لو قلتها لسرت ورائي!»

حاولت أن أتكلم بهدوء: «من غير شك».

خفض عينيه إلى يدي فحررني من سطوة تحديقه: «ثم... عندما حاولت تغيير مواعيد الدروس في محاولة عقيمة لتجنبك... رأيتك هناك... في تلك الغرفة الصغيرة الدافئة المغلقة... كانت الرائحة تبعث فيّ الجنون. في تلك اللحظة كنت قريباً جداً من اختطافك... لم يكن في الغرفة إلا إنسان ضعيف واحد... كان التعامل معه سهلاً جداً».

ارتجفت في تلك الشمس الدافئة... رأيت ذكرياتي من جديد عبر عينيه هو... لم أستوعب الخطر إلا الآن. مسكينة الآنسة كوب!... ارتجفت من جديد عندما عرفت كم اقتربت من التسبب بموتها دون قصد مني.

«لكنني قاومت. لست أدري كيف! أجبرت نفسي على عدم انتظارك... على عدم اللحاق بك عند الخروج من المدرسة. عندما خرجت من المدرسة صار التفكير أسهل لأنني لم أعد أشم شيئاً... صار اتخاذ القرار الصحيح أكثر سهولة. تركت إخوتي قرب بيتنا... كان خجلي من ضعفي أشد من أن يسمح لي بإخبارهم... لم يعرفوا إلا أن ثمة شيئاً سيئاً جداً حدث معي... عند ذلك ذهبت فوراً إلى كارلايل في المستشفى لأخبره أنني سأرحل».

حدقت فيه بدهشة.

«استبدلت سيارته بسيارتي... كان خزان سيارته مليئاً بالوقود... ولم أكن أرغب في التوقف أبداً. لم أجرؤ على الذهاب إلى البيت... على مواجهة إيزمي. لم تكن لتسمح لي بالذهاب دون مشكلة. بل كانت ستحاول إقناعي بأنه ليس من الضروري... !»

تابع كلامه كمن يحس بالعار... كما لو كان يعترف بجبنه الشنيع: «صرت في ألاسكا صباح اليوم التالي. أمضيت هناك يومين مع بعض معارفي القدامى... لكنني حنّيت إلى دياري. كرهت نفسي لعلمي بأنني أحزنت إيزمي... والجميع... جميع أفراد أسرتي بالتبني. في هواء الجبال النقي هناك كان صعباً علي تصديق أنك مستحيلة المقاومة إلى هذه الدرجة. أقنعت نفسي أن الهرب جبن. لقد تعرضت للإغراء من قبل... ليس بهذا الحجم... ولا بهذه الشدة... لكنني كنت قوياً. فمن أنت بالنسبة لي في تلك اللحظة... مجرد فتاة صغيرة لا أهمية لها»... ابتسم فجأة... «من أنت حتى تطردينني من المكان الذي أريد البقاء فيه؟ لذلك عدت...» راح يحدق في السماء.

لم أستطع الكلام.

«لقد اتخذت احتياطاتي. ذهبت إلى الصيد وغذيت نفسي أكثر من المعتاد قبل أن أراك مرة ثانية. كنت واثقاً من أنني صرت قوياً إلى حد

يسمح لي بمعاملتك مثل أي بشري آخر. كنت مغروراً بتلك القوة... ثم أتت مشكلة جديدة لا شك فيها وهي أنني لم أتمكن من قراءة أفكارك ببساطة حتى أعرف رد فعلك تجاهي. لم أكن معتاداً على الاضطرار إلى اللجوء إلى طرق جانبية مثل الاستماع إلى أفكارك من خلال عقل جيسيكا... ليس عقلها أصيلاً... كان يزعجني اضطراري إلى هذا التنازل. بعد ذلك لم أعد أعرف إن كنت تعنين ما تقولين. كان ذلك مربكاً ومزعجاً». كان عابساً لتلك الذكريات...

«أردت أن أنسيك سلوكي في اليوم الأول... إن أمكن... لذلك حاولت أن أتكلم معك مثلما أتكلم مع أي شخص. الواقع هو أنني كنت في شوق إلى الكلام معك أملاً في الوصول إلى بعض أفكارك. لكنك أثرت اهتمامي أكثر مما توقعت... وجدت نفسي عالقاً في تعابير وجهك... وكنت، من لحظة لأخرى، تحركين الهواء بيدك أو بشعرك فيذهلني العبير من جديد...»

«بعد ذلك... طبعاً... رأيتك توشكين على الموت أمام عيني عندما كادت تسحقك تلك السيارة. فكرت فيما بعد بعذر ممتاز يفسر تصرفي كما تصرفت في تلك اللحظة... لو لم أنقذك... لو سفح دمك أمامي هناك... لا أظن أنني كنت سأتمكن عن منع نفسي من كشف حقيقتنا جميعاً. لكنني لم أفكر في هذا العذر إلا بعد ذلك. أما في تلك اللحظة فقد كان كل ما استطعت التفكير فيه هو ''ليس هنا!''»

أغمض عينيه غارقاً في اعترافاته المعذبة. كنت أصغي بتوق... دون أي عقلانية. كان المنطق السليم يقول إن عليّ أن أخاف. لكنني شعرت بالراحة لأني فهمت أخيراً. ملأني التعاطف مع عذابه، حتى الآن... في هذه اللحظة عندما كان يعترف بالتوق إلى قتلي.

تمكنت من النطق أخيراً مع أن صوتي كان خافتاً: «في المستشفى؟»

استقرت عيناه على عينيَّ: «شعرت بالذعر! لم أصدق أنني عرَضت

أسرتي إلى الخطر... أنني جعلت نفسي تحت تصرفك أنت دون جميع البشر... كأنني كنت بحاجة إلى دافع آخر حتى أقتلك». أجفلنا معاً عندما خرجت تلك الكلمة من فمه... تابع مسرعاً: «لكن المفعول كان عكسياً. تشاجرت مع روزالي وإيميت وجاسبر عندما قالوا إن الوقت قد حان... كان ذلك أسوأ شجار بيننا على الإطلاق. أما كارلايل وأليس فوقفا بجانبي»... كشر عندما نطق اسمها... لم أعرف السبب... «قالت لي إيزمي أن أفعل كل ما يلزم حتى أبقى معهم»... هز رأسه بأسى.

«وفي اليوم التالي رحت أصغي إلى أفكار جميع من رأيتك تتحدثين معهم فصدمت عندما فهمت أنك حافظت على وعدك. لم أفهمك أبداً. لكنني كنت أعرف أنه لا يجوز لي التورط معك أكثر من ذلك. بذلت كل ما في وسعي حتى أبتعد عنك إلى أقصى حدّ ممكن. لكن... في كل يوم... كان عطر جلدك وشعرك وتنفسك... كان يفعل بي مثلما فعل في اليوم الأول».

نظر في عيني من جديد... كانت عيناه حنونتين عطوفتين إلى حد مفاجئ... «رغم ذلك كله... كان أسهل... لو أنني فضحت نفسي وأسرتي كلها منذ اللحظة الأولى... من أن أؤذيك الآن... دون شهود ودون وجود ما يمكن أن يوقفني».

كنت بشرية إلى حد جعلني أقول: «لماذا؟»

قال: «إيزابيلا!»... لفظ اسمي كاملاً بانتباه وتركيز، ثم عبثت يده الحرة بشعري. سرت في جسدي رعشة بفعل هذه اللمسة الخاطفة... «بيلا! لا أستطيع تحمل نفسي إن آذيتك. أنت لا تعرفين كيف يعذبني ذلك»... أطرق من جديد شاعراً بالعار لضعفه... «إن فكرة رؤيتك هامدة، بيضاء، باردة... عدم رؤية وجهك يحمرّ من جديد... عدم رؤية لمعة الحدس في عينيك عندما تخترقين ما أتظاهر به... كل هذا لا

أستطيع احتماله». رفع عينيه الرائعتين المعذبتين إلى عيني... «أنت أهم شيء عندي الآن. أهم شيء في حياتي كلها».

دار رأسي لسرعة تغير اتجاه حديثنا... بعد الحديث المبهج عن موتي الوشيك رحنا فجأة نكشف ما في قلوبنا. كان ينتظر... عرفت أن عينيه الذهبيتين تنظران إلي رغم أنني كنت مطرقة أنظر في يدينا المستقرتين بيننا.

قلت أخيراً: «أنت تعرف شعوري طبعاً!... أنا هنا... وهذا يعني، بترجمة تقريبية، أنني أفضل الموت على أن أكون بعيدة عنك»... قطبت وجهي... «أنا حمقاء!»

قال ضاحكاً: «أنت حمقاء فعلاً!»... التقت أعيننا فضحكت أنا أيضاً. ضحكنا معاً لحماقة هذه اللحظة ولاستحالتها المطلقة.

تمتم قائلاً: «وهكذا وقع الأسد في حب الخروف...» نظرت بعيداً... خبأت عيني مذهولة لتلك الكلمة.

تنهدت: «يا للخروف الأحمق!»

«ويا للأسد المازوشي المريض!»... حدق لحظة طويلة في الغابة التي تلفّها الظلال فرحت أتساءل عن أفكاره... إلى أين تأخذه؟

«لماذا...؟» بدأت الكلام لكنني توقفت فلم أكن أعرف كيف أكمله.

نظر إلي وابتسم. كانت أشعة الشمس تتلألأ في وجهه وفي أسنانه.

«ماذا؟»

«قل لي... لماذا هربت مني قبل قليل؟»

خبت ابتسامته: «تعرفين لماذا!»

«لا! أقصد... ما الذي أخطأت فيه تحديداً؟ يجب أن أكون حذرة كما ترى. لذلك يجب أن أبدأ معرفة ما علي تجنب فعله... هذا

مثلاً!»... داعبت ظهر يده... «لا بأس بهذا كما يبدو لي!»

ابتسم من جديد: «لم تخطئي في شيء يا بيلا... الذنب ذنبي».

«لكنني أريد مساعدتك... إذا استطعت... حتى لا أجعل الأمر أكثر صعوبة عليك».

«طيب!»... فكر لحظة ثم قال: «إنه قربك الشديد مني. معظم البشر يبتعدون عنا... بالغريزة... بسبب غرابتنا... لم أتوقع اقترابك مني إلى هذا الحد. ثم رائحة أنفاسك!»... كف عن الكلام ثم نظر إليّ ليرى إن كان أزعجني.

قلت بصبر نافذ محاولة تخفيف التوتر الذي حل فجأة: «إذن،... لا تريد أن أعرضك لرائحة أنفاسي!»

لقد نجح ذلك... ضحك وقال: «لا! حقاً! كنت أقصد المفاجأة أكثر من أي شيء آخر».

رفع يده الحرة ووضعها برفق على رقبتي. جلست بهدوء شديد... كانت برودة يده شيئاً طبيعياً... أما حرارتها فهي ما يجب أن أخاف منه. لكني لم أشعر بالخوف أبداً... حلّت محله مشاعر أخرى... قال: «هل ترين! لا بأس في هذا أبداً».

كان دمي يغلي... تمنيت لو كنت أستطيع تهدئته قليلاً لأنني شعرت أن هذا يجعل كل شيء أكثر صعوبة... تصاعد تردد نبضي في عروقي. لابد أنه يستطيع سماعه.

تمتم قائلاً: «أحب احمرار خديك»... حرر يده الأخرى بلطف. سقطت يداي في حضني دون حركة. مسد خدي برقة ثم أمسك بوجهي بين يديه المرمريتين.

همس: «ابقِ هادئة تماماً!»... كما لو أني لم أكن متجمدة فعلاً.

انحنى نحوي ببطء دون أن يزيح عينيه عن عيني. فجأة... لكن

برقة شديدة... وضع خده البارد على أسفل رقبتي. كنت عاجزة عن الحركة تماماً، حتى لو أردت الحركة. رحت أستمع إلى صوت تنفسه الهادئ... رأيت الشمس والريح تلعبان في شعره البرونزي... شعره... الجزء الأكثر بشرية فيه.

انحدرت يداه ببطء شديد إلى جانبي رقبتي. ارتعدت... فسمعته يلتقط أنفاسه. لكن كفاه لم تتوقفا... هبطا برقة حتى كتفي... هناك توقفا.

أزاح وجهه جانباً... فمس أنفه عظم الترقوة وسار عليه حتى ارتاح وجهه فوق صدري... كان يستمع إلى قلبي.

قال بصوت كالأنين... «آه!»

لا أعرف كم بقينا هكذا من غير حركة... لعلها ساعات. هدأت نبضات قلبي أخيراً لكنه لم يتحرك ليحدثني بل ظل يحتضنني. كنت أعرف أن الأمر يمكن أن يبلغ حد الخطر في أي لحظة وأن حياتي يمكن أن تنتهي فجأة... أن تنتهي بسرعة حتى من غير أن أنتبه. لكنني لم أستطع حمل نفسي على الخوف. لم أكن أطيق التفكير في أي شيء إلا في أنه يلمسني.

عند ذلك... باكراً جداً... أفلتني. كانت عيناه تفيضان سلاماً.

قال راضياً: «لن يكون الأمر شديد الصعوبة بعد هذا».

«وهل كان هذا شديد الصعوبة عليك؟»

«ليس بقدر ما توقعت... ماذا عنك؟»

«لا! لم يكن صعباً... بالنسبة لي».

ابتسم لأنني ترددت: «تعرفين قصدي!»... فابتسمت.

«انظري»... أخذ يدي فوضعها على خده... «هل تشعرين بشدة دفئه؟»

كان خده دافئاً تقريباً... أما جلده فكان بارداً كالعادة... لكنني

لاحظت لأنني كنت ألمس خده... شيئاً حلمت به دائماً منذ رأيته أول مرة... فهمست: «لا تتحرك!»

لا يستطيع أحد أن يهدأ مثل إدوارد. أغمض عينيه فصار ساكناً مثل تمثال... صار مثل منحوتة بين يدي. تحركت أبطأ مما تحرك قبل قليل... حاذرت أي حركة غير متوقعة. داعبت خده ومررت بأصابعي على أهدابه وعلى تلك الظلال الأرجوانية في محجري عينيه. جرت أصابعي على خطوط أنفه... ثم على شفتيه. انفتحت شفتاه تحت أصابعي فأحسست بأنفاسه الباردة عليها... وددت أن أقترب أكثر حتى أستنشق عبيره من جديد. لكنني تركت يدي تسقط وابتعدت عنه. لم أرد إرهاقه أكثر مما يجب.

فتح عينيه... كانتا جائعتين... لم تكونا جائعتين بطريقة تجعلني أخافهما بل على نحو جعل معدتي تتقلص وأطلق نبض قلبي مدوياً في عروقي من جديد.

همس: «أتمنى... أتمنى لو كنت تستطيعين الشعور... بالاضطراب... بالارتباك... كما أشعر. عندها يمكنك أن تفهمي».

رفع يده إلى شعري وأزاحه برقة عن وجهي.

قلت همساً: «حدثني عنه».

«لا أظن أنني أستطيع. لقد قلت لك. ثمة ذلك الجوع... ذلك العطش... الذي أشعر به إزاءك... ذلك المخلوق الشنيع الذي هو أنا. أظن أنك تستطيعين فهم هذا... بعض الشيء»... ابتسم نصف ابتسامة... «بما أنك لست مدمنة مخدرات... فالأرجح أنك لا تستطيعين تصور الأمر تماماً. لكن...» لمست أصابعه شفتي لمساً خفيفاً فارتعدت من جديد... «ثمة أشكال أخرى من الجوع... أشكال لا أفهمها... إنها غريبة بالنسبة لي».

«قد أفهم ذلك أكثر مما تظن».

«لست معتاداً على هذه المشاعر البشرية. هل هي هكذا دائماً؟»

«من ناحيتي؟» توقفت لحظة... «لا! أبداً... لم أشعر هكذا من قبل».

أمسك يدي بيديه... بدت يداه ضعيفتين جداً بالمقارنة مع قوته.

قال معترفاً: «لا أعرف كيف يمكن أن أكون قريباً منك... لا أعرف إن كنت أستطيع».

ملت إلى الأمام ببطء شديد... كانت عيناي متعلقتان بعينيه. وضعت خدي على صدره الحجري... سمعت صوت تنفسه... لكنني لم أسمع شيئاً آخر.

قلت مغمضة عيني: «هذا يكفيني».

بحركة بشرية إلى أبعد حد لفني إدوارد بذراعيه وغمر وجهه في شعري.

قلت: «أنت أفضل مما تظن... في هذا!»

جلسنا على هذا النحو لحظة أخرى لا نهاية لها... رحت أتساءل إن كان غير راغب في الحركة كما كنت. لكنني رأيت ضوء الشمس يخفت... ورأيت ظلال الغابة تمتد لتلمسنا... فتنهدت.

«عليك الذهاب!»

«ظننت أنك لا تستطيع قراءة أفكاري».

قال بصوت أظن أنني سمعت ابتسامة فيه: «إنها تصبح أكثر وضوحاً».

أمسك بكتفي فنظرت في وجهه. سألني وعيناه تنبضان بالإثارة فجأة: «هل أستطيع أن أريك شيئاً؟»

«تريني ماذا؟»

«سأريك كيف أسير عبر الغابة»... انتبه إلى تعبيري فتابع يقول: «لا تقلقي! ستكونين بأمان تام... وسوف نصل إلى سيارتك بسرعة

كبيرة»... ارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة الماكرة... كانت جميلة جداً فكاد قلبي يتوقف.

سألته بحذر: «هل ستتحول إلى خفاش؟»

أطلق ضحكة أكثر ارتفاعاً من أي ضحكة سمعتها منه: «كما لو أنني لم أسمع هذا من قبل!»

«نعم! أعرف أنك تسمع هذا دائماً».

«تعالي... يا جبانة... تسلقي ظهري».

انتظرت لأتأكد إن كان مازحاً أم جاداً... لكنه كان يعني ذلك فعلاً. ابتسم عندما رأى ترددي ومد يده إلي. قفز قلبي... صحيح أنه لا يستطيع قراءة أفكاري، لكن نبض قلبي يفضحني دائماً. ثم ألقاني على ظهره دون أن أقوم بأي جهد تقريباً. وعندما صرت على ظهره شددت عليه بساقي وذراعي شداً يمكن أن يخنق أي إنسان طبيعي... لكن ذلك كان مثل التعلق بصخرة.

حذرته قائلة: «أنا أثقل قليلاً من حقيبتك الظهرية».

ضحك بصوت عال... لم أره في تلك الروح المنطلقة من قبل.

فاجأني عندما أمسك يدي فجأة وضغط راحتها على وجهه متنفساً بعمق ثم قال: «يصبح الأمر أسهل فأسهل!»... ثم بدأ يجري... لو كنت شعرت من قبل بخوف من الموت وأنا معه فهو بالتأكيد لا يقارن بخوفي الآن.

انطلق عبر الشجيرات الكثيفة المظلمة مثل رصاصة... مثل شبح. لم يصدر عنه أي صوت... لم يكن ثمة ما يدل على أن قدميه تلمسان الأرض. لم يتغير إيقاع تنفسه أبداً... ولم يوح ببذل أي جهد... لكن الأشجار كانت تطير بجانبي بسرعة مرعبة. لم تكن تخطئني إلا بمسافة صغيرة جداً.

منعتني شدة الخوف من إغماض عيني... لكن هواء الغابة الليلي

البارد كان يصفع وجهي فيحرقه. كان إحساسي كمن يخرج رأسه من نافذة طائرة أثناء طيرانها. وشعرت للمرة الأولى في حياتي بدوار السرعة.

ثم انتهى ذلك كله. مشينا عدة ساعات في الصباح حتى نصل إلى مرج إدوارد... أما الآن فوصلنا إلى سيارتي في دقائق قليلة.

جاءني صوته مرتفعاً مستثاراً: «شيء منعش... أليس كذلك؟»... ظل واقفاً من غير حراك ينتظر أن أنزل عن ظهره. حاولت... لكن عضلاتي لم تستجب. ظل ذراعاي وساقاي متشبثان به في حين راح رأسي يدور بشعور مزعج.

قال بصوت قلق الآن: «بيلا!»

همست: «أظن أنني بحاجة إلى الاستلقاء».

«أوه!... آسف»... لكنني لم أستطع الحركة فقلت: «أظنني بحاجة إلى مساعدتك».

ضحك ضحكة هادئة وفك بلطف ذراعيّ عن رقبته فلم يقاوما قوة يده الحديدية. ثم أدارني حتى واجهته وحملني بين ذراعيه مثل طفل صغير. وقف هكذا لحظة ثم وضعني برفق على العشب.

سألني: «كيف تشعرين الآن؟»

لم أكن واثقة من شعوري لأن رأسي كان يدور دوراناً مجنوناً: «أظن أنني أشعر بدوار».

«ضعي رأسك بين ركبتيك».

حاولت أن أفعل ذلك... أراحني هذا الوضع قليلاً. رحت أتنفس ببطء دون أن أحرك رأسي أبداً. شعرت به يجلس قربي. مرت اللحظات... ثم شعرت أنني أستطيع أن أرفع رأسي... كان في أذني صوت طنين.

قال مازحاً: «أعتقد أنها لم تكن فكرة جيدة!»

حاولت أن أكون إيجابية. لكني صوتي خرج واهناً: «لا! كان الأمر مثيراً جداً».

«هاه! أنت بيضاء مثل شبح... بل أنت الآن بيضاء... مثلي!»

«أظن أنه كان من الأفضل أن أغمض عيني».

«تذكري هذا في المرة القادمة».

قلت مفزوعة: «المرة القادمة!»

ضحك... مازال مزاجه طيباً... همست: «اذهب عني!»

قال بهدوء شديد: «افتحي عينيك يا بيلا!»

فتحت عيني فرأيته هناك... كان وجهه شديد القرب من وجهي. شوش جماله عقلي... هذا كثير جداً... كثير... لا أستطيع الاعتياد عليه.

«عندما كنت أجري... كنت أفكر...» صمت قليلاً.

«آمل أنك كنت تفكر في عدم الاصطدام بالأشجار!»

ابتسم: «كفاك سخافة يا بيلا!... الجري جزء من طبيعتي... وهو ليس شيئاً يستلزم التفكير».

تمتمت من جديد: «اذهب عني!»... فابتسم وتابع: «لا!... كنت أفكر في أن ثمة شيئاً أريد أن أجربه»... قال هذا وأمسك بوجهي بين يديه.

لم أستطع التنفس...

تردد... لا بالطريقة الطبيعية... بالطريقة البشرية. ليس كما يتردد رجل قبل أن يقبل امرأة... حتى يقدر رد فعلها... حتى يتوقع كيف تستقبل حركته... بل ربما من أجل إطالة تلك اللحظة... تلك اللحظة المثالية من الترقب التي هي أفضل من القبلة نفسها.

كان إدوارد يتردد ليختبر نفسه، ليرى إن كان هذا آمناً... ليتأكد من أنه مازال مسيطراً على حاجته تلك.

ثم... انطبعت شفتاه الباردتان الرخاميتان على شفتيّ برقة شديدة.

أما ما لم يكن أحد منا يتوقعه فهو رد فعلي أنا... غلى دمي تحت جلدي... شعرت به حاراً في شفتي... صار تنفسي أنيناً مجنوناً. شبكت أصابعي في شعره وجذبته إلي. انفرجت شفتاي ورحت أستنشق أنفاسه.

سرعان ما أحسست به يتحول إلى حجر دون استجابة تحت شفتي. وبرقة... لكن بقوة لا تقاوم... دفعت يداه وجهي إلى الخلف. فتحت عيني فرأيت تعبير وجهه المتنبه الحذر.

همست: «يا للأسف!»

«هذا أقل ما يقال».

كانت عيناه مجنونتين... شد على أسنانه بضبط نفس شديد... لكنه لم يتحرك أبداً. ظل ممسكاً وجهي بين يديه... زاغت عيناي.

«هل يجب أن... ؟»... حاولت تحرير نفسي... حاولت إعطاءه فسحة أكبر!

لم تسمح يداه لي بأي حركة.

«لا!... أستطيع تحمل ذلك. انتظري لحظة من فضلك»... جاءني صوته مضبوطاً... مهذباً.

ظلت عيناي معلقتان بعينيه... رحت أراقب ذلك الجنون فيهما وهو يتلاشى ويستقر.

ابتسم ابتسامة خبيثة على نحو مفاجئ وقال: «هكذا!»... كان مسروراً من نفسه على نحو واضح جداً.

سألته: «تستطيع التحمل؟»

ضحك بصوت عال: «أنا أقوى مما ظننت... لطيف أن أعرف هذا».

«ليتني أستطيع أن أقول ذلك عن نفسي... آسفة!»

«أنت لست إلا إنسان...»

قلت بصوت فظ: «شكراً جزيلاً!»

وقف على قدميه بحركة سريعة لا تكاد ترى. مد يده إليّ بحركة لم أتوقعها... لقد اعتدت أكثر مما ينبغي على حرصنا الدائم على عدم التلامس. أمسكت بيده الباردة... كنت بحاجة إلى المساعدة أكثر مما توقعت. لم أستعد توازني بعد.

«هل مازلت تشعرين بالدوار بسبب الجري؟ أم أن هذا بسبب خبرتي الكبيرة في التقبيل؟»... كم بدا ظريفاً... بشرياً... عندما ضحك الآن... لم يبد أي اضطراب على وجهه الملائكي. إنه إدوارد مختلف عن إدوارد الذي أعرفه... شعرت أنه يسكرني أكثر من ذي قبل. كم هو مؤلم أن أبتعد عنه الآن.

أفلحت أخيراً في الرد: «لا أعرف!... مازال رأسي يدور».

«أظن أن الأمر مزيج من السببين معاً».

«لعل من الأفضل أن أقود السيارة!»

قلت محتجة: «هل أنت مجنون؟»

قال مناكفاً: «أستطيع قيادة السيارة أفضل منك... حتى في أحسن أحوالك... ردود أفعالك بطيئة جداً».

«هذا مؤكد... لكنني لا أظن أن أعصابي تستطيع احتمال قيادتك... وليس سيارتي».

«بعض الثقة يا بيلا... من فضلك».

كانت يدي في جيبي تمسك مفتاح السيارة بإحكام شديد. ضغطت على شفتي... كنت مصممة... ثم هززت رأسي بابتسامة حازمة: «أبداً! لا يمكن أبداً!»

ارتفع حاجباه... كان غير مصدق.

مشيت حتى التف حوله وأذهب إلى مقعد السائق. ولعله كان ليدعني أمر لو لم أترنح قليلاً... أو لعله لم يكن ليدعني أمر! صارت ذراعاه طوقاً حول خصري... طوق لا فكاك منه.

«بيلا!... لقد بذلت منذ قليل جهداً كبيراً جداً حتى تظلي حية. لن أتركك تقودين سيارة وأنت غير قادرة حتى على المشي. كما أن الصديق لا يترك صديقه يقود السيارة إذا كان ثملاً!»... قال هذا بضحكة صغيرة.

شممت تلك الرائحة الحلوة حلاوة لا تقاوم تنبعث من صدره... قلت محتجة: «هل أنا ثملة؟»

ابتسم ابتسامته الخبيثة اللعوب من جديد: «أنت ثملة بوجودي!»

تنهدت: «لا أستطيع مجادلتك في هذا»... كان الأمر عقيماً... ما كنت أستطيع مقاومته في أي شيء. رفعت المفتاح عالياً ثم تركته يسقط ورأيت يده تمتد كالبرق فتلتقطه من غير صوت.

«على مهلك... سيارتي مواطنة عجوز!»

قال: «صحيح تماماً!»

سألته بانزعاج: «ألم تتأثر أبداً... بوجودي؟»

تغيرت قسمات وجهه من جديد وصار تعبيره لطيفاً دافئاً. لم يجبني في البداية... اكتفى بأن قرب وجهه من وجهي ومر بشفتيه بطيئاً فوق حنكي... من أذني حتى ذقني... جيئة وذهاباً... فارتجفت.

همس أخيراً: «رغم ذلك... ردود أفعالي أفضل من ردود أفعالك».

14

مقاومة ذهنية

إنه ماهر في قيادة السيارة... عندما يبقى ضمن حدود السرعة المقبولة... علي الإقرار بهذا. لم تكن القيادة تتطلب منه أي جهد... مثل أشياء كثيرة غيرها. لم يكن ينظر إلى الطريق إلا لماماً، لكن السيارة لم تنحرف... ولا سنتيمتراً واحداً... عن وسط الطريق. كان يقود بيد واحد... وبيده الأخرى كان ممسكاً يدي فوق المقعد. يحدق أحياناً في الشمس الغاربة... ويحدق في عينيّ أحياناً... في وجهي وفي شعري المتطاير بسبب النافذة المفتوحة... كان كفانا متشابكين.

فتح الراديو على إذاعة تبث أغنيات قديمة... وراح يغني مع أغنيات لم أسمعها من قبل. كان يعرف الكلمات تماماً. سألته: «هل تحب موسيقى الخمسينات؟»

«كانت موسيقى الخمسينات جيدة... أفضل بكثير من الستينات، أو السبعينات... أوف!»... ابتسم... «كانت الثمانينات مقبولة».

سألته عفوياً... لم أكن أريد إفساد مزاجه المرح المتوثب: «هل ستخبرني كم عمرك؟»

ابتسم: «وهل هذا مهم كثيراً؟»... أراحتني ابتسامته... لم يضطرب مزاجه.

«لا! لكن السؤال يلحّ عليّ...» كشرت قليلاً... «لا شيء يستطيع

حرمانك من النوم مثل الأسئلة التي لا تعرف إجاباتها».

قال كمن يفكر بينه وبين نفسه: «لا أعرف إن كانت إجابتي مزعجة لك»... راح يحدق في الشمس... مرت دقائق.

قلت أخيراً: «جرّبني!»

تنهد ونظر في عيني. بدا كأنه نسي الطريق كله لحظة من الزمن. لابد أنه رأى في عيني شيئاً شجعه. نظر إلى الشمس... كان ضياء الغروب يتلألأ على جلده مثل شرارات أرجوانية... ثم تكلم.

«ولدت في شيكاغو عام 1901». توقف لحظة ناظراً إليّ من زاوية عينه. ظل وجهي منتبهاً دون أن يشي بأثر المفاجأة... ظل صابراً حتى يسمع البقية. ابتسم ابتسامة صغيرة ثم تابع: «وجدني كارلايل في المستشفى صيف 1918 كان عمري 17 عاماً... وكنت موشكاً على الموت بسبب الحمى الإسبانية».

سمعني أعب الهواء رغم أن صوت تنفسي لم يكن مسموعاً لأذني. نظر في عيني من جديد: «لا أذكر ذلك جيداً... مضى وقت طويل... إن الذكريات البشرية تضمحل»... تاهت أفكاره وقتاً قصيراً قبل أن يستأنف كلامه: «أذكر كيف شعرت عندما أنقذني كارلايل. ليس هذا أمراً سهلاً... ليس شيئاً يمكن نسيانه».

«ماذا عن والديك؟»

«توفيا قبل ذلك بسبب المرض نفسه. كنت وحيداً... لهذا اختارني. لم يكن أحد لينتبه إلى غيابي في خضم الفوضى التي سببها ذلك الوباء».

«كيف... أنقذك؟»

مرت ثوانٍ قليلة قبل أن يجيب. بدا لي أنه راح يختار كلماته بعناية.

«كان ذلك صعباً. كثير منا لا يملك المقاومة اللازمة لذلك. لكن

كارلايل كان دائماً أكثرنا إنسانية وأكثرنا عطفاً... لا أظن أن له مثيلاً في التاريخ كله». صمت قليلاً... «أما من ناحيتي... فقد كان الأمر مؤلماً جداً... جداًا!»

أدركت من إطباقة شفتيه أنه لن يضيف شيئاً في هذا الموضوع. كتمت فضولي رغم شدته. لدي أشياء كثيرة أفكر فيها فيما يخص هذا الأمر تحديداً... أمور بدأت الآن تخطر ببالي. لا شك في أن ذهنه السريع فهم كل ما مرَّ بذهني.

قطع صوته الهادئ أفكاري: «لقد فعل ذلك بسبب إحساسه بالوحدة. عادة ما يكون هذا سبباً في الخيار. كنت الأول في أسرته... لكنه وجد إيزمي بعدي بفترة قصيرة. كانت قد سقطت من فوق أحد الجروف... جاؤوا بها إلى براد الجثث في المستشفى مباشرة... لكن قلبها... لا أدري كيف... كان ما يزال نابضاً».

«لابد إذن أنك كنت تحتضر... حتى يجعلك...» لم ننطق تلك الكلمة أبداً... ولم أستطع التفوه بها الآن.

«لا!... إيزمي فقط... لن يفعل كارلايل ذلك بأي شخص إن كان أمامه فرصة أخرى». كان في صوته احترام عميق لأبيه كلما تحدث عنه... «يقول إن الأمر يصبح أسهل عندما يكون الدم ضعيفاً». نظر إلى الطريق الذي صار مظلماً الآن فشعرت من جديد أنه ينهي الحديث.

«ماذا عن إيميت وروزالي؟»

«جلب كارلايل روزالي إلى أسرتنا بعدنا. لم أدرك إلا بعد وقت طويل أنه كان يأمل في أن تكون بالنسبة لي كما هي إيزمي بالنسبة له... كان شديد الانتباه فيما يخصني. لكنها لم تكن أبداً أكثر من أخت لي. وبعد سنتين من ذلك كانت هي من وجد إيميت. لقد كانت تصطاد... كنا في أبلاتشيا في ذلك الوقت... فوجدت دباً يوشك أن يقتله. حملته وعادت به إلى كارلايل... أكثر من مئة ميل... خافت أن لا تستطيع

إنجاز ذلك بنفسها. الآن فقط صرت أعرف كم كانت تلك الرحلة شاقة عليها»... ألقى نظرة حادة باتجاهي ثم رفع يدينا المتشابكتين فمسّد خدي بظهر يده.

قلت وأنا أبعد نظري عن جمال عينيه الذي لا يقاوم: «لكنها نجحت في حمله».

تمتم: «نعم!... لقد رأت في وجهه ما جعلها قوية بالقدر الكافي. إنهما معاً منذ ذلك الوقت. وهما يقيمان أحياناً في مكان مستقل عنا... مثل شخصين متزوجين. لكن، كلما بدونا في أعين الناس أصغر سناً كلما استطعنا الإقامة لفترة أطول. بدت فوركس لنا مكاناً مثالياً. لذلك انتسبنا إلى المدرسة الثانوية فيها». ضحك... «أظن أننا سنذهب إلى عرسهما بعد بضع سنوات،... من جديد».

«أليس وجاسبر؟»

«أليس وجاسبر مخلوقان نادران جداً. لقد نشأ عندهما ''وعي''... هكذا نسميه... دون معونة خارجية. كان جاسبر ينتمي إلى... أسرة أخرى... أسرة من نوع مختلف تماماً. لكنه أصيب بالاكتئاب فترك أسرته وراح يتجول وحيداً. وجدته أليس... إن لديها... مثلي... مواهب أخرى تتجاوز ما هو مألوف في جنسنا».

«حقاً!»... قاطعته مسحورة... «لكنك قلت إنك الوحيد الذي يستطيع سماع أفكار الآخرين».

«هذا صحيح. إنها تعرف أشياء أخرى. إنها ''ترى'' الأشياء... الأشياء التي يمكن أن تحدث... الأشياء التي توشك أن تحدث. لكن هذا أمر ذاتي إلى أبعد حد. ليس المستقبل مصنوعاً من حجر. يمكن للأمور أن تتغير».

شد على أسنانه عندما قال هذا. نظرت عيناه إليّ ثم ابتعدتا سريعاً... لا أعرف إن كنت رأيت ذلك أم تخيلته!

«وما نوع الأشياء التي تراها؟»

«رأت جاسبر وعرفت أنه يبحث عنها حتى قبل أن يعرف ذلك. رأت كارلايل وأسرتنا ثم جاءا معاً للعثور علينا. إن حساسيتها أكبر إزاء غير البشر. فهي مثلاً ترى دائماً اقتراب أي مجموعة أخرى من جنسنا نحن. وترى الخطر الذي يمكن أن تمثله تلك المجموعة».

فوجئت فسألته: «هل يوجد كثير... من جنسكم؟»... كم يمكن أن يوجد بيننا منهم دون أن نعرف؟

«لا! لسنا كثراً. لكن أكثرنا لا يقيم في مكان واحد أبداً. فقط من هم مثلنا... من أقلعوا عن اصطيادكم، معشر البشر»... ألقى نظرة في اتجاهي «...يستطيعون العيش مع البشر لأي فترة من الزمن. لم نعثر إلا على أسرة أخرى مثل أسرتنا في قرية صغيرة في ألاسكا. عشنا مع تلك الأسرة بعض الوقت... لكن عددنا كان كبيراً إلى حد يمكن أن يلفت الأنظار. أما بني جنسنا ممن يعيشون... بطريقة مختلفة... فهم يتجمعون معاً».

«والآخرون؟»

«إنهم رحّل معظم الوقت. كنا جميعاً نحيا حياة ارتحال بعض الوقت. لكن ذلك صار أمراً متعباً مثل أي شيء آخر. مع ذلك، نصادف بعض الآخرين من وقت لآخر لأن أكثر بني جنسنا يفضلون المناطق الشمالية».

«لماذا؟»

كنا نقف أمام منزلي الآن. كان قد أطفأ محرك السيارة. كانت الظلمة شديدة والهدوء يلف المكان... لم يظهر القمر. كان الضوء أمام المنزل مطفأ فعرفت أن والدي لم يعد بعد.

«هل كانت عيناك مفتوحتين هذا اليوم؟ هل تعتقدين أنني أستطيع أن أسير في الشارع تحت نور الشمس دون أن أسبب حوادث مرور؟ ثمة

سبب لاختيارنا شبه جزيرة أولمبيك، فهي إحدى أقل المناطق شمساً في العالم كله... لطيف أن يستطيع المرء الخروج نهاراً. لا يمكنك تخيل كم يتعب المرء ويمل من الليل بعد أكثر من ثمانين عاماً!»

«هذا إذن سبب ما تقوله الأساطير عنكم؟»

«على الأرجح».

«وهل أتت أليس من أسرة أخرى مثل جاسبر؟»

«لا!... هذا لغز! لا تتذكر أليس حياتها البشرية إطلاقاً. وهي لا تعرف من أين جاءت وكيف حصل لها ما حصل. أفاقت فوجدت نفسها وحيدة. لا نعرف من الذي أيقظها... ولا أحد منا يفهم كيف استطاع ذلك... أو لماذا فعل ذلك. لو لم تكن لديها تلك الحاسة الإضافية، ولو لم تر جاسبر وكارلايل وتعرف أنها ستكون واحدة منا ذات يوم... لكانت، على الأرجح، تحولت إلى مخلوق متوحش تماماً».

إن لدي الكثير مما يجب أن أفكر فيه... لدي كثير من الأسئلة التي أريد طرحها. لكن معدتي بدأت تتقلص وتصيح... يا للحرج! كنت مشغولة البال تماماً ولم ألاحظ شدة جوعي.

«آسف! لقد أخرتك عن الغداء».

«أنا بخير... فعلاً!»

«لم أمض من قبل هذا الوقت كله مع شخص يأكل الطعام... لقد نسيت!»

«أريد البقاء معك»... كان قول ذلك في الظلمة أسهل مع أني عرفت... عندما نطقت، أن صوتي سيفضحني... سيفضح إدماني عليه.

سألني: «ألا أستطيع الدخول؟»

«وهل تريد ذلك؟»... لم أتخيل الأمر... هذا المخلوق السماوي جالساً في كرسي أبي العتيق في المطبخ.

«نعم... إذا رأيت ذلك مناسباً». سمعت باب السيارة ينفتح بهدوء. وفي اللحظة عينها تقريباً رأيته يقف عند بابي... فتحه حتى أنزل.

امتدحته: «هذا تصرف بشري جداً!»

«إنه يظهر من حين لآخر... رغم إرادتي».

مشى بجانبي في الظلام. كان خطوه هادئاً جداً حتى اضطررت إلى الالتفات إليه من حين لآخر لأتأكد من أنه بجانبي. كان يبدو أكثر طبيعية بكثير في الظلام. مازال شاحباً، ومازال جميلاً كأنه حلم، لكنه لم يعد ذلك المخلوق المتلألئ العجيب الذي رأيته في شمس بعد الظهيرة.

بلغ الباب قبلي ففتحه. وقفت في الباب وسألته: «ألم يكن الباب مقفلاً؟»

«نعم! استخدمت المفتاح المخبأ تحت الإفريز».

دخلت، وأشعلت الضوء، ثم استدرت لأنظر إليه مستغربة... كنت واثقة من أنني لم أستخدم المفتاح في حضوره.

«كنت قلقاً عليك!»

«هل كنت تتجسس علي؟»... لكنني... لا أدري لماذا... عجزت عن جعل صوتي يحمل الكمية المناسبة من الغضب... شعرت بالإطراء.

قال متبرماً: «وماذا أفعل في الليل؟»

تركت الأمر ومضيت عبر الصالة باتجاه المطبخ. كان هناك قبلي من غير حاجة إلى من يدله على الطريق. جلس في الكرسي الذي حاولت تصوره جالساً فيه. أضاء جماله المطبخ. لم أستطع تحويل نظري عنه إلا بعد لحظة.

حاولت التركيز على إعداد طعامي. أخرجت لازانيا الليلة الماضية من البراد ثم وضعت قطعة منها في صحن... ووضعت الصحن في

المايكرويف. بدأ الصحن يسخن وملأت المطبخ رائحة البندورة والأوريغانو. لم أرفع عينيّ عن الصحن عندما قلت: «هل كنت تراقبني كثيراً؟»

لحظة صمت، ثم قال «ماذا؟»... بدا كأنني انتزعته من استغراقه في أفكار أخرى.

لم أستدر نحوه: «هل تأتي إلى هنا كثيراً؟»

«كل ليلة تقريباً».

صحت مدهوشة: «لماذا؟»

«شكلك جذاب عندما تكونين نائمة»... قالها كأنه يقرر أمراً واقعاً... «أنت تتكلمين في نومك».

شهقت: «لا!»... غمرت الحرارة وجهي كله. أمسكت بطاولة المطبخ حتى لا أقع. كنت أعرف طبعاً أنني أتكلم في نومي... كانت أمي تسخر مني بسبب هذا. لكنني لم أظن أن علي أن أقلق لهذا الأمر هنا.

ظهرت المعاناة على وجهه فجأة: «هل غضبت مني؟»

«هذا متوقف على...» شعرت... وبدوت أيضاً... كمن انقطعت أنفاسه.

انتظرني بصبر ثم قال يحثني: «على ماذا؟»

صحت: «على ما سمعته مني!»

في تلك اللحظة عينها... بصمت... صار بجانبي ممسكاً يدي بيده ورجاني: «لا تنزعجي!»... خفض رأسه حتى التقت عينانا... قبض على نظراتي. شعرت بالإحراج وحاولت تحويل نظري.

قال هامساً: «أنت مشتاقة إلى أمك... أنت قلقة عليها. وعندما يهطل المطر يجعلك صوته تتقلبين. كنت تتحدثين عن موطنك كثيراً، لكن حديثك عنه صار أقل الآن. قلت ذات مرة: ''الخضرة شديدة جداً

هنا‘‘»... ضحك برقة آملاً... كان هذا واضحاً... في عدم إزعاجي.

قلت: «أي شيء آخر؟»

كان يدرك قصدي: «لقد ذكرت اسمي!»

تنهدت وقد شعرت بالهزيمة: «كثيراً؟»

«ما معنى ’’كثيراً‘‘ بالضبط؟»

رفعت رأسي: «أوه... لا!»

جذبني إلى صدره بلطف... على نحو طبيعي.

همس في أذني: «لا تقلقي... لو كنت أستطيع الحلم لحلمت بك... لست أخجل من هذا».

عند ذلك سمعنا صوت عجلات أمام المنزل ورأينا ضوء السيارة من النوافذ الأمامية... انصب ضوء السيارة علينا، فتجمدت بين ذراعيه.

سألني: «هل تريدين أن يعرف والدك أنني هنا؟»

حاولت التفكير بسرعة: «لست متأكدة...»

«في مرة أخرى إذن!...»

وجدت نفسي وحيدة فهمست: «إدوارد!»... سمعت شبح ضحكة... ثم لا شيء.

سمعت صوت مفتاح أبي في الباب... صاح: «بيلا!»... كان صياحه هذا يزعجني، فمن يمكن أن يكون في البيت غيري؟... لكن فجأة بدا لي الأمر غير غريب.

«أنا هنا!»... تمنيت لو أنه لا يسمع النبرة الهستيرية في صوتي. أخرجت طعامي من المايكرويف وجلست إلى الطاولة قبل أن يدخل المطبخ. بدا صوت خطواته مرتفعاً جداً بعد يومي مع إدوارد.

«هل تحضّرين لي بعضاً من هذا؟ أنا جائع جداً!»... انحنى حتى يخلع حذاءه... كان يستند بيده إلى ظهر كرسي إدوارد.

أخذت صحني معي ورحت ألتهم الطعام أثناء تحضير طعامه. أحرقت لساني. ملأت كأسين بالحليب ريثما يسخن صحنه. شربت رشفة كبيرة من كأسي حتى أطفئ نار فمي. وعندما وضعت الكأس رأيت الحليب يهتز فيها فعرفت أنني أرتجف. جلس تشارلي في كرسيه... كان التضاد بين شكله وشكل من كان يجلس في ذلك الكرسي قبله مضحكاً فعلاً.

وضعت الطعام على المائدة، فقال: «شكراً».

سألته: «كيف كان يومك؟»... خرجت الكلمات من فمي متدافعة... كنت أموت رغبة في الفرار إلى غرفتي.

«ممتاز! اصطدنا جيداً... كيف كان يومك؟ هل فعلت كل ما كنت تريدين فعله؟»

«في الحقيقة لا!... كان الجو جميلاً جداً فلم أطق البقاء في البيت». تناولت لقمة كبيرة من صحني.

قال موافقاً: «كان يوماً جميلاً حقاً!»... قلت في نفسي: بل أكثر من جميل!

أنهيت صحني. وشربت ما بقي في الكأس.

فاجأتني دقة ملاحظة تشارلي عندما قال: «هل أنت مستعجلة؟»

«نعم! أنا متعبة جداً. سآوي إلى فراشي باكراً».

لاحظ قائلاً: «تبدو عليك الإثارة»... لماذا! لماذا هو شديد الملاحظة في هذا اليوم تحديداً؟

«حقاً!»... هذا كل ما أفلحت في قوله. غسلت الصحون بسرعة ثم وضعتها على منشفة حتى تجف.

قال ممازحاً: «إنه يوم السبت... غداً عطلة!»

لم أجب بشيء.

سألني فجأة: «أليست لديك خطط الليلة؟»

«لا! لا يا أبي... أريد فقط أن أنام قليلاً».

«ألا يعجبك أحد من الأولاد في هذه البلدة؟»... كان متشككاً، لكنه كان يحاول استدراجي.

«لا! لم يلفت نظري أحد من الأولاد حتى الآن». كنت حريصة على الصدق مع تشارلي لذلك انتبهت حتى لا يؤدي هذا الصدق إلى تشديد زائد على كلمة أولاد.

«خطر ببالي مايك نيوتن... سمعتك تقولين إنه ودود معك».

«إنه مجرد صديق يا أبي».

«طيب! على كل حال أنت أفضل مما يستحقون جميعاً. انتظري حتى تذهبي إلى الجامعة»... هذا حلم كل أب... أن تخرج ابنته من البيت قبل أن يبدأ مفعول الهرمونات!

قلت موافقة: «هذه تبدو لي فكرة جيدة!»... توجهت لأصعد إلى غرفتي.

نادى من خلفي: «تصحبين على خير يا حبيبتي». لا شك في أنه سيصغي بانتباه طيلة المساء منتظراً أن أحاول التسلل خارج المنزل.

«أراك في الصباح يا أبي»... بل أراك متسللاً إلى غرفتي عند منتصف الليل حتى تتفقدني!

أثناء صعودي حاولت جعل خطواتي تبدو بطيئة متعبة. أغلقت باب غرفتي بصوت مرتفع حتى يسمعه ثم سرت إلى النافذة على أطراف أصابعي. فتحتها وانحنيت في ظلمة الليل. جالت عيناي في الظلمة وبين ظلال الأشجار الكثيفة.

همست وأنا أشعر أنني حمقاء تماماً: «إدوارد!»

جاءني رده الضاحك الهادئ من خلفي: «ماذا؟»

ذعرت... فوضعت يدي على حنجرتي لشدة المفاجأة... كان مستلقياً على سريري بابتسامة كبيرة. كانت يداه خلف رأسه وقدماه بارزتان من حافة السرير... كان صورة للاسترخاء.

«أوه!»... شهقت وسقطت على الأرض.

«أنا آسف!»... ضغط على شفتيه بشدة محاولاً إخفاء ابتسامته.

«أعطني دقيقة فقط حتى يعود قلبي إلى العمل».

جلس ببطء حتى لا يجفلني من جديد. ثم انحنى ومد ذراعيه الطويلتين حتى يوقفني. أمسك بأعلى ساعدي كما يمسك رضيعاً... أجلسني على السرير... بجانبه.

«أجلسي بجانبي» قال هذا ووضع يده الباردة فوق يدي... «كيف قلبك الآن؟»

«قل لي أنت... أعرف أنك تستطيع سماعه أكثر مني».

شعرت بضحكته المكبوتة تهز سريري.

جلسنا لحظة صامتين... كنا نستمع إلى دقات قلبي تبطئ وقعها شيئاً بعد شيء. فكرت في وجود إدوارد في غرفتي مع وجود والدي في المنزل.

سألته: «هل تسمح لي بدقيقة حتى أستعيد هيئتي البشرية؟»

«بالتأكيد!»... أشار لي بيده...

قلت محاولة الظهور بمظهر الغضب: «ابق هنا!»

«حاضر سيدتي!»... اتخذ مظهر تمثال جالس على حافة السرير.

نهضت فأخذت بيجامتي عن الأرض وأخذت حقيبة أدوات الزينة من على الطاولة. تركت الضوء مشتعلاً عندما خرجت من الغرفة وأغلقت الباب.

سمعت صوت التلفزيون صاعداً من الأسفل. صفقت باب الحمام بصوت مرتفع حتى لا يأتي تشارلي فيزعجني بتفقده.

تعمدت الاستعجال. نظفت أسناني بعنف... حاولت أن أنظفها بسرعة ودقة فأزيل جميع آثار اللازانيا. لكنني لم أستطع استعجال الماء الساخن... راح الماء المنصبّ على جسدي يحل عضلات ظهري المتيبسة ويهدئ نبض قلبي. جعلتني رائحة صابوني المألوفة أشعر كأنني كنت الشخص نفسه الذي كنته هذا الصباح. حاولت عدم التفكير في إدوارد الجالس في غرفتي منتظراً... لأن تفكيري فيه سوف يرغمني على العودة إلى تهدئة نفسي من جديد. أخيراً... لم أعد أستطيع التأخر أكثر مما فعلت. أغلقت صنبور الماء ونشفت جسمي مستعجلة من جديد. ارتديت قميص بيجامتي القديم وبنطلونها الرمادي. فات الوقت على الأسف لأنني لم أجلب بيجامتي الحريرية التي جاءتني من أمي قبل عامين. مازالت تلك البيجامة كما هي في أحد أدراجي في منزلها.

دعكت شعري بالمنشفة من جديد ثم مشطته بالفرشاة سريعاً. علقت المنشفة وقذفت الفرشاة ومعجون الأسنان في الحقيبة. ثم اندفعت هابطة إلى الأسفل حتى يرى تشارلي أنني لبست بيجامتي واستحممت وأن شعري مبتل.

«تصبح على خير يا أبي».

«تصبحين على خير يا بيلا». بدا أن ظهوري فاجأه. لعل ذلك يجعله لا يتفقدني الليلة.

صعدت قافزة كل درجتين معاً.. مع محاولة عدم إصدار صوت.. ثم طرت إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفي بإحكام.

لم يتحرك إدوارد قيد أنملة... كان مثل تمثال لأدونيس فوق لحافي الباهت. ابتسمت فتحركت شفتاه... دبت الحياة في التمثال.

راحت عيناه تتفحصنني... شعري المبتل... وقميصي البالي. رفع حاجبه وقال: «جميل!»

كشرت.

«لا! إنه جميل عليك!»

همست: «شكراً». ثم ذهبت لأجلس بجانبه متربعة فوق السرير. نظرت إلى الخطوط في الأرضية الخشبية.

«لماذا فعلت ذلك كله؟»

«يظن تشارلي أنني سوف أتسلل خارج المنزل».

«أوه!»... راح يفكر في ذلك... «لماذا؟»... وكأنه لا يستطيع معرفة ما في عقل تشارلي أكثر مني!

«من الواضح أن بعض الإثارة الزائدة كانت تظهر علي».

أمسك بذقني ورفعها متفحصاً وجهي: «الحقيقة أنك دافئة جداً».

قرب وجهه ببطء من وجهي واضعاً خده البارد على جلدي... بقيت هادئة تماماً.

همس: «همممم...»

كانت صياغة سؤال متسق صعبة جداً في حين كان يلمسني. أمضيت دقيقة كاملة أحاول التركيز قبل أن أبدأ: «يبدو الآن أن قربك مني صار أسهل بالنسبة لك!»

تمتم: «هل يبدو لك الأمر كذلك؟»... انزلق أنفه حتى زاوية فكي. أحسست بيده، أخف من جناح فراشة، تزيح شعري الرطب إلى الخلف حتى تتمكن شفتاه من لمس الفراغ تحت أذني.

قلت محاولة التقاط أنفاسي: «أسهل! أسهل كثيراً».

«همممم».

بدأت من جديد: «لذلك كنت أتساءل...» لكن أصابعه كانت تمر فوق ترقوتي ففقدت تسلسل أفكاري.

همس: «ماذا؟»

«ما سبب ذلك؟»... اهتز صوتي فشعرت بالحرج... «برأيك؟»

أحسست تذبذب أنفاسه على رقبتي عندما ضحك قائلاً: «إنها مقاومة ذهنية».

انتزعت نفسي... تجمد عندما تحركت... لم أعد أسمع صوت تنفسه. رحنا نتبادل نظرات حذرة عدة لحظات. ثم ظهر على وجهه تعبير حيرة: «هل قلت شيئاً خاطئاً؟»

«لا... بالعكس تماماً. أنت تدفعني إلى الجنون!»

فكر في ذلك لحظة ثم بدا عليه السرور وقال: «حقاً!» أضاءت وجهه ابتسامة انتصار.

سألته ساخرة: «هل تريد أن أصفق لك؟»... فكشر رداً علي.

قال موضحاً: «إنها مفاجأة سارة بالنسبة لي. في المئة سنة الأخيرة تقريباً...» صار صوته مازحاً... «لم أتخيل أبداً أي شيء مثل هذا. لم أظن أنني يمكن أن أجد شخصاً أريد أن أكون معه... بشكل مختلف عن وجودي مع إخوتي وأخواتي. إنها مفاجأة سارة أن أجد، رغم أن الأمر جديد عليّ تماماً، أنني بارع في هذا... في أن أكون معك...»

قلت: «أنت بارع في كل شيء».

ابتسم متغاضياً عما قلت... ورحنا نضحك همساً.

قلت ملحة: «لكن كيف يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة؟ ظهر اليوم كنت...»

تنهد: «ليس الأمر سهلاً! لكنني... اليوم ظهراً... كنت غير عاقد العزم... آسف لهذا... كان سلوكي لا يغتفر».

قلت معترضة: «لم يكن سلوكاً لا يغتفر!»

ابتسم: «شكراً!»... تابع كلامه مطرقاً برأسه: «هل تفهمين؟ لم أكن واثقاً من أنني قوي إلى الحد الكافي...» أخذ يدي وضغطها على وجهه... «عندما كانت تلوح أمامي إمكانية أن أُهزم...» شم رسغي...

«كنت في شك من أمري. لكنني قررت أنني قوي إلى الحد الكافي وأن لا احتمال أبداً لأن... لأن أستطيع...»

لم أره من قبل يكافح هكذا حتى يعثر على الكلمات... كان هذا... بشرياً جداً.

«إذن، لم تعد هذه الإمكانية موجودة الآن!»

«إنها المقاومة الذهنية»... كرر ذلك مبتسماً... كانت أسنانه أكثر التماعاً في الظلمة.

قلت: «واو! كان ذلك سهلاً».

ألقى برأسه إلى الخلف وضحك ضحكة هادئة كالهمس... لكنها مفعمة حيوية.

صحح جملتي وهو يلمس أنفي برأس إصبعه: «كان سهلاً بالنسبة لك».

ثم صار وجهه جاداً تماماً. همس بصوت متألم: «أنا أحاول!... إذا وجدت الأمر... صعباً جداً فأنا واثق من أنني سأكون قادراً على الفراق».

عبست... لم يعجبني كلامه عن الفراق.

واصل كلامه: «سيكون الأمر أكثر صعوبة غداً. رائحتك تملأ رأسي طيلة اليوم... وقد تعودت عليها بشكل مدهش. أما إذا ابتعدت عنك أي فترة طويلة فسوف يكون علي أن أبدأ من جديد... ليس من جديد تماماً... كما أظن».

أجبت دون أن أستطيع إخفاء التوق في صوتي: «إذن، لا تبتعد عني!»

«هذا يناسبني»... ارتاح صوته وبدت فيه ابتسامة... «أحضري القيود... أنا سجينك!»... لكن كفيه الكبيرتين أحاطتا بمعصميّ مثل

القيود أثناء كلامه. ضحك ضحكته الموسيقية الهادئة. لقد ضحك اليوم أكثر مما ضحك طيلة الوقت الذي أمضيته معه من قبل.

قلت: «تبدو أكثر... تفاؤلاً من المعتاد! لم أرك هكذا قبل اليوم».

ابتسم: «أليس هذا ما ننتظره؟ وهج الحب الأول... وكل ذلك... شيء لا يصدق... كم يختلف أمر القراءة عنه أو رؤيته في الأفلام عن تجربته فعلاً؟»

قلت موافقة: «إنه اختلاف كبير... إنه أكثر قوة مما تخيلت».

«مثلاً»... صارت كلماته الآن تنساب بسرعة وكان علي أن أركز جيداً حتى ألتقطها كلها... «مشاعر الغيرة. قرأت عنها مئة ألف مرة، ورأيت ممثلين يؤدونها في ألف مسرحية وفيلم. ظننت أنني أفهم هذه المشاعر بوضوح تام. لكنها صدمتني...» كشر قليلاً... «هل تذكرين يوم طلب منك مايك الذهاب معه إلى الحفلة؟»

أومأت برأسي، لكنني كنت أتذكر ذلك اليوم لسبب مختلف: «يوم عدت تتكلم معي من جديد!»

«فوجئت بمشاعر الكره والغضب التي جاءتني... لم أدركها في البداية. أزعجني أكثر من أي وقت مضى أنني ما كنت قادراً على معرفة أفكارك وفهم سبب رفضك. هل كان ذلك لأن جيسيكا صديقتك فقط؟ هل لديك أحد آخر؟ كنت أعلم أن ليس من حقي أن أهتم بالأمر... كيفما كان. حاولت ألا أهتم». ابتسم وقال: «ثم... بدأ الأمر يتضح».

نظرت إليه عابسة في الظلام.

«انتظرت... كنت نافذ الصبر إلى حد غير معقول حتى أسمع ما سوف تقولينه لهم... حتى أراقب تعابير وجهك. لم أستطع إنكار الارتياح الذي شعرت به عندما رأيت الانزعاج على وجهك. لكنني لم أكن واثقاً... كانت تلك أول ليلة أجيء فيها إلى هنا. بقيت أصارع طيلة الليل، وأنا أراقبك في نومك، أصارع التناقض بين ما كنت أعرف أنه

صحيح وأخلاقيّ... وبين ما كنت أريده. كنت أعرف أنني إذا واصلت تجاهلك كما ينبغي، أو إذا رحلت عدة سنوات ريثما تذهبين من هنا، فسوف تقولين ''نعم'' لمايك ذات يوم... أو لشخص آخر مثل مايك... وهذا جعلني غاضباً»... تابع همساً: «عند ذلك، نطقت اسمي في نومك. تكلمت بصوت واضح جداً فظننت أنك مستيقظة. لكنك رحت تتقلبين ونطقت اسمي مرة ثانية ثم تنهدت. اجتاحني شعور مدوخ... مذهل. عرفت أنني لم أعد أستطيع تجاهلك أكثر من ذلك».

ظل صامتاً عدة دقائق... لعله يستمع إلى نبضات قلبي التي اضطربت فجأة.

«لكن الغيرة... إنها شيء غريب. إنها أقوى بكثير مما تخيلت. وهي شيء غير عقلاني أيضاً! الآن تماماً... عندما سألك تشارلي عن ذلك الملعون مايك نيوتن...» هز رأسه بغضب.

قلت بصوت كالأنين: «كان يجب أن أعرف أنك تصغي».

«طبعاً!»

«هل جعلك ذلك تشعر بالغيرة حقاً؟»

«أنا جديد في هذا... أنت تعيدين إحياء الكائن البشري في داخلي. يبدو كل شيء شديد التأثير لأنه جديد».

قلت معابثة: «حتى يزعجك ذلك... بعد أن سمعتك تتحدث عن روزالي... روزالي، تجسيد الجمال الخالص... بعد أن سمعتك تقول ما الذي تعنيه روزالي بالنسبة لك... بوجود إيميت أو من غير وجوده... كيف أستطيع المنافسة...؟»

التمعت أسنانه في الظلام: «لا توجد منافسة!»... شد يدي حول ظهره واحتضنني إلى صدره. ظللت هادئة قدر ما استطعت... بل رحت أتنفس بحذر. غمغمت في صدره البارد: «أعرف أنه لا توجد منافسة... هذه هي المشكلة!»

«روزالي جميلة طبعاً. . بطريقتها. لكن حتى إذا لم تكن مثل أختي، وحتى لو لم يكن إيميت يعني لها شيئاً، فلن تكون لها عشر جاذبيتك بالنسبة لي. . . ولا حتى جزء من مئة من جاذبيتك». كان جاداً الآن. . . وكان يفكر في كلماته. . . «ظللت نحو تسعين سنة أمشي بين بني جنسي. . . وبني جنسكم. . . كنت أظن طيلة الوقت أنني مكتفٍ بنفسي. . . لم أدرك أنني كنت أبحث. لكنني لم أجد أحداً لأنك لم تكوني قد ولدت بعد».

همست. . . مازال وجهي مستقراً على صدره. . . ومازلت أصغي إلى صوت أنفاسه: «هذا ليس عدلاً. . . لم يكن علي أن أنتظر أبداً. . . لماذا صادفتك بهذه السهولة؟»

وافقني بمرح: «أنت محقة!. . . كان علي بالتأكيد أن أجعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لك». حرر إحدى يديه. . . لم يترك معصمي إلا ليمسكه بحرص مع المعصم الآخر في يده الثانية. ثم راح بيده الحرة يمسد شعري برقة من قمة رأسي حتى خصري. . . «ليس عليك إلا أن تغامري بحياتك في كل ثانية تمضينها معي. . . هذا ليس بالشيء الكثير! ليس عليك إلا أن تديري ظهرك لطبيعتك. . . لبشريتك. . . ما قيمة هذا؟»

«قليل جداً!. . . لا أشعر أنني حرمت من أي شيء».

«لم تشعري بعد!». . . امتلأ صوته فجأة بألم قديم.

حاولت التملص من يديه حتى أرى وجهه. لكن يده كانت تمسك معصمي بإحكام.

«ماذا. . .» بدأت أسأل لكنني شعرت تنبهاً في جسده. تجمدت. . . لكنه أطلق يدي فجأة. . . واختفى. كدت أقع على وجهي.

همس: «استلقي». . . لم أعرف من أين جاءني صوته في الظلام.

اندسست تحت لحافي وتكورت على جانبي كما أنام عادة. سمعت

صوت فتح الباب. لقد كان تشارلي ينظر ليتأكد من وجودي. رحت أتنفس بانتظام... بشكل مبالغ فيه.

مرت دقيقة طويلة. كنت أصغي غير واثقة من سماع صوت إغلاق الباب. ثم شعرت بذراع إدوارد الباردة حولي... تحت الغطاء... وأحسست بشفتيه على أذني.

«أنت ممثلة رهيبة... إن لك مستقبلاً في التمثيل».

همست: «وما أهمية هذا!»... كان قلبي يتحطم في صدري.

راح يدندن أغنية لم أعرفها... بدت مثل هدهدة الطفل حتى ينام... توقف قليلاً: «هل أغني لك حتى تنامي».

ضحكت: «نعم!... وهل تظن أنني أستطيع النوم وأنت هنا!»

ذكرني: «أنت تفعلين ذلك كل يوم».

أجبت ببرود شديد: «لم أكن أعرف أنك هنا».

«إذا لم تكوني تريدين النوم...» قال هذا كمن يقدم اقتراحاً... كان يتجاهل برودة نبرتي... تقطع أنفاسي...

«إذا لم أكن أريد النوم...؟»

ضحك: «فما الذي تريدين فعله إذن؟»

لم أستطع الإجابة في البدء... قلت أخيراً: «لست واثقة!»

«أخبريني عندما تقررين».

شعرت بأنفاسه الباردة على رقبتي وأحسست بأنفه ينزلق عند فكي... مستنشقاً.

«ظننت أنك تعودت!»

همس: «إن مقاومة شرب النبيذ لا تعني عدم استمتاع المرء بالوليمة... لك رائحة مثل رائحة الزهور البرية... مثل الخزامى أو الفريزيا... إنها تسيل اللعاب!»

«نعم! يكون يوماً غريباً ذلك اليوم الذي لا أجد فيه من يقول لي إن رائحتي تجعله يشتهي أكلي!»

ضحك... ثم تنهد.

قلت له: «قررت ما أريد فعله... أريد أن أعرف المزيد عنك».

«اسألي ما تريدين».

رحت أبحث عن السؤال الأكثر أهمية بين أسئلتي: «لماذا تفعل ذلك؟ مازلت لا أفهم كيف تستطيع أن تبذل كل هذا الجهد حتى تقاوم... طبيعتك. لا تسئ فهمي... أنا سعيدة طبعاً لأنك تفعل ذلك... لكنني لا أفهم ما الذي يجعلك تفعله أصلاً!»

تردد ثم أجاب: «سؤال جيد! لست أول من يطرحه. إن الآخرين... أكثرية بني جنسنا ممن هم راضون بنصيبنا يستغربون أيضاً كيفية عيش أسرتنا. لكن كوننا... بهذا الشكل... لا يعني أننا لا نستطيع أن نختار الارتقاء فوق حدود قدرنا الذي لم يرده أحد منا... أن نقهر هذه الحدود ونحاول حفظ ما نستطيع حفظه من الجوهر البشري فينا... مهما يكن».

رقدت دون حركة... استحوذ علي الصمت.

همس بعد دقائق قليلة: «هل نمت؟»

«لا!»

«هل هذا كل ما تريدين السؤال عنه؟»

فتحت عيني: «ليس تماماً!»

«ما الذي تريدين معرفته أيضاً؟»

«لماذا تستطيع قراءة أفكار الآخرين... لماذا تستطيع ذلك وحدك فقط؟ ولماذا تستطيع أليس رؤية المستقبل... لماذا يحدث هذا؟»

أحسست أنه ابتسم في الظلمة: «لسنا نعرف حقاً!... إن لدى

كارلايل نظرية... يعتقد أن كلاً منا جلب معه إلى حياته الحالية أقوى ما كان فيه من السمات البشرية... ثم تعززت الآن... مثلما تعززت أدمغتنا أو حواسنا. يظن أنني كنت شديد الحساسية لأفكار من هم حولي. ويظن أن أليس كان لديها حدس ممتاز... حيثما كانت».

«وما الذي جلبه هو معه من حياته السابقة؟ وما الذي جلبه الآخرون؟»

«جلب كارلايل إحساسه بالآخرين. وجلبت إيزمي قدرتها على الحب العميق. جلب إيميت قوته الجسدية. وجلبت روزالي... إصرارها الشديد على آرائها... يباسة رأسها». قال هذا وضحك... «أما جاسبر فهو مثير للاهتمام. كان شديد الجاذبية في حياته الأولى. كان قادراً على التأثير في الناس من حوله حتى يروا الأمور كما يراها. والآن هو قادر على التحكم بمشاعر من يحيطون به... يستطيع مثلاً تهدئة غرفة ملأى بأشخاص غاضبين أو إثارة حشد خامل بليد. إنها موهبة فريدة».

رحت أفكر في هذه المستحيلات التي يصفها محاولة استيعابها. انتظَرَني بصبر.

«وأين بدأ ذلك؟ أقصد... كارلايل قام بتغييرك... لابد أن أحداً قام بتغييره هو أيضاً... وهكذا دواليك...»

«حسناً! من أين أتيت؟ التطور والارتقاء؟ أم الخلق؟ ألا يمكن أننا نشأنا وتطورنا مثل غيرنا من الأجناس... مفترسين وطرائد؟ أما إذا كنت ترين أن هذا العالم ما كان ليوجد من تلقاء ذاته... هذا ما يصعب علي قبوله أيضاً... فهل من الصعب الاعتقاد بأن القوة نفسها التي خلقت سمكة الملاك الرقيقة وخلقت القروش... خلقت الفقمة الصغيرة والحوت القاتل الذي يلتهمها... يمكن أن تخلق جنسنا وجنسكم معاً؟»

«دعني أفهم هذا جيداً... أنا هي الفقمة الصغيرة، صحيح؟»

«صحيح!» شعرت بشيء يلمس شعري... هل هي شفتاه؟

أردت أن أستدير نحوه حتى أرى إن كانت شفتاه على شعري. لكن كان علي أن أتصرف بشكل صحيح. لم أرد أن أجعل الأمر أكثر صعوبة عليه.

سألني مقاطعاً جملتي الصامتة: «هل أنت جاهزة للنوم؟ أم أن لديك أسئلة أخرى؟»

«مليون سؤال... مليونا سؤال... فقط!»

«لدينا يوم الغد... واليوم الذي يليه... والذي يليه...» ابتسمت مبتهجة بتلك الفكرة.

«هل أنت واثق من أنك لن تختفي في الصباح؟»... أردت أن أتأكد من ذلك... «فأنت كائن أسطوري رغم كل شيء».

قال بصوت واعد: «لن أتركك».

«إذن، لدي سؤال آخر لهذه الليلة...» قلت هذا واحمرّ وجهي... كانت الظلمة في صالحي لكنني عرفت أنه أحس حرارة مفاجئة تحت جلدي.

«ما هو؟»

«لا! إنس الأمر... لقد غيرت رأيي».

«بيلا! تستطيعين سؤالي أي شيء».

لم أجبه فتنهد: «أظن دائماً أن انزعاجي من عدم قدرتي على سماع أفكارك سوف يتراجع. لكنه يزداد ويزداد».

«يسعدني أنك لا تستطيع قراءة أفكاري. يكفيني استماعك إلى كلامي أثناء نومي».

«أرجوك!»... كان صوته شديد الإقناع مستحيل المقاومة تقريباً... لكنني هززت رأسي بالرفض.

قال مهدداً: «إذا لم تقولي لي فسوف أفترض أن الأمر أسوأ مما هو في الواقع... أرجوك»... قالها من جديد بصوت متوسل.

«طيب!»... بدأت كلامي سعيدة بأنه لا يستطيع رؤية وجهي.

«ماذا؟»

«قلت إن روزالي وإيميت سوف يتزوجان قريباً... هل هو زواج... كما لدى البشر؟»

ضحك ضحكة صادقة... لقد فهمني: «هل هذا قصدك؟»

تلعثمت غير قادرة على الإجابة.

قال: «نعم! أعتقد أنه نفس الشيء. قلت لك إن لدينا معظم رغبات البشر... لكنها محجوبة خلف رغبات أقوى منها».

«أوه!»... هذا كل ما استطعت قوله.

«هل كانت لديك غاية خلف فضولك؟»

«كنت أتساءل... عنا... أنا وأنت... ذات يوم...»

انقلب جاداً على الفور... عرفت ذلك من السكون المفاجئ في جسده. تجمدت في مكاني أيضاً... كان رد فعلي تلقائياً.

«لا أظن أن ذلك... ذلك... سوف يكون ممكناً بالنسبة لنا».

«لأن الأمر سيكون أصعب عليك بكثير إذا كنت... قريبة منك... إلى تلك الدرجة؟»

«هذه مشكلة طبعاً. لكنها ليست المشكلة التي كنت أقصدها. المشكلة هي أنك طرية جداً... هشة جداً. علي أن أنتبه إلى حركاتي في كل لحظة أثناء وجودنا معاً حتى لا أسبب لك الأذى. يمكن أن أقتلك بكل سهولة يا بيلا... دون قصد». صار صوته همساً لا يكاد يسمع. وضع يده الباردة على خدي... «إذا تعجلت أكثر مما يجب... إذا لم أنتبه انتباهاً كافياً مدة ثانية واحدة... يمكن أن أمد يدي قاصداً

لمس وجهك فأحطم رأسك دون أن أشعر. لا تعرفين مدى هشاشتك، إنها لا تصدق. لا أستطيع أبداً... أبداً... أن أتحمل فقدان أي شكل من أشكال السيطرة على نفسي عندما أكون معك».

انتظر إجابتي... وبدا عليه القلق عندما لم يسمعها. فسألني: «هل أخفتك؟»

انتظرت دقيقة قبل أن أجيب... حتى تخرج كلماتي صادقة: «لا! أنا بخير».

بدا لحظة كأنه يفكر في الأمر: «لكن الفضول أصابني الآن»... قال هذا بصوت مرح من جديد... «هل سبق لك...؟» صمت بطريقة موحية.

احمر وجهي: «طبعاً لا! قلت لك إنني لم أشعر هكذا مع أي إنسان من قبل... ولا حتى بشيء يشبه هذا الشعور».

«أعرف... لأنني أسمع أفكار الآخرين... أعرف أن الحب والشهوة لا يسيران يداً بيد على الدوام».

«إنهما هكذا عندي... إذا كانا موجودين عندي أصلاً!»

بدا عليه الرضا: «هذا جيد!... أنا مثلك إذن».

قلت: «هل غرائزك البشرية...»... انتظر تتمة السؤال... «هل تجدني جذابة... أقصد بتلك الطريقة...؟»

ضحك وشد شعري بلطف: «قد لا أكون بشرياً... لكنني رجل!»

تثاءبت عفوياً. فقال بإصرار: «أجبت على أسئلتك. عليك النوم الآن».

«لست واثقة أنني أستطيع النوم».

«هل تريدين أن أذهب؟»

قلت بصوت أعلى مما يجب بكثير: «لا!»

ضحك ثم راح يدندن تلك الأغنية الغريبة نفسها... كان صوته مثل صوت ملاك... عذباً في أذني.

كنت أكثر تعباً مما ظننت... كنت مرهقة من ذلك اليوم الطويل المليء بالتوتر الذهني والعاطفي... كنت مرهقة على نحو لم أعرفه من قبل فغفوت بين ذراعيه الباردتين.

15

أسرة كولن

أيقظني أخيراً الضوء المكتوم لنهار غائم جديد. بقيت راقدة واضعة ذراعي فوق عينيّ... كنت سكرانة... دائخة. حاول النفاذ إلى وعيي شيء... حلم يحاول وعيي أن أتذكره. غمغمت وانقلبت إلى جانبي أملاً في مزيد من النوم. ثم عاد يوم أمس كله متدفقاً إلى وعيي.

«أوه!»... انتصبت جالسة بسرعة جَعَلَتْ رأسي يدور... «يبدو شعرك مثل كومة من القش... لكنني أحبه هكذا»... جاءني صوته من الكرسي الهزاز في زاوية الغرفة. هتفت سعيدة: «إدوارد! بقيت هنا!»... ومن غير تفكير ألقيت نفسي عبر الغرفة إلى أحضانه. وعندما أدرك عقلي حركتي تجمدت مصدومة بحماستي المنفلتة. حدقت فيه خائفة من أن أكون قد تجاوزت حدي.

لكنه ضحك.

قال وقد أخذته المفاجأة: «طبعاً بقيت!»... لكنه بدا سعيداً بحركتي. راحت يداه تمسدان ظهري.

وضعت رأسي بحذر على كتفه واستنشقت رائحة جلده.

«كنت واثقة من أنه مجرد حلم».

قال معابثاً: «لستِ على هذه الدرجة من الإبداع!»

«تشارلي!»... تذكرت فجأة فقفزت من غير تفكير واندفعت إلى الباب.

«لقد ذهب منذ ساعة... بعد أن أعاد وصل البطارية في سيارتك... علي الاعتراف بأن أملي فيك قد خاب... أهذا كل ما يتطلبه منعك من الذهاب إن كنت تريدين الذهاب فعلاً؟»

وقفت أفكر... رغبت كثيراً في العودة إليه... لكنني خفت أن تكون رائحة أنفاسي كريهة في الصباح.

قال: «لا أعتقد أنك تكونين مرتبكة بهذا الشكل كل صباح». فتح ذراعيه حتى أعود إليهما... كانت دعوة لا تقاوم.

قلت: «أنا بحاجة إلى دقيقة بشرية فقط!»

«سأنتظر».

انطلقت إلى الحمام... لم أكن أدرك مشاعري... لم أعرف نفسي، لا من الداخل ولا من الخارج. كان الوجه الذي رأيته في المرآة غريباً تماماً... عينان متألقتان... ووجنتان محمرتان. بعد تنظيف أسناني حاولت تمشيط شعري المشعث. غسلت وجهي بالماء البارد وحاولت التنفس بشكل طبيعي... لم ألاحظ أي نجاح. عدت إلى غرفتي نصف راكضة.

بدا وجوده فيها عجيبة من العجائب... كانت يداه ما تزالان ممدودتين... تنتظرانني. امتدتا صوبي فخفق قلبي دون انتظام.

قال: «أهلاً بعودتك»... وأخذني بين ذراعيه.

راح يهز الكرسي... لاحظت أن ثيابه تغيرت وأن شعره مسرّح.

قلت بصوت متهم: «هل ذهبت؟»... ولمست ياقة قميصه الجديد.

«لم أكن أستطيع الذهاب بالثياب التي جئت فيها... ماذا سيقول الجيران؟»

مططت شفتيّ استياء.

«كنتِ غارقة في نوم عميق جداً... لم أفوّت شيئاً»... لمعت عيناه... «لقد تكلمت قبل ذلك».

أننت: «ماذا سمعت مني؟»

غدت عيناه الذهبيتان رقيقتين جداً: «قلت إنك تحبينني».

قلت أذكّره: «أنت تعرف هذا من قبل!»... غمرت رأسي فيه.

«لكن سماعه من فمك أمر لطيف رغم ذلك».

خبأت وجهي في كتفه وهمست: «أحبك».

أجابني ببساطة: «أنت حياتي الآن».

ما كان لدينا ما نضيفه في تلك اللحظة. راح يهز الكرسي في حين غدت الغرفة أكثر نوراً. قال أخيراً: «إنه وقت الإفطار»... كنت واثقة أنه قال ذلك حتى يثبت لي أنه يتذكر جميع نقاط ضعفي البشرية.

لذلك أطبقت على رقبتي بيديّ الاثنتين وحدقت فيه بعينين متسعتين... ظهرت الدهشة على وجهه.

ابتسمت وقلت: «أنا أمزح... ألم تقل إنني لا أستطيع التمثيل».

عبس مشمئزاً: «هذا ليس مضحكاً».

«بل هو مضحك جداً... أنت تعرف ذلك». لكنني رحت أدرس عينيه الذهبيتين بدقة حتى أرى إن كان سامحني... نعم! لقد سامحني.

سألني: «هل أستطيع تصحيح عبارتي؟ إنه وقت الإفطار عند البشر».

«لا بأس! لا بأس!»

رماني فوق كتفه... بلطف، لكن بسرعة قطعت أنفاسي. رحت احتج حين سار بي هابطاً إلى المطبخ... لكن تجاهل احتجاجي. أجلسني على الكرسي.

بدا المطبخ متألقاً مشرقاً سعيداً كأنه تأثر بمزاجي. سألته ضاحكة:

اذا تريد أن تفطر؟» فاجأه ذلك دقيقة كاملة.

تغضن حاجبه المرمري: «أممم! لست واثقاً. ماذا تحبين؟»

ابتسمت وقفزت نحوه: «لا بأس! أنا أدافع عن نفسي جيداً. راقبني اصطاد».

أخرجت صحناً عميقاً وعلبة رقائق الحبوب. كنت أشعر بمتابعة عينيه حين صببت الحليب وأمسكت الملعقة. وضعت طعامي على الطاولة... ثم توقفت... «هل تريد أن أحضر لك شيئاً؟»... سألته لأنني لم أرد أن أكون غير لبقة.

نظر إلي: «بيلا! كلي فقط».

جلست إلى الطاولة... تناولت لقمة وأنا أنظر إليه. كان يحدق فيّ متابعاً كل حركة أقوم بها... جعلني ذلك شديدة الانتباه لنفسي. ابتلعت لقمتي حتى أتكلم... حتى أشتت انتباهه.

سألته: «ماذا في برنامجنا اليوم؟»

«هممم!...» رأيته يحضر إجابته بعناية... «ما رأيك في مقابلة أسرتي؟»

شهقت.

«هل أنت خائفة الآن؟»... بدا الأمل في صوته.

اعترفت: «نعم!»... كيف أنكر هذا... إنه يستطيع رؤيته في عيني.

ابتسم: «لا تقلقي... سأحميك».

أوضحت له: «لست خائفة منهم. أنا خائفة... ألا... يحبونني. ألن يفاجئهم أن تحضر معك شخصاً... مثلي... إلى البيت... لمقابلتهم؟ هل يعرفون أنني أعرف أشياء عنهم؟»

«أوه! إنهم يعرفون كل شيء. لقد تراهنوا يوم أمس...» ابتسم

لكن صوته خرج من فمه جافاً... «تراهنوا على ما إذا كنت سأعيدك إلى البيت... لا أتخيل ما الذي يجعل أحداً منهم يفكر في المراهنة ضد حدس أليس. ليست لدينا أسرار في بيتنا على أي حال. ليس هذا مجدياً في وجود قدرتي على قراءة الأفكار وقدرة أليس على معرفة المستقبل».

«وبوجود جاسبر الذي يجبرك على البوح بما في داخلك... لا تنس هذا».

ابتسم مستحسناً: «لقد كنت منتبهة تماماً!»

قلت مكشرة: «أنتبه أحياناً... هل رأت أليس عودتي؟»

كان رد فعله غريباً: «شيء من هذا!»... قالها بصوت غير مرتاح واستدار جانباً حتى لا أرى عينيه. رحت أنظر إليه بفضول.

سألني مستديراً إليّ فجأة ناظراً إلى طعامي نظرة معابثة: «أيعجبك هذا الطعام؟ صدقاً... لا يبدو مثيراً للشهية».

«لا بأس به! إنه ليس مزعجاً مثلـ...» هكذا تمتمت متجاهلة نظرته. مازلت أستغرب استجابته بتلك الطريقة عندما ذكرت أليس. تابعت طعامي غارقة في التفكير.

وقف في وسط المطبخ... تمثال أدونيس من جديد... كان يحدق عبر النافذة الخلفية مشغول البال.

عادت عيناه إليّ وابتسم لي ابتسامته التي تقطع الأنفاس: «عليك أيضاً أن تقدميني إلى والدك!»

ذكرته بقولي: «إنه يعرفك من قبل».

«أقصد أن تعرفيني عليه بصفتي صديقك».

نظرت إليه بريبة: «لماذا؟»

سألني ببراءة: «أليست العادات هكذا؟»

«لا أعرف!»... اعترفت بهذا لأن خبرتي في هذا المجال لم تكن

كبيرة. إضافة إلى أن القواعد العادية لا تسري في حالتنا... «هذا ليس ضرورياً. لا أتوقع منك أن... أقصد... لست مضطراً إلى التظاهر فيما يخصني».

كانت ابتسامته صبورة: «لست أتظاهر بشيء».

رحت أجمع بقايا شرائح الحبوب عن حواف صحني وأمضغ لقمتي الأخيرة.

قال ملحاً: «هل ستخبرين تشارلي أنني صديقك أم ماذا؟»

«وهل أنت صديقي فعلاً؟»... كتمت توقي الداخلي إلى فكرة لقاء إدوارد وتشارلي وكلمة «صديق»... في الغرفة نفسها... في الوقت نفسه.

قال: «هذا استخدام غريب لكلمة صديق».

«ثم إنك أكثر من صديق... في الواقع»... اعترفت بهذا ناظرة إلى الطاولة.

«طيب! لا أعرف إذا كان علينا إخباره بجميع التفاصيل». مد يده فوق الطاولة ورفع ذقني بإصبع بارد لطيف.. «لكنه سيطلب تفسيراً لوجودي هنا بهذه الكثرة... لا أريد أن يصدر رئيس الشرطة أمراً يقضي بمنعي من المجيء».

سألته وقد داهمني قلق مفاجئ: «هل ستأتي؟... هل ستكون هنا فعلاً».

قال بصوت مطمئن: «سأكون هنا قدر ما تريدين».

قلت محذرة: «أريدك دائماً... إلى الأبد».

سار حول الطاولة ببطء وتوقف قبل خطوتين مني. مد يده ولمس خدي برأس إصبعه... لم أستطع سبر غور تعابيره.

سألته: «هل يحزنك هذا؟»

لم يجبني بل حدق في عيني زمناً لا نهاية له... سألني آخر الأمر: «هل انتهيت من طعامك؟»

قفزت واقفة: «نعم!»

«اصعدي والبسي ثيابك... سأنتظرك هنا».

لم أعرف ماذا ألبس... هل من كتاب يوضح كيف يجب أن تلبس الفتاة عندما يأخذها حبيبها مصاص الدماء إلى منزله حتى تقابل أسرة من مصاصي الدماء. أراحني تكرار تلك الكلمة في ذهني. كنت أعرف أنني أتجنبها قصداً. انتهى بي الأمر بارتداء تنورتي الوحيدة... تنورة طويلة كاكية اللون، لكنها غير متكلفة. لبست فوقها قميصي الأزرق الداكن الذي عبّر عن إعجابه به ذات مرة. أنبأتني نظرة سريعة إلى المرآة أن شكل شعري كان فظيعاً فجمعته وربطته خلف رأسي.

نزلت السلم قفزاً: «ها أنا!... هل مظهري لائق؟»

كان ينتظر عند الدرجة الأخيرة... أقرب مما توقعت... فاصطدمت به... ثبتني بيديه على مسافة منه عدة ثوان ثم شدني إليه فجأة: «خطأ! مظهرك غير لائق أبداً... لا يجوز لأحد أن يكون مغرياً إلى هذا الحد... هذا ليس عدلاً».

سألته: «هل أبدو مغرية؟... كيف؟ أستطيع تغيير هذه الملابس...»

تنهد وهز رأسه: «أنت غريبة جداً!»... وبرقة طبع شفتيه الباردتين على جبهتي فدارت بي الغرفة. جعلتني أنفاسه عاجزة عن التفكير.

قال: «هل أوضح لك كم أنت مغرية؟»... لم يكن هذا سؤالاً! سارت أصابعه بطيئة على امتداد ظهري. وكانت أنفاسه تتسارع فوق جلدي. أحسست بيديَّ مخدرتين فوق صدره... دار رأسي من جديد. أحنى رأسه ببطء ومس شفتيّ بشفتيه الباردتين للمرة الثانية... وبحذر شديد باعدهما قليلاً.

عندها تهاويت إلى الأرض.

«بيلا!»... كان صوته مذعوراً عندما أمسك بي وأنهضني.

قلت بصوت متهم رغم دواري: «أنت... جعلتني... أفقد... الوعي!»

أنَّ يائساً: «ماذا أفعل معك؟ قبلتك أمس فهاجمتني... قبلتك اليوم ففقدت وعيك!»

ضحكت بضعف... تركت نفسي مستندة على ذراعيه ريثما يهدأ رأسي.

قال: «هل هذا لأنني جيد جداً في كل شيء؟»

«هذه هي المشكلة»... مازلت أشعر بالدوار... «أنت جيد أكثر مما يجب... أكثر مما يجب بكثير».

سألني: «هل تشعرين بغثيان؟»... سألني فتذكرت أنه رآني في مثل هذه الحال من قبل.

«لا!... هذا إغماء من نوع مختلف تماماً. لا أعرف ما حدث!»... هززت رأسي معتذرة... «لعلي نسيت أن أتنفس».

«لا أستطيع أخذك إلى أي مكان وأنت على هذه الحال».

قلت مصرة: «أنا بخير! ستظن أسرتك أنني مجنونة في جميع الأحوال... فما الفرق؟»

مضت لحظة وهو يراقب تعابير وجهي: «يعجبني جداً هذا اللون على جلدك». قالها على نحو مفاجئ فاحمر وجهي لسعادتي... أدرت وجهي.

قلت له: «انظر! أن أحاول بجهد حقيقي عدم التفكير في ما أنا مقبلة عليه... لذلك... دعنا نذهب الآن».

«أنت قلقة... لا لأنك ذاهبة إلى منزل مملوء بمصاصي الدماء بل لأنك تظنين أنهم قد لا يوافقون عليك... صحيح؟»

«صحيح!»... أجبته فوراً لكنني أخفيت دهشتي من استخدامه العادي لتلك الكلمة.

هز رأسه عجباً: «أنت شيء لا يصدق!»

أدركت عندما كان يقود سيارتي خارجاً من الكتلة الرئيسية للبلدة أنني لم أكن أعرف أبداً مكان منزله. عبرنا جسر نهر كالاوا. كان الطريق يمضي متعرجاً صوب الشمال. وكانت البيوت تمر واحداً بعد الآخر... غدت أكثر تباعداً وأكبر حجماً. ثم تجاوزنا تلك البيوت كلها ودخلنا الغابة التي يلفها الضباب. كنت أفكر ما إذا كان علي أن أسأله أو أن أحافظ على صبري عندما انعطف فجأة في طريق غير معبد... كان ذلك الطريق من دون علامة تدل عليه... كان شبه مختفٍ بين الأشجار. كانت الغابة تحف بالطريق من جانبيه فلا تسمح برؤية أكثر من أمتار قليلة منه قبل أن ينعطف ويتلوى مثل ثعبان حول تلك الأشجار العتيقة.

بعد عدة أميال تراجعت كثافة الغابة... وصلنا فجأة إلى مرج صغير... هل كان ذلك مرجاً؟ لم تكن ظلمة الغابة أقل رغم وجود تلك الفسحة فقد كانت تحيط بها ست أرزات هائلة تظلل المساحة كلها بأغصانها الكبيرة. كان ظل الأشجار يصل حتى جدران المنزل الذي نهض من بينها... كان يضفي قدراً من العتمة على الرواق المسقوف المحيط بالطابق الأول كله.

لا أعرف ما الذكي كنت أتوقعه. لكنني لم أكن أتوقع هذا بكل تأكيد. كان المنزل عتيقاً جليلاً مهيباً... لعل عمره مئة سنة. كان مطلياً بلون أبيض حائل... بيت مستطيل الشكل فيه ثلاثة طوابق. أما النوافذ والأبواب فكانت قديمة قدم المنزل نفسه... أو لعلها ثمرة أعمال ترميم شديدة الإتقان. كانت سيارتي السيارة الوحيدة هناك. سمعت صوت النهر قريباً منا... كانت ظلمة الغابة تخفيه.

«واو!»

ابتسم إدوارد: «هل أعجبك؟»

«إنه... إنه ساحر!»

شد طرف شعري المربوط خلف رأسي وضحك.

سألني وهو يفتح الباب: «جاهزة؟»

«لست جاهزة إطلاقاً... هيا بنا!»... حاولت أن أضحك لكن الضحكة ظلت ملتصقة بحلقي. رحت أمسد شعري بعصبية.

«تبدين جميلة جداً!»... قال هذا ممسكاً بيدي دون التفات إلى ارتباكي.

مشينا في الظلال الكثيفة حتى الرواق. عرفت أنه أحس بتوتري... كان إبهام يده يدلك ظهر يدي بدوائر صغيرة مهدئة.

فتح باب المنزل أمامي.

كان شكل المنزل من الداخل مفاجئاً أكثر من شكله الخارجي. شديد الإضاءة والضخامة والانفتاح. لابد أن هذه القاعة كانت عدة غرف في الأصل. لكن الجدران أزيلت من الطابق الأول كله تقريباً من أجل الحصول على هذا المتسع الكبير. كان الجدار الخلفي، الجنوبي، قد أزيل وحل محله جدار زجاجي بالكامل. هناك خلف ظلال الأرز كان مرج عار من الأشجار يمضي متعرجاً حتى ضفة النهر العريض. كان سلم ضخم منحنٍ يحتل الجهة الغربية من الصالة. أما الجدران، والسقف المرتفع بعوارضه الخشبية، والأرضيات الخشبية، والسجاد السميك، فكانت كلها بيضاء... بدرجات متفاوتة.

كان والدا إدوارد واقفين للترحيب بنا على يسار الباب تماماً... كانا واقفين فوق منطقة مرتفعة قليلاً إلى جانب بيانو كبير فخم.

لقد رأيت د. كولن من قبل طبعاً. لكنني لم أستطع الامتناع عن الشعور بالدهشة لشبابه وكمال مظهره. وبجانبه كانت إيزمي... كما توقعت... كانت هي الوحيدة التي لم أرها من قبل. لها القسمات

الشاحبة الجميلة نفسها. وكان في وجهها البيضوي وشعرها الناعم البني ما ذكرني بفاتنات أيام السينما الصامتة. رشيقة معتدلة القوام... لكنها أكثر امتلاء من الآخرين. كانا يرتديان ملابس عادية فاتحة اللون بما يتناسب مع ألوان المنزل. ابتسما مرحبين لكنهما لم يتحركا صوبنا... هل أرادا تفادي إخافتي؟

كسر صوت إدوارد الصمت: «كارلايل... إيزمي... وهذه بيلا!»

«أهلاً يا بيلا!»... تقدم كارلايل مني بخطوات محسوبة حذرة. مد يده بحركة عفوية فتقدمت وصافحتها: «يسعدني أن أراك ثانية يا د. كولن».

«ناديني كارلايل من فضلك».

«كارلايل!»... ابتسمت له... كانت ثقتي المفاجئة تدهشني. استطعت أن أحس براحة إدوارد الواقف بجانبي.

ابتسمت إيزمي وتقدمت مني أيضاً مادة يدها. كانت قبضتها الباردة الحجرية مثلما توقعتها تماماً.

قالت بصدق: «يسعدني جداً أن أتعرف عليك».

«شكراً لك! يسعدني لقاؤك أيضاً»... كنت سعيدة بلقائها. كان ذلك مثل لقاء شخصيات إحدى القصص الخيالية... بياض الثلج مثلاً... بشحمها ولحمها.

سأل إدوارد: «أين أليس وجاسبر؟»... لكن أحداً لم يجبه لأنهما ظهرا في تلك اللحظة في أعلى السلم العريض.

صاحت أليس بحماسة: «مرحباً إدوارد!» هبطت الدرجات جرياً... كانت مثل سحابة من الشعر الأسود والجلد الأبيض... ثم توقفت فجأة رشيقة أمامي. نظر إليها كارلايل وإيزمي نظرة تحذير، لكنني أحببت حركتها... كانت طبيعية... من جانبها على الأقل.

قالت أليس: «مرحباً بيلا!»... ثم انحنت وقبلت خدي. هل بدا

الحذر على إيزمي وكارلايل قبل قليل؟ إنهما مصدومان الآن!... ظهرت المفاجأة في عيني أيضاً، لكنني كنت أيضاً مسرورة جداً لأنها تقبلتني تماماً... كما يبدو. أجفلني شعوري بإدوارد يتيبس بجانبي. ألقت إليه نظرة سريعة، لكنني لم أقرأ شيئاً في وجهه.

«رائحتك طيبة! لم ألاحظ هذا من قبل»... قالت تمتدحني فشعرت بحرج شديد.

بدا كأن أحداً منا لم يكن يعرف ما يقول... ثم وصل جاسبر... طويلاً أسدي الشكل. غمرني شعور مفاجئ بالراحة رغم وجودي في ذلك المكان. نظر إدوارد إلى جاسبر رافعاً حاجبه فتذكرت ما الذي يستطيع جاسبر فعله.

قال جاسبر: «أهلاً بيلا!»... لكنه ظل في مكانه ولم يمد يده. رغم ذلك، كان وجوده لطيفاً.

ابتسمت ابتسامة خجولة وقلت له: «أهلاً جاسبر»... ثم قلت للجميع بطريقة تقليدية: «يسعدني أن أقابلكم جميعاً... منزلكم جميل جداً».

قالت إيزمي: «شكراً!... سررنا كثيراً بحضورك». كانت تتكلم بعاطفة صادقة... أدركت أنها تظنني فائقة الشجاعة.

لاحظت أيضاً غياب روزالي وإيميت فتذكرت نفي إدوارد مفرط البراءة عندما سألته عما إذا كان الآخرون لا يحبونني.

انتزعني تعبير وجه كارلايل من هذه الأفكار. كان ينظر إلى إدوارد نظرة ذات دلالة... كان تعبير وجهه متوتراً. ومن زاوية عيني رأيت إدوارد يومئ برأسه مرة واحدة. أدرت وجهي محاولة أن أكون مهذبة. رحت أنظر إلى البيانو الجميل على المنصة قرب الباب. تذكرت فجأة حلم طفولتي... إذا ربحت جائزة اليانصيب فسوف أشتري لأمي بيانو كبيراً. لم تكن أمي عازفة جيدة... كانت تعزف لنفسها، لكنني كنت

أحب النظر إليها عندما تعزف... كنت أراها مستغرقة... سعيدة... في تلك اللحظات كنت أراها كائناً غامضاً جديداً، شيئاً مختلفاً عن شخص «أمي» الموجود دائماً. لقد أدخلتني إلى صف تعليم البيانو طبعاً لكنني، مثل أكثر الأطفال، رحت أتذمر حتى تركتني وشأني.

انتبهت إيزمي إلى نظراتي المهتمة فقالت مشيرة برأسها إلى البيانو: «هل تعزفين؟»

هززت رأسي: «لا، أبداً!... لكنه جميل جداً... هل هو لك؟»

ضحكت: «لا! ألم يخبرك إدوارد أنه عازف؟»

قلت: «لا!»... وألقيت نحو إدوارد نظرة غاضبة فرأيت تعبير وجهه يغدو بريئاً فجأة... «كان يجب أن أتوقع هذا».

رفعت إيزمي حاجبيها الرقيقين مستغربة فقلت: «يستطيع إدوارد أن يفعل أي شيء... أليس كذلك؟»

ضحك جاسبر... ونظرت إيزمي إلى إدوارد نظرة توبيخ ثم قالت بصوت لاذع: «آمل أنك لم تفاخر بنفسك كثيراً... هذا قبيح!»

ضحك إدوارد بانطلاق: «تفاخرت قليلاً!»... رقّ وجهها لسماع ضحكته... ثم تبادلا نظرة لم أفهمها... لكن شيئاً من الاعتداد ظهر على وجه إيزمي.

صححت بقولي: «لقد كان متواضعاً جداً... حقاً!»

شجعته إيزمي: «لا بأس! اعزف لها».

قال معترضاً: «قبل دقيقة قلتِ إن حب التظاهر قبيح».

قالت: «لكل قاعدة استثناء».

تطوعت بالقول: «أحبُّ أن أسمع عزفك».

«انتهى الأمر إذن!»... قالت إيزمي وهي تدفعه صوب البيانو. جرّني معه ثم أجلسني على مقعد البيانو بجانبه... رمقني بنظرة ساخطة ثم استدار إلى المفاتيح.

انطلقت أصابعه سريعةً ترقص فوق المفاتيح العاجية فملأت الغرفة موسيقى غنية مترفة يستحيل تصديق أنها صادرة عن أصابع شخص واحد. انفتح فمي لشدة دهشتي فسمعت ضحكة منخفضة خلفي تسخر من رد فعلي.

كان إدوارد ينظر إليّ من حين لآخر. وكانت الموسيقى تحيط بنا من كل ناحية دون توقف. نظر إليّ غامزاً بعينه: «هل تعجبك؟»

شهقت... لقد فهمت سؤاله: «هل كتبتها أنت؟»

أومأ برأسه: «إنها المقطوعة المفضلة عند إيزمي».

أغمضت عيني وهززت رأسي.

«ما المشكلة؟»

«أشعر أنني عديمة الشأن تماماً».

هدأت الموسيقى وتحولت إلى شيء أكثر نعومة. فوجئت عندما تعرفت في نغماتها على أغنيته التي سمعتها أمس.

قال بنعومة: «هذه من إلهامك أنت!»... صارت الموسيقى حلوة إلى درجة يصعب تحمّلها.

لم أستطع الكلام.

قال كمن يتحدث حديثاً عادياً: «هل تعرفين؟ لقد أحبوك... إيزمي خاصة!».

نظرت خلفي... لكني رأيت القاعة الكبيرة خالية... «أين ذهبوا؟»

«أعتقد أنهم انسحبوا بهدوء لمنحنا شيئاً من الخصوصية».

همست: «يحبونني!... لكن روزالي وإيميت...» كففت عن الكلام... لم أعرف كيف أعبر عن شكوكي.

عبس: «لا تقلقي بشأن روزالي!»... كانت عيناه واسعتين مقنعتين... «سوف تأتي».

قلت مشككة: «وإيميت؟»

«إيميت يظنني مجنوناً... هذا صحيح... لكنه لا يجد مشكلة فيك أنت. إنه يحاول إقناع روزالي».

«ما الذي يزعجها؟»... لم أكن واثقة من أنني أرغب في معرفة الإجابة.

تنهد بعمق: «عانت روزالي كثيراً من... مما نحن عليه. يصعب عليها كثيراً أن يعرف أحد حقيقتنا... ثم إنها تغار قليلاً!»

سألت غير مصدقة: «أتغار مني أنا؟»... حاولت تخيل كيف يمكن أن يكون لدى مخلوقة بجمال روزالي سبب يجعلها تغار من فتاة مثلي.

ابتسم إدوارد: «أنت بشرية... تتمنى روزالي أن تكون بشرية أيضاً».

تمتمت وأنا مازلت مصعوقة... «أوه!... حتى جاسبر، مع ذلك...»

قال: «أنا السبب في هذا. قلت لك إنه آخر من انضم إلينا. لقد أنذرته ألا يقترب كثيراً!»

فكرت في سبب هذا الإنذار... فارتجفت... لكنني واصلت كلامي سريعاً حتى لا ينتبه إلى ارتجافي: «ماذا عن إيزمي وكارلايل؟»

«هما سعيدان لأنني سعيد. الواقع أن إيزمي لن تبالي حتى لو كان لديك ثلاث أعين وقدمين مثل قدمي الإوزة. إنها قلقة عليّ طيلة الوقت... تخاف أن يكون لدي نقص في تكويني أو أنني كنت أصغر مما يجب عندما قام كارلايل بتحويلي... إنها مولعة بي... يغمرها الرضا والسرور كلما لمستك».

«بدت أليس... متحمسة جداً».

قال بشفتين مشدودتين: «لديها طريقتها الخاصة في النظر إلى الأمور».

«لن تشرح لي هذا، أليس كذلك؟»

سرت بيننا لحظة من التواصل دون كلمات. أدرك أنني عرفت أنه يخفي شيئاً عني. وأدركت أيضاً أنه لن يقول شيئاً... ليس الآن. قلت: «ما الذي قاله لك كارلايل قبل ذلك؟»

قطب حاجبيه: «لقد لاحظت ذلك إذن!»

ابتسمت: «طبعاً!»

راح يتفحصني بنظراته عدة ثوان قبل أن يجيب: «أراد إبلاغي خبراً... لم يعرف إن كنت أريد إطلاعك عليه».

«وهل ستطلعني عليه؟»

«يجب أن أخبرك لأنني سأكون خلال الأيام أو الأسابيع القادمة شديد الحرص عليك... إلى حد الإزعاج... ولست أريدك أن تعتبريني طاغية بطبيعتي».

«ما المشكلة؟»

«لا مشكلة في الواقع... لكن أليس رأت زواراً يأتون إلينا. يعرفون أننا هنا... ولديهم فضول!»

«زوار!»

«نعم... لكنهم ليسوا مثلنا... أقصد من حيث سلوكهم في الصيد. الأرجح أنهم لن يأتوا إلى البلدة... لكني لن أدعك تغيبين عن نظري قبل أن يذهبوا».

ارتجفت لما سمعته.

قال متمتماً: «أخيراً!... رد فعل منطقي... لقد بدأت أحس أنك تفتقرين تماماً إلى حس حفظ النفس».

لم أعلق على ما قاله... تجولت عيناي في القاعة الواسعة.

تابع نظراتي ثم سألني باعتداد: «ليس هذا ما كنت تتوقعين... صحيح؟»

«صحيح».

«لا توجد توابيت ولا جماجم مكوّمة في الزاوية... لا أظن أيضاً أن لدينا بيوت عنكبوت... يا لخيبة أملك».

تجاهلت مناكفته: «إنه واسع جداً... مضيء جداً».

أجابني بصوت أكثر جدية: «إنه المكان الوحيد الذي ليس علينا أن نختبئ عندما نكون فيه».

وصلت الأغنية التي كان يعزفها... أغنيتي... إلى نهايتها. حملت نغماتها الأخيرة قدراً من الكآبة. وظلت النقرة الأخيرة معلقة في الصمت.

تمتمت: «شكراً!»... أدركت أن الدموع ملأت عيني... مسحتهما بيدي محرجة.

لمس زاوية عيني بإصبعه ماسحاً دمعة بقيت عليها. رفع إصبعه وراح ينظر إلى تلك القطرة بكآبة. ثم... بحركة سريعة لم أكد أرها... وضع إصبعه في فمه ليتذوق الدمعة.

نظرت إليه نظرة استفهام فحدق في عيني مدة طويلة قبل أن يبتسم أخيراً ويقول: «هل تريدين رؤية بقية المنزل؟»

قلت: «أليس فيه توابيت؟» لم تفلح السخرية التي في صوتي في إخفاء شيء من الفضول الحقيقي. ضحك ثم أمسك بيدي وابتعدنا عن البيانو... قال واعداً: «لا توابيت».

صعدنا درجات السلم العريض. راحت يدي تنساب فوق الدرابزون الصقيل مثل الساتان. كانت جدران القاعة الطويلة عند نهاية الدرجات مغطاة بألواح خشبية عسلية اللون... مثل لون الأرضية.

«غرفة روزالي وإيميت... مكتب كارلايل... غرفة أليس...» كان يشير بيده أثناء سيرنا أمام تلك الأبواب. كان ماضياً في سيره، لكنني

توقفت فجأة عند نهاية القاعة ورحت أحدق غير مصدقة في الصليب المعلق على الجدار فوق رأسي. ضحك إدوارد لرؤية تعبير وجهي المضطرب: «يمكنك أن تضحكي... هذا نوع من المفارقة».

لم أضحك. ارتفعت يدي تلقائياً وامتد إصبعي يريد لمس الصليب الخشبي الكبير الذي كان لونه الداكن في تضاد مع خشب الجدار ذي اللون الفاتح. لم ألمسه رغم فضولي لمعرفة إن كان هذا الخشب العتيق حريري الملمس كما كان يبدو.

قلت: «لابد أنه قديم جداً».

ابتسم: «أوائل ثلاثينات القرن السادس عشر... تقريباً!»

حولت نظري عن الصليب ناظرة إليه وتساءلت: «لماذا تعلقونه هنا؟»

«نوع من الحنين... لقد كان ملكاً لوالد كارلايل».

سألته مشككة: «هل كان يجمع المقتنيات القديمة؟»

«لا! لقد صنعه بنفسه. وعلقه على منبر الكنيسة حيث كان يلقي مواعظه على المصلين».

لا أعرف إن كان وجهي عبر عن صدمتي... لكنني عدت إلى التحديق في الصليب الخشبي العتيق البسيط. أجريت حسبة رياضية سريعة. يبلغ عمر الصليب أكثر من 370 عاماً. طال الصمت في حين كنت أحاول تصور تلك الفترة الطويلة من الزمن.

بدا القلق في صوت إدوارد: «هل أنت بخير؟»

سألته بهدوء متجاهلة سؤاله... مازلت أحدق في الصليب: «كم هو عمر كارلايل؟»

«احتفل منذ فترة غير بعيدة بعيد ميلاده الثاني والستين بعد الثلاثمئة!»... نظرت إليه... كان في عيني مليون سؤال.

قال إدوارد وهو يراقب وجهي بانتباه: «ولد كارلايل في لندن في أربعينات القرن السادس عشر... هكذا يعتقد. لم يكونوا يسجلون هذه الأمور بدقة في تلك الأيام. كان والده شخصاً غير متسامح. وعندما وصل البروتستانت إلى الحكم كان شديد الحماسة في اضطهاد الكاثوليك وبقية المذاهب، وشديد الإيمان أيضاً بحقيقة الشر وواقعيته المادية... كان يقود حملات صيد السحرة والمستذئبين... ومصاصي الدماء».

جعلتني تلك الكلمة هادئة جداً. لابد أنه لاحظ ذلك، لكنه تابع كلامه دون توقف... «قاموا بإحراق عدد كبير من الأبرياء... بطبيعة الحال، لم يكن اصطياد الكائنات التي أراد اصطيادها أمراً سهلاً. وعندما تقدم في السن جعل ابنه المطيع يقود هذه الحملات. لكن كارلايل خيب أمله في البداية... لم يكن سريعاً في اتهام الناس... في رؤية الشياطين حيث لا وجود لها. لكنه كان دؤوباً، وكان أكثر ذكاء من والده. لقد اكتشف حقاً وكراً لمصاصي دماء حقيقيين كانوا يعيشون مختبئين في أقنية الصرف في المدينة ولا يخرجون منها إلا ليلاً من أجل الصيد. في تلك الأيام، عندما لم تكن الوحوش مجرد حكايات وأساطير، كانت تلك طريقة عيش كثير منها. حمل الناس حرابهم ومشاعلهم طبعاً...» ضحك إدوارد ضحكة قصيرة قاتمة... «ثم انتظروا حيث شاهد كارلايل الوحوش تخرج إلى الشارع... أخيراً ظهر واحد منها».

كان صوته هادئاً جداً. وكنت أجاهد حتى ألتقط كلماته...

«لابد أنه كان كبير السن ضعيفاً لشدة الجوع. سمعه كارلايل يخاطب الآخرين باللاتينية عندما شم رائحة البشر المجتمعين. جرى في الشوارع. وكان كارلايل في طليعة مطارديه... كان في الثالثة والعشرين، وكان سريع العدو. كان بوسع ذلك المخلوق أن يجري أسرع منهم فيسبقهم بسهولة. لكن كارلايل قال إن جوعه الشديد هو ما جعله يستدير ليهاجمهم. هاجم كارلايل في البداية. لكن الآخرين كانوا

قريبين جداً فاستدار صوبهم مدافعاً عن نفسه. قتل رجلين منهم... ثم أخذ الثالث تاركاً كارلايل ينزف في الشارع».

صمت إدوارد قليلاً. عرفت أنه يقوم بتنقيح الرواية حتى يخفي شيئاً عني.

«كان كارلايل يعرف ما كان يفعله والده لو كان مكانه. يجب أن تحرق الجثث... يجب إزالة كل ما لوّثه الوحش. لكنه تصرف غريزياً على النحو الذي يحفظ حياته. لقد زحف مبتعداً في أحد الأزقة في حين استمر الحشد في ملاحقة الوحش وضحيته. اختبأ كارلايل في أحد الأقبية حيث غطى نفسه ببعض البطاطا المتعفنة التي وجدها فيه. وظل هناك ثلاثة أيام... عجيب كيف استطاع أن يحافظ على صمته فلا يكتشف أمره. ثم انقضى الأمر. أدرك كارلايل كيف صار!»

لا أعرف ما الذي ظهر على وجهي، لكن إدوارد صمت فجأة وسألني: «كيف تشعرين؟»

قلت حتى يطمئن: «بخير!»... لابد أنه لاحظ الفضول مشتعلاً في عيني رغم أنني عضضت شفتي مترددة.

ابتسم وقال: «أظن أن لديك بعض الأسئلة».

«بعض الأسئلة!»

اتسعت الابتسامة فوق أسنانه اللامعة. استدار عائداً في القاعة وهو يجرني من يدي. قال مشجعاً: «تعالي إذن... سوف ترين بنفسك».

16

كارلايل

عاد بي صوب الغرفة التي قال عنها إنها مكتب كارلايل. توقف أمام الباب لحظة فسمعت صوت كارلايل يقول: «ادخل!»

فتح إدوارد الباب فرأيت غرفة مرتفعة السقف لها نوافذ طويلة إلى جهة الغرب. كانت جدران الغرفة مغطاة بألواح خشبية داكنة أكثر من ألواح القاعة... لكنها كانت مغطاة تقريباً برفوف ورفوف من الكتب تعلو فوق رأسي... كان فيها من الكتب أكثر من أي كمية رأيتها من قبل، في منزل.

كان كارلايل جالساً في مقعد جلدي خلف مكتب ضخم من خشب الماهوغاني. وضع علامة عند الصفحة التي وصل إليها في كتاب سميك كان يحمله بيده. كانت الغرفة تشبه مكتب عميد كلية جامعية... كما كنت أتخيله. لكن كارلايل كان يبدو أكثر شباباً من صورة العميد في ذهني.

سألنا مبتسماً ناهضاً من كرسيه: «ما الذي أستطيع تقديمه لكم؟»

قال إدوارد: «أريد أن أجعل بيلا ترى بعضاً من تاريخنا... أقصد تاريخك».

قلت معتذرة: «لم نكن نقصد إزعاجك».

«إطلاقاً. من أين تحبان البدء؟»

«لندن!»... أجابه إدوارد واضعاً يده برقة على كتفي حتى أستدير فأنظر ناحية الباب الذي دخلنا منه منذ قليل. كان لقلبي رد فعل مسموع كلما لمسني إدوارد... حتى لو كانت لمسة عابرة. كان الأمر أكثر إحراجاً في حضور كارلايل.

كان الجدار الذي أنظر إليه الآن مختلفاً عن بقية الجدران. فبدلاً من رفوف الكتب، كان مزدحماً بلوحات من جميع القياسات... بعضها بألوان حية صاخبة، وبعضها بألوان باهتة باردة. بحثت عن شيء يجمع بين هذه الصور، لكن بحثي السريع لم يخرج بشيء.

جذبني إدوارد إلى أقصى الناحية اليسرى فجعلني أقف أمام لوحة زيتية صغيرة مربعة في إطار خشبي بسيط. ما كانت مرئية بوضوح بين اللوحات ذات الحجم الأكبر والألوان الأكثر سطوعاً. كانت اللوحة مرسومة بدرجات مختلفة من اللون البني وكانت تصور مدينة ذات أسطح مائلة مع بعض الأبراج ذات الرؤوس المستدقّة. كان نهر عريض يملأ خلفية الصورة يقطعه جسر مغطى ببناء أشبه بكاتدرائية صغيرة.

قال إدوارد: «لندن منتصف القرن السادس عشر».

أضاف كارلايل من مسافة خطوات قليلة خلفنا: «إنها لندن أيام شبابي»... انكمشت على نفسي... لم أسمع صوت اقترابه... ضغط إدوارد على يدي وسأله: «هل ستروي القصة أنت؟»... التفتّ قليلاً لأرى رد كارلايل.

قابل نظرتي بابتسامة وأجاب: «نعم! سأرويها... لكنني تأخرت قليلاً. طلبوني من المستشفى هذا الصباح... د. سنو لديه إجازة مرضية اليوم... ثم إنك تعرف تلك القصص كما أعرفها»... قال ذلك مبتسماً لإدوارد.

كان ذلك مزيجاً يصعب استيعابه... المشاغل اليومية لطبيب بلدة صغيرة ضمن سياق حديثه عن أيامه الأولى في لندن أوائل القرن السابع

عشر... أزعجتني أيضاً فكرة أنه كان يتحدث بصوت مرتفع من أجلي أنا... حتى أستطيع سماعه!

بعد ابتسامة دافئة غادر كارلايل الغرفة. نظرت إلى صورة مسقط رأس كارلايل برهة من الزمن ثم سألت إدوارد ناظرة إليه: «ماذا حدث عند ذلك؟»... كان ينظر إلي... «أقصد... عندما أدرك ما حدث له».

نظر إلى الصور من جديد فنظرت أيضاً لأرى الصورة التي انصبّ عليها اهتمامه الآن. كانت صورة أكبر حجماً... كانت مرسومة بألوان الخريف الكئيبة... مرج فارغ تلفّه الظلال في غابة... مع قمة جبل تلوح في الأفق البعيد.

قال إدوارد بصوت هادئ: «عندما عرف ما أصابه... تمرد عليه. حاول قتل نفسه. لكن هذا ليس بالأمر السهل».

«كيف؟»... لم أتعمد رفع صوتي، لكن تلك الكلمة خرجت من فمي بصوت مرتفع لشدة دهشتي.

قال إدوارد بصوت هادئ بارد: «قفز من أماكن مرتفعة جداً. وحاول إغراق نفسه في المحيط... لكنه كان شاباً في حياته الجديدة... كان قوياً جداً. من المدهش أنه استطاع مقاومة... الطعام... رغم كونه جديداً إلى هذه الدرجة. تكون تلك الغريزة شديدة القوة آنذاك. وهي تطغى على كل ما عداها. لكنه كان شديد الاشمئزاز من نفسه إلى حد مَنَحه قوّة محاولة إماتة نفسه جوعاً».

خرج صوتي واهناً: «وهل هذا ممكن؟»

«لا! لا يمكن قتلنا إلا بطرق قليلة جداً».

فتحت فمي لأسأل، لكنه تكلم قبل أن يخرج صوتي من فمي... «وهكذا أصابه جوع شديد فحلّ به الوهن آخر الأمر. هام على وجهه بعيداً عن أماكن وجود البشر لأنه أدرك أن إرادته كانت تضعف أيضاً. كان يتجول ليلاً باحثاً عن أبعد المناطق كارهاً نفسه. وفي ذات ليلة مر

بمخبئه قطيع من الغزلان. كان ظمأه شديداً إلى حد جعله يهاجم القطيع دون تفكير. عادت قواه إليه فأدرك وجود بديل ممكن عن أن يكون ذلك الوحش الذي يخشاه. ألم يأكل لحم الغزلان في حياته الأولى؟... تكونت فلسفته خلال الأشهر التالية: يمكنه العيش دون أن يكون شيطاناً... لقد وجد نفسه من جديد. بدأ يحسن الاستفادة من وقته. لقد كان دائماً شخصاً ذكياً تواقاً إلى العلم. والآن صار أمامه وقت طويل جداً. كان يدرس ليلاً ويضع خططه نهاراً. اجتاز البحر سباحة إلى فرنسا و...»

«هل قلت إنه سبح إلى فرنسا؟»

قال إدوارد بصبر: «الناس يجتازون القنال الإنكليزي سباحة على الدوام يا بيلا!»

«صحيح!... كما أظن. لكن العبارة بدت عجيبة ضمن سياق كلامك... تابع!»

«السباحة سهلة علينا...»

قلت متذمرة: «كل شيء سهل عليكم!»

توقّف عن الكلام. فقلت: «أعدك أنني لن أقاطعك مرة أخرى».

ابتسم ثم أكمل جملته: «هذا لأننا لسنا بحاجة إلى التنفس».

«لكنك...»

«لا! لا! لقد وعدت بعدم المقاطعة»... ضحك واضعاً إصبعه البارد على شفتي... «هل تريدين سماع القصة... أم لا؟»

غمغمت رغم وجود إصبعه على فمي: «لا تستطيع أن تقول لي شيئاً مثل هذا ثم تتوقع أن لا أقول أي كلمة».

رفع يده ووضعها على رقبتي... أسرع نبض قلبي بمثل سرعة يده. لكنني بقيت على إلحاحي: «ألستم بحاجة إلى التنفس».

ابتسم: «لا! إنه ليس ضرورياً. إنه عادة فقط».

«وكم تستطيع البقاء... دون تنفس؟»

«بلا نهاية... هكذا أظن... لا أعرف. يصبح الأمر مزعجاً قليلاً... من غير حاسة الشم».

قلت بصوت كالصدى: «مزعج قليلاً!»

لم أكن منتبهة لتعبير وجهي لكن شيئاً فيه جعل وجه إدوارد يظلم. سقطت يده إلى جانبه ووقف جامداً تماماً... كانت عيناه معلقتان بوجهي... طال الصمت... كانت ملامح وجهه جامدة كالحجر.

همست وأنا ألمس وجهه المتجمد: «ما الأمر؟»

عاد وجهه إلى الحياة تحت يدي: «أنتظر دائماً أن يحدث ذلك».

«أن يحدث ماذا؟»

«أعرف أنك ستهربين مني... ستهربين صارخة باكية... في لحظة من اللحظات، عندما أقول لك شيئاً أو عندما ترين أن الأمر قد مضى أبعد مما يجب»... ابتسم نصف ابتسامة لكن عينيه كانتا جادتين تماماً... «لن أوقفك. أريد أن يحدث هذا لأنني أريد لك الأمان. لكنني أريد أيضاً أن أكون معك. يستحيل التوفيق بين الرغبتين...» صمت فجأة محدقاً في وجهي... منتظراً.

وعدته: «لن أهرب أبداً».

قال مبتسماً من جديد: «سنرى!»

عبست وقلت: «تابع إذن... سبح كارلايل إلى فرنسا...»

صمت برهة حتى يستعيد القصة. وعلى نحو عفوي اتجهت عيناه نحو لوحة أخرى... أغنى اللوحات ألواناً وأكبرها حجماً... كان إطارها الأكثر تزييناً أيضاً. كانت معلقة بجانب الباب... كان عرضها ضعفي عرض الباب. وكان قماشها يفيض بشخوص متألقة في أثواب

ملتفة من حولهم... كانوا مجتمعين حول أعمدة طويلة أو قرب شرفات رخامية. لم أعرف إن كانت اللوحة تمثل شيئاً من أساطير اليونان أو إن كانت تلك الشخصيات السابحة في الغيوم مأخوذة من التوراة.

«سبح كارلايل إلى فرنسا. ثم تابع السير عبر أوروبا... إلى الجامعات. في الليل كان يدرس الموسيقى والعلوم والطب... لقد وجد ضالته... رسالته... في ذلك الأمر... في إنقاذ الأرواح». صار تعبير وجه إدوارد وقوراً مفعماً باحترام يشبه التقديس... «لا أستطيع أن أصف نضال كارلايل وصفاً كافياً. ظل قرنين يبذل جهوداً مضنية حتى أتقن ضبط نفسه. إنه الآن منيع تماماً إزاء رائحة الدم البشري... صار يستطيع أداء العمل الذي يحبه دون عذاب. إنه يجد قدراً كبيراً من راحة النفس هناك في المستشفى...» حدق إدوارد في الفراغ لحظة طويلة. ثم تذكر ما كان فيه فجأة فنقر بإصبعه على اللوحة الضخمة أمامنا.

«كان يدرس في إيطاليا عندما اكتشف وجود الآخرين. لقد كانوا أكثر تمدناً وتعليماً من أشباح مجاري لندن».

لمس إدوارد مجموعة رزينة نسبياً من أربعة أشخاص مرسومين على الشرفة العليا... كانوا ينظرون بهدوء إلى الناس المتجمعين في الأسفل. نظرت بانتباه إلى هذه المجموعة فضحكت فجأة عندما عرفت منهم الرجل ذا الشعر الذهبي.

ابتسم إدوارد: «كان الرسام سوليمينا شديد التأثر بأصدقاء كارلايل، بل كان يرسمهم مثل آلهة أكثر الأحيان. إنهم آرو وماركوس وكايوس»... قال إدوارد هذا مشيراً إلى الثلاثة الآخرين... كان اثنان منهم بشعر أسود. أما الثالث فكان شعره أبيض كالثلج... «إنهم سادة الليل في الفنون».

تساءلت بصوت مرتفع واضعة إصبعي على مسافة سنتيمتر واحد من هؤلاء الأشخاص على اللوحة: «ماذا جرى لهم؟»

ضحك إدوارد: «مازالوا هناك مثلما كانوا منذ آلاف السنين... من يعرف! لم يبق كارلايل معهم إلا فترة قصيرة، بضع عشرات من السنين فقط. كان شديد الإعجاب بتمدنهم ورفعتهم، لكنهم كانوا مصرين على محاولة شفائه من ابتعاده عن "مصدر غذائه الطبيعي" كما كانوا يقولون. حاولوا إقناعه وحاول إقناعهم، لكن عبثاً. عند تلك النقطة قرر كارلايل أن يجرب العالم الجديد. كان يحلم بالعثور على من هم مثله. كان يشعر بوحدة شديدة... مضت فترة طويلة لكنه لم يجد أحداً. غير أنه اكتشف أن بوسعه مخالطة البشر كما لو كان واحداً منهم... فبعد أن صار الوحوش موضوعاً للقصص الخيالية وحدها ما عاد الأمر يثير شكوك الناس. وهكذا بدأ ممارسة الطب، لكنه لم يظفر بالرفقة التي كان يتوق إليها... لم يكن يستطيع المخاطرة بإقامة علاقات حميمة».

تابع إدوارد: «وعندما انتشر وباء الأنفلونزا كان يعمل ليلاً في أحد مستشفيات شيكاغو. كانت فكرة تدور في رأسه منذ سنين كثيرة... وكان على وشك اتخاذ قرار تنفيذها... لم يستطع أن يعثر على رفيقة له، فقرر أن يخلقها بنفسه. لم يكن يعرف تماماً كيف حدث التحول معه، وهذا ما جعله متردداً. كان أيضاً ينفر من فكرة سرقة حياة إنسان آخر كما سُرقت حياته منه. في تلك اللحظة... في حالته الذهنية تلك... وجدني. كان الأمل في شفائي معدوماً فتركوني مع المحتضرين في أحد أجنحة المستشفى. كان كارلايل قد اعتنى بوالدي قبل موتهما... فكان يعرف أنني وحيد تماماً، لذلك قرر المحاولة...»

صار صوته الآن بطيئاً شبه هامس. راح يحدق عبر النوافذ الغربية... لا إلى شيء. ما الصور التي تزدحم في رأسه الآن؟ ذكريات كارلايل أم ذكرياته هو؟... انتظرت بصمت...

عندما استدار إليّ كانت ابتسامة ملائكية تنير وجهه... قال: «وهكذا عدنا إلى حيث بدأنا».

قلت متسائلة: «هل تعيش مع كارلايل منذ ذلك الوقت؟»

«نعم!... تقريباً»... وضع يده برقة على خصري وشدني معه خارجاً من الباب. نظرت من جديد إلى الجدار المليء بالصور وسألت نفسي إن كنت سأسمع بقية هذه القصص كلها ذات يوم.

لم يضف إدوارد شيئاً أثناء سيرنا. وعندما نزلنا إلى القاعة الكبيرة سألته: «تقريباً؟»

تنهد بعمق... بدا غير راغب في الإجابة لكنه قال: «طيب! لقد مررت بمرحلة التمرد المعروفة أثناء المراهقة... بعد نحو عشر سنين من... ولادتي... خلقي. لم تعجبني حياة الامتناع عن دم البشر. كرهت كارلايل لأنه كان يقمع شهيتي. لذلك تركته وذهبت وحدي لفترة من الوقت».

«حقاً!»... كان فضولي شديداً... لعل الأجدر بي أن أكون خائفة في هذه اللحظة... لكنه فهم ذلك. أدركت على نحو غائم أننا كنا نصعد السلم المقابل. لكنني لم أكن شديدة الانتباه إلى ما يحيط بنا.

«ألم يخب أملك؟»

«لا!»

«لم لا؟»

«أظن... أن الأمر يبدو منطقياً».

انفجر ضاحكاً... بصوت أعلى من صوت ضحكته قبل قليل. كنا قد بلغنا نهاية السلم الآن فصرنا في ممر آخر... كانت جدرانه مغطاة بالألواح الخشبية أيضاً.

تمتم إدوارد: «منذ لحظة ولادتي الجديدة تمتعت بمزية معرفة ما يفكر فيه من هم حولي... البشر وغير البشر. هذا ما جعل تمردي على كارلايل يتأخر عشر سنين. كنت قادراً على قراءة إخلاصه وصدقه الكاملين... وعلى فهم سبب عيشه بتلك الطريقة».

«لم يقتض الأمر أكثر من سنوات قليلة عدت بعدها إلى كارلايل والتزمت برؤيته. ظننت أنني سأنجو من... الاكتئاب... الذي يرافق الضمير. كنت أسمع أفكار فريستي، لذلك كنت قادراً على تجنب الأبرياء وعلى استهداف الأشرار وحدهم... إذا لاحقت مجرماً يعتزم قتل فتاة صغيرة في زقاق مظلم... وإذا أنقذتها منه... فمن المؤكد أنني لست شريراً!»

ارتجفت عندما تخيلت بوضوح شديد الصورة التي وصفها... الزقاق المظلم في الليل... الفتاة المذعورة... الرجل المظلم خلفها. ثم إدوارد، إدوارد عندما يصطاد... مرعباً وجميلاً مثل إله شاب... عصياً على الإيقاف. هل تكون تلك الفتاة شاكرة ممتنة له أم أكثر خوفاً من ذي قبل؟

«لكني، مع مرور الوقت، بدأت أرى الوحش في عينَيْ. لم أستطع عدم الإحساس بفداحة ثقل كل هذه الأرواح البشرية... مهما يكن قتلها مبرراً. عندها عدت إلى كارلايل وإيزمي فرحبا بعودتي... كان هذا أكثر مما أستحق».

توقفنا عند تلك اللحظة أمام آخر باب في الممر. قال لي: «هذه غرفتي!»... ثم فتح الباب وشدني إلى الداخل.

كانت غرفته تواجه جهة الجنوب. وكانت فيها نافذة بحجم الجدار كله... كما في الصالة السفلية الكبيرة. لا بد أن خلفية البيت الزجاجية كلها. كانت تطل على نهر سول دوك المتعرج. وقبل النهر رأيت غابة جبال أولمبيك العذراء. كانت الجبال تبدو أقرب كثيراً مما توقعت.

كان الجدار الغربي مغطى كله برفوف كثيرة. كانت الأسطوانات تملأ تلك الرفوف. كان في غرفته أسطوانات أكثر مما يجده المرء في محلات الأسطوانات الموسيقية. رأيت في الزاوية مجموعة صوت فخمة المظهر من ذلك النوع الذي أخاف أن ألمسه لثقتي من أنني سأكسر شيئاً

فيه. لم يكن في الغرفة سرير... فقط أريكة جلدية وثيرة سوداء عريضة. كانت ارضها مغطاة بسجادة سميكة ذهبية اللون. أما الجدران فكان يكسوها قماش ثقيل بلون ذهبي داكن قليلاً.

قلت: «تجهيزات جيدة لسماع الموسيقى!»

ابتسم وأومأ برأسه.

التقط جهاز التحكم وشغل الستيريو. كانت موسيقى هادئة، لكن موسيقى الجاز الناعمة جعلتني أحس أن الفرقة كانت موجودة في الغرفة. مضيت لأنظر إلى مجموعته الموسيقية الهائلة. سألته عندما لم أفهم نظام ترتيب العناوين: «كيف نظمت هذه المجموعة؟»... لكنه لم يكن منتبهاً.

أجابني بذهن شارد: «همم! حسب السنوات، ثم حسب تفضيلي الشخصي».

استدرت إليه فرأيته ينظر نحوي وفي عينيه تعبير غريب.

«ماذا؟»

«كنت أظن أنني سأشعر... بالراحة... بعد أن تعرفي كل شيء لا أعود بحاجة إلى كتم أسراري عنك. لكنني لم أتوقع شعوراً أكثر من الراحة... لقد استمتعت بالأمر. لقد... أسعدني». رفع كتفيه مبتسماً.

أجبته بابتسامة وقلت: «أنا سعيدة أيضاً!»... كنت أخاف أن يندم على إخباري هذه الأشياء. وكان من المريح أن أجده عكس ذلك تماماً. لكن عينيه جعلتا ابتسامتي تختفي... ذوت ابتسامته وتغضن جبينه فقلت: «مازلت تنتظر مني أن أهرب وأصرخ، صحيح؟»

لامست شفتيه ابتسامة صغيرة وأومأ برأسه.

كذبت قائلة بنبرة عادية: «أكره أن أفجر فقاعتك هذه، لكنك لست خائفاً حقاً بالقدر الذي تظن. لست أجدك خائفاً إطلاقاً!»

توقف رافعاً حاجبيه بحركة عدم تصديق واضح. ثم ابتسم ابتسامته

العريضة الخبيثة وقال ضاحكاً: «ما كان يجب أن تقولي هذا».

صدرت عنه زمجرة... صوت منخفض من عمق حنجرته... كشرت شفتاه عن أسنانه اللامعة الجميلة. تغير وضع جسده فجأة... صار نصف جاثم... متوتراً مثل أسد يستعد للوثب.

تراجعت محدقة فيه... «لن تفعل ذلك!»

لم أره يثب علي... كان سريعاً جداً. لم أشعر بنفسي إلا محمولة... طائرة... ثم هبطنا معاً على الأريكة فاصطدمت بالجدار. خلال ذلك كان ذراعاه ملتفان حولي مثل قفص حديدي يحميني... لم أكد ألمس الأريكة بجسمي. لكنني رحت ألهث وأنا أحاول الجلوس منتصبة. لكنه لم يتركني أفعل ذلك... كورني على صدره ممسكاً بي بيدين أقوى من سلاسل الحديد. حدقت فيه متوترة، لكنه بدا مسيطراً جداً على نفسه... ارتخى فكاه فابتسم... لم يعد في عينيه غير ألق المرح... قال بصوت لعوب: «ماذا كنت تقولين؟»

قلت: «قلت إنك وحش مخيف جداً... جداً!»... زاد تقطع أنفاسي من شحنة التهكم في صوتي.

قال موافقاً: «هذا أفضل بكثير».

ناضلت لتحرير نفسي: «هممم!... هل أستطيع القيام الآن؟»

اكتفى بالضحك.

جاء صوت رقيق من الممر: «هل نستطيع الدخول؟»

حاولت تحرير نفسي، لكن إدوارد اكتفى بأن أجلسني فوق ركبتيه. نظرت فرأيت أليس في الباب ثم جاسبر من خلفها. التهبت وجنتاي احمراراً، لكن إدوارد بدا غير مضطرب.

«ادخلا!»... كان إدوارد لا يزال يضحك بصوت هادئ.

لم يظهر على أليس أي استغراب بسبب عناقنا. سارت... بل رقصت... كانت حركتها رشيقة جداً... حتى وسط الغرفة ثم جلست

على الأرض. لكن جاسبر ظل واقفاً عند الباب. كان على وجهه تعبير صدمة خفيف. كان ينظر إلى وجه إدوارد فتساءلت في نفسي ما إذا كان يختبر الجو بحاسته الخارقة.

أعلنت أليس: «بدا لنا مما سمعناه أنك تأكل بيلا فجئنا لنشارك!»

تجمدت رعباً لحظة قصيرة لكنني رأيت إدوارد يبتسم... هل ابتسم لمزحتها أم لرد فعلي... لست أدري!

أجابها: «آسف! لا أظن أن لدي أي فائض»... قال ذلك في حين ظل ذراعاه يحضنانني إليه.

قال جاسبر داخلاً الغرفة مغالباً ابتسامته: «الواقع... تقول أليس إن عاصفة حقيقية ستهب الليلة... ويرغب إيميت في لعب الكرة... هل تلعب معنا؟»

كانت كلماته عادية تماماً، لكن السياق أربكني. فهمت رغم ذلك أن تنبؤات أليس أكثر مصداقية من الأرصاد الجوية.

أشرقت عينا إدوارد، لكنه تردد.

قالت أليس بصوت مثل زقزقة العصافير: «عليك أن تجلب بيلا طبعاً!»... أظن أنني رأيت جاسبر يرشقها بنظرة سريعة.

سألني إدوارد متحمساً... كان تعبير وجهه متوثباً: «أتريدين الذهاب؟»

لم أكن لأستطيع تخييب ذلك الوجه المشرق: «طبعاً!... أين سنذهب؟»

قال إدوارد: «علينا أن ننتظر الرعد حتى نستطيع أن نلعب الكرة... سترين السبب!»

«هل أحتاج مظلة؟»

ضحك الثلاثة بصوت مرتفع.

نظر جاسبر إلى أليس وسألها: «هل تحتاج مظلة؟»

قالت بنبرة جازمة: «لا!... ستكون العاصفة فوق البلدة... يجب أن يكون الجو صحواً في الفسحة».

كانت الحماسة في صوت جاسبر واضحة جداً عندما قال: «عظيم!»... وجدت نفسي متحمسة أيضاً... لم أكن متيبسة خوفاً.

نهضت أليس ومضت إلى الباب برشاقة قادرة على تحطيم قلب أي راقصة باليه... «سأرى إن كان كارلايل مستعداً لمرافقتنا».

قالت جاسبر مازحاً: «وكأنك لا تعرفين!»... ذهبا مسرعين وأغلق جاسبر الباب.

سألت إدوارد: «ماذا سنلعب؟»

قال موضحاً: «أنت ستتفرجين. أما نحن فسنلعب البيسبول».

فتحت عيني دهشة: «مصاصو دماء يحبون البيسبول!»

قال بوقار مازح: «إنها اللعبة الشعبية الأمريكية!»

17

اللعبة

كان المطر قد بدأ رذاذاً خفيفاً عندما وصلنا إلى شارعي. حتى هذه اللحظة كنت لا أشك في أن إدوارد يعتزم البقاء معي ريثما أمضي ساعات قليلة في العالم الحقيقي.

ثم رأيت السيارة السوداء. سيارة الفورد حائلة اللون، واقفة أمام بيت تشارلي وسمعت إدوارد يتمتم شيئاً بصوت خشن خفيض غير مفهوم.

رأيت جايكوب بلاك واقفاً خلف كرسي والده المتحرك مائلاً برأسه بعيداً عن المطر تحت الرواق الأمامي. كان وجه بيلي جامداً كالحجر عندما أوقف إدوارد سيارتي عند الحاجز الحجري. وكان جايكوب ينظر إلينا بتعبير ميت.

قال إدوارد بصوت حانق منخفض: «تجاوز الأمر حده».

قلت مخمنة: «لقد جاء من أجل تحذير تشارلي!»... كان خوفي أكبر من غضبي.

أومأ إدوارد برأسه مجيباً نظرة بيلي عبر المطر... ضاقت عيناه.

شعرت بضعف، لكنني ارتحت لأن تشارلي لم يصل إلى المنزل بعد.

اقترحت: «دعني أتولى الأمر»... جعلتني نظرة إدوارد القاتمة أشعر بالقلق.

فاجأتني موافقته: «لعل هذا أفضل. لكن كوني يقظة... ليس لدى الطفل أي فكرة».

لم أستطع التغاضي عن كلمة ''طفل''، فقلت أذكره: «اليس جايكوب أصغر مني بكثير».

نظر إلي فرأيت غضبه يخبو فجأة. وقال مبتسماً: «أوه! أعرف هذا».

تنهدت واضعة يدي على مقبض الباب.

قال آمراً: «أدخليهم إلى المنزل حتى أستطيع الذهاب. سأعود عند الغسق».

قلت: «هل تريد سيارتي؟» لكنني فكرت في اللحظة نفسها في ما يمكن أن أقوله لتشارلي لتفسير عدم وجودها.

نظر إلي وقال: «أستطيع أن أمشي أسرع من سيارتك».

قلت بحزن وتوق: «لست مضطراً للذهاب».

ابتسم عندما رأى وجهي كئيباً: «الواقع أنني مضطر... بعد أن تتخلصي منهما»... ألقى نظرة مظلمة صوب جايكوب ووالده... «يبقى عليك تحضير تشارلي للقاء صديقك الجديد». قال هذا مبتسماً ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه كلها.

قلت بصوت كالأنين: «شكراً لك!»

ابتسم ابتسامته العابثة التي أحبها ثم وعدني: «أعود سريعاً»... ألقى نظرة مسرعة إلى الرواق ثم انحنى وقبلني بسرعة تحت حافة فكي. قفز قلبي عنيفاً ونظرت بدوري نحو الرواق. لم يعد وجه بيلي جامداً... كان كفاه قابضين على ذراعي الكرسي.

كررت كلمته: «سريعاً!»... فتحت الباب وخرجت إلى المطر. شعرت بنظراته على ظهري عندما مضيت مهرولة تحت الرذاذ الناعم.

«مرحباً بيلي! مرحباً جايكوب!»... ألقيت التحية بأقصى قدر من البهجة استطعته... «سيغيب تشارلي طيلة اليوم... أرجو ألا تكونا منتظرين منذ فترة طويلة».

قال بيلي بنبرة خفيضة: «لم ننتظر طويلاً!»... كانت عيناه السوداوان ثاقبتين... «أردت فقط إحضار هذه»... وأشار إلى كيس ورقي بني في حضنه.

قلت: «شكراً!»... رغم أنني لم تكن لدي فكرة عن محتوياته... «لماذا لا تدخلان قليلاً ريثما تجف ثيابكما؟»

حاولت تجاهل نظرته المتفحصة حين فتحت الباب وجعلتهما يدخلان قبلي.

سمحت لنفسي بإلقاء نظرة خاطفة صوب إدوارد حين أغلقت الباب... قلت: «دعني آخذ الكيس!»... كان بيلي ينتظر ساكناً تماماً... كانت عيناه جادتين.

قال بينما ناولني الكيس: «عليك وضعه في البراد... فيه سمك مقلي منزلي من هاري كليرووتر... أكلة تشارلي المفضلة. البراد يحافظ على جفافها»... ابتسم بيلي.

قلت من جديد: «شكراً!»... لكن بصدق هذه المرة... «لقد استنفذت طرق إعداد السمك... وسوف يجلب تشارلي كمية جديدة الليلة».

«هل ذهب إلى الصيد من جديد؟»... سأل بيلي وقد لمعت عيناه قليلاً... «هناك... في المكان المعتاد؟ قد أعرج لأراه».

كذبت بسرعة: «لا!... إنه ذاهب إلى مكان جديد... لا أعرف أين!»

انتبه لتغير تعبير وجهي فجعله ذلك يقظاً... قال: «جايكوب!...

لم لا تذهب إلى السيارة وتحضر صورة ريبيكا الجديدة؟ سأتركها لتشارلي أيضاً».

سأله جايكوب بصوت نكد: «أين هي؟»... نظرت إليه لكنه كان قد توجه نحو الباب عاقداً حاجبيه.

قال بيلي: «أظن أنني رأيتها في الصندوق... قد تحتاج إلى البحث قليلاً».

خرج جايكوب إلى المطر متلكئاً.

تواجهنا صامتين. بعد ثوان قليلة صار الصمت مزعجاً فاستدرت متجهة إلى المطبخ. سمعت صوت عجلات كرسيه تصر على أرضية الغرفة عندما تبعني.

وضعت الكيس في رف البراد العلوي المزدحم واستدرت لأنظر إليه... لم أستطع قراءة وجهه ذي الغضون العميقة.

قلت بصوت يقارب الفظاظة: «لن يعود تشارلي قبل وقت طويل».

أومأ برأسه موافقاً... ولم يقل شيئاً.

قلت: «أشكرك ثانية على السمك المقلي».

تابع الإيماء برأسه فتنهدت وعقدت ذراعي على صدري.

بدا كأنه شعر بأنني أقلعت عن محاولة الكلام في توافه الأمور فقال: «بيلا!»... ثم صمت متردداً.

انتظرت.

قال مجدداً: «بيلا!... تشارلي من أعز أصدقائي».

«نعم!»

نطق كل كلمة بعناية بصوته المقعقع: «لاحظت أنك تمضين وقتاً طويلاً مع أحد أبناء كولن».

قلت من جديد: «نعم!»

ضاقت عيناه: «قد لا يكون هذا من شأني. لكنني لا أظنها فكرة جيدة».

قلت موافقة: «أنت محق!... هذا ليس من شأنك».

ارتفع حاجباه الأشيبان عندما سمع نبرتي: «لعلك لا تعرفين هذا... لكن لأسرة كولن سمعة سيئة في محميتنا».

قلت بصوت جامد: «الحقيقة... لا أعرف هذا!»... فاجأته إجابتي... «لكني أعتقد أنهم لا يستحقون هذه السمعة، أليس هذا صحيحاً؟ لأنهم لم يذهبوا إلى المحمية أبداً... صحيح؟»... بدا أن تذكيري الواضح له بالاتفاق الذي يلزم قبيلته ويحميها قد أفحمه... قال موافقاً بعينين يقظتين: «هذا صحيح!... يبدو أنك... يبدو أن لديك معلومات واسعة عن أسرة كولن... أوسع مما كنت أتوقع!»

حدقت فيه وقلت: «لعلها أفضل حتى من معلوماتك!»

شد على شفتيه السميكتين مفكراً في عبارتي ثم قال: «لعلها كذلك!»... لكن الفطنة التمعت في عينيه... «وهل معلومات تشارلي مثل معلوماتك؟»

لقد وجد نقطة الضعف في دفاعي... قلت: «تشارلي يحب أسرة كولن كثيراً»... من الواضح أنه أدرك مراوغتي... كان تعبير وجهه غير مرتاح، لكنه لم يفاجأ... قال: «ليس هذا من شأني... لكنه قد يكون من شأن تشارلي».

«مع أنه قد يكون من شأني أنا سواء كنت أرى أنه من شأن تشارلي أو ليس من شأنه، صحيح!»

لا أعرف إن كان قد فهم عبارتي المشوشة هذه التي حاولت فيها عدم الإيحاء بأي مهادنة... يبدو أنه فهمها. راح يفكر فيها في حين كان وقع المطر يشتد على السقف. كان هو الصوت الوحيد الذي يكسر الصمت.

وافقني أخيراً: «نعم!... أظن أنه من شأنك أيضاً».

صدرت عني زفرة راحة: «شكراً يا بيلي».

قال مطالباً: «فكري فقط فيما تفعلين يا بيلا».

قلت موافقة: «طيب!»

عبس وقال: «ما أقصد قوله هو: لا تفعلي ما تفعلينه الآن!»

نظرت في عينيه فلم أجد فيهما إلا الاهتمام بي والقلق من أجلي... لم أجد شيئاً أقوله.

في تلك اللحظة انفتح باب المنزل مصدراً صوتاً عالياً جعلني أقفز من مكاني. وصل صوت جايكوب المتذمر قبل أن يصل صاحبه: «لم أجد الصورة في السيارة». كان كتفا قميصه مشبعين بماء المطر... كان الماء يقطر من شعره أيضاً عندما رأيناه يدخل الصالة.

قال بيلي وهو يدور بكرسيه ليواجه ابنه: «هممم! أظن أنني نسيتها في البيت».

فتح جايكوب عينيه بطريقة مأساوية: «عظيم!»

«لا بأس! بيلا... أخبري تشارلي»... توقف برهة ثم تابع... «أقصد أخبريه أننا أتينا!»

قلت: «سأخبره».

فوجئ جايكوب: «هل سنذهب بهذه السرعة؟»

أوضح له بيلي وهو يدفع كرسيه متجاوزاً إياه: «سوف يتأخر تشارلي كثيراً».

بدت خيبة الأمل على جايكوب: «أوه!... طيب... أراك فيما بعد يا بيلا».

قلت موافقة: «طبعاً!»

قال بيلي محذراً: «انتبهي لنفسك»... فلم أجبه.

ساعد جايكوب والده في الخروج. لوحت بيدي مودعة وأنا ألقي نظرة سريعة إلى سيارتي الخالية الآن. ثم أغلقت الباب قبل أن يذهبا.

وقفت في الممر قليلاً مصغية إلى صوت سيارتهما عندما تراجعت قليلاً ثم انطلقت ذاهبة. بقيت حيث أنا أنتظر زوال قلقي وانزعاجي. وعندما خف توتري بعض الشيء صعدت إلى غرفتي حتى أغيّر ملابسي.

جربت قميصين مختلفين... لم أكن أعرف ما الذي يجب أن أتوقعه الليلة. بدا ما جرى الآن قليل الأهمية عندما رحت أفكر فيما هو آتٍ. بدأت أفهم الآن... دون تأثير جاسبر وإدوارد... سبب عدم خوفي من قبل. تخليت سريعاً عن محاولة اختيار ملابسي فارتديت بنطلوناً من الجينز وقميصاً قطنياً قديماً... كنت أعرف أنني سأظل مرتدية معطفي المطري طيلة الليل.

رن الهاتف فاندفعت إلى الأسفل حتى أجيب. صوت واحد أريد سماعه الآن... أي صوت غيره سيخيب أملي. لكنني كنت أعرف أنه لو أراد الكلام معي لوجدته واقفاً في غرفتي على الأرجح.

قلت مبهورة الأنفاس: «ألو!»

جاءني صوت جيسيكا: «بيلا! هذه أنا».

«أوه! أهلاً جيسيكا»... كافحت لحظة حتى أعود إلى العالم الحقيقي. أحسست أن شهوراً مضت، لا أياماً، منذ أن تحدثت معها آخر مرة... «كيف كانت الحفلة؟»

قالت سعيدة: «كانت جميلة جداً»... لم تكن بحاجة إلى أي سؤال إضافي فاندفعت تسرد تفاصيل الليلة الماضية دقيقة بدقيقة. رحت أقول «نعم» و«هممم» و«أوه» في الأماكن المناسبة. لكن التركيز على حديثها لم يكن سهلاً. ظلت عيناي تلتفان إلى النافذة في محاولة لتقدير كمية الضوء الباقية في السماء من خلف السحب الكثيفة.

سألتني جيسيكا منزعجة: «هل سمعت ما قلته يا بيلا؟»

«آسفة!... ماذا؟»

«قلت لك إن مايك قبلني! هل تصدقين هذا؟»

«رائع يا جيسيكا».

قالت متحدية: «إذن، وماذا فعلت أنت الليلة الماضية؟»... مازال يبدو في صوتها انزعاج بسبب قلة انتباهي. أو لعلها انزعجت لأنني لم أسأل عن التفاصيل.

«الحقيقة... لا شيء! تجولت قليلاً في الخارج حتى أستمتع بالشمس».

سمعت صوت سيارة تشارلي تقف أمام المنزل.

«هل سمعت شيئاً جديداً من إدوارد كولن؟»

سمعت صوت إطباق الباب وسمعت صوت تشارلي تحت السلم يعلق معطفه.

«همم!»... قلت مترددة غير واثقة مما أقول.

«مرحباً يا طفلتي»... حياني تشارلي في طريقه إلى المطبخ فلوحت له بيدي.

سمعت جيسيكا صوته: «أوه! والدك في المنزل. لا بأس... نتحدث غداً. أراك في درس المثلثات».

«أراك غداً يا جيسيكا!»... وضعت السماعة.

قلت: «مرحباً أبي!»... كان يغسل يديه في المجلى... «أين السمك؟»

«وضعته في الثلاجة».

«سوف أخرج بعض القطع قبل أن تتجمد... أحضر بيلي بعد الظهر بعض الأسماك المقلية من عند هاري كليرووتر»... حاولت أن أبدو متحمسة.

أشرقت عينا تشارلي: «حقاً!... هذه أكلتي المفضلة».

تابع تشارلي غسل يديه فيما رحت أحضر العشاء. لم يستغرق الأمر طويلاً قبل أن نجلس إلى الطاولة ونبدأ الأكل صامتين. كان تشارلي مستمتعاً بالسمك المقلي. رحت أفتش يائسة عن الطريقة المناسبة لأداء مهمتي... حاولت التفكير في طريقة لفتح الموضوع.

سألني: «ماذا فعلت اليوم؟» فانتزعني من أفكاري.

«تجولت قليلاً حول المنزل بعد الظهر...» جزء صغير من نهاية بعض الظهر في الحقيقة. حاولت أن أحافظ على صوتي طبيعياً، لكني شعرت بقرصة في معدتي... «وفي الصباح ذهبت إلى بيت كولن».

سقطت الشوكة من يد تشارلي وسألني مدهوشاً: «بيت الدكتور كولن؟»

تظاهرت أنني لم ألاحظ دهشته: «نعم!»

«ماذا ذهبت تفعلين هناك؟»... لم يلتقط شوكته بعد.

«لدي موعد مع إدوارد كولن الليلة... وقد أراد أن يعرفني على أبويه... يا أبي».

اندفع الدم إلى وجهه فسألته: «أبي! هل أنت بخير؟»

قال بصوت مرتفع: «هل ستخرجين مع إدوارد كولن؟»

«ظننت أنك تحب أسرة كولن!»

أجابني بحدة: «إنه أكبر منك كثيراً».

صححت له: «نحن في صف واحد»... كان محقاً أكثر مما يمكن أن يتخيل.

«مهلاً!...» توقف قليلاً... «من منهم إدوين؟»

«اسمه إدوارد... وهو أصغرهم... إنه ذو الشعر البني المحمر»... الجميل... الذي يشبه الآلهة...

«أوه... طيب! أظن أن هذا... أفضل. لا أحب نظرة الكبير. أعرف أنه ولد لطيف وكل شيء، لكنه يبدو... أكبر مما يجب بالنسبة لك. وهل إدوين صديقك؟»

«اسمه إدوارد يا أبي».

«هل هو صديقك؟»

«نوعاً ما... أظن!»

«قلت البارحة أنك لست مهتمة بأحد في البلدة»... لكنه التقط الشوكة من جديد فعرفت أن اللحظة الصعبة انتهت.

«امممم!... إدوارد لا يعيش في البلدة يا أبي».

ألقى إلي نظرة استخفاف وهو يمضغ لقمته.

تابعت: «على كل حال... مازال الأمر في بدايته... لا تحرجني في الكلام... موافق؟»

«متى سيأتي؟»

«سيكون هنا خلال دقائق».

«أين يأخذك؟»

زفرت بصوت مرتفع: «أرجو أن تتخلى الآن عن طريقة محاكم التفتيش الإسبانية! سنذهب لنلعب البيسبول مع أسرته».

تغضن وجهه ثم ضحك أخيراً: «أنت!... ستلعبين البيسبول!»

«الواقع أنني سأكون متفرجة أكثر الوقت».

قال بصوت مرتاب: «يبدو أن هذا الشاب أعجبك فعلاً!»

تنهدت وفتحت عيني واسعتين حتى أريحه.

سمعت صوت سيارة تقف أمام المنزل. قفزت من الكرسي وبدأت أنظف الصحون.

«اتركي الصحون!... سأنظفها أنا الليلة. أنت تفرطين في دلالي».

رن جرس الباب فذهب تشارلي ليفتحه... كنت على مسافة نصف خطوة من خلفه.

لم أدرك شدة المطر في الخارج. كان إدوارد واقفاً في ضوء مصباح الرواق أمام الباب وكان يبدو في معطفه المطري مثل عارض أزياء في أحد الإعلانات.

«تفضل يا إدوارد».

تنفست الصعداء عندما نطق تشارلي اسمه بالشكل الصحيح.

قال إدوارد بصوت ملؤه الاحترام: «شكراً سيدي رئيس الشرطة».

«نادني تشارلي... هات! أعطني معطفك».

«شكراً سيدي».

«اجلس يا إدوارد».

جلس إدوارد بحركة انسيابية على الكرسي الوحيد في الغرفة فأجبرني على الجلوس بجانب رئيس الشرطة على الأريكة. قذفته بنظرة غاضبة فغمزني من خلف ظهر تشارلي.

«سمعت أنك ستأخذ فتاتي لتتفرج على لعبة البيسبول!»... في هذه الولاية فقط، يكون عادياً أن يذهب الناس لممارسة الرياضة في الهواء الطلق رغم المطر الشديد.

«نعم يا سيدي... هكذا اتفقنا»... لم تظهر أي دهشة على إدوارد من أنني قلت الحقيقة لوالدي... لعله كان يستمع إلينا!

«عظيم! أظن أن هذا يمنحك مزيداً من الطاقة».

ضحك تشارلي وشاركه إدوارد الضحك.

نهضت واقفة: «كفاكم سخرية مني... فلنذهب!»... عدت إلى ردهة المنزل وأخذت سترتي. سارا من خلفي... قال تشارلي: «لا تتأخري كثيراً!»

وعده إدوارد: «لا تقلق يا تشارلي... سأعيدها إلى البيت باكراً».

«انتبه لابنتي!»

أصدرت صوتاً متذمراً، لكنهما تجاهلاني.

«ستكون بأمان معي... أعدك بهذا يا سيدي».

لم يكن تشارلي ليشك في صدق إدوارد... كان الصدق ينضح من كل كلمة قالها.

خرجت... ضحك الاثنان... ثم تبعني إدوارد.

تجمدت عند مدخل المنزل. رأيت... خلف سيارتي... سيارة جيب عملاقة. كان ارتفاع عجلاتها أعلى من خصري... وكانت مصابيحها الأمامية والخلفية محمية بقضبان معدنية... إضافة إلى أربعة كشافات ضخمة مثبتة على مصدمها. كان لونها أحمر لامعاً.

أطلق تشارلي صفرة خفيفة ثم قال لنا مازحاً: «ضعا أحزمة الأمان».

لحق بي إدوارد ليفتح لي باب السيارة. قدرت بنظري المسافة وتأهبت للقفز. تنهد إدوارد ثم رفعني إلى المقعد بيد واحدة... ليت تشارلي لا يلاحظ هذا.

عندما مضى إدوارد بخطوات عادية... بشرية... ليجلس في مقعده حاولت وضع حزام الأمان لكني وجدت فيه كثيراً من المشابك فسألته عندما فتح بابه: «ما هذا كله؟»

«إنها أحزمة من أجل السير خارج الطريق... في البرية!»

«أوه!»

حاولت العثور على المكان الصحيح لكل مشبك، لكن العملية كانت بطيئة. تنهد إدوارد من جديد ومد يده حتى يساعدني. سرني أن المطر الشديد ما كان يسمح لي برؤية تشارلي بوضوح عند باب المنزل.

هذا يعني أنه لم يكن يستطيع أيضاً رؤية يد إدوارد على رقبتي... تخليت عن محاولة مساعدته ورحت أركز على عدم اللهاث.

شغل إدوارد المحرك وسار بالسيارة مبتعدة عن المنزل.

«إنها... هممم... جيب كبيرة جداً».

«إنها سيارة إيميت. توقعت أن لا ترغبي في الجري كل تلك المسافة».

«أين تحتفظون بهذه السيارات؟»

«لقد حولنا أحد المباني الخارجية إلى مرآب».

«ألن تضع حزام الأمان؟»

ألقى علي نظرة غير مصدقة... ثم انتبهت: «الجري كل تلك المسافة؟ هل تقصد أننا سنجري جزءاً من الطريق؟»... ارتفع صوتي قليلاً.

ابتسم: «لن يكون عليك أن تجري!»

«سأصاب بالدوار بسبب الجري».

«ستكونين بخير إذا أبقيت عينيك مغمضتين».

عضضت شفتي محاولة كبح خوفي.

انحنى نحوي وقبل جبهتي... سمعته يئن فنظرت إليه بدهشة.

قال موضحاً: «رائحتك طيبة جداً في المطر».

سألته بحذر: «هل هذا جيد أم سيّئ؟»

أطلق زفرة وقال: «الاثنان معاً... دائماً... الاثنان معاً!»

لا أعرف كيف كان يجد طريقه في الظلام والمطر الغزير. لكنه وجد طريقاً فرعياً كان أقل من طريق وأكثر من درب جبلي. كان الحديث مستحيلاً فترة طويلة من الزمن لأن جسمي كان يقفز فوق

المقعد قفزاً عنيفاً. لكن إدوارد بدا مستمتعاً بالقيادة في ذلك الطريق... كانت ابتسامة كبيرة تعلو وجهه طيلة المسافة.

ثم... بلغنا آخر الطريق. كانت الأشجار تشكل جدراناً خضراء حول الجيب من ثلاثة اتجاهات. تحول المطر إلى رذاذ خفيف... كان يخف كل لحظة. وبدت السماء أكثر سطوعاً من خلف الغيوم.

«آسف يا بيلا! بعد هذه النقطة علينا المتابعة على الأقدام».

«هل تعرف؟ سأنتظر هنا!»

«أين ذهبت شجاعتك كلها؟ كنت شجاعة جداً هذا الصباح».

«لم أنس المرة الأخيرة!»...

خرج من السيارة ودار حولها حتى صار عند بابي... مثل لمح البصر. بدأ يفك أحزمتي.

قلت محتجة: «سأفكها بنفسي... اذهب أنت».

قال: «هممم...» وانتهى من فكها... «يبدو أنني سأعبث بذاكرتك».

أخرجني من الجيب قبل أن أستطيع الرد وأوقفني على الأرض. توقف رذاذ المطر الآن... لقد كانت أليس محقة!

سألته بعصبية: «تعبث بذاكرتي... كيف؟»

«شيء من هذا القبيل!»... كان ينظر إلي بانتباه وحرص، لكن الدعابة كانت تلوح عميقاً في عينيه. وضع يديه الاثنتين على السيارة فصار رأسي بينهما ثم انحنى إلى الأمام فجعلني أضغط بظهري على الباب. انحنى أقرب فأقرب... صار وجهه قريباً جداً من وجهي... ما عاد لدي متسع للهرب.

«الآن...!» قالها همساً فشوشت أنفاسه أفكاري... «ما الذي يشغل بالك بالضبط؟»

«آ... الاصطدام بإحدى الأشجار... ثم الموت. ثم الإصابة بالدوار!»

حاول كبح ابتسامته... ثم خفض رأسه فوضع شفتيه الباردتين برقة على أسفل رقبتي... وتمتم: «هل مازلت قلقة الآن؟»

كافحت حتى أحافظ على تركيز أفكاري: «نعم! خائفة من الاصطدام بالأشجار ومن الإصابة بالدوار».

سارت شفتاه من أسفل رقبتي حتى ذقني... كانت أنفاسه الباردة تدغدغ جلدي.

همست شفتاه عند ذقني: «والآن؟»

قلت لاهثة: «الأشجار!... دوار السرعة!»

رفع وجهه وقبل جفوني: «بيلا!... هل تعتقدين حقاً أنني يمكن أن أصطدم بشجرة؟»

«أنت... لا! قد أصطدم أنا»... ما كان صوتي يوحي بأي ثقة... شم رائحة نصر سهل.

راح يقبلني ببطء منتقلاً فوق وجنتي حتى توقف عند زاوية فمي تماماً: «هل يمكن أن أدع شجرة تصيبك؟»... مست شفتاه شفتي السفلى المرتعشة مساً خفيفاً.

همست: «لا!»... كنت أعرف أنني نسيت جزءاً من دفاعي عن موقفي، لكنني لم أستطع تذكر ذلك الجزء.

«أنت ترين إذن أن لا شيء يدعو للخوف!»... قال هذا فيما راحت شفتاه تتحركان نحو شفتي.

همست مستسلمة: «صحيح!»

ثم... أمسك وجهي بين يديه بحركة خشنة قليلاً وقبلني بشغف... راحت شفتاه تضغطان فوق شفتي.

لا عذر لي أبداً عن سلوكي. صرت أعرف أكثر الآن... لكنني لم

أستطع منع نفسي من الاستجابة... تماماً كما فعلت في المرة الأولى. بدلاً من البقاء بأمان دون أي حركة ارتفعت ذراعيّ وانعقدتا بإحكام خلف رقبته والتحمت بجسمه الحجري التحاماً... تنهدت... وانفرجت شفتاي.

تراجع إلى الخلف مترنحاً فاكاً قبضتيّ عن رقبته دون جهد يذكر... قال لاهثاً: «بيلا! ستكونين سبب موتي... أقسم أنك ستكونين سبب موتي».

انحنيت إلى الأمام ووضعت كفي على ركبتي حتى لا أقع.. غمغمت محاولة التقاط أنفاسي: «أنت لا تموت!»

زمجر قائلاً: «كنت أظن هذا قبل أن أعرفك أنت... الآن، دعينا نذهب من هنا قبل أن أفعل شيئاً غبياً حقاً».

ألقى بي على ظهره كما فعل في المرة الماضية... كنت أرى الجهد الزائد الذي بذله حتى تكون حركته رقيقة كما في المرة الأولى. أطبقت ساقيّ على خصره ولففت ذراعيّ حول عنقه كأني أخنقه.

حذرني بصوت عنيف: «لا تنسِ إغماض عينيك».

دفنت وجهي في كتفه... تحت ذراعي.. وشددت جفني عيني المغمضتين.

لم أكد أشعر بالحركة. أحسست به ينزلق تحتي. لكن... لعله يسير على تلك الدرب سير الهوينا... كانت الحركة سلسلة إلى أقصى حد. ألح علي إغراء فتح عيني قليلاً حتى أنظر إن كان يطير حقاً عبر الغابة كما فعل في المرة الماضية... لكنني قاومت الإغراء. لم يكن الأمر يستحق الإصابة بذلك الدوار المخيف. قنعت بالإصغاء إلى صوت تنفسه الهادئ.

لم أعرف أننا توقفنا إلا عندما مد يده فلمس شعري: «انتهى الأمر يا بيلا!»

تجرأت... ففتحت عيني... نعم... لقد توقفنا. ففككت يدي وذراعي وانزلقت إلى الأرض فسقطت على ظهري.

صدرت عني آهة عندما اصطدمت بالأرض الرطبة... نظر إلي نظرة غير واثقة... لم يذهب غضبه بعد... كان غضبه يصارع رغبته في السخرية مني. لكن تعبير وجهي المضطرب حسم الصراع فجعله ينفجر ضاحكاً. نهضت متجاهلة ضحكاته... رحت أزيل الوحل عن نفسي وأنفض ظهر سترتي بيدي. زاد هذا في ضحكه فغضبت ومشيت بسرعة متوغلة في الغابة... مبتعدة عنه.

أحسست بذراعه حول خصري: «أين تذهبين يا بيلا؟»

«ذاهبة لأتفرج على لعبة البيسبول. يبدو أنك لم تعد مهتماً بها... لكنني واثقة من أن الآخرين سيلعبون... حتى من غيرك!»

«أنت ذاهبة في اتجاه خاطئ!»

استدرت دون أن أنظر إليه... ومضيت في الاتجاه المعاكس... أمسك بي من جديد.

«لا تكوني مجنونة... لم أستطع منع نفسي من الضحك. ليتك رأيت شكل وجهك!»... ضحك غير قادر على كبح نفسه.

سألته رافعةً حاجبي: «حقاً! هل أنت الشخص الوحيد المسموح له بأن يغضب؟»

«لم أغضب منك أنت!»

قلت بصوت لاذع مقلدة كلامه: «بيلا! ستكونين سبب موتي».

«لم أكن غاضباً... كنت أقرر حقيقة فحسب».

حاولت الاستدارة بعيداً عنه مرة ثانية، لكنه أمسكني بسرعة فقلت بإصرار: «لقد كنت غاضباً!»

«نعم!»

«لكنك قلت الآن... !»

«قلت إنني لم أغضب منك. ألا تدركين هذا يا بيلا؟»... صار متوتراً بشكل مفاجئ وغابت كل آثار المزاح... «ألا تفهمين؟»

قلت: «أفهم ماذا؟»... حيرني انقلاب مزاجه بقدر ما حيرتني كلماته.

«أنا لا أغضب منك أبداً... كيف أستطيع أن أغضب منك؟ أنت الشجاعة... الواثقة من نفسك... الدافئة...»

همست: «لماذا إذن؟» تذكرت ما جعله يبتعد عني... تذكرت ما كنت أفسره دائماً بأنه قنوط مبرر... قنوط بسبب ضعفي وبطئي وردود أفعالي البشرية الخاطئة...

وضع كفيه باحتراس على جانبي وجهي وقال برقة: «أنا أغضب من نفسي... أغضب لأنني أحس نفسي عاجزاً عن عدم تعريضك للخطر. وجودي نفسه خطر عليك. أنا أكره نفسي أحياناً. يجب أن أكون أقوى... يجب أن أستطيع...»

وضعت يدي على فمه: «كفى!»

أمسك بيدي وأبعدها عن شفتيه، لكنه وضعها على وجهه وقال: «أحبك!... ليس هذا عذراً لما أفعله... لكنه صحيح».

هذه أول مرة يقول إنه يحبني... بهذه الكلمات كلها. لعله لم يدرك الأمر... أما أنا فقد أدركته.

تابع كلامه: «والآن... حاولي من فضلك أن تحسّني سلوكك»... ثم انحنى ومست شفتاه شفتي.

بقيت ساكنة كما ينبغي... ثم تنهدت: «تذكر أنك وعدت رئيس الشرطة بأن تعيد ابنته إلى البيت باكراً! من الأفضل أن نذهب».

«حاضر يا سيدتي».

ابتسم ابتسامة حزينة ثم أفلتني... لم يعد يمسكني إلا من يدي. قادني خطوات قليلة عبر نباتات السرخس الطويلة الرطبة وعبر الطحالب المتدلية من الأشجار... ثم انعطفنا حول شجرة ضخمة... وصلنا! صرنا عند حافة حقل منبسط هائل عند حضن قمم جبال أولمبيك. كانت مساحة الحقل ضعفي مساحة ملعب البيسبول.

رأيت الجميع هناك: إيزمي وإيميت وروزالي... جالسين على صخور عارية كانت أقربها تبعد عنا نحو مئة متر. وعلى مسافة أبعد رأيت جاسبر وأليس... كانت بينهما مسافة لا تقل عن 400 متر، وكانا يتقاذفان شيئاً جيئة وذهاباً... لكنني لم أر أي كرة بيسبول. بدا لي أن كارلايل كان يحدد أماكن القواعد... هل يمكن أن تكون متباعدة إلى هذا الحد؟

نهض الثلاثة عن الصخور عندما ظهرنا. نظرت إيزمي باتجاهنا... ثم نظر إيميت أيضاً بعد نظرة طويلة صوب ظهر روزالي التي نهضت برشاقة وابتعدت نحو الحقل دون أن تنظر في اتجاهنا. أحسست بمعدتي تتقلص لذلك.

سألت إيزمي وهي تقترب مني: «هل كان ما سمعناه صوتك يا إدوارد؟»

قال إيميت: «بدا مثل صوت دب يختنق!»

ابتسمت لإيزمي مترددة وقلت: «نعم! كان صوته هو».

قال إدوارد موضحاً: «كانت بيلا مضحكة جداً دون أن تقصد ذلك!»... قالها بسرعة منهياً الموضوع.

كانت أليس قد تركت موقعها وأقبلت نحونا جرياً... أو رقصاً! وقفت عندنا تماماً وقالت: «حان الوقت».

مع كلمتها تماماً انفجر هدير رعد عميق فهز الغابة خلفنا ثم انداح غرباً نحو البلدة.

غمزني إيميت بعينه وقال دون كلفة: «أليس الرعد مخيفاً؟»

أمسكت أليس بيد إيميت قائلة: «فلنذهب!»... وانطلقا في الحقل الواسع... كانت تجري كالغزال... أما هو فما كانت مقارنته بالغزال سهلة رغم رشاقته وسرعته.

سألني إدوارد بعينين لامعتين... متشوقتين: «هل أنت مستعدة للعبة؟»

حاولت إظهار حماسة مناسبة: «أمسك بهم!»

ابتسم ومسح بيده على شعري ثم انطلق خلفهما. كان جريه أكثر عنفاً... كالفهد لا كالغزال... سرعان ما لحق بهما. كان مشهد تلك الرشاقة والقوة شيئاً يقطع الأنفاس.

سألتني إيزمي بصوتها الموسيقي الهادئ: «هل نذهب؟»... فأدركت أنني كنت أنظر إليه فاغرة فمي. أغلقت فمي وأومأت برأسي. سرنا... حافظت إيزمي على مسافة خطوات قليلة بيننا فتساءلت في نفسي عما إذا كانت تحاول عدم إخافتي. كانت خطواتها تساير خطواتي دون أن يبدو عليها أي نفاذ صبر.

سألتها بخجل: «ألن تلعبي معهم؟»

«لا! أفضّل دور الحكم»... أضافت موضحة: «أحب أن أجعلهم صادقين».

«هل يحبون الغش في اللعب؟»

«أوه... نعم! انتظري حتى تسمعي مجادلاتهم! الواقع أنني أود أن لا تسمعي تلك المجادلات فسوف تجعلك تظنين أنهم ترعرعوا ضمن قطيع من الذئاب».

ضحكت للمفاجأة: «أنت تتكلمين مثل أمي!»

ضحكت أيضاً: «نعم!... أعتبرهم أبنائي من معظم النواحي. لا أستطيع تجاوز غريزة الأمومة... هل قال لك إدوارد إنني فقدت طفلاً؟»

تمتمت: «لا!»... دهشت... حاولت إدراك بعد الزمن الذي تتذكره.

«نعم! كان طفلي الأول والوحيد. مات بعد أيام قليلة من ولادته... ذلك المسكين الصغير!» تنهدت وتابعت: «لقد كسر قلبي... هذا ما جعلني ألقي بنفسي من فوق الجرف».

قلت متلعثمة: «قال إدوارد إنك سقطت!»

ابتسمت: «إنه لطيف دائماً!... كان إدوارد أول أبنائي الجدد. أنظر إليه بهذه الطريقة دائماً رغم أنه أكبر مني، من ناحية واحدة على الأقل»... ابتسمت لي ابتسامة دافئة... «هذا سبب سعادتي بأنه وجدك يا عزيزتي»... خرجت كلمة عزيزتي من شفتيها طبيعية جداً... «لقد كان الوحيد بيننا مدة طويلة جداً... يؤلمني أن أراه وحيداً».

سألتها: «أنت لا ترين إذن...» ترددت... «أنني... لست مناسبة له؟»

«لا!»... فكرت قليلاً... «أنت من يريدها. سينجح الأمر... على نحو ما!»... قالت هذا وتغضن جبينها قلقاً... انفجر الرعد من جديد.

توقفت إيزمي... لابد أننا وصلنا إلى حافة الملعب. بدا لي أنهم انتظموا في فريقين. كان إدوارد في الناحية البعيدة من الجهة اليسرى. وكان كارلايل واقفاً بين القاعدتين الأولى والثانية. أما أليس فكانت تمسك بالكرة... كانت واقفة عند نقطة الإرسال.

كان إيميت يلوح بمضرب من الألمنيوم وكان المضرب يصفر في الهواء ولا تكاد العين تراه لسرعته. انتظرت حتى يقترب من أليس ليتلقى الكرة. لكنني أدركت أنه قد اتخذ موقعه فعلاً وأنه أبعد بكثير من الحد المعقول. كان جاسبر خلفه بخطوات قليلة حتى يلتقط الكرة من أجل الفريق الآخر. لم يكن أي منهم يرتدي قفازات البيسبول.

صاحت إيزمي بصوت صاف واضح... علمت أن إدوارد يسمعه من مكانه البعيد: «بدأت اللعبة».

وقفت أليس منتصبة دون أي حركة ظاهرة. كانت تمسك الكرة بيديها الاثنتين عند وسطها... ثم... بسرعة خاطفة مثل لسعة الكوبرا... تحركت يدها اليمنى فصارت الكرة في يد جاسبر.

همست لإيزمي: «هل هذه نقطة؟»

أجابت: «تكون نقطة إذا لم يضربها».

أرسل جاسبر الكرة من جديد إلى يد أليس المنتظرة. ابتسمت أليس ابتسامة صغيرة ثم تحركت يدها ثانية فقذفت الكرة.

لا أعرف كيف أصاب المضرب تلك الكرة غير المرئية. كان صوت الاصطدام مدوياً مثل الرعد... رددت الجبال صداه. فهمت عند ذلك ضرورة العاصفة الرعدية. طارت الكرة عبر الملعب مثل شهاب وذهبت عميقاً في الغابة المحيطة بنا.

تمتمت: «ضربة كاملة!»

قالت إيزمي: «انتظري!»... راحت تصغي بانتباه رافعة يدها. جرى إيميت مثل لمح البصر حول القواعد... كان كارلايل في إثره تماماً. أدركت أن إدوارد غاب عن الأنظار.

صاحت إيزمي بصوت واضح: «خارج الملعب!»... حدقت غير مصدقة فرأيت إدوارد يخرج من الغابة رافعاً الكرة بيده... كانت ابتسامته الواسعة واضحة من بعيد... حتى لعيني أنا!

قالت إيزمي موضحة: «إيميت هو صاحب الضربة الأقوى... لكن إدوارد هو الأسرع».

تواصلت اللعبة أمام عيني غير المصدقتين. لم أستطع متابعة سرعة طيران الكرة وسرعة تحرك أجسادهم في الملعب. فهمت السبب الآخر الذي جعلهم ينتظرون العاصفة الرعدية حتى يلعبوا الكرة عندما أراد

جاسبر التخلص من ملاحقة إدوارد اللصيقة فضرب الكرة بالأرض باتجاه كارلايل. اعترض كارلايل الكرة وراح يسابق جاسبر حتى القاعدة الأولى. كان صوت اصطدامهما مثل اصطدام صخرتين عملاقتين. قفزت من مكاني قلقة... لكن شيئاً لم يصب أياً منهما.

قالت إيزمي بصوت هادئ: «نقطة!»

أحرز فريق إيميت نقطة... نجحت روزالي في الطيران من قاعدة لأخرى بعد أن التقطت إحدى كرات إيميت الطويلة... ثم حقق إدوارد نقطة ثالثة... ظهر فجأة بجانبي وهو يفيض إثارة... سألني: «ما رأيك؟»

«أمر واحد مؤكد... لن أستطيع بعد الآن أن أجلس لأشاهد مباريات فرق الدرجة الأولى في البيسبول... إنها بليدة جداً!»

قال ضاحكاً: «وكأنك شاهدت كثيراً منها قبل الآن!»

قلت حتى أضايقه: «لقد خاب أملي قليلاً».

سألني محتاراً: «لماذا؟»

«طيب! سيكون أمراً لطيفاً إذا استطعت أن أجد شيئاً واحداً لا تكون بارعاً فيه أكثر من أي شخص آخر في الدنيا».

ابتسم ابتسامته الخبيثة الخاصة فبهر أنفاسي.

قال متوجهاً إلى نقطة البداية: «أنا جاهز!»

كان يلعب بذكاء محافظاً على الكرة منخفضة بعيداً عن متناول يد روزالي المستعدة دائماً... استطاع اجتياز قاعدتين بسرعة البرق قبل أن يتمكن إيميت من قذف الكرة مجدداً. ألقى كارلايل إحدى الكرات بعيداً جداً خارج الملعب... ثم اصطدم بإدوارد فصدر صوت فظيع آلم أذني... بعد ذلك كسبت أليس خمس نقاط رائعة... كانت حصيلة اللعبة تتغير باستمرار مع تقدمها... كانوا يتصايحون ويتشاتمون مثل أي

أولاد يلعبون الكرة في الشارع. كانت إيزمي تنهرهم من حين لآخر طالبة منهم التزام النظام... استمر قصف الرعد... لكن المطر لم يهطل، تماماً مثلما توقعت أليس.

جاء دور كارلايل في الإمساك بالمضرب... ودور إدوارد في التقاط الكرات... لكن أليس زفرت فجأة. كانت عيناي على إدوارد، كالعادة، فرأيت رأسه يلتفت نحوها في نظرة خاطفة. التقت أعينهما فسرى بينهما شيء في لحظة خاطفة... صار إدوارد بجانبي قبل أن يتمكن من سؤال أليس عن الأمر.

خرج صوت إيزمي متوتراً: «أليس!»

همست أليس: «لم أرهم... لست واثقة!»

كانوا قد تجمعوا في تلك اللحظة... سألها كارلايل بصوته الآمر الهادئ: «ما الأمر يا أليس؟»

تمتمت: «كانوا ماضين أسرع بكثير مما ظننت. أعرف الآن أنني رأيت صورة خاطئة».

انحنى جاسبر باتجاهها كمن يحميها. وسألها: «ما الذي تغير؟»

قالت منسحقة الفؤاد كما لو أنها مسؤولة عما أخافها، مهما يكن: «سمعونا نلعب فغيروا طريقهم».

انصبت عليّ نظرات سبعة أزواج من الأعين... لحظة قصيرة ثم انزاحت عني.

قال كارلايل مستديراً نحو إدوارد: «كم من الوقت؟»

عبرت وجهه لمحة من التركيز الشديد ثم قال عابساً: «أقل من خمس دقائق. إنهم يركضون... يريدون أن يلعبوا».

سأله كارلايل: «هل تستطيع اجتياز المسافة كلها؟»... ألقت عيناه نظرة خاطفة صوبي من جديد.

قال إدوارد جازماً: «لا! ليس وأنا أحملها... كما أن آخر ما نريده هو أن يلتقطوا الرائحة فيبدأوا الصيد!»

سأل إيميت أليس: «ما عددهم؟»

قالت بإيجاز: «ثلاثة!»

قال هازئاً: «ثلاثة! فليأتوا»... توترت عضلاته الفولاذية على ذراعه.

فكر كارلايل لجزء من الثانية... بدا ذلك الجزء زمناً طويلاً... بدا إيميت وحده غير قلق. أما البقية فراحوا يحدقون في وجه كارلايل بعيون متسائلة.

قرر كارلايل أخيراً: «فلنتابع اللعبة!»... كان صوته هادئاً بارداً...

قالت أليس: «إن الفضول هو ما يسوقهم... لا أكثر!»

قيل ذلك كله في كلماته قليلة استمرت بضع ثوان. لقد أصغيت بانتباه ففهمت معظم الحديث لكنني لم أستطع سماع ما همست به إيزمي لإدوارد بحركة خفيفة صامتة من شفتيها. رأيت فقط هزة رأسه الخفيفة وتعبير الارتياح في وجهه.

قال: «انتبهي يا إيزمي...» ثم وقف أمامي.

عاد البقية إلى الملعب... كانوا يمسحون الغابة المظلمة بأعينهم الحادة. أحسست أن أليس وإيزمي وقفتا بحيث أكون بينهما.

قال إدوارد بصوت منخفض هادئ: «أنزلي شعرك».

فككت الطوق المطاطي عن شعري وهززت رأسي حتى نزل كله فأحاط برأسي... قلت كمن يقرر أمراً واضحاً: «الآخرون قادمون الآن!»

قال: «نعم! عليك أن تكوني هادئة تماماً... صامتة... لا تتحركي من جانبي... أرجوك»... كان يخفي التوتر في صوته... لكنني أحسسته رغم ذلك. سحب شعري الطويل أمام وجهي فغطاه.

قالت أليس برقة: «هذا لا يفيد!... أستطيع أن أشم رائحتها من طرف الملعب».

«أعرف!»... لوّنت صوته مسحة من القنوط.

وقف كارلايل عند نقطة البداية... انضم الآخرون إلى اللعبة غير متحمسين.

سألت إدوارد: «ما الذي قالته إيزمي لك؟»

تردد لحظة ثم قال متمتماً دون رغبة: «سألتني إن كانوا ظمئين!»

مرت الثواني... كانت اللعبة غير مثيرة الآن. لم يجرؤ أحد على ضرب الكرة بقوة... ولم يبتعد إيميت أو جاسبر أو روزالي عن وسط الملعب. ومن حين لآخر كنت أنتبه إلى نظرات روزالي باتجاهي... رغم الخوف الذي خدر عقلي. كانت وجوههم كلها من غير تعبير... لكن شيئاً في أسلوب امتناع روزالي عن الكلام جعلني أظن أنها غاضبة.

لم يكن إدوارد يلقي بالاً إلى اللعبة كلها... كانت عيناه تمسحان الغابة جيئة وذهاباً... وذهنه أيضاً.

همس بنبرة عنيفة: «أنا آسف يا بيلا!... لقد كان من الغباء... من عدم الإحساس بالمسؤولية... أن أعرضك لهذا الأمر... أنا آسف جداً».

سمعته يحبس أنفاسه فجأة... اتجهت عيناه إلى الجهة اليمنى من الملعب. خطا نصف خطوة إلى الأمام واضعاً نفسه بيني وبين ما كان قادماً.

استدار كارلايل وإيميت والآخرون في الاتجاه نفسه... كان يسمعون صوت خطى ما كنت قادرة على سماعه.

18

الصيد

ظهروا تباعاً عند حافة الغابة. كانت المسافة بين واحدهم والآخر نحو عشرة أمتار. تراجع الذكر الأول فوراً وترك ذكراً آخر يحتل المقدمة... لقد استدار نحو ذلك الرجل الطويل ذي الشعر الداكن بطريقة بينت بوضوح أنه كان قائدهم. كان الشخص الثالث امرأة... ميزتها عبر تلك المسافة... رأيت شعرها فاقعاً أحمر اللون.

ضاقت المسافة بينهم عندما راحوا يقتربون بحذر باتجاه أسرة إدوارد مظهرين الاحترام الطبيعي الذي يبديه قطيع من الضواري عندما يصادف مجموعة من جنسه أكبر حجماً... مجموعة لا يعرفها.

مع اقترابهم رأيت اختلافهم عن أسرة كولن. كانوا يسيرون كالقطط... تلك المشية التي تجعل القطة تبدو كأنها تهم بأن تجثم في مكانها. كانوا يرتدون ملابس عادية... بنطلونات جينز وقمصان ذات أزرار. لكن ملابسهم كانت مشعثة رثة... كانوا حفاة الأقدام. كان الرجلان حليقي الشعر. أما شعر المرأة البرتقالي المتوهج فكان مملوءاً بأوراق الأشجار والعيدان الصغيرة من الغابة.

سرعان ما التقطت أعينهم الحادة هيئة كارلايل الأنيقة المتمدنة... كان يسير نحوهم بخطى حذرة يحف به إيميت وجاسبر. ومن دون أي تخاطب ظاهر بينهم، اتخذوا جميعاً هيئة عادية غير متوترة.

كان الرجل الذي في المقدمة أجملهم... كان جلده يبدو أسمر

زيتونياً تحت ياقته... وشعره لامع السواد. كان متوسط القامة مفتول العضلات... طبعاً... لكنه لا يقارن بإيميت. ابتسم ابتسامة ودية مظهراً أسنانه البيضاء اللامعة.

أما المرأة أكثر فشكلها بريةً. وكانت عيناها تنتقلان مضطربتين بين الرجال الواقفين قبالتها وبين المجموعة الصغيرة الواقفة من حولي... راح شعرها المشعث يتمايل مع النسيم الخفيف. كان مظهرها ماكراً غادراً. وكان الرجل الثالث يحوّم خلفهما من غير اكتراث... هو أصغر حجماً من قائد المجموعة، ويصعب وصف شعره البني وملامح وجهه العادية. لكن عينيه، رغم سكونهما التام، كانتا تبدوان أكثر انتباهاً.

كانت أعينهم مختلفة أيضاً. لم يكن فيها اللون الذهبي أو الأسود الذي أتوقعه بل لون خمري عميق يثير الخوف... ينبئ بالشؤم... تقدم قائدهم صوب كارلايل... لم تفارق الابتسامة وجهه.

قال بصوت مرتاح فيه لكنة فرنسية خفيفة: «ظننا أننا سمعنا صوت لعبة تجري... أنا لورنت... هذه فيكتوريا... وهذا جيمس». قال هذا مشيراً إلى مصاصَيْ الدماء بجانبه.

«أنا كارلايل... وهذه أسرتي إيميت وجاسبر وروزالي وإيزمي وأليس وإدوارد وبيلا». أشار بيده إشارة عامة قاصداً عدم تحديد كل شخص باسمه. شعرت برجفة عندما ذكر اسمي.

سأله لورنت بطريقة ودية: «هل لديكم متّسع لبعض اللاعبين الإضافيين؟»

أجابه كارلايل محاكياً نبرته الودية: «الواقع أننا فرغنا من اللعب. لكن يسرّنا أن نلعب معاً في وقت آخر. هل تعتزمون المكوث طويلاً في هذه المنطقة؟»

«الحقيقة هي أننا ذاهبون شمالاً. لكن الفضول جعلنا نرغب في استطلاع المنطقة. لم نصادف أحداً من جماعتنا منذ فترة طويلة».

«فعلاً!... لا يوجد غيرنا في هذه المنطقة عادة... باستثناء بعض الزوار العابرين... مثلكم...»

تدريجياً، تحول الجو المتوتر إلى حديث عادي... فهمت أن جاسبر كان يستخدم موهبته الفريدة من أجل السيطرة على الموقف.

سأل لورنت بطريقة عادية: «ما هي منطقة صيدكم؟»

تجاهل كارلايل الافتراض الكامن خلف السؤال: «جبال أولمبيك هنا... وسفوح الجبال الساحلية أحياناً. نحن نقيم في مكان ثابت هنا... وثمة أماكن إقامة ثابتة مثل مكاننا شمالاً قرب دينالي».

ظهر شيء من الدهشة على وجه لورنت: «أماكن إقامة دائمة! كيف تستطيعون ذلك؟»... كان في صوته فضول صادق.

قال كارلايل يدعوهم: «لماذا لا تعودون معنا إلى البيت حيث نستطيع التحدث على نحو مريح؟ إنها قصة طويلة بعض الشيء».

تبادل جيمس وفكتوريا نظرة استغراب عندما سمعا كلمة «بيت»، لكن لورنت كانت أكثر قدرة على ضبط تعبير وجهها.

ابتسم ابتسامة لطيفة: «يبدو هذا مشوقاً... كما يسرنا أن نجد أنفسنا موضع ترحاب. كنا نصطاد طيلة الطريق من أونتيريو إلى هنا فلم يكن أمامنا فرصة للاغتسال والراحة لفترة من الزمن». قال هذا وراحت عيناه تفحصان مظهر كارلايل الأنيق بإعجاب واضح.

قال كارلايل: «آمل ألا يزعجكم قولي، لكننا نكون شاكرين لكم كثيراً إذا امتنعتم عن الصيد في هذه المنطقة. علينا أن لا نثير الشكوك من حولنا... أنتم تدركون هذا».

أومأ لورنت برأسه: «طبعاً! لن نعتدي على منطقتكم أبداً. لقد أكلنا قرب سياتل على كل حال»... سرت قشعريرة في ظهري.

أضاف كارلايل: «سندلكم على الطريق إذا أحببتم الذهاب معنا...

إيميت وأليس... يمكنكما الذهاب مع إدوارد وبيلا لإحضار سيارة الجيب!»

حدثت ثلاثة أشياء في وقت واحد بينما كان يتكلم. هبت نسمة خفيفة فبعثرت شعري، توتر إدوارد، والتفت الرجل الثاني... جيمس... فجأة نحوي يتفحصني بعينيه ومنخراه يتشممان الهواء.

سرعان ما اتخذ الجميع وضعية متوترة عندما تقدم جيمس خطوة إلى الأمام متخذاً وضعية الاستعداد للوثب. كشر إدوارد عن أسنانه متخذاً وضعية الدفاع... خرجت زمجرة ضارية من حنجرته. لم تكن أبداً لتشبه الأصوات المحببة التي سمعتها تخرج منها هذا الصباح... كان ذلك الصوت أكثر شيء مثير للرعب سمعته في حياتي... سرت قشعريرة من مفرق رأسي حتى قدمي.

تساءل لورنت بدهشة صريحة: «ما هذا؟»... لكن وضعية جيمس وإدوارد القتالية لم تتغير. مال جيمس قليلاً فتحرك إدوارد مثله.

«إنها معنا!»... كانت إجابة كارلايل الصارمة موجهة إلى جيمس. أحسست أن لورنت لم يلتقط رائحتي كما التقطها جيمس، لكن الحذر ظهر على وجهه الآن.

ظهر الشك على وجهه... تقدم تلقائياً خطوة إلى الأمام وسأل: «هل أحضرتم معكم طعاماً؟»

زمجر إدوارد أشد من ذي قبل وارتفعت شفته كاشفة عن أسنانه العارية اللامعة. تراجع لورنت.

صحح كارلايل بصوت قاسٍ: «قلت إنها معنا!»

اعترض لورنت: «لكنها بشرية!»... لم تكن عبارته عدوانية... كانت تعبيراً عن الدهشة فحسب.

قال إيميت: «نعم!»... كان واقفاً بجانب كارلايل مسلطاً نظراته على جيمس. تخلى جيمس تدريجياً عن وضعية الاستعداد للوثب. لكن

عيناه لم تتركا عيني... مازال منخراه متسعين. ظل إدوارد متوتراً رابضاً كالأسد أمامي.

عندما تكلم لورنت جاء صوته مجاملاً... محاولاً تخفيف التوتر المفاجئ: «يبدو أن كل منا بحاجة إلى معرفة الكثير عن الآخر!»

قال كارلايل: «هذا صحيح!»... مازال صوته بارداً.

«لكننا نود قبول دعوتكم»... انتقلت نظرته سريعاً إليّ ثم عادت إلى كارلايل... «لن نؤذي الفتاة البشرية بطبيعة الحال! قلت لكم إننا لن نصطاد في منطقتكم».

حدق جيمس في لورنت منزعجاً غير مصدق ثم تبادل نظرة سريعة مع فكتوريا التي واصلت نقل عينيها من وجه لآخر.

ظل كارلايل يدرس تعبير لورنت الصريح لحظة من الزمن قبل أن يتكلم: «سوف ندلكم على الطريق»... نادى: «جاسبر، روزالي، إيزمي!»... تجمع الثلاثة حولي فحجبوني تماماً. صارت أليس بجانبي في لحظة واحدة. أما إيميت فتراجع ببطء... ظلت عيناه معلقتين بجيمس وهو يعود باتجاهنا.

جاءني صوت إدوارد منخفضاً بارداً: «فلنذهب يا بيلا!»

كنت طيلة هذا الوقت مسمرة في مكاني وقد شلني الرعب. كان على إدوارد أن يمسكني من ذراعي ويشدني بقوة حتى أستطيع التحرك. سار إيميت وأليس خلفنا تماماً... كانا يحجباني. سرت متعثرة بجانب إدوارد ومازال الرعب يصعقني. لم أعرف إن كانت البقية قد غادرت المكان. كان نفاذ صبر إدوارد ملموساً عندما رحنا نتحرك بخطى بشرية حتى حافة الغابة.

عندما دخلنا بين الأشجار ألقاني إدوارد على ظهره دون أن يتوقف. أمسكت به بأقصى ما استطعت من قوة فانطلق راكضاً... وإيميت وأليس في إثره تماماً. أبقيت رأسي منخفضاً، لكنني لم أستطع إغلاق عيني

لشدة خوفي. انطلق الثلاثة مثل الإعصار عبر الغابة التي صارت مظلمة الآن. كان شعور البهجة الذي رأيته من قبل يملأ إدوارد أثناء جريه غائباً تماماً في هذه اللحظة... لقد حل محله غضب استولى عليه تماماً وجعله أكثر سرعة. ظل إيميت وأليس غير قادرين على اللحاق بإدوارد رغم وجودي فوق ظهره.

وصلنا إلى السيارة في وقت لا يصدق. لم يخفف إدوارد سرعته حتى بلغ السيارة تماماً فوضعني في المعقد الخلفي قائلاً لإيميت الذي جلس بجانبي: «ثبتها جيداً بالأحزمة».

جلست أليس في المقعد الأمامي بينما أدار إدوارد محرك السيارة. زمجر المحرك وعادت السيارة إلى الخلف مستديرة حتى تواجه الطريق.

كان إدوارد يبرطم بسرعة شديدة جداً لم أستطع معها أن أفهم ما يقول. لكن ذلك بدا مثل سلسلة من الشتائم.

كانت الرحلة العنيفة بالسيارة أشد عنفاً الآن... جعلتها الظلمة أكثر رعباً. كان إيميت وأليس ينظران من النوافذ الجانبية.

وصلنا إلى الطريق الرئيسية. ازدادت سرعة السيارة لكنني صرت أستطيع الرؤية أفضل فعرفت اتجاهنا... كنا منطلقين جنوباً... بعيداً عن فوركس!

سألتهم: «أين نذهب؟»

لم يجبني أحد، بل لم ينظر إليّ أحد منهم. قلت: «إدوارد! إلى أين تأخذني؟»

«علينا إبعادك من هنا... علينا إبعادك أكبر مسافة ممكنة الآن!»... لم يلتفت إلي.. ظلت عيناه على الطريق. كان مؤشر السرعة في السيارة يشير إلى سرعة 180 كيلومتراً في الساعة.

صحت: «عد بنا! عليك أن تأخذني إلى المنزل»... حاولت التخلص من الأحزمة الحمقاء... ورحت أحاول فكها.

قال إدوارد: «إيميت!»... فأمسك إيميت بيدي في قبضته الفولاذية.

«لا! لا إدوارد! لا تستطيع أن تفعل هذا».

«يجب أن أفعل هذا يا بيلا... حافظي على هدوئك... أرجوك!»

«لن أهدأ! عليك أن تعيدني إلى المنزل... سوف يتصل تشارلي بمكتب التحقيقات الفيدرالي... وسوف يستهدفون أسرتكم... كارلايل وإيزمي! ستضطرون إلى الرحيل... والاختباء إلى الأبد!»

أجابني بصوت بارد: «اهدئي يا بيلا! لقد مررنا بهذا من قبل».

«لم تمر بهذا وأنت معي! لن تفسد كل شيء!»... صارعت بعنف من أجل الإفلات من قبضة إيميت... لكن عبثاً.

تكلمت أليس للمرة الأولى: «توقف يا إدوارد!»

ألقى نحوها نظرة غاضبة وزاد من سرعة السيارة.

«إدوارد! دعنا نتحدث في الأمر».

صاح غاضباً: «أنت لا تفهمين»... لم أسمع صوته مرتفعاً إلى هذا الحد من قبل... كان يصم الآذان في تلك السيارة المغلقة... قارب مؤشر السرعة 200 كيلومتراً في الساعة... «إنه يتعقب الأثر يا أليس... ألم تلاحظي ذلك؟ إنه يتعقب الأثر!»

شعرت بإيميت يتصلب بجانبي فعجبت لرد فعله إزاء تلك الكلمة. لابد أنها تعني لهم شيئاً لم أفهمه... أردت أن أفهم. لكن ما كانت أمامي فرصة للسؤال قالت أليس بصوت هادئ: «توقف يا إدوارد!»... لكنني لمست في صوتها سلطة لم ألمسها من قبل.

تجاوزت السرعة الـ 210 كلم. وعندها رفعت أليس وتيرة صوتها: «افعل كما قلت لك يا إدوارد!»

«اسمعيني يا أليس. لقد رأيت ما بذهنه. إن التعقب في طبعه...

إنه مولع به... وهو يريدها يا أليس.. يريدها تحديداً. سوف يبدأ صيده الليلة».

«لكنه لا يعرف أين...»

قاطعها: «كم تظنين أنه سيستغرق من الوقت حتى يبحث عنها في البلدة؟ لقد عقد عزمه حتى قبل أن تخرج الكلمات من فم لورنت».

شهقت عندما عرفت ما الذي سينتج عن رائحتي: «تشارلي! لا تستطيعون ترك تشارلي هناك! لا تستطيعون تركه!»... عدت أحاول فك الأحزمة من جديد.

قالت أليس: «إنها محقة».

أبطأت السيارة قليلاً... قالت أليس بصوت يحمل الرجاء: «دعونا ننظر في خياراتنا... دقيقة واحدة».

انخفضت سرعة السيارة بشكل أكثر وضوحاً ثم وقفت فجأة عند كتف الطريق. اندفع جسدي إلى الأمام بفعل توقف السيارة، لكن الأحزمة ردتني إلى المقعد.

همس إدوارد: «ليس أمامنا أي خيار».

صحت: «لن أترك تشارلي»... لكنه تجاهلني تماماً.

تكلم إيميت أخيراً: «علينا أن نعيدها!»

قال إدوارد بصوت قاطع: «لا!»

«إنه لا يستطيع التغلب علينا يا إدوارد. لن يتمكن حتى من لمسها».

قال إدوارد: «لكنه سينتظر».

ابتسم إيميت: «أستطيع الانتظار أيضاً!»

«أنت لم تر... أنت لا تفهم. عندما يقرر الصيد لا يمكن لشيء أن يثنيه عن عزمه. سيكون علينا أن نقتله!»

لم يظهر على إيميت أي انزعاج من هذه الفكرة: «هذا أحد خياراتنا».

«والمرأة أيضاً... إنها معه. إذا نشبت معركة فسوف ينضم قائدهم إليهم أيضاً».

«نحن أكثر منهم».

جاء صوت أليس هادئاً: «لدينا خيار آخر!»

استدار إدوارد إليها غاضباً وقال لها بصوت مزمجر: «لا... خيار... آخر... أمامنا».

حدقنا فيه بدهشة... أنا وإيميت، لكن أليس لم تظهر أي دهشة. استمر الصمت دقيقة كاملة... طويلة... راح خلالها إدوارد وأليس يتبادلان التحديق.

كسرت الصمت: «ألا يريد أحد منكم سماع خطتي؟»

زمجر إدوارد: «لا!»... حدقت فيه أليس وقد استفزها أخيراً.

رجوته: «اسمع! عد بي!»

قاطعني: «لا!»

حدقت فيه وتابعت كلامي: «عد بي. سأقول لأبي أنني أريد الذهاب إلى فينيكس. سأحزم حقائبي. إذا وجدناه يراقبني فسنهرب. سوف يتبعنا ويترك تشارلي وهكذا لن يتصل تشارلي بمكتب التحقيقات ولن يتم استهداف أسرتكم. عند ذلك يمكنك أن تأخذني أينما أردت».

نظر الثلاثة إليّ بدهشة.

قال إيميت: «ليست فكرة سيئة... أبداً!»... كانت دهشة إيميت إهانة لي بكل تأكيد.

قالت أليس: «قد تنجح هذه الخطة... لكن لا نستطيع أن نترك والدها دون حماية... أنت تعرف هذا».

نظر الجميع إلى إدوارد فقال: «هذا خطر جداً... لا أريده أن يكون على مسافة أقل من مئة كيلومتر عنها».

قال إيميت بثقة فائقة: «إدوارد!... لن يستطيع اختراقنا».

فكرت أليس لحظة ثم قالت: «لا أراه يهاجمنا. سوف يحاول الانتظار حتى نتركها وحدها».

«لن يطول به الأمر قبل أن يعرف أننا لن نتركها وحدها».

قلت بصوت حاولت أن أجعله صارماً: «أطلب منك أن تأخذني إلى البيت».

ضغط إدوارد على صدغيه بأصابعه وأغمض عينيه.

قلت بصوت خافت: «أرجوك!»

لم ينظر إليّ... لكن صوته جاءني دافئاً عندما تكلم: «سوف ترحلين الليلة سواء عرف ذلك الصياد برحيلك أو لم يعرف. ستقولين لتشارلي إنك لا تستطيعين البقاء في فوركس دقيقة واحدة. أخبريه أي قصة تجدينها مناسبة. احزمي أشياءك بسرعة ثم اركبي سيارتك. لا يهمني ما يقوله لك. لديك خمس عشرة دقيقة. هل تسمعينني؟ خمس عشرة دقيقة منذ لحظة دخولك باب المنزل».

أدار محرك الجيب من جديد واستدار بها بعنف فزعقت إطاراتها على الطريق. وراحت سرعة السيارة تزداد.

قلت وأنا أنظر إلى يدي: «إيميت؟»

«أوه!... آسف»... ترك إيميت يدي.

مرت بضع دقائق في صمت كامل لم يعكره إلا هدير المحرك. ثم تكلم إدوارد من جديد: «هكذا سيتم الأمر. عندما نصل إلى المنزل... إذا لم يكن الصياد هناك... سأمشي معها حتى الباب. عند ذلك يكون أمامها خمس عشرة دقيقة»... نظر إليّ عبر المرآة... «إيميت... أنت تتولى الحراسة خارج المنزل. أليس... أنت تتولين سيارتها. أما أنا

فسأكون داخل المنزل طيلة وجودها فيه. وعندما تخرج تستطيعان أخذ سيارة الجيب والذهاب إلى البيت لإخبار كارلايل».

قاطعه إيميت: «مستحيل!... سأبقى معك».

«فكر بالأمر يا إيميت... لا أعرف مدة غيابي».

«سأظل معك حتى ينجلي الأمر».

تنهد إدوارد: «أما إذا وجدناه هناك»... تابع جملته بقنوط... «فسوف نتابع طريقنا!»

قالت أليس بصوت واثق: «سنصل إلى المنزل قبله».

بدا على إدوارد أنه قبل تلك الفكرة. مهما تكن مشكلته مع أليس فهو لا يشك في رأيها الآن.

سألها: «ماذا سنفعل بسيارة الجيب؟»... كانت الحدة واضحة في صوته... «ستذهبين بها إلى المنزل!»

أجابت بهدوء: «لا!... لن أذهب بها».

عاد إدوارد إلى سيل شتائمه الذي لا تستطيع الأذن سماعه.

همست: «لن تتسع سيارتي لنا جميعاً».

لم يظهر على إدوارد ما يوحي بأنه يسمعني.

قلت بصوت أكثر هدوءاً: «أعتقد أنكم يجب أن تتركوني أذهب وحدي».

سمع إدوارد هذه العبارة!

قال من بين أسنانه المطلقة: «بيلا!... أرجوك افعلي كما أقول لك... هذه المرة فقط».

قلت محتجّة: «اسمعني!... تشارلي ليس أبلهاً... سوف تثور شكوكه إذا لم تكن في البلدة غداً...»

«لا أهمية لهذا. سنضمن سلامته... هذا هو الشيء المهم!»

«وماذا عن هذا الصياد؟ لقد رأى كيف تصرفت الليلة. وسوف يعتقد أنك معي... أينما كنت!»

نظر إيميت إليّ وفي عينيه تلك الدهشة المهينة من جديد: «أصغ إليها يا إدوارد... أظن أنها محقة!»

قالت أليس تحثه: «نعم... إنها محقة!»

قال إدوارد بصوت بارد كالجليد: «لا أستطيع ذلك».

تابعت: "على إيميت أن يبقى أيضاً. لقد انتبه إلى سلوك إيميت أيضاً.

استدار إيميت نحوي: «ماذا؟»

قالت أليس موافقة: «سوف تتمكن منه أكثر إن بقيت هنا».

نظر إليها إدوارد نظرة ملؤها الشك: «هل ترين أنني يجب أن أدعها تذهب وحدها؟»

قالت أليس: «طبعاً لا!... سنأخذها أنا وجاسبر».

كرر إدوارد قوله: «لا أستطيع ذلك!»... لكن مسحة من القبول بالأمر الواقع ظهرت في صوته. لقد بدأ يفكر بشكل منطقي.

حاولت أن أبدو مقنعة: «عليك أن تظل هنا عدة أسابيع...» رأيت تعبير وجهه في المرآة فعدلت جملتي... «بضعة أيام. فلير تشارلي أنك لم تخطفني وتنطلق بي في هذه السيارة العتيقة. احرص على جعله يفقد أثري تماماً. ثم تعال لتلتقي بي. عليك أن تسلك طريقاً متعرجاً طبعاً... بعد ذلك يمكن لجاسبر وأليس أن يعودا».

رأيت أنه بدأ يفكر في الأمر... سألني: «أين ألتقي بك؟»

«فينيكس!»... طبعاً.

قال بصبر نافذ: «لا!... سوف يفهم أنك ذاهبة إلى فينيكس».

«عليك أن تجعل ذلك يبدو على شكل خدعة. سيعرف أننا نعرف

أنه يستمع إلينا. لن يقتنع أبداً أنني سأذهب فعلاً إلى المكان الذي أقول إنني ذاهبة إليه!»

ابتسم إيميت: «إنها شيطانة!»

«وإذا لم ينجح ذلك؟»

قلت له: «في فينيكس عدة ملايين من البشر».

«ليس صعباً أن يستعين بدليل الهاتف».

«لن أذهب إلى منزل أمي».

«أوه؟»... قالها مثل سؤال... ظهرت في صوته نبرة توحي بالخطر.

«صرت كبيرة بما يكفي لأن أسكن وحدي».

ذكرته أليس: «سوف نكون معها يا إدوارد».

سألها بصوت قاس: «وما الذي ستفعلونه أنتم في فينيكس؟»

«سنبقى في البيت!»

قال إيميت: «تعجبني هذه الخطة!»... لابد أنه كان يفكر في محاصرة جيمس هنا.

«اسكت يا إيميت!»

قال إيميت: «انظروا... إذا حاولنا الإيقاع به قبل رحيل بيلا فسوف تزداد فرصة إصابة أحد بأذى... إصابتها بأذى... أو إصابتك أنت عندما تحاول حمايتها. أما إذا بقي هنا وحده...» أنهى جملته بابتسامة بطيئة... لقد كنت مصيبة... إنه يفكر فعلاً في الإيقاع به هنا.

كانت السيارة تسير ببطء الآن فيما كنا نعود مقتربين من البلدة. شعرت بشعر ذراعي يقف رغم شجاعتي في الكلام. فكرت بتشارلي وحيداً في المنزل... وحاولت أن أكون شجاعة.

قال إدوارد بصوت ناعم جداً: «بيلا!»... راح إيميت وأليس

ينظران من النوافذ... «إذا سمحتِ بأن يحدث لك أي شيء... أي شيء... فسوف أعتبرك مسؤولة شخصياً. هل تفهمين هذا؟»

قلت بغصة: «نعم!»

استدار نحو أليس: «هل يستطيع جاسبر ذلك؟»

«ثق به يا إدوارد. إن سلوكه جيد جداً منذ فترة طويلة... إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار».

سألها: «وهل تستطيعين أنت؟»

قلصت أليس الصغيرة الجميلة شفتيها في تكشيرة مرعبة وأصدرت زمجرة عميقة جعلتني أتكور في مقعدي خائفة.

ابتسم إدوارد لها ثم قال فجأة: «لكن... احتفظي بآرائك... تلك... لنفسك!»

19

وداع

كان تشارلي ينتظرني. وكانت أنوار البيت مضاءة كلها. وجدت ذهني فارغاً تماماً عندما حاولت التفكير في طريقة لجعله يتركني أذهب. لن يكون الأمر لطيفاً أبداً.

أوقف إدوارد السيارة ببطء خلف سيارتي بمسافة غير قليلة. كان الثلاثة يقظين لكنهم لبثوا ساكنين تماماً في مقاعدهم يصغون إلى كل صوت في الغابة ويحدقون في كل ظل من الظلال... يتشممون كل رائحة... باحثين عن أي شيء مريب. توقف محرك السيارة... بقيت مكاني دون حركة... أما هم فواصلوا التنصّت.

قال إدوارد متوتراً: «إنه ليس هنا... فلنذهب!»

مد إيميت يده ليحررني من الأحزمة قائلاً بصوت خفيض مبتسم: «لا تقلقي يا بيلا!... سنهتم بالأمر هنا سريعاً».

أحسست بالدموع تملأ عينيّ عندما نظرت إلى إيميت. لم أكد أتعرف عليه، لكن فكرة عدم معرفتي متى يمكن أن أراه ثانية... عذبتني... على نحو ما. عرفت أن هذا ليس إلا مقدمة بسيطة لأكثر من وداع خلال الساعة القادمة. جعلت هذه الفكرة دموعي تنهمر.

قال إدوارد آمراً: «أليس، إيميت!»... انزلق الاثنان في الظلمة دون صوت... غابا عن نظري فوراً. فتح إدوارد بابي وأمسك بيدي ثم

مشينا... كانت ذراعه تحضنني... تحميني. سار بي بسرعة حتى المنزل... كانت عيناه تجوسان الظلام من حولنا.

همس لي بصوت قاطع: «خمس عشرة دقيقة!»

قلت: «أستطيع أن أفعل هذا!»... وقد ساعدتني دموعي المهمرة على فكرة خطرت ببالي.

قلت له بصوت متوتر منخفض: «أحبك! سأحبك دائماً مهما حدث الآن».

قال بنبرة عنيفة: «لن يحدث شيء يا بيلا!»

«التزم بالخطة... أرجوك! اهتم بسلامة تشارلي من أجلي. لن يحبني كثيراً بعد ما سوف يحدث الآن. أود أن تسنح لي فرصة الاعتذار منه فيما بعد».

قال بصوت ملح: «ادخلي يا بيلا. علينا أن نستعجل».

همست بحرارة: «ثمة شيء آخر!... إياك أن تصغي إلى أي كلمة أخرى أقولها اليوم!»... كان منحنياً نحوي فلم أجد صعوبة في الوقوف على أطراف أصابعي لأقبل شفتيه المتجمدتين المذهولتين قبلة عنيفة إلى أقصى حد استطعته. ثم استدرت وركلت الباب بقدمي فانفتح.

صرخت به عبر دموعي التي راحت تنهمر بغزارة الآن: «اتركني وحدي!»... صعدت إلى غرفتي جرياً ثم أغلقت الباب وأقفلته من خلفي. هرعت إلى سريري وانبطحت على الأرض حتى أخرج حقيبتي من تحته. دسست يدي بسرعة بين الفراش والسرير فأخرجت الجورب القديم المعقود الذي أضع فيه نقودي.

كان تشارلي يدق بابي. جاءني صوته مذعوراً: «بيلا... هل أنت بخير؟ ما الذي يجري؟»

صرخت بصوت أصاب هدفه تماماً: «سأعود إلى المنزل!»

«هل آذاك؟»... بدأ الغضب يظهر في صوته.

صرخت بصوت أعلى: «لا!»... استدرت نحو خزانتي فرأيت إدوارد هناك وهو يخرج كومة عشوائية من الملابس ويهم برميها نحوي.

سمعت الحيرة في صوت تشارلي: «هل قرر أن يتركك؟»

صرخت: «لا!»... انقطعت أنفاسي عندما رحت أحشر كل شيء في حقيبتي. رمى إدوارد محتويات درج آخر باتجاهي. امتلأت الحقيبة الآن.

صاح تشارلي من خلال الباب الذي عاد يدقه من جديد: «ما الذي حدث يا بيلا؟»

أجبته صارخة وأنا أقفل سحاب حقيبتي: «أنا التي تركته!»... أبعدت يدا إدوارد يديّ عن الحقيبة ثم أقفل سحابها بسهولة. ووضع حزامها على كتفي بحرص.

همس لي وهو يدفعني باتجاه الباب: «سأكون في سيارتك... اذهبي الآن!»... ثم اختفى خارجاً من النافذة.

فتحت الباب واندفعت بخشونة متجاوزة تشارلي ورحت أجرجر حقيبتي الثقيلة على درجات السلم.

صاح بي: «ما الذي حدث؟»... كان خلفي تماماً... «ظننت أنه يعجبك».

أمسك بذراعي في المطبخ... كانت قبضته ثابتة على ذراعي رغم استمرار حيرته.

أدارني حتى يجعلني أنظر إليه... رأيت في وجهه أنه لا يعتزم أن يتركني أذهب. ما كنت أستطيع التفكير في منفذ واحد للهرب منه... لم يكن أمامي إلا أن أقول شيئاً يزعجه حقاً... أن أقول شيئاً يؤذيه. كرهت نفسي لأنني فكرت في هذا. لكن لم يكن لدي أي وقت... كان علي أن أحافظ على سلامته أيضاً.

حدقت في أبي... انهمرت دموع جديدة من عينيّ بسبب ما كنت

موشكة على قوله: «نعم... يعجبني! يعجبني جداً! هذه هي المشكلة... لم أعد أستطيع أن أفعل هذا! لا أستطيع أن أرتبط بشيء هنا! لا أريد أن أنتهي في هذه البلدة الغبيّة المملة كما حدث لأمي! لن أكرر الخطيئة التي ارتكبتها... أكره هذا... لا أستطيع البقاء هنا دقيقة أخرى!»

سقطت يده مفلتة ذراعي كما لو أنني صعقته بتيار كهربائي. استدرت مبتعدة عن وجهه المصدوم المجروح واتجهت إلى الباب.

همس من خلفي: «بيلا! لا تستطيعين الذهاب الآن... إنه منتصف الليل».

لم ألتفت: «سأنام في السيارة إذا تعبت».

قال يرجوني: «انتظري أسبوعاً واحداً فقط. بعد أسبوع تعود رينيه إلى بيتها»... مازال تحت وقع الصدمة.

شوّشني ما قاله: «ماذا؟»

تابع تشارلي كلامه متلهفاً... كاد يغص لشدة ارتياحه عندما رآني أتردد: «اتصلت عندما كنت خارج المنزل. لا تجري الأمور على ما يرام في فلوريدا. سوف يعودان إلى أريزونا إذا لم يستطع فيل توقيع عقده قبل نهاية الأسبوع. يقول مساعد المدرب في فريق سايدوندرز إنهم قد يحتاجون إلى لاعب جديد».

هززت رأسي محاولة إعادة ترتيب أفكاري المشوشة. كل ثانية زائدة تمرّ تعرض تشارلي لخطر أكبر.

همهمت وأنا أدير مقبض الباب: «لدي مفتاح بيتها!»... كان قريباً جداً مني... امتدت يده نحوي... كان وجهه ذاهلاً. لم أعد أستطيع خسارة أي وقت في الجدل معه... كان علي أن أؤذيه أكثر... كررت الكلمات نفسها التي قالتها أمي عندما خرجت من هذا الباب نفسه قبل سنين طويلة: «فقط... اتركني أذهب يا تشارلي!»... قلتها بأقصى قدر

استطعته من الغضب ثم فتحت الباب مكملة الجملة: «لم ينجح الأمر... هل تفهمني؟ إنني أكره فوركس... أكرهها!»

أدت كلماتي القاسية ما أردته منها... ظل تشارلي متجمداً عند عتبة الباب... كان مصعوقاً... أما أنا فجريت في الظلام. كنت خائفة حقاً من فناء البيت الخالي. جريت بسرعة شديدة نحو السيارة متخيلة شبحاً قاتم اللون يتبعني. ألقيت حقيبتي في صندوق السيارة وفتحت الباب. كان المفتاح جاهزاً في مكانه.

زعقت: «سأتصل بك غداً!»... تمنيت لو كنت أستطيع أن أشرح الأمر كله في هذه اللحظة... لكنني كنت أعرف أنني لا أستطيع ذلك. أدرت المحرك... وانطلقت.

عندما اختفى المنزل... وتشارلي... في الظلام مد إدوارد يده إلى يدي قائلاً: «ابتعدي!»

قلت والدموع تنهمر إلى وجنتي: «أستطيع قيادة السيارة».

أمسكت يداه الطويلتان بخصري من غير توقع وأحسست بقدمه تبعد قدمي عن دواسة الوقود. حملني من فوق حضنه مبعداً يدي عن عجلة القيادة... وفجأة رأيته جالساً مكاني. لم تنحرف السيارة... ولو قليلاً.

قال لي موضحاً: «لن تتمكني من العثور على المنزل».

لمعت أضواء سيارة خلفنا دون سابق إنذار. التفت لأنظر من النافذة والرعب يغمرني.

قال لي مطمئناً: «إنها أليس!»... أمسك بيدي من جديد.

كان صورة تشارلي واقفاً بباب البيت تملأ ذهني لكنني سألته: «هل عرفت شيئاً عن ذلك الصياد؟»

قال إدوارد بصوت مظلم: «لقد سمع نهاية تمثيليتك مع تشارلي».

سألته مذعورة: «ماذا عن تشارلي؟»

«لقد لحق الصياد بنا. إنه يجري خلفنا الآن»... جرى دمي بارداً في عروقي.

«هل نستطيع أن نسبقه؟»

قال: «لا!»... لكنه زاد سرعة السيارة في تلك اللحظة فضج المحرك محتجاً... في تلك اللحظة لم تعد خطتي تبدو لامعة في عيني. كنت ملتفتة أنظر إلى أضواء سيارة أليس عندما توقفت سيارتي فجأة وظهر شبح مظلم خارج النافذة.

لم تدم صرختي أكثر من جزء من الثانية قبل أن يضع إدوارد يده على فمي قائلاً: «إنه إيميت!»

أزاح يده عن فمي ولفها حول خصري... قال واعداً: «لا بأس عليك يا بيلا... ستكونين بأمان».

سرنا عبر البلدة الساكنة متجهين إلى الطريق الشمالي.

قال إدوارد كمن يتحدث حديثاً عادياً: «لم أدرك من قبل أنك مازلت ضجرة من حياة هذه البلدة الصغيرة!»... عرفت أنه يحاول إبعاد أفكاري عن الخطر... «بدا لي أنك أحببت الحياة هنا... في الفترة الأخيرة خاصة. لعلني كنت أخدع نفسي وأقنعها بأنني أجعل الحياة هنا أكثر إثارة للاهتمام في نظرك!»

اعترفت: «لقد كنت فظة حقاً!»... تجاهلت محاولته تشتيت أفكاري ورحت أنظر إلى ركبتي... «كانت تلك كلمات أمي عندما هجرته. تستطيع القول إنني كنت أضربه تحت الحزام».

ابتسم قليلاً... لكن الابتسامة لم تلامس عينيه: «لا تخافي! سيسامحك».

حدقت فيه بيأس فرأى الرعب عارياً في عينيّ.

«سينتهي الأمر على ما يرام يا بيلا!»

همست: «لكنه لن يكون على ما يرام إذا لم أكن معك».

قال وهو يشد ذراعه من حولي: «سنكون معاً بعد أيام... ثم أن الخطة هي خطتك أنت!»

«كانت أفضل فكرة... هي خطتي طبعاً!»

أجابني بابتسامة باهتة اختفت في الحال... سألته بصوت متعثر: «لماذا حدث هذا؟... لماذا أنا؟»

ألقى نظرة قاتمة على الطريق أمامه: «أنا المخطئ... كنت غبياً فعرّضتك للخطر على ذلك النحو!»... كان الغضب واضحاً في صوته... كان غضبه موجهاً إلى نفسه.

قلت ملحة: «لم أقصد هذا. لقد كنت هناك... ماذا بك هل نسيت؟ لم يلفت وجودي نظر الاثنين الآخرين. لماذا قرر جيمس هذا أن يقتلني أنا تحديداً؟ ثمة بشر كثيرون هنا... فلماذا أنا؟»

تردد قليلاً... وفكر قبل أن يجيب: «ألقيت نظرة متمعنة على ذهنه اليوم»... بدأ يتحدث بصوت منخفض... «لا أعرف إن كنت أستطيع أن أفعل شيئاً لتجنب هذا بعد أن شاهدك... الذنب ذنبك أنت... جزئياً!»... حمل صوته سخرية مرة... «لعله ما كان ليهتم لو لم تكن رائحتك شهية إلى هذا الحد المرعب. لكن دفاعي عنك زاد في سوء الوضع... إنه غير معتاد على أن يعيقه أحد عن شيء يريده مهما يكن ذلك الشيء تافهاً. إنه يرى نفسه صياداً فقط... لا شيء غير ذلك. وجوده كله يتمثل في تعقب الأثر... وهو لا ينشد في حياته إلا متعة التحدي. وفجأة قدمنا له تحدياً جميلاً: مجموعة كبيرة من المقاتلين الأشداء المهتمين جميعاً بحماية شيء واحد شديد الهشاشة... هو أنت. لن تصدّقي مدى سروره الآن. هذه لعبته المفضلة... وقد جعلناها أكثر اللعبات إثارة في حياته»... كان صوت إدوارد يفيض قرفاً.

صمت برهة ثم قال بقنوط شديد: «لو لم أحل بينه وبينك... لقتلك في تلك اللحظة».

قلت مترددة: «ظننت... أن رائحتي لا تؤثر في الآخرين... كما تؤثر فيك أنت».

«صحيح! لكن هذا لا يعني أنك لست مغرية جداً لأي واحد منهم... لو كان أثر رائحتك على ذلك الصياد... متعقب الأثر... أو على أي منهم... مغرياً بقدر ما هو بالنسبة لي... لبدأ القتال هناك فوراً في تلك اللحظة».

ارتجفت خائفة. تمتم إدوارد: «أعتقد أن لا خيار أمامي غير أن أقتله... لن يحب كارلايل هذا!»

سمعت صوت عجلات السيارة تعبر الجسر لكنني لم أستطع رؤية النهر في الظلام. عرفت أننا نقترب... كان علي أن أسأله الآن: «كيف يمكن قتل مصاص دماء؟»

نظر إلي بعينين لم أستطع قراءة ما فيهما... غدا صوته خشناً غليظاً فجأة: «الطريقة الوحيدة لضمان قتله هي تمزيقه إرباً ثم إحراق أجزائه كلها».

«وهل سيقاتل الاثنان الآخران معه؟»

«المرأة... ستقاتل... لكنني لست واثقاً من سلوك لورنت. ليست العلاقة بينه وبينهما قوية... إنه معهما بالمصادفة. لقد أحرجه جيمس...»

سألته بصوت جاف: «لكن جيمس والمرأة... سيحاولان قتلك؟»

«بيلا! إياك أن تجرؤي على إهدار الوقت في القلق من أجلي. مهمتك الوحيدة الآن هي أن تحافظي على سلامتك... أرجوك.. أرجوك... حاولي ألا تتهوري».

«هل مازال يتبعنا؟»

«نعم! لكنه لن يهاجم المنزل... ليس الليلة».

استدارت السيارة في الدرب غير المرئي... كانت أليس تسير خلفنا.

مضينا حتى المنزل. كانت أنواره مضاءة لكنها لم تؤثر في ظلمة الغابة من حوله إلا قليلاً. فتح لي إيميت الباب قبل أن تتوقف السيارة تماماً. أخرجني من المقعد وحملني إلى صدره كما يحمل الكرة ثم جرى داخلاً إلى المنزل. صرنا في الصالة البيضاء الكبيرة. كان إدوارد وأليس يحيطان بنا من الجانبين. الجميع هنا... وقفوا على أقدامهم عندما سمعونا نقترب. كان لورنت واقفاً وسطهم. سمعت زمجرة منخفضة تخرج عميقاً من حنجرة إيميت عندما وضعني بجانب إدوارد.

قال إدوارد بصوت ينذر بالشؤم ملقياً نظرة حادة صوب لورنت: «إنه في إثرنا!»

بدا الانزعاج على وجه لورنت: «هذا ما كنت أخشاه».

مضت أليس بخطوتها الراقصة إلى جانب جاسبر وهمست في أذنه. رأيت شفتيها ترتجفان بكلام سريع صامت. صعدا السلم معاً بسرعة البرق. نظرت روزالي إليهما ثم تحركت سريعاً فوقفت بجانب إيميت. كانت عيناها الجميلتان متوترتين... وعندما التفتتا نحوي دون رغبة منها... رأيت الغضب فيهما.

سأل كارلايل لورنت بنبرة شديدة البرودة: «ماذا سيفعل؟»

أجابه: «أنا آسف! لقد عرفت... منذ أن دافع ابنك عنها هناك... أن هذا سيغضبه».

«هل تستطيع إيقافه؟»

هز لورنت رأسه: «لا شيء يوقف جيمس عندما يبدأ!»

قال إيميت واعداً... متوعداً: «سنوقفه نحن!»... لم يترك صوته مجالاً للشك في معنى كلامه.

«لن تستطيعوا التغلب عليه... لم أر شيئاً مثله طيلة حياتي... منذ 300 سنة. إنه مميت إلى أقصى حد. هذا ما جعلني أنضمّ إلى عصبته».

عصبته... طبعاً! إذ لم يكن موقع القيادة الذي اتخذه لورنت هناك في الغابة إلا مظهراً.

كان لورنت يهز رأسه. نظر إليّ محتاراً ثم عادت عيناه إلى كارلايل: «هل أنت واثق من أن الأمر يستحق تلك المواجهة؟»

ملأ زئير إدوارد الغاضب الغرفة كلها فتراجع لورنت إلى الخلف متأهباً.

نظر إليه كارلايل بجدية صارمة: «أخشى أن عليك أن تختار!»

فهم لورنت. تأمل في الأمر لحظة. وجالت عيناه على جميع الوجوه ثم قلب نظره في الغرفة الكبيرة المتألقة: «لقد أثارت اهتمامي حياتكم هنا. لكنني لن أتدخل في الأمر. لا أضمر عداوة لأحد منكم، لكنني لن أقاتل جيمس. أعتقد أنني سأتوجه شمالاً... إلى تلك الأسرة في دينالي»... تردد قليلاً ثم تابع: «لا تهونوا من شأن جيمس. إنه ذكي جداً... ولديه حواس لا نظير لها. إنه مرتاح من كل ناحية في عالم البشر... مثلما يبدو عليكم أنتم... ولن يهاجمكم مواجهة... أنا آسف لما حدث هنا... آسف فعلاً». طأطأ رأسه، لكني رأيته يلقي نظرة محتارة جديدة باتجاهي.

أجابه كارلايل بصوت رسمي النبرات: «اذهب بسلام!».

ألقى لورنت نظرة متمهلة من حوله ثم خرج مسرعاً من الباب. لم يدم الصمت إلا أقل من ثانية بعد خروجه. نظر كارلايل إلى إدوارد: «كم هو قريب الآن؟»

بدأت إيزمي التحرك قبل سماع الإجابة. لمست يدها مفتاحاً غير ظاهر على الجدار فبدأت ألواح معدنية ضخمة تنسدل فوق الجدار الزجاجي... فغرت فمي مدهوشة.

«بعد النهر بنحو أربعة كيلومترات. إنه ينعطف حتى يلتقي بالمرأة».

«وما خطتنا؟»

«سوف نجعله يبتعد قليلاً. ثم يأخذ جاسبر وأليس بيلا صوب الجنوب».

«ثم ماذا؟»

قال إدوارد بصوت قاطع: «بمجرد ابتعاد بيلا... سوف نصطاده».

وافقه كارلايل... كان وجهه كالحاً: «أظن أن ليس لدينا خيار آخر».

استدار إدوارد إلى روزالي يأمرها: «خذيها إلى الأعلى وتبادلا ملابسكما»... نظرت إليه غير مصدقة.

همست بصوت كالفحيح: «لماذا أفعل ذلك؟ وما هي بالنسبة لي؟ إلا أن تكون تهديداً قاتلاً... خطراً اخترت أنت أن يحيق بنا جميعاً».

انكمشت على نفسي بسبب السمّ في صوتها.

تمتم إيميت واضعاً يده على كتفها: «روز...» لكنها أبعدت يده.

أما أنا فكنت أراقب إدوارد بانتباه... كنت أعرف مزاجه فقلقت ورحت أنتظر رد فعله. لكنه فاجأني. أشاح بوجهه عن روزالي كما لو أنها لم تتكلم... كما لو أنها لم تكن موجودة.

«إيزمي؟»... سألها بصوت هادئ فتمتمت: «طبعاً!»

صارت إيزمي بجانبي في لحظة واحدة وحملتني بين ذراعيها بكل سهولة ثم انطلقت تصعد السلم قبل أن تسمح لي المفاجأة بالتنفس.

سألتها مبهورة الأنفاس عندما وضعتني أرضاً في غرفة مظلمة بجانب صالة الطابق الثاني: «ما الذي نفعله؟»

«نحاول خلط الرائحة. لن يفيدنا هذا لوقت طويل لكنه قد يساعدنا على إخراجك من هنا»... سمعت صوت ملابسها تسقط إلى الأرض.

قلت مترددة: «لا أعتقد أن قياسي...» لكنني شعرت فجأة بيديها تجرداني من قميصي... أسرعت فخلعت بنطلوني. ناولتني شيئاً عرفت من ملمسه أنه قميص... لبسته بجهد. وعندما انتهيت ناولتني بنطلونها الفضفاض فارتديته لكنه كان طويلاً أكثر مما يجب. طوت إيزمي فردتي البنطلون عدة مرات حتى تمكنت من الوقوف. رأيت أنها تمكنت من ارتداء ملابسي بطريقة من الطرق. شدتني نحو السلم من جديد. كانت أليس واقفة هناك تحمل حقيبة جلدية صغيرة في يدها. أمسكتا بذراعيّ من الجانبين... وتقريباً... حملتاني طائرتين عبر السلم نزولاً.

بدا أن كل شيء قد صار جاهزاً في الطابق السفلي أثناء غيابنا الوجيز. كان إدوارد وإيميت جاهزَيْن للمغادرة. وكان إيميت يحمل حقيبة ظهرية تبدو ثقيلة الوزن. رأيت كارلايل يناول إيزمي شيئاً صغير الحجم. ثم استدار وناول أليس شيئاً مماثلاً... كان ذلك هاتفاً محمولاً صغيراً فضي اللون.

قال لي وهو يمر بجانبي: «سوف تقوم إيزمي وروزالي بأخذ سيارتك يا بيلا».

أومأت برأسي ناظرة بقلق نحو روزالي. أما هي فكانت تنظر صوب كارلايل بتعبير ممتعض.

قال كارلايل: «أليس... جاسبر... خذا سيارة المرسيدس. سوف تكونان بحاجة إلى النوافذ المظللة في الجنوب»... أومأ الاثنان برأسيهما فأضاف: «نحن سنأخذ سيارة الجيب».

فوجئت عندما فهمت أن كارلايل يعتزم الذهاب مع إدوارد. أدركت فجأة، مع وخزة من الخوف، أنهم شكلوا مجموعة الصيد.

سأل كارلايل: «أليس... هل سيبتلعان الطعم؟»

نظر الجميع إليها عندما أغلقت عينيها وسكن جسمها إلى درجة لا تصدق. فتحت عينيها أخيراً وقالت: «سوف يقتفي أثركم. ستلاحق

المرأة سيارة بيلا. وعلينا أن نتمكن من المغادرة بعد ذلك فوراً»... كان صوتها جازماً.

«فلنذهب!»... انطلق كارلايل نحو المطبخ. لكن إدوارد صار بجانبي في لحظة واحدة... أمسك بي بين كفيه وشدني إليه. بدا كما لو أنه لم يعد يدرك وجود أسرته من حولنا عندما شدني مقرباً وجهي من وجهه جاعلاً قدمي ترتفعان عن الأرض... أحسست لثانية قصيرة جداً ملمس شفتيه الباردتين على شفتي... ثم انتهى الأمر. وضعني أرضاً لكنه ظل ممسكاً بوجهي... احترقت عيناه في عيني.

وعندما استدار رأيت عينيه تصبحان فارغتين من أي تعبير... ميتتين إلى درجة عجيبة.

ثم ذهبوا.

بقينا واقفين هناك. أشاح الباقون بوجوههم عني عندما راحت دموعي تنهمر على وجهي من غير صوت. طالت لحظة الصمت... ثم اهتز هاتف إيزمي في يدها فوضعته على أذنها.

قالت: «الآن!»... فتحت روزالي الباب الأمامي من غير أن تلقي نظرة أخرى باتجاهي لكن إيزمي مست وجنتي بيديها مساً خفيفاً عندما مرت بجانبي.

«مع السلامة»... هكذا همست خلفهما عندما خرجا من الباب. سمعت صوت محرك سيارتي ثم راح ذلك الصوت يبتعد ويخبو.

ظل جاسبر وأليس منتظرين. رفعت أليس الهاتف إلى أذنها قبل أن يرن... «يقول إدوارد إن المرأة اقتفت أثر إيزمي. سأحضر السيارة»... ثم اختفت في الظلال كما فعل إدوارد قبل قليل.

تبادلنا النظرات أنا وجاسبر. كان يقف على مسافة مني... كان حذراً!

قال بسرعة: «أنت مخطئة... مخطئة!»

قلت: «ماذا؟»

«أستطيع أن أحس ما تشعرين به الآن... لكنك تستحقين هذا العناء».

غمغمت: «لست أستحقه!... إذا حدث أي شيء لهم فسوف يكون من غير طائل».

كرر عبارته مبتسماً لي ابتسامة لطيفة: «أنت مخطئة!»

لم أسمع أي صوت، لكن أليس دخلت من الباب الأمامي وتقدمت نحوي مادة ذراعيها وسألتني: «ممكن؟»

ابتسمت وقلت: «أنت أول من يطلب إذني!»

حملتني بذراعيها الرشيقتين بسهولة... مثل إيميت... طوقتني بذراعيها... ثم طرنا خارجين من الباب وتركنا أنوار البيت مشعة من خلفنا.

20

نفاذ الصبر

شعرت بحيرة وتشوش عندما استيقظت. مازالت أفكاري ضبابية... مازالت مضطربة بفعل الأحلام والكوابيس. لم أدرك أين أنا إلا بعد وقت. كانت الغرفة ذات مظهر لطيف محايد... لا يمكن أن تكون إلا غرفة في فندق... كانت المصابيح بجانب السرير مثبتة إلى الطاولات... وكانت من نوع رخيص. ومثلها كانت الستائر الطويلة المصنوعة من القماش نفسه الذي صنع منه مفرش السرير... وكذلك أمر نسخ اللوحات المائية المعلقة على الجدران.

حاولت أن أتذكر كيف وصلت إلى هنا، لكنني لم أتذكر شيئاً أول الأمر. تذكرت السيارة السوداء التي كان زجاج نوافذها داكناً جداً. وتذكرت صوت محركها شبه الصامت رغم أننا كنا منطلقين عبر الطرق السريعة بأكثر من ضعفي السرعة القانونية.

وتذكرت أليس جالسة بجانبي على المقعد الخلفي الجلدي القاتم. لا أعرف كيف انتهى رأسي... خلال تلك الليلة الطويلة... إلى الاستناد مرتاحاً إلى عنقها الغرانيتية! لم يظهر عليها أي انزعاج من قربي الشديد... كان جلدها الصلب مريحاً بالنسبة لي... لا أدري كيف! وكان صدر قميصها القطني الرقيق بارداً رطباً بسبب دموعي التي ظلت تنهمر من عيني المحمرتين حتى جفتا.

جافاني النوم... ظلت عيناي المتعبتان مفتوحتين حتى بعد أن

انجلى الليل أخيراً وبزغ الفجر فوق قمة جبل غير مرتفع في مكان ما من كاليفورنيا. وخز عيني الضوء الرمادي الذي راح ينداح في سماء من غير غيوم. لكنني لم أستطع إغماضهما. فعندما كنت أغمض عيني كانت الصور التي تنبعث خلف جفني غير محتملة... تعبير وجه كارلايل القانط... وزمجرة إدوارد الوحشية وأسنانه العارية... ونظرة روزالي الناطقة بالكره... ونظرات الصياد المتمعنة... والنظرة الميتة في عيني إدوارد بعد أن قبلني آخر مرة... لم أكن لأستطيع احتمال هذه الصور كلها. لذلك رحت أقاوم تعبي... كانت الشمس ترتفع في السماء.

كنت مستيقظة عندما عبرنا ممراً جبلياً قليل العمق. صارت الشمس وراءنا الآن... كانت أشعتها تنعكس عن سقوف وادي الشمس القرميدية. لم يعد لدي من قوة الشعور ما يكفي للتعبير عن دهشتي من اجتيازنا رحلة ثلاثة أيام في يوم واحد. حدقت بنظرة فارغة في تلك الرقعة الواسعة المسطحة التي امتدت أمامي. فينيكس... أشجار النخيل، والخطوط الشبحية لتقاطعات الطرق السريعة، وملاعب الغولف الخضراء، وبرك السباحة التركوازية... اندمجت كلها وتداخلت في ذلك الضباب الدخاني الخفيف فعانقت المرتفعات الصخرية التي ما كانت كبيرة حقاً إلى حدٍّ يجعلها تستحق أن تدعى جبالاً.

كانت ظلال أشجار النخيل مستلقية عبر الطريق... واضحة أكثر مما كنت أتذكرها، وأكثر شحوباً مما يجب أن تكون. ما كان شيءٌ ليستطيع الاختباء في هذه الظلال. بدا لي الطريق الواسع المفتوح آمناً جداً. لكنني لم أشعر بأي راحة... لم أشعر بما يشعر به العائد إلى موطنه.

«من أين طريق المطار يا بيلا؟»... سألني جاسبر فأجفلت رغم أن صوته جاءني ناعماً هادئاً. باستثناء صوت محرك السيارة، كان ذلك أول صوت أسمعه في تلك الليلة الطويلة.

أجبته على نحو آلي: «ابق على الطريق رقم 10... فهو يمر بجانب المطار تماماً».

كان ذهني يعمل ببطء عبر ضباب قلة النوم... سألت أليس: «هل سنسافر بالطائرة؟»

«لا! لكن من الأفضل أن نكون قريبين من المطار من باب الاحتياط!»

أتذكر أننا سلكنا الطريق الذي يلتف حول المطار الدولي... لكننا لم ننه ذلك الطريق. أظن أنني غفوت هناك.

رغم ذلك... أستطيع الآن، بعد أن تذكرت هذه الأشياء، أن أستعيد صورة غامضة لمغادرة السيارة... كانت الشمس تغيب خلف الأفق... وكانت ذراعي على كتف أليس... أما ذراعها الصلبة فكانت تحيط بخصري وتجرني معها في مشيتي المتعثرة عبر تلك الظلال الحارة الجافة.

لكنني لم أتذكر هذه الغرفة... نظرت إلى الساعة الرقمية على المنضدة. قالت الساعة إن الوقت بلغ الثالثة... لكنها لم تقل إن كانت الثالثة صباحاً أم الثالثة بعد الظهر. لم تسمح الستائر الثقيلة بتسرب أي ضوء من الخارج. لكن الغرفة كانت تشع بأنوار المصابيح.

أنهضت جسمي المتيبس ومضيت مترنحة صوب النافذة وفتحت الستائر. كان الظلام مخيماً خارج النافذة... إنها الثالثة صباحاً. كانت غرفتي تطل على جزء مقفر من الطريق وعلى الساحة التابعة للمطار المخصصة للسيارات التي تقف وقتاً طويلاً. أراحني قليلاً أن أستطيع تحديد الزمان والمكان.

نظرت إلى نفسي. مازلت أرتدي ملابس إيزمي... لم تكن تناسبني إطلاقاً. جالت عيناي في الغرفة فسررت عندما وجدت حقيبتي المنتفخة فوق منضدة منخفضة.

كنت على وشك إخراج ملابس جديدة منها عندما جعلتني نقرة خفيفة على الباب أقفز من مكاني. جاءني صوت أليس: «هل أستطيع الدخول؟»

تنفست عميقاً ثم أجبت: «طبعاً!»

دخلت أليس ونظرت إلي مستغربة ثم قالت: «شكلك يوحي أنك ما زلت بحاجة إلى مزيد من النوم».

هززت رأسي. ذهبت أليس صامتة إلى النافذة فأغلقت الستائر بإحكام قبل أن تعود إلي قائلة: «علينا أن نبقى في الداخل!»

خرج صوتي جافاً مقرقعاً: «لا بأس!»

سألتني: «هل أنت ظمئة؟»

رفعت كتفي: «أنا بخير! ماذا عنكما؟»

ابتسمت: «نستطيع التعامل مع الأمر... طلبت بعض الطعام من أجلك. إنه في الغرفة الأمامية. ذكرني إدوارد بأنك تحتاجين إلى وجبات أكثر بكثير مما نحتاج نحن!»

انتبهت حواسي فجأة: «هل اتصل؟»

«لا!»... نظرت إلى وجهي يعود إلى همودِه... «كان ذلك قبل أن يسافر».

أمسكت يدي بلطف وقادتني عبر الباب إلى غرفة المعيشة. سمعت طنين أصوات صادرة عن التلفزيون. كان جاسبر جالساً دون حراك إلى المكتب الذي في الزاوية تتابع عيناه أخبار التلفزيون دون أي اهتمام.

جلست على الأرض قرب المنضدة الصغيرة التي كانت صينية الطعام تنتظر فوقها. بدأت أتناول طعامي دون أن ألاحظ نوعه.

جلست أليس على ذراع الأريكة وراحت تحدق في التلفزيون بنظرة فارغة كما يفعل جاسبر.

رحت آكل ببطء وأراقبها... كانت تستدير من حين لآخر فتلقي نظرة سريعة صوب جاسبر. بدأت أنزعج من هدوئهما المفرط. لم يحوّلا أعينهما عن الشاشة رغم أنها كانت تعرض إعلانات الآن. دفعت الصينية بعيداً عني... شعرت باضطراب مفاجئ في معدتي. نظرت أليس إلي فسألتها: «ما الأمر يا أليس؟»

«لا شيء!»... كانت عيناها متسعتين صادقتين... لم أصدقهما.

«وما الذي نفعله الآن؟»

«ننتظر اتصالاً من كارلايل!»

«وهل حان وقت اتصاله؟»... انتقلت عينا أليس من عيني إلى الهاتف الموضوع فوق حقيبتها الجلدية... ثم عادتا إلي من جديد.

«ما معنى هذا؟»... ارتجف صوتي فحاولت جاهدة أن أسيطر عليه... «ما معنى عدم اتصاله حتى الآن؟»

«لا يعني هذا إلا أن لا شيء لديهم حتى يخبرونا به!»... لكن صوتها كان مستقراً متوازناً أكثر مما يجب... صار تنفس الهواء أكثر صعوبة... صار جاسبر فجأة بجانب أليس. صار أقرب إلي مما هو معتاد. قال لي بصوت مهدئ إلى حد مريب: «بيلا! لا تقلقي أبداً. أنت آمنة تماماً هنا!»

«أعرف هذا!»

فسألني محتاراً: «إذن، لماذا أنت خائفة؟»... لعله شعر بما أحسه... لكنه لم يكن يستطيع قراءة أسبابه... «سمعتُ ما قاله لورنت»... خرج صوتي هامساً لكنني كنت موقنة أنهما يستطيعان سماعي... «قال إن جيمس قاتل خطير. ماذا لو جرت الأمور على نحو سيّئ... ماذا لو تفرقوا؟ إذا حدث شيء لأحد منهم... كارلايل، إيميت... إدوارد...» غصصت بكلماتي... «إذا سببت تلك المرأة المتوحشة الأذى لإيزمي...» ارتفع صوتي قليلاً... بدأت تظهر فيه نبرة

هستيرية... «فكيف أستطيع أن أعيش وأسامح نفسي مع أن الذنب ذنبي؟ لا يجوز أن يخاطر أحد منكم بنفسه من أجلي..»

قاطعني: «بيلا! بيلا! توقفي»... كانت الكلمات تخرج من فمه بسرعة شديدة تجعلها تكاد تكون غير مفهومة... «أنت قلقة من أمور يجب ألا تقلقك. صدقيني... لا أحد منا معرض للخطر. أنت واقعة تحت توتر شديد فلا تجعليه يزداد بسبب هذه المخاوف التي لا مبرر لها. أصغ إلي!»... أمرني لأنني أشحت بوجهي... «أسرتنا قوية. خوفنا الوحيد هو أن نفقدك!»

«ولماذا يكون عليكم أن...؟»

قاطعتني أليس هذه المرة... لمست وجنتي بأصابعها الباردة: «إن إدوارد وحيد منذ قرن كامل تقريباً. وقد وجدك الآن. أنت لا تستطيعين رؤية التغيرات التي نراها نحن... نحن من عشنا معه كل هذه المدة. هل تعتقدين أن من السهل على أحد منا أن ينظر في عينيه... لو بعد مئة سنة... إذا فقدك؟»

تراجع إحساسي بالذنب بطيئاً عندما حدقت في عينيها القاتمتين. لكنني كنت أعرف، حتى بعد أن عاد هدوئي، أنني لا أستطيع البوح بمشاعري لجاسبر الجالس هناك.

كان ذلك اليوم طويلاً جداً.

بقينا في الغرفة. اتصلت أليس لتطلب من الفندق تأجيل تنظيف الجناح. ظلت النوافذ مغلقة، وظل التلفزيون مفتوحاً رغم أن أحداً لم يكن يتابعه. كان الطعام يأتي إلي في مواعيده المنتظمة... وبدا أن الهاتف الفضي المستقر فوق حقيبة أليس يكبر حجماً مع مرور الساعات.

كان جليسيّ يحسنان التعامل مع حالة الترقب والانتظار أكثر مني. كان هدوؤهما يزداد مع ازدياد حركتي وتنقلي في الغرفة... كانا مثل تمثالين تتبعني أعينهما على نحو خفي كلما تحركت. رحت أشغل نفسي

بمحاولة تذكر شكل الغرفة غيباً... قماش الأرائك المخطط بالبني والرمادي والذهبي الباهت، ثم البني من جديد. وكنت أنظر أحياناً إلى اللوحات التجريدية فأجد صوراً عشوائية في خطوطها الغريبة... تماماً مثلما كنت أجد صوراً في الغيوم عندما كنت طفلة صغيرة. تابعت عيناي خطوط يد زرقاء، يد امرأة تمشط شعرها... وتابعت شكل قطة تمط جسمها. لكنني انتزعت أنظاري من تلك اللوحة عندما تحولت دائرة حمراء شاحبة فيها إلى عين تحدق في عيني.

بعد الظهر ذهبت إلى السرير... لا لشيء... بل لأفعل شيئاً. كنت آمل أن أستطيع... في الظلمة.. وحدي... أن أفصح قليلاً عن مخاوفي التي كانت تحوم عند أطراف عقلي غير قادرة على الخروج تحت رقابة جاسبر اليقظة.

لكن أليس تبعتني على نحو تلقائي كما لو أنها تعبت، بمحض الصدفة، من الجلوس في الغرفة الأمامية. بدأت أتساءل عن التعليمات التي زودها بها إدوارد. استلقيت على الفراش فجلست بجانبي متربعة. تجاهلتها في البداية وشعرت فجأة أنني متعبة إلى حد جعلني قادرة على النوم. لكن الرعب الذي امتنع عن الظهور في حضور جاسبر راح الآن، بعد دقائق قليلة، يسمح لنفسه بالظهور تدريجياً. تخليت عن فكرة النوم سريعاً... كنت متجمعة على نفسي على شكل كرة صغيرة، وكنت ألف ذراعي حول ساقي المطويتين.

قلت: «أليس!»

«نعم؟»

حافظت على هدوء صوتي الشديد: «ماذا يفعلون الآن، برأيك؟»

«أراد كارلايل أن يقود ذلك الصياد نحو الشمال إلى أبعد مسافة ممكنة ثم ينتظره حتى يقترب ثم يحضّر له كميناً. ويفترض أن تذهب إيزمي وروزالي باتجاه الغرب وأن تجعلا المرأة تلحق بهما إلى أبعد

مسافة ممكنة. أما إذا عادت أدراجها فعليهما العودة إلى فوركس لحراسة والدك. لذلك أعتقد أن عدم اتصالهم يعني أن الأمور بخير. فهو يعني أن الصياد قريب منهم إلى حد يجعلهم يتجنبون الاتصال معنا حتى لا يسمعهم».

«ماذا عن إيزمي؟»

«أظن أنها عادت إلى فوركس. وهي لن تتصل أيضاً إذا وجد أي احتمال لأن تسمعها تلك المرأة. أتوقع أن يكونوا حذرين جداً!»

«هل تظنين أنهم بخير... حقاً؟»

«بيلا! كم مرة يجب أن أقول لك إن الخطر لا يحيق بأحد منا؟»

«رغم ذلك... إذا حدث شيء... هل تقولين لي الحقيقة؟»

«نعم! سأقول لك الحقيقة دائماً»... سمعت الصدق في صوتها... فكرت لحظة قصيرة ثم قررت أنها تعني ما تقول!

«إذن، قولي لي... كيف صرت مصاصة دماء؟»... فاجأها سؤالي تماماً. ظلت هادئة لحظة... استدرت لأنظر إليها فرأيت وجهها متردداً... قالت: «إدوارد لا يريد أن أخبرك ذلك»... قالت هذه الجملة بصوت جازم، لكنني شعرت أنها غير موافقة على رأي إدوارد.

«هذا ليس عدلاً! أظن أن من حقي أن أعرف!»

«أعرف هذا».

نظرت إليها... منتظرة... تنهدت ثم قالت: «سيغضب كثيراً».

«هذا ليس من شأنه. الأمر بيني وبينك. أليس... أرجوك... كصديقة!»... صرنا صديقتين الآن... لا أدري كيف؟ لابد أنها تعرف أننا سنظل صديقتين دائماً.

نظرت إلي بعينيها الرائعتين... كانت تختار...

قالت أخيراً: «سأخبرك بآلية حدوث ذلك... لست أتذكر ما حدث

حقاً... ولم أفعلها بنفسي... ولم أر أحداً يفعلها. لذلك تذكري أنني أستطيع أن أتحدث نظرياً فقط!»

انتظرت...

«لدينا أسلحة في تركيبتنا الجسدية أكثر بكثير... بكثير... مما يلزمنا فعلاً حتى نكون مفترسين. القوة والسرعة والحواس المرهفة... هذا فضلاً عن بعض الحواس الإضافية كالتي عند إدوارد أو جاسبر أو عندي أنا. ثم إننا، مثل الأزهار التي تفترس الحشرات، نتمتع بالقدرة على اجتذاب ضحايانا جسدياً».

كنت هادئة جداً. وتذكرت كيف أوضح لي إدوارد هذه الفكرة تماماً عندما كنا في المرج.

ابتسمت ابتسامة عريضة... مشؤومة: «لدينا سلاح سحري خارق آخر... إننا سامّون»... قالت هذا وأسنانها تلمع... «هذا السم لا يقتل... إنه يشل فقط... وهو يعمل ببطء متنقلاً مع الدم. فعندما يعض أحدنا الفريسة يسري في جسمها ألم حارق شديد يمنعها من الهرب. هذه القدرة فائضة عن الحاجة معظم الأوقات... لا تهرب الضحية إذا كنا قريبين منها. لكن، ثمة استثناءات دائماً: كارلايل مثلاً!»

تمتمت: «إذن... إذا أتيح الوقت الكافي حتى ينتشر السم في الجسم...»

«يستغرق التحول عدة أيام حتى يكتمل. وهذا معتمد على كمية السم في الدم ومدى قربه من القلب. يواصل السم الانتشار طالما واصل القلب نبضه... وهو يغير الجسم أثناء انتشاره. ينتهي التحول أخيراً... ويتوقف القلب. لكن الضحية لشدة ألمها تظل تتمنى الموت طيلة ذلك الوقت... في كل دقيقة منه».

ارتعد جسمي.

«ترين الآن أنها ليست بالقصة السارة».

«قال إدوارد إن الأمر صعب جداً... لكنني لم أفهمه تماماً».

«نحن نشبه أسماك القرش على نحو ما. ما أن نذوق الدم، أو نشمه، حتى يصبح امتناعنا عنه صعباً جداً... بل مستحيلاً في بعض الأحيان. ترين إذن أن عض الفريسة... تذوّق طعم الدم... يطلق بداية نوبة من السعار. الأمر صعب من الناحيتين... شهوة الدم من جهة أولى، والألم المخيف من جهة ثانية!»

«لماذا تظنين أنك لا تتذكرين شيئاً؟»

«لا أعرف!... كلهم يقولون إن ألم التحول هو الذكرى الأشد حدة من حياتهم البشرية. أما أنا فلا أتذكر شيئاً عن حياتي البشرية»... كان صوتها كئيباً ملتاعاً.

استلقينا صامتتين... كل منا غارقة في أفكارها.

مرت الثواني فكدت أنسى وجودها بجانبي... كنت غارقة في أفكاري تماماً.

ثم... قفزت أليس من السرير دون سابق إنذار وحطت برفق على الأرض. قفز قلبي من مكانه عندما نظرت إليها.

«ثمة شيء تغير!»... كان صوتها يوحي بحدوث أمر طارئ... لم تكن تتحدث معي.

وصلت إلى الباب لحظة وصول جاسبر إليه. من الواضح أنه سمع ما دار بيننا من حديث وسمع صرختها المفاجئة. وضع يديه على كتفيها وقادها لتعود إلى السرير... جلست على حافته.

سألها ناظراً في عينيها: «ماذا ترين؟»... كانت عيناها مركزتين على شيء بعيد جداً. كنت جالسة بجانبها تماماً فانحنيت نحوها حتى أسمع صوتها المنخفض المتدفق سريعاً.

«أرى غرفة... إنها غرفة طويلة فيها مرايا كثيرة. أرضها خشبية. إنه في الغرفة... إنه ينتظر. ثمة خطوط ذهبية على المرايا».

«أين هذه الغرفة؟»

«لا أعرف!... مازال ثمة شيء ناقص... قرار آخر لم يتخذ بعد!»

«كم بقي له من الوقت؟»

«قريباً جداً! سوف يكون في غرفة المرايا، اليوم...، ربما غداً. الأمر كله معتمد على... إنه ينتظر شيئاً! إنه في الظلام الآن».

كان صوت جاسبر هادئاً... منهجياً... عندما راح يستجوبها بطريقة عملية: «ما الذي يفعله؟»

«إنه يشاهد التلفزيون... لا، إنه يشاهد شيئاً على الفيديو في الظلمة في مكان آخر!»

«هل تستطيعين رؤية مكانه؟»

«لا... الظلام شديد»

«غرفة المرايا... ماذا فيها أيضاً؟»

«مرايا فقط... والذهب عليها. إنها تحيط بالغرفة كلها. ثمة طاولة سوداء عليها جهاز ستيريو كبير وجهاز تلفزيون. إنه يشاهد الفيديو هناك، لكن بطريقة مختلفة عن مشاهدته الفيديو في الغرفة المظلمة. هذه هي الغرفة التي ينتظر فيها»... انحرفت أنظارها ثم استقرت على وجه جاسبر.

«لا شيء آخر؟»

هزت رأسها... راحا يتبادلان النظرات... صامتين... دون حركة.

سألتهما: «ما معنى هذا؟»

لم يجبني أي منهما. وبعد لحظة نظر جاسبر إليّ: «هذا يعني أن خطة الصياد تغيرت. لقد اتخذ قراراً سيجعله يذهب إلى غرفة المرايا وإلى الغرفة المظلمة».

«لكننا لا نعرف مكان هاتين الغرفتين!»

«لا نعرف!»

قالت أليس بصوت مسطح: «لكننا نعرف الآن أنه لن يكون في الجبال الشمالية... لن يكون حيث يريدون اصطياده. سوف يضللهم».

سألت: «هل نتصل بهم؟»... تبادلا نظرة جدية... غير واثقة.

فجأة... رن الهاتف.

وصلت أليس إليه قبل أن أفلح في رفع رأسي لأنظر باتجاهه... ضغطت الزر ووضعت الهاتف على أذنها. لكنها لم تبدأ الكلام.

همست: «كارلايل»... شعرتُ بالدهشة والارتياح لكن شيئاً لم يظهر على وجهها.

قالت وهي تلقي نظرة باتجاهي: «نعم!»... ثم راحت تصغي فترة طويلة.

«لقد رأيته منذ لحظة!»... ثم أعادت وصف الرؤيا من جديد... «إن ما جعله يركب تلك الطائرة... هو ما يقوده إلى هذه الغرف»... توقفت قليلاً ثم قالت: «نعم»... ثم وجهت كلامها إليّ: «بيلا!»

مدت الهاتف باتجاهي فذهبت إليه جرياً.

همست: «ألو!»

قال إدوارد: «بيلا»

«أوه! يا إدوارد... قلقت كثيراً».

قال بصوت منزعج: «بيلا! قلت لك ألا تقلقي إلا على نفسك»... كان سماع صوته مريحاً إلى حد لا يصدق. أحسست أن غمامة اليأس التي خيمت فوق رأسي بدأت تنزاح عندما سمعت صوته.

«أين أنت؟»

«نحن قرب فانكوفر... آسف يا بيلا... لقد فقدنا أثره. يبدو أنه

شكّ فينا... وهو حذر جداً، يحافظ على مسافة كافية لأن أعجز عن سماع أفكاره. لكنه ذهب الآن... يبدو أنه سافر بطائرة. نعتقد أنه متوجه إلى فوركس حتى يبدأ البحث فيها من جديد».

كنت أسمع صوت أليس تهمس لجاسبر خلفي لكن كلماتها السريعة اندغمت كلها فصارت مثل طنين متواصل.

قلت: «أعرف هذا! رأت أليس أنه ذهب».

«ليس عليك أن تقلقي رغم ذلك. لن يجد شيئاً يقوده إليك. ليس عليك إلا البقاء حيث أنت والانتظار ريثما نعثر عليه من جديد».

«سأكون بخير!... هل إيزمي مع تشارلي الآن؟»

«نعم... ظلت تلك المرأة في البلدة. لقد ذهبت إلى المنزل لكن تشارلي كان في عمله. لم تقترب منه أبداً... فلا تخافي. إنه بأمان تحت رقابة إيزمي وروزالي».

«ماذا تفعل المرأة الآن؟»

«أرجح أنها تحاول التقاط الأثر. ظلت تتجول في البلدة طيلة الليل. تعقبتها روزالي في طريقها إلى المطار وفي تحركها عبر شوارع البلدة كلها... وفي المدرسة... إنها تحاول يا بيلا... لكنها لن تجد شيئاً».

«هل أنت متأكد من سلامة تشارلي؟»

«نعم... إيزمي لا تتركه يغيب عن نظرها. وسوف نكون هناك قريباً. وإذا اقترب الصياد من فوركس فسوف نكون في انتظاره».

همست: «اشتقت إليك».

«أعرف يا بيلا... أعرف... صدقيني. كأنك أخذت نصفي معك».

قلت متحدية: «تعال إذن... واسترجعه!»

«قريباً... سآتي بأسرع ما يمكن. لكن عليّ أن أضمن سلامتك أولاً»... قال هذه الكلمات بصوت قاسٍ.

قلت أذكّره: «أحبك!»

«أحبك أيضاً... هل تصدقين هذا بعد كل ما جعلتك تمرين به؟»

«نعم... أصدق».

«سوف آتي إليك قريباً».

«سأكون بانتظارك».

ما إن صمت الهاتف حتى عادت غمامة القنوط تزحف من جديد... استدرت لأعطي أليس الهاتف فوجدتها منحنية مع جاسبر إلى الطاولة. كانت ترسم شيئاً على قطعة من الورق. استندت إلى ظهر الأريكة وملت نحوهما لأحاول النظر من فوق كتفها.

كانت ترسم غرفة: طويلة، مستطيلة، فيها قسم أكثر ضيقاً في آخرها. كانت ألواح خشبية طولانية تغطي أرضها. وعلى الجدران رأيت خطوطاً تحدد أماكن الفواصل بين المرايا. ثم... على محيط الغرفة كلها... بارتفاع الخصر... امتد شريط متصل. إنه الشريط الذي قالت أليس إنه ذهبي.

تعرفت فجأة على هذا الشكل المألوف فقلت: «إنه أستوديو باليه!»

«هل تعرفين هذه الغرفة؟»... جاءني صوت جاسبر هادئاً، لكنني لمست في صوته شيئاً لم أستطع تحديده. عاودت أليس الانحناء فوق الورقة. كانت يدها الآن ترسم بسرعة فائقة فظهر شكل مخرج الطوارئ عند الجدار الخلفي وظهر جهازا الستيريو والتلفزيون على الطاولة المنخفضة عند زاوية الغرفة الأمامية.

«تبدو هذه الغرفة شبيه بالمكان الذي كنت أتلقى فيه دروس الرقص عندما كان عمري ثمانية أو تسعة أعوام. كان بالشكل نفسه تماماً»... لمست الورقة بيدي حيث الجزء المربع الضيق من الغرفة... «هنا كان

الحمام... كانت الأبواب تفضي إلى غرفة الرقص الأخرى. لكن الستيريو كان هنا»... أشرت إلى الزاوية اليسرى... «كان أقدم، ولم يكن في الغرفة تلفزيون. كان في غرفة الانتظار نافذة تطل على هذه الغرفة... هكذا ترين الغرفة لو نظرت إليها عبر تلك النافذة».

كان أليس وجاسبر ينظران إلي. سألني جاسبر... مازال هادئاً: «هل أنت واثقة من أنها ليست الغرفة نفسها؟»

«نعم! ليست الغرفة نفسها على الإطلاق... أعتقد أن معظم قاعات الرقص تبدو بهذا الشكل... المرايا، والقضيب على الجدران»... مررت بيدي حيث يفترض أن يكون القضيب على امتداد المرايا... «إن شكل الغرفة هو الذي يبدو مألوفاً»... لمست الباب الموجود تماماً في نفس المكان الذي أتذكره.

قالت أليس مقاطعة اندفاعي: «هل يمكن أن يكون لديك سبب يجعلك تذهبين إلى تلك القاعة الآن؟»

«لا!... لم أذهب إليها منذ عشر سنوات تقريباً. كنت راقصة فاشلة جداً... كانوا يضعونني خلف بقية الراقصات عندما نقدم شيئاً».

سألتني أليس بإلحاح: «إذن، ألا يمكن أن يكون للأمر علاقة بك؟»

«لا! بل أظن أيضاً أن مالك الأستوديو تغير. أنا واثقة من أنه أستوديو رقص آخر... في مكان ما!»

سألني جاسبر دون اهتمام ظاهر: «أين يقع الأستوديو الذي كنت تذهبين إليه؟»

«كان قرب منزل أمي... بعد الزاوية. كنت أذهب إليه مشياً على الأقدام بعد المدرسة...» خبت كلماتي عندما رأيت النظرة التي تبادلاها.

سألني... مازال صوته لا يوحي باهتمام كبير: «إنه هنا في فينيكس إذن!»

همست: «نعم! عند تقاطع شارع 58 وشارع كاكتس».

جلسنا صامتين جميعاً... كنا نحدق في الرسم على الورقة.

«أليس! هل هذا الهاتف آمن؟»

قالت تطمئنني: «نعم! لا يمكن تعقب الرقم إلا في ولاية واشنطن».

«هذا يعني أنني أستطيع استخدامه لأتصل بأمي!»

«ظننت أنها في فلوريدا!»

«نعم. إنها في فلوريدا... لكنها ستأتي قريباً... إنها لا تستطيع العودة إلى ذلك المنزل في حين...» ارتجف صوتي.

كنت أفكر في شيء قاله إدوارد... عن ذهاب المرأة حمراء الشعر إلى منزل تشارلي وعن ذهابها إلى المدرسة حيث يوجد سجلي.

«كيف ستعرفين رقم هاتفها؟»

«ليس لديهم رقم هاتف دائم إلا في المنزل... يفترض أن تقوم بتفقد الرسائل المسجلة على الهاتف على نحو منتظم».

قالت أليس: «ما رأيك يا جاسبر؟»

فكر في الأمر قليلاً: «لا أعتقد أن في الأمر ضرراً... عليك طبعاً أن تنتبهي حتى لا تفصحي عن مكانك!»

مددت يدي إلى الهاتف وطلبت الرقم المألوف. بعد أربع رنات سمعت صوت أمي يطلب تسجيل رسالة.

قلت بعد سماع الصافرة: «أمي! أصغ إلي. أصغ إلي. أريد منك أن تفعلي شيئاً. إنه مهم جداً. فور استلامك هذه الرسالة اتصلي معي على هذا الرقم»... سرعان ما صارت أليس بجانبي تسجل رقم هاتفها على طرف الورقة التي كانت ترسم عليها. قرأت الرقم بوضوح، ثم كررته من جديد... «أرجوك... لا تذهبي إلى أي مكان قبل أن تتحدثي

معي. لا تقلقي فأنا بخير. لكن عليك أن تتصلي بي بسرعة مهما تكن ساعة تلقيك هذه الرسالة! هل تفهمينني؟ أحبك يا أمي... إلى اللقاء».
أغمضت عيني ودعوت الله أن لا يحدث شيء مفاجئ يجعلها تعود إلى فينيكس قبل أن تسمع رسالتي.

جلست على الأريكة ورحت أقضم بقية من قطعة فاكهة. كنت أتوقع ليلة طويلة. فكرت في الاتصال بتشارلي، لكنني لم أكن واثقة من أن موعد وصولي الطبيعي إلى فينيكس قد حان فعلاً. حاولت التركيز على أخبار التلفزيون... لعلهم يتحدثون عن قصص من فلوريدا... عن تدريبات الربيع الرياضية... عن أعاصير أو عن هجمات إرهابية... أي شيء يمكن أن يجعل أمي تعود في وقت مبكر.

لابد أن الخلود يمنح المرء صبراً لا حدود له. لم تظهر على جاسبر أو أليس حاجة إلى فعل أي شيء. ظلت أليس برهة تعيد رسم الملامح العامة الغامضة لتلك الغرفة التي رأتها... بقدر ما سمح لها النور المنبعث من التلفزيون الموجود في الغرفة. لكنها فرغت من ذلك ثم جلست محدقة في الجدار العاري بعينين لا تعرفان الزمن. لم تظهر على جاسبر أي رغبة في المشي عبر الغرفة أو في شق طرف الستارة قليلاً لينظر إلى الخارج... أو في الخروج من الغرفة زاعقاً بأعلى صوته... هذه كانت رغباتي أنا.

لابد أنني سقطت نائمة على الأريكة منتظرة رنين الهاتف من جديد. استيقظت لحظة على ملمس يدَيْ أليس الباردتين عندما حملتني إلى السرير. لكنني غفوت مجدداً قبل أن يلمس رأسي الوسادة.

21

مكالمة هاتفية

عندما استيقظت شعرت أن الوقت مبكر جداً... من جديد... وعرفت أن برنامجي اليومي لتعاقب الليل والنهار تأخر قليلاً. رقدت في سريري أستمع إلى صوتيّ أليس وجاسبر الهادئين في الغرفة الأخرى. غريب أن يتحدثا بصوت مرتفع بالقدر الكافي حتى أسمع. انقلبت ثم أنزلت ساقاي حتى لمست قدماي الأرض وذهبت إلى غرفة المعيشة أجر نفسي جراً.

أنبأتني الساعة التي على التلفزيون أنها مازالت الثانية صباحاً. كان أليس وجاسبر جالسين معاً على الأريكة. كانت ترسم من جديد، وكان ينظر من فوق كتفها. لم يرفع أحد منهم رأسه عندما دخلت... كانا منشغلين جداً بما ترسمه أليس.

تسللت إلى جانب جاسبر حتى أنظر وسألته بصوت هادئ: «هل رأت شيئاً جديداً؟»

«نعم! ثمة شيء جعله يعود إلى الغرفة التي فيها جهاز الفيديو... لكن الغرفة منارة الآن».

رأيت أليس ترسم غرفة مربعة لسقفها المنخفض عوارض قاتمة اللون. كانت جدرانها مغطاة بألواح خشبية... وكانت الألواح أكثر دكنة مما يجب... كأنها من عهد قديم. وكانت على الأرض سجادة عليها رسوم. وفي الجدار الجنوبي رأيت نافذة ضخمة، أما الجدار الغربي

فكان فيه ممر يؤدي إلى غرفة المعيشة. كان أحد جانبي ذلك الممر حجرياً... كان موقداً حجرياً مفتوحاً على الغرفتين. التلفزيون والفيديو موضوعين فوق منضدة خشبية صغيرة جداً عند وسط الغرفة تقريباً. وأمامهما طاولة قهوة مستديرة.

قلت مشيرة بيدي: «هذا مكان الهاتف».

حدقت أعينهما الأبدية في اتجاهي.

«هذا منزل أمي!»

سرعان ما قامت أليس عن الأريكة ممسكة هاتفها بيدها وطلبت رقماً. رحت أنظر إلى التمثيل الدقيق لغرفة المعيشة في منزل أمي. وعلى غير عادته، اقترب جاسبر مني على الأريكة ومس كتفي بيده مساً خفيفاً. يبدو أن هذا الاتصال الجسدي جعل تأثير جاسبر المهدئ أكثر قوة... ظل رعبي كليلاً... غير مركز.

رأيت شفتي أليس ترتجفان لسرعة كلماتها... إنه ذلك الطنين المنخفض الذي لا يمكن فهمه... لم أستطع التركيز.

قالت أليس: «بيلا!»... فنظرت إليها وأنا أشعر بالخدر.

«بيلا! إدوارد قادم ليأخذك. سيأخذك هو وإيميت وكارلايل إلى مكان ما حتى تختبئي بعض الوقت».

«إدوارد قادم!»... جاءت تلك الكلمات مثل طوق نجاة يجعل رأسي يطفو فوق الماء.

«نعم!... سيأتي في أول طائرة من سياتل. سوف نقابله في المطار. ومن هناك تذهبين معه».

«لكن! أمي... لقد جاء هنا من أجل أمي يا أليس!»... رغم تأثير جاسبر، بدت الهستيريا في صوتي.

«سنظل هنا، جاسبر وأنا، حتى تكون أمك بأمان».

«لا أستطيع الفوز في هذا يا أليس. لن تقدروا على حماية كل من

أعرفهم إلى الأبد. ألا ترين ما الذي يفعله؟ إنه لا يتعقبني إطلاقاً. سوف يجد شخصاً... سيؤذي شخصاً أحبه... أليس! لا أستطيع...»

قالت تحاول طمأنتي: «سنمسك به يا بيلا!»

«وماذا لو أصيب أحد منكم يا أليس؟ أتظنين أنني أقبل هذا؟ أتظنين أنه لا يستطيع أذيتي إلا بإيذاء أسرتي البشرية؟»

نظرت أليس إلى جاسبر نظرة محملة بالدلالة. داهمني ضباب عميق ثقيل من النعاس فأطبقت عيناي دون إذن مني. راح عقلي يقاوم هذا الضباب مدركاً ما الذي يحدث. فتحت عيني رغماً عنهما ووقفت مبتعدة عن يد جاسبر.

قلت له بحدة: «لا أريد النوم من جديد».

مضيت إلى غرفتي وأغلقت الباب... بل صفقته من خلفي حتى أكون حرة في أن أتمزق وحدي. لم تتبعني أليس هذه المرة. ظللت أحدق في الجدار ثلاث ساعات ونصف متكورة أهز نفسي مثل الكرة. كان عقلي يدور ويدور محاولاً العثور على مخرج من هذا الكابوس. لم أجد مخرجاً أو خلاصاً. لم أر في مستقبلي إلا نهاية ممكنة وحيدة، لكنني لم أعرف عدد من سوف يصيبهم الأذى قبل أن أبلغ تلك النهاية.

أما عزائي الوحيد... أملي الوحيد الباقي... فكان معرفتي بأنني سوف أرى إدوارد قريباً. لعلني، إذا استطعت رؤية وجهه من جديد، أستطيع أيضاً أن أرى الحل الذي يزوغ ويفلت من يدي الآن.

عندما رن الهاتف عدت إلى الغرفة الأمامية خجلة بعض الشيء من سلوكي. آمل أنني لم أسئ إليهما وآمل أن يعرفا كم كنت ممتنة للتضحيات التي قدمت من أجلي.

كانت أليس تتكلم مسرعة كعادتها. أما ما لفت انتباهي فهو عدم وجود جاسبر في الغرفة. نظرت إلى الساعة... إنها الخامسة والنصف صباحاً.

قالت أليس: «إنهم يصعدون إلى الطائرة الآن!»

«تحط الطائرة في التاسعة إلا ربعاً!»... علي أن أبقى حية بضع ساعات فقط حتى أراه هنا.

«أين جاسبر؟»

«ذهب لتسديد حساب الفندق».

«ألن تظلا هنا؟»

«لا! سننتقل إلى مكان أقرب إلى منزل والدتك».

شعرت بألم في معدتي عندما سمعت كلماتها. لكن الهاتف رن من جديد فأنساني هذا الألم. بدت عليها الدهشة، لكنني تقدمت مادة يدي بأمل إلى الهاتف.

قالت أليس: «ألو!... لا... إنها هنا!»... ثم ناولتني الهاتف وهمست: «والدتك!»

«ألو!»

«بيلا! بيلا!»... كان ذلك صوت أمي... نبرتها المألوفة التي سمعتها آلاف المرات في طفولتي كلما كنت أقترب من حافة الرصيف أكثر مما يجب أو أبتعد عن ناظريها في أي مكان مزدحم. كانت تلك هي نبرة الخوف لديها.

تنهدت! كنت أتوقع هذا رغم أنني حاولت، قدر استطاعتي، جعل رسالتي الهاتفية غير موحية بالخطر دون تقليل استعجالها.

قلت بأقصى ما استطعت من نبرة مهدئة: «اهدئي يا أمي!»... وابتعدت قليلاً عن أليس. لم أعرف إن كنت أستطيع الكذب بشكل مقنع إذا كانت عيناها موجهتين صوبي... «كل شيء بخير؟ أعطني دقيقة واحدة حتى أشرح لك كل شيء... أعدك بهذا!»

توقفت عن الكلام... فوجئت بأنها لم تقاطعني بعد.

«أمي؟»

«احذري أن تقولي شيئاً قبل أن أخبرك!»... كان ذلك صوتاً غير مألوف بقدر ما كان غير متوقع كان صوت رجل، صوتاً لطيفاً في الأذن... دون طابع محدد... كان مثل الصوت الذي تسمعه في إعلان تجاري عن سيارة فخمة. تحدث الرجل بسرعة كبيرة.

«لا أريد إيذاء أمك. لذلك أرجو أن تفعلي ما أقوله لك تماماً». صمت لحظة ثم قال: «جيد جداً! الآن... كرري ما أقول وحاولي أن يكون صوتك طبيعياً. من فضلك قولي ''لا يا أمي! أريدك أن تبقي حيث أنت''».

قلت بصوت لا يعدو الهمس: «لا يا أمي! أريدك أن تبقي حيث أنت».

«أرى أن الأمر سيكون صعباً!»... جاءني صوته مبتهجاً... مازال ودوداً!... «لماذا لا تذهبين إلى غرفة أخرى الآن حتى لا يظهر على وجهك ما يفسد الأمر كله؟ لا داعي لمعاناة أمك. قولي وأنت تسيرين ''أمي، استمعي إلي من فضلك''... قوليها الآن».

قلت بصوت راج: «أمي، استمعي إلي من فضلك»... سرت ببطء شديد صوب غرفة النوم وأنا أشعر بنظرات أليس القلقة تنصب على ظهري. أغلقت الباب خلفي محاولة أن أفكر بوضوح رغم الرعب الذي شل دماغي.

«هل صرت وحدك الآن؟ قولي نعم أو لا... فقط!»

«نعم!»

«لكنهم مازالوا يستطيعون سماعك... أنا واثق من هذا».

«نعم!»

«عظيم!»... تابع ذلك الصوت اللطيف... «قولي إذن: ''ثقي بي يا أمي''».

«ثقي بي يا أمي».

«لقد سار الأمر بأفضل مما توقعت. كنت أعتزم الانتظار، لكن أمك وصلت قبل موعدها. الأمر أسهل بهذه الطريقة... أليس كذلك؟ هكذا يكون انتظارك أقصر وقلقك أقل!»

انتظرت...

«أريدك الآن أن تستمعي بانتباه شديد. أريدك أن تبتعدي عن أصدقائك. هل تعتقدي أنك تستطيعين هذا؟ قولي نعم أو لا».

«لا!»

«يؤسفني أن أسمع هذا. كنت آمل أن أجدك أكثر إبداعاً! هل تظنين أن بوسعك الابتعاد عنهم إذا كانت حياة أمك متوقفة على ذلك؟ قولي نعم أو لا».

لابد أن أجد سبيلاً لذلك!... تذكرت أننا ذاهبون إلى المطار. المطار الدولي: مكان مزدحم معقد التركيب...

«نعم!»

«هذا أفضل! أعرف أن الأمر لن يكون سهلاً. لكن إذا شككت لحظة في أن أحداً يرافقك... فسوف يكون الأمر سيئاً جداً بالنسبة لأمك»... هكذا قال الصوت الودود متوعداً... «لابد أنك صرت الآن تعرفين عنا ما يجعلك تدركين أنني أستطيع، بسرعة شديدة، أن أعرف ما إذا كنت قد جئت بأحد معك. وتعرفين أيضاً مقدار الوقت الذي أحتاجه للتعامل مع أمك إذا كان الوضع كذلك. أنت تفهمين إذن؟ قولي نعم أو لا».

«نعم!»

«ممتاز يا بيلا! إليك الآن ما عليك فعله. أريدك أن تذهبي إلى منزل أمك. ستجدين رقماً بجانب الهاتف. اطلبي هذا الرقم... وسوف

أخبرك إلى أين تتوجهين»... كنت أعرف منذ الآن أين يريدني أن أذهب... أين سينتهي الأمر كله. لكنني سأنفذ تعليماته حرفياً... «هل تستطيعين أن تفعلي هذا؟ قولي نعم أو لا».

«نعم!»

قال بصوت مهذب: «قبل الظهر من فضلك يا بيلا. ليس لدي النهار كله!»

سألته بصوت مهذب: «أين فيل؟»

«آه! انتبهي الآن يا بيلا!... لا تتكلمي إلا عندما أطلب منك الكلام... من فضلك».

انتظرت.

«من المهم الآن أن لا تجعلي أصدقائك يرتابون في شيء عندما تعودين إليهم. قولي لهم إن والدتك اتصلت وأنك تمكنت من إقناعها بعدم العودة إلى منزلها في الوقت الحاضر. قولي الآن من بعدي ''شكراً يا أمي''... قوليها الآن».

«شكراً يا أمي!»... انهمرت دموعي فحاولت كبحها.

«قولي... ''أحبك يا أمي. أراك قريباً''... قوليها الآن».

«أحبك يا أمي. أراك قريباً»... خرج صوتي مثقلاً غير واضح... «أراك قريباً».

قبل أن يغلق الهاتف قال: «إلى اللقاء يا بيلا! آمل رؤيتك مجدداً... عما قريب».

جمّد الرعب مفاصلي... ظللت ممسكة الهاتف إلى أذني... لم أستطع إرخاء أصابعي لأتركه.

عليّ أن أفكر!... أعرف هذا... لكن صوت أمي الخائف كان

يملأ رأسي... مرت ثوان كثيرة وأنا أكافح من أجل السيطرة على نفسي.

رويداً رويداً بدأت أفكاري تخترق ذلك الجدار السميك... بدأت أخطط... لا خيار لدي الآن إلا أن أذهب إلى غرفة المرايا وأموت. ليست لدي ضمانات... لا شيء أعطيه حتى أحافظ على حياة أمي. كان أملي الوحيد هو أن يقنع جيمس بالفوز في هذه اللعبة... أن يقنع بنصره على إدوارد. استبد بي اليأس... ما كان أمامي سبيل إلى المساومة... ما من شيء أستطيع تقديمه أو منعه على نحو يؤثر فيه. لا خيار عندي... علي أن أحاول.

أبعدت الخوف قدر ما استطعت. لقد اتخذت قراري. لا فائدة من تضييع الوقت في التحسر على النتائج. كان علي أن أفكر بوضوح لأن أليس وجاسبر بانتظاري... كان التملص منهما أمراً أساسياً تماماً... ومستحيلاً أيضاً.

شعرت بالراحة فجأة لذهاب جاسبر. لو كان هنا لأحس بقلقي في الدقائق الخمس الماضية... فكيف كنت لأتفادى ريبتهما؟ ابتلعت خوفي وقلقي... حاولت كتمهما. لا أستطيع احتمال كلفتهما الآن فلست أعرف متى يعود.

عدت إلى التركيز على الهرب. كنت آمل أن يساعدني حسن معرفتي بالمطار في قلب الميزان لصالحي. يجب أن تظل أليس بعيدة... بأي شكل!

كنت أعرف أنها تنتظرني في الغرفة المجاورة... توقعت فضولها. لكن، كان علي التعامل مع أمر آخر بيني وبينها... قبل أن يعود جاسبر.

علي أن أقبل عدم رؤية إدوارد من جديد وعلي ألا أحظى بنظرة واحدة إلى وجهه. نظرة أحملها معي إلى غرفة المرايا. سوف أسبب له الألم... ولن أستطيع وداعه. تركت موجات التعذيب هذه تجتاحني...

أن تفعل فعلها في الوقت الحاضر. ثم أزحتها أيضاً ومضيت لمواجهة أليس.

لم يكن التعبير الوحيد الذي تمكنت من رسمه على وجهي إلا نظرة فارغة ميتة. رأيتها منتبهة متيقظة فلم أنتظر سؤالها. كان ما سأقوله لها جاهزاً في ذهني... لن أستطيع الارتجال الآن!

«كانت أمي قلقة... أرادت أن تأتي إلى فينيكس. لكنني تدبرت الأمر وأقنعتها بالبقاء حيث هي»... كان صوتي ميتاً من غير تعبير.

«سنحرص على سلامتها يا بيلا... لا تقلقي!»

استدرت مشيحة بوجهي... لم أكن أريدها أن ترى وجهي.

وقع نظري على صفحة فارغة على المنضدة. مضيت إليها ببطء... كانت خطة تتشكل في ذهني. وجدت مغلفاً أيضاً. هذا أمر جيد.

سألتها ببطء، دون أن ألتفت، أبقيت صوتي مستوياً: «أليس! إذا كتبت رسالة إلى أمي فهل توصليها؟ أقصد... أتركيها لها في المنزل».

«طبعاً يا بيلا!» بدا الحرص في صوتها... رأت أنني موشكة على الانهيار كان علي أن أضبط مشاعري ضبطاً أشد!

ذهبت إلى غرفة النوم من جديد وركعت قرب المنضدة الصغيرة بجانب السرير ورحت أكتب: «إدوارد!»... كانت يدي ترتجف... وكانت الحروف غير مقروءة تقريباً.

«أحبك!... آسفة جداً! لقد أمسك بأمي وعلي الآن أن أحاول. أعرف أن محاولتي يمكن أن تفشل. أنا آسفة جداً جداً.

لا تغضب من أليس وجاسبر... ستكون معجزة إن تمكنت من الإفلات منهما. أشكرهما باسمي. أشكر أليس خاصة... أرجوك!

أرجوك... أرجوك... لا تلاحقه. أظن أن هذا ما يريده. لن احتمل الأمر إذا أصيب أحد بالأذى بسببي أنا... خاصة أنت.

أرجوك... هذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أطلبه منك... من أجلي.

أحبك... سامحني

بيلا»

طويت رسالتي بعناية ثم وضعتها في المغلف وأغلقته. سوف يجدها في النهاية... آمل أن يفهمني وأن يصغي إلي... هذه المرة فقط.

ثم أغلقت قلبي مثلما أغلقت المغلف.

22

لعبة الاختباء

استغرق الأمر أقل بكثير مما كنت أظن... كل الخوف... كل القنوط... كل تحطم قلبي. راحت الدقائق تمر أبطأ من المعتاد. لم يكن جاسبر قد عاد عندما رجعت إلى أليس. كنت خائفة من وجودي في غرفة واحدة معها... خائفة من أن تستطيع التخمين... خفت الاختباء منها أيضاً... للسبب عينه.

لعلي ظننت أنني تجاوزت القدرة على الإحساس بالمفاجأة... كانت أفكاري معذبة... غير مستقرة. لكنني فوجئت عندما رأيت أليس تنحني فوق المنضدة ممسكة حافتها بيديها.

«أليس!»

لم يبد عليها أي رد فعل عندما هتفت باسمها لكن رأسها كان يتمايل بطيئاً من جانب لآخر... رأيت وجهها! كانت عيناها فارغتين... ضبابيتين... طارت أفكاري صوب أمي. هل فات الأوان؟

أسرعت إليها مادة يدي بحركة تلقائية لألمس يدها.

«أليس!»... جاءت صوت جاسبر ثم رأيته بجانبها... يداه فوق يديها تحاولان إرخاء قبضتها على حافة الطاولة. وفي الناحية الأخرى من الغرفة سمعت صوت إغلاق الباب.

قال لها: «ما الأمر؟»

أشاحت بوجهها عني ثم دفنته في صدره وقالت: «بيلا!»

أجبتها: «أنا هنا!»

استدار رأسها والتحمت عيناها بعيني... مازال تعبير وجهها خالياً من المعنى... على نحو غريب. أدركت فوراً أنها لم تكن تكلمني... كانت تجيب جاسبر على سؤاله.

قلت لها: «ماذا رأيت؟»... لكن نبرة السؤال غابت تماماً عن صوتي المسطح غير المهتم.

ألقى جاسبر نظرة حادة في اتجاهي. لكني حافظت على خلو وجهي من أي تعبير... وانتظرت. ظهرت الحيرة في عينيه بينما راح يقلب نظره سريعاً بين وجهينا شاعراً بتلك الفوضى... لقد حزرت ما رأته أليس الآن.

أحسست بجو من السكينة يغلفني. رحبت به، واستخدمته حتى أحافظ على انضباط مشاعري... حتى أسيطر عليها.

استعادت أليس أيضاً سيطرتها على نفسها.

أجابته أخيراً: «لا شيء... حقاً!»... كان صوتها هادئاً مقنعاً إلى حد بعيد... «رأيت الغرفة التي رأيتها من قبل!»

نظرت إلي أخيراً وسألتني بتعبير محايد: «هل تريدين تناول الإفطار؟»

«لا! سوف آكل في المطار»... كنت هادئة جداً، مثلها. مضيت إلى الحمام لأستحم. وكما لو أنني استعرت حاسة جاسبر الاستثنائية الغريبة شعرت بأفكار أليس التي حرصت على إخفائها... شعرت بتوقها إلى خروجي من تلك الغرفة... إلى أن تظل وحدها مع إدوارد. عند ذلك تستطيع أن تقول له إنهم ضلوا السبيل، وإنهم سيخسرون الجولة...

رحت أستعد على نحو منهجي، ورحت أركز على كل تفصيل

صغير بدوره. حللت شعري... جعلته يحيط بي ويغطي وجهي. لقد فعل المزاج الهادئ الذي صنعه جاسبر فعله فساعدني على التفكير بشكل واضح... ساعدني على تنفيذ خطتي. بحثت في حقيبتي حتى وجدت الجورب الذي وضعت فيه النقود فأفرغته في جيبي.

ما عدت أطيق انتظار الوصول إلى المطار... كنت سعيدة عندما غادرنا الفندق في الساعة السابعة. جلست وحدي هذه المرة في مقعد السيارة الخلفي. كانت أليس تميل مستندة بظهرها إلى الباب مستديرة بوجهها نحو جاسبر. لكنني رأيت عينيها، من تحت نظارتها الشمسية، تلقيان نظرة باتجاهي كل بضع ثوان.

قلت لها بصوت غير مكترث: «أليس!»

أجابتني بحذر: «ماذا؟»

«كيف يحدث ذلك؟... أقصد الأشياء التي ترينها؟»... نظرت من النافذة وبدا الملل على صوتي... «قال إدوارد إن رؤياك غير جازمة... قال إن الأمور تتغير!»... كان ذكر اسمه أصعب بكثير مما ظننت. لعل هذا هو ما نبه جاسبر... ولعله هو الذي ملأ السيارة بموجة جديدة من الصفاء!

«نعم! الأمور تتغير...» هكذا تمتمت... بأمل كما بدا لي... «ثمة أشياء مؤكدة أكثر من غيرها... كالطقس مثلاً... أما الناس فهم أصعب توقعاً. أنا أرى مسارهم فقط وأرى أين يؤدي. أما إذا غيروا آراءهم واتخذوا قرارات جديدة، مهما تكن صغيرة، فإن المستقبل كله يتغير».

أومأت برأسي إيماءة فهم: «وهكذا... لم تستطيعي رؤية جيمس في فينيكس إلا عندما قرر المجيء إليها».

«نعم!» قالت موافقة... عاد صوتها حذراً من جديد.

لم تستطع رؤيتي في غرفة المرايا مع جيمس إلا عندما قررت

ملاقاته فيها. حاولت عدم التفكير فيما قد تكون رأته أيضاً. لم أرد أن أسمح لخوفي بإثارة شكوك جاسبر. سوف يضاعفان مراقبتهما لي الآن بعد رؤيا أليس الجديدة... سيكون الأمر مستحيلاً.

وصلنا إلى المطار. كان الحظ حليفي... أو لعلها مصادفة جيدة! ستحط طائرة إدوارد في المحطة الرابعة، أكبر المحطات، حيث تحط معظم الطائرات... ليس من المفاجئ أن تحط طائرته هناك. لكنها هي المحطة التي تناسبني: إنها الأكبر والأكثر إرباكاً. ثمة باب في المستوى الثالث قد يكون أملي الوحيد.

أوقفنا السيارة في المستوى الرابع من المرآب الضخم. تقدمتهما... كنت، للمرة الأولى، أفضّل أن أعرف منهما بما يحيط بنا. نزلنا بالمصعد إلى المستوى الثالث حيث يخرج المسافرون القادمون. أنفق جاسبر وأليس وقتاً طويلاً في النظر إلى لوحة الطائرات المغادرة. سمعتهما يناقشان إيجابيات وسلبيات السفر إلى نيويورك وأتلانتا وشيكاغو... أماكن لم أرها من قبل... ولن أراها!

انتظرت فرصتي بصبر نافذ... لم أستطع منع قدمي من النقر على الأرض دون توقف. جلسنا في صف الكراسي الطويل قرب أجهزة كشف المعادن... كان جاسبر وأليس يتظاهران بمراقبة الناس، لكنهما كانا يراقباني أنا في واقع الأمر. لم أكن لأتحرك سنتيمترات قليلة في مقعدي دون أن تتبع حركتي نظرة سريعة من زاوية عين كل منهما. كان الأمل معدوماً. هل أجري؟ هل يجرؤان على إيقافي عنوة في هذا المكان العام؟ أم يكتفيا بمتابعتي؟

أخرجت المغلف غير المعنون من جيبي فوضعته فوق محفظة أليس الجلدية... نظرت أليس إلي فقلت: «هذه رسالتي!»... أومأت أليس برأسها فوضعت المغلف تحت غطاء المحفظة. سوف يجده عما قريب!

مرت الدقائق. واقترب وصول إدوارد. عجيب كيف كانت كل

خلايا جسدي تبدو عارفة بمجيئه... تواقة لمجيئه. هذا يجعل الأمر صعباً... شديد الصعوبة. ضبطت نفسي أحاول التفكير في أعذار تحملني على البقاء... على رؤيته أولاً ثم الفرار. لكنني أدركت استحالة هذا إن كنت أريد أن أحظى ولو بفرصة صغيرة للإفلات.

عرضت أليس عدة مرات أن ترافقني حتى أفطر. لكنني كنت أؤجل الأمر... ليس الآن!

حدقت في لوحة الرحلات القادمة... كانت تصل تباعاً... في المواعيد المحددة. اقتربت طائرة سياتل من أعلى اللوحة.

فجأة... عندما بقي لي من الوقت نصف ساعة حتى أهرب، تغيرت الأرقام! ستصل طائرته مبكرة عشرة دقائق. لم يعد لدي وقت.

قلت مستعجلة: «أظن أنني سأفطر الآن!»

نهضت أليس: «سأذهب معك».

سألتها: «هل يزعجك أن يأتي معي جاسبر بدلاً منك؟... أشعر ببعض...» لم أكمل جملتي... كان في عيني ما هو كفيل بقول ما لم أقله.

نهض جاسبر. ظهرت الحيرة في عيني أليس... الحيرة لا الشك... أراحني هذا! لعلها الآن تعزو ما شاهدته في رؤياها إلى مناورة قام بها الصياد لا إلى خيانة من جانبي!

سار جاسبر بجانبي صامتاً... كان يضع يده على ظهري كما لو أنه يقودني. لم أبد اهتماماً بالمقاهي القليلة الأولى التي صادفناها... كنت أبحث عما أبغيه حقاً! ثم... وجدته... هناك عند الزاوية بعيداً عن نظرات أليس الثاقبة: حمام السيدات في المستوى الثالث.

سألت جاسبر عندما مررنا بباب الحمام: «هل يمكنني...؟ لن يستغرق الأمر أكثر من لحظة».

قال: «تجديني هنا تماماً».

بدأت أركض فور إغلاق الباب من خلفي. تذكرت الوقت الذي أضعته بسبب هذا الحمام... لأن له مدخلان!

لم يكن يفصل المدخل الآخر عن المصاعد إلا مسافة قصيرة. إن بقي جاسبر واقفاً حيث كان فلن أقع في مرمى نظره. جريت ولم أنظر خلفي. كانت هذه فرصتي الوحيدة... علي أن أواصل الجري... حتى لو رآني. راح الناس ينظرون إلي، لكنني تجاهلتهم. كان المصعد ينتظرني خلف الزاوية فاندفعت واضعة يدي بين مصراعي باب المصعد المليء بالناس... كان يهم بالنزول. حشرت نفسي مع المسافرين المنزعجين ونظرت إلى لوحة المفاتيح. كان مصباح زر الطابق الأول مضاء... أغلق باب المصعد.

ما إن انفتح الباب حتى خرجت مندفعة رغم همهمات الانزعاج من خلفي. أبطأت قليلاً عند مروري بعناصر الأمن عند مدخل الأمتعة ثم انطلقت أجري من جديد عندما لاح أمامي باب الخروج. ما كنت أعرف إن كان جاسبر قد بدأ البحث عني الآن. ليس لدي إلا ثواني قليلة إن كان يتعقب رائحتي. قفزت خارجة من الباب الذي يفتح آلياً... كدت أصطدم بزجاجه لأنه كان بطيئاً جداً.

لم أجد سيارة أجرة عند الرصيف المزدحم. لم يكن لدي أي وقت. إما أن يكون جاسبر وأليس على وشك اكتشاف هربي أو أن يكونا قد اكتشفاه فعلاً وراحا يبحثان عني... سوف يعثران علي في لحظة واحدة.

رأيت حافلة فندق حياة تغلق أبوابها على مسافة أمتار قليلة من خلفي فصرخت: «انتظر!»... ورحت أجري وألوح للسائق بيدي.

قال السائق مرتبكاً بعد أن فتح الباب: «هذه حافلة خاصة بفندق حياة».

قلت: «نعم!... أنا ذاهبة إليه»... وتسلقت سلم الحافلة.

نظر إلي مستغرباً عدم وجود أمتعة معي لكنه رفع كتفيه غير مبال بالأمر إلى حد يحمله على توجيه الأسئلة.

كان أكثر المقاعد فارغاً. جلست بعيداً عن بقية المسافرين قدر ما استطعت ورحت أنظر من النوافذ في حين ابتعد الرصيف ثم ابتعد المطار كله. لم أستطع الامتناع عن تخيل إدوارد حيث سيقف عند حافة الطريق عندما يكتشف انتهاء أمري. لم أكن أستطيع البكاء بعد... هكذا قلت لنفسي... مازال أمامي طريق طويل.

مازال الحظ مواتياً. رأيت أمام فندق حياة زوجين مرهقين ينزلان آخر حقائبهما من صندوق سيارة أجرة. قفزت من الحافلة وأسرعت نحو السيارة ثم جلست في المقعد الخلفي. كان سائق الحافلة وذلك الزوجان ينظرون إلي مستغربين.

أعطيت سائق السيارة عنوان بيت أمي: «أريد أن أصل بأسرع ما يمكن!»

قال متذمراً: «إنه في سكوتسديل!»

رميت على المقعد الأمامي أربعة ورقات من فئة العشرين دولاراً: «هل يكفيك هذا؟»

«طبعاً يا طفلتي! لا تهتمي».

أسندت ظهري في مقعدي وعقدت ذراعيّ على صدري. راحت المدينة المألوفة تندفع عابرة نوافذ السيارة. لكني لم أكن أنظر من تلك النوافذ. قسرت نفسي على الانضباط. لم يكن لي أن أفقد السيطرة على نفسي عند هذه النقطة بعد أن نجحت خطتي. لا معنى للانغماس في مزيد من الخوف أو القلق. لقد قررت طريقي. وما علي الآن إلا أن أمضي فيه.

بدلاً من الخوف أغمضت عيني حتى أنفق مسافة الطريق... عشرين دقيقة... مع إدوارد.

تخيلت بقائي في المطار حتى أرى إدوارد. تصورت وقوفي على رؤوس أصابعي حتى أرى وجهه في أسرع وقت. كم كان يتحرك بسرعة ورشاقة بين حشود الناس التي تفصل بيننا. ثم تخيلت نفسي أجري تلك الأمتار القليلة الباقية بيننا... أجري بتهور كعادتي... وألقي بنفسي بين يديه الرخاميتين... آمنةً أخيراً.

تساءلت أين كنا سنذهب. إلى مكان في الشمال حتى يستطيع الخروج نهاراً. أو إلى مكان ناءٍ يمكننا أن نستلقي تحت شمسه مرة أخرى. تخيلته على شاطئ البحر... تخيلت جلده يتلألأ في الشمس مثل أمواجه. ما كنت لأنزعج مهما طال اختباؤنا. سأكون في جنةٍ حتى لو علقنا معاً في غرفة في أحد الفنادق. مازالت عندي أسئلة كثيرة أطرحها عليه. أستطيع الكلام معه إلى الأبد دون نوم... دون الابتعاد عنه.

أرى وجهه بوضوح شديد الآن... أكاد أسمع صوته. رغم كل الرعب... رغم كل اليأس... كنت أعوم في بحر من السعادة. إلى هذا الحد كنت مستغرقة في أحلامي الهاربة ففقدت إحساسي بالثواني تمر تباعاً.

«هاي! ذكريني بالرقم!»

خرق سؤال السائق أحلامي فتسربت كل الألوان من تخيلاتي الممتعة. كان الرعب ينتظر... عارياً... قاسياً... حتى يملأ الفراغ الذي خلفته تلك الألوان الهاربة.

خرج صوتي من فمي مخنوقاً: «تقاطع الشارعين 58 و21».

نظر السائق إلي منزعجاً إذ ظن أن نوبة أصابتني... أو شيئاً غريباً!... «وصلنا!»... كان يستعجل خروجي من سيارته... ولعله كان يأمل أيضاً ألا أطالبه ببقية نقودي.

همست: «شكراً!»... لا حاجة للخوف... هكذا رحت أذكر

نفسي... لا أحد في المنزل. كان علي أن أسرع الآن... إن أمي تنتظرني خائفة... إنها تعتمد علي.

طرت إلى الباب. مددت يدي تلقائياً لأخرج المفتاح من مخبئه تحت الإفريز. فتحت الباب. كان البيت مظلماً، خالياً، عادياً. أسرعت إلى الهاتف وأضأت مصباح المطبخ في طريقي. هناك، على لوحة الملاحظات، وجدت رقماً من عشر خانات مكتوباً بخط دقيق أنيق. تعثرت أصابعي وأخطأت عندما رحت أطلب الرقم. كان علي إغلاق الخط والبدء من جديد. رحت أركز على الأزرار هذه المرة فأضغط عليها بانتباه واحداً تلو الآخر. نجحت! حملت السماعة إلى أذني بيد مرتجفة. لم أسمع الهاتف يرن إلا مرة واحدة.

جاءني صوته الودود: «ألو... بيلا! أنت سريعة جداً... أنا معجب بسرعتك».

«هل أمي بخير؟»

«إنها في أحسن حال. لا تقلقي يا بيلا! لا مشكلة بيني وبينها... إلا إذا لم تكوني وحدك... طبعاً!»... كان صوته مرحاً مسروراً.

«أنا وحدي!»... لم أكن وحدي إلى هذا الحد في حياتي كلها.

«جيد جداً! والآن هل تعرفين أستوديو الرقص عند الزاوية قرب البيت؟»

«نعم! أعرف كيف أذهب إليه».

«عظيم! أراك هناك بعد قليل».

أغلقت السماعة وخرجت من الغرفة أجري عبر باب المنزل خارجة إلى لهيب الحر في الخارج.

ما كان عندي وقت يسمح لي بالتوقف والنظر إلى منزلي... ولم أكن أريد رؤيته كما هو الآن... فارغاً... رمزاً للخوف لا ملاذاً آمناً. كان آخر من حلّ في هذه الغرف الفارغة هو... عدوي.

من زاوية عيني كنت أكاد أرى أمي واقفة في ظلال شجرة الأوكاليبتوس الكبيرة التي لعبت تحتها طفلةً، أو راكعة قرب رقعة التراب الصغيرة المحيطة بصندوق البريد... كانت تلك الرقعة مقبرة جميع الزهور التي حاولت زراعتها. كانت هذه الذكريات أفضل من أي واقع يمكن أن أراه اليوم. لكنني أسرعت الخطى مبتعدة عنها نحو تلك الزاوية تاركة كل شيء ورائي.

شعرت أنني بطيئة جداً... كمن يجري فوق رمال رطبة... شعرت أنني لا أستطيع الإسراع فوق الرصيف الإسمنتي. تعثرت عدة مرات. وسقطت مرة فتلقيت الأرض بكفيّ... سحج الرصيف يدي، لكنني وقفت لأندفع إلى الأمام من جديد. وصلت إلى الزاوية آخر الأمر. لم يبق أمامي إلا شارع واحد... رحت أجري لاهثة والعرق يتصبب من وجهي. كانت الشمس حارة جداً على جلدي... كان انعكاسها على إسمنت الرصيف الأبيض باهراً أعمى عيني. شعرت أنني مكشوفة إلى حد الخطر. حننت الآن إلى غابات فوركس الخضراء الحانية الحامية... إلى موطني... كان حنيني أشد من أي حنين تخيلته.

عندما انعطفت عند الزاوية الأخيرة ودخلت شارع كاكتس صرت أرى الأستوديو. كان مثلما أتذكره تماماً. وكانت ساحة وقوف السيارات أمامه خاوية. رأيت مصاريع نوافذه مغلقة كلها. ما عدت أستطيع الجري... ما عدت أستطيع التنفس. لقد استولى عليّ الإجهاد والخوف. رحت أفكر في أمي حتى أجبر ساقيّ على الحركة، واحدة بعد الأخرى.

مع اقترابي رأيت لافتة صغيرة داخل البوابة. كانت مكتوبة بخط اليد على ورقة وردية اللون... قالت إن الأستوديو مغلق بسبب عطلة الربيع. لمست مقبض الباب ثم أدرته بحذر. ما كان الباب مقفلاً. التقطت أنفاسي بجهد كبير... وفتحت الباب.

كانت ردهة الأستوديو مظلمة... فارغة... باردة منعشة... كان مكيف الهواء يعمل! كانت الكراسي البلاستيكية مصفوفة على امتداد الجدران... فاحت السجادة برائحة الشامبو. كانت غرفة الرقص الغربية مظلمة... كنت أستطيع رؤيتها عبر النافذة الفاصلة بين الغرفتين. أما الغرفة الشرقية... الغرفة الأكبر... فكانت مضاءة. لكن مصاريع النوافذ كانت مغلقة بإحكام.

أمسك بي الرعب بقوة شديدة شلت حركتي. لم أعد أستطع جعل قدمي تتحركان.

ثم جاءني صوت أمي: «بيلا! بيلا!»... كان هذا صوت رعبها الهستيري نفسه. اندفعت إلى الباب... إلى صوتها.

استمر صوتها عندما اندفعت داخل الغرفة الطويلة ذات السقف المرتفع: «بيلا! لقد أرعبتني! لا تفعلي هذا بي مرة أخرى».

رحت أنظر من حولي محاولة معرفة مصدر الصوت... سمعتها تضحك فاندفعت صوب ضحكتها.

هناك رأيتها... على شاشة التلفزيون تعبث بشعري والانفراج بادٍ على وجهها. كان ذلك في عيد الشكر... كنت في الثانية عشرة من عمري. ذهبنا لنرى جدتي في كاليفورنيا... آخر سنة قبل وفاتها. ذهبنا إلى الشاطئ ذات يوم وانحنيت فوق حافة الرصيف الممتد في البحر أكثر مما يجوز لي أن أنحني. رأت أمي قدمي تلوحان في الهواء محاولتين استعادة التوازن فصرخت خائفة: «بيلا! بيلا!»

ثم... صارت شاشة التلفزيون زرقاء.

استدرت ببطء. رأيته واقفاً في سكون تام عند المخرج الخلفي... كان هادئاً تماماً فلم ألاحظه في البداية. وكان يحمل جهاز التحكم في يده. تبادلنا التحديق لحظة طويلة... ثم ابتسم.

سار باتجاهي... قربي تماماً... ثم اجتازني ليضع جهاز التحكم بجانب الفيديو. استدرت بحذر حتى أراه.

قال بصوت لطيف مهذب: «آسف لهذا الأمر يا بيلا. لكن، أليس هذا أفضل من أن تكون أمك في قبضتي فعلاً؟»

استوعبت الأمر فجأة: أمي بأمان! مازالت في فلوريدا. لم تتلق رسالتي أبداً. لم يصبها الرعب أبداً بسبب هاتين العينين المحمرتين القاتمتين في ذلك الوجه الشاحب شحوباً غير طبيعي... إنها بأمان.

أجبته بصوت كله راحة وانفراج: «نعم!»

«لا يبدو عليك الغضب لأنني خدعتك!»

«لست غاضبة»... جعلتني راحتي المفاجئة جريئة الآن! ما أهمية الأمر بعد هذا؟ سينتهي كل شيء سريعاً. لن يلحق الأذى بأمي أو بتشارلي... ولن يكون عليهما أن يخشيا شيئاً. شعرت بما يشبه الدوار. قال لي جزء من عقلي إنني كنت على مقربة خطيرة من السقوط لشدة توتري.

«ما أغرب هذا؟ أنت تعنين ما تقولينه فعلاً!»... راحت عيناه القاتمتان تنظران إلي باهتمام. كانت حدقتا عينيه سوداوين تقريباً... كان فيهما أثر بسيط من الاحمرار عند حوافهما... «عجيب أمر جماعتكم الغريبة... أنتم البشر تكونون مثيرين للاهتمام أحياناً! أستطيع رؤية غرابتكم عندما أنظر إليك أنت. شيء عجيب... يبدو بعضكم فاقداً تماماً أي إحساس بمصلحته الذاتية!»

كان واقفاً على مسافة خطوتين مني. كان عاقداً ذراعيه ينظر إليّ بعَجَب. ما كان في وجهه أو في هيئته كلها ما يوحي بالخطر. كان منظره عادياً تماماً... لم يكن في مظهر وجهه أو جسمه شيء يسترعي الانتباه. ما كان فيه إلا جلده الأبيض الشاحب وتلك الدوائر حول عينيه... صرت معتادة جداً على هذه الأشياء. كان يرتدي قميصاً خفيف

الزرقة طويل الأكمام مع بنطلون جينز باهت اللون.

قال: «أظنك تعتزمين إخباري أن صديقك سوف ينتقم لك!»... بدا لي أنه يأمل هذا.

«لا! لا أعتقد هذا. على الأقل أعرف أنني طلبت منه عدم الانتقام».

«ماذا كان رده؟»

«لا أعرف!»... غريب كم كان سهلاً علي الحديث مع هذا الصياد اللبق... «لقد تركت له رسالة».

«شيء رومانسي جداً... الرسالة الأخيرة! وهل تظنين أنه سوف يحترم رغبتك؟»... غدا صوته أقسى قليلاً وشابت نبرته المهذبة مسحة من التهكم.

«هذا أملي!»

«هممم! آمالنا مختلفة إذن. ألست ترين أن الأمر كان أسهل مما يجب... أسرع مما يجب. سأكون صادقاً معك: لقد خاب أملي. كنت أنتظر تحدياً أكبر. لكنني لم أكن بحاجة إلا إلى قليل من الحظ».

انتظرت صامتة.

«عندما لم تستطع فكتوريا الوصول إلى أبيك جعلتها تحصل على مزيد من المعلومات عنك. لا معنى للجري خلفك في أنحاء الأرض كلها عندما أستطيع انتظارك مرتاحاً في مكان أختاره بنفسي. بعد أن تحدثت مع فكتوريا قررت المجيء إلى فينيكس لأزور أمك. سمعتك تقولين لأبيك إنك عائدة إلى موطنك. لم أتخيل في البداية أنك تقصدين ذلك فعلاً. ثم تساءلت في نفسي: يمكن أن يقوم البشر بتصرفات غير متوقعة على الإطلاق... وهم يحبون أن يكونوا في مكان آمن. مكان ألفوه من قبل. ثم ألن تكون خدعة ممتازة إن ذهبت إلى مكان لا يعقل أن تختبئي فيه... إلى المكان الذي قلت إنك ذاهبة إليه.

ما كنت واثقاً من هذا بطبيعة الحال... كان مجرد حدس. عادةً ما يكون لدي حدس إزاء طريدتي... يمكن أن تسميه الحاسة السادسة. استمعت إلى رسالتك عندما ذهبت إلى بيت أمك. لكنني لم أكن أعرف من أين تتكلمين. كانت معرفة الرقم الذي اتصلت منه مفيدة جداً. لكن... يمكن أن تكوني في القطب الجنوبي في حين لا يمكن أن تنجح لعبتي إلا إذا كنت في مكان قريب.

ثم... ركب صديقك الطائرة إلى فينيكس. كانت فيكتوريا تراقبهم طبعاً. لا أستطيع أن أكون وحيداً في لعبة تضم هذا العدد كله من اللاعبين. وهكذا، أخبروني ما أردت معرفته... أخبروني أنك هنا. لقد كنت مستعداً. شاهدت جميع أفلامكم العائلية. لم يعد علي بعد ذلك إلا ترتيب الخدعة.

كان الأمر سهلاً جداً... دون مستواي. لهذا أرجو أن تكوني مخطئة بشأن صديقك... اسمه إدوارد، أليس كذلك؟»

لم أجبه. كانت الشجاعة تتلاشى. أحسست أنه على وشك إنهاء الأمر. ليست الشجاعة من نصيبي على أي حال... وما كان له من مجد في هزيمتي... أنا البشرية الضعيفة.

«هل يزعجك أن أترك رسالة صغيرة من عندي لصديقك إدوارد؟»

تراجع خطوة إلى الخلف ولمس كاميرا فيديو رقمية صغيرة جداً موضوعة فوق الستيريو. ظهر في الكاميرا ضوء أحمر أشار إلى أنها بدأت التصوير... عدل وضع الكاميرا عدة مرات ثم ضبط الصورة. رحت أحدق فيه مفزوعة.

«يؤسفني هذا! لكن... أظن أنه لن يستطيع مقاومة الرغبة في اصطيادي بعد أن يرى هذا. لا أريده أن يفوّت شيئاً. فهو المقصود بالأمر كله طبعاً. أنت... للأسف... مجرد بشرية وُجِدْتِ في المكان الخاطئ... في الزمان الخاطئ... مع غير جماعتها...»

تقدم نحوي مبتسماً وقال: «قبل أن نبدأ...» شعرت بغثيان في معدتي عندما تكلم... لم أتوقع هذا... «أود أن أتحدث قليلاً في الأمر... قليلاً فقط. كانت الإجابة موجودة... وكنت أخشى أن يراها إدوارد فيفسد متعتي. حدث ذلك مرة واحدة... منذ قرون... كانت تلك المرة الوحيدة التي تفلح فريستي في الإفلات مني.

هل تعلمين أن مصاص الدماء الذي كان مولعاً بغباء بتلك الضحية الصغيرة اتخذ الخيار الذي كان صديقك أضعف من أن يتخذه. عندما عرف أنني أطارد صديقته الصغيرة المقيمة في المصحة التي كان يعمل فيها... لن أستطيع أن أفهم أبداً ذلك الهيام بكم أنتم البشر عند بعض مصاصي الدماء... وبعد أن حررها... حقق لها الأمان. يبدو أنها لم تشعر حتى بالألم... تلك المخلوقة الصغيرة البائسة... كانت موضوعة في زنزانة مظلمة ضيقة منذ زمن طويل. لو كان هذا قبل مئة سنة لأحرقوها بسبب رؤياها... أما في عشرينات القرن التاسع عشر فكانوا يعتمدون على إيداع أمثالها في المصحات ويعالجونهم بالصدمات. عندما فتحت عينيها... قوية بشبابها الجديد... كان الأمر كما لو أنها لم تر الشمس من قبل. جعلها مصاص الدماء العجوز مصاصة دماء شابة... فلم يعد لدي سبب لإيذائها... لكنني قتلت العجوز انتقاماً».

همست بدهشة: «أليس!»

«نعم! صديقتك الصغيرة. لقد فوجئت برؤيتها معكم. لهذا أظن أن جماعتها لابد أن تستطيع أن ترى في الأمر بعض العزاء... لقد ظفرت بك... أما هم فظفروا بها. إنها الضحية الوحيدة التي أفلتت مني... هذا شرف لهم في واقع الأمر.

كانت رائحتها شهية جداً. مازلت أتحسر لأني لم أتذوق طعمها... كانت رائحتها أشهى من رائحتك... آسف!... لا أقصد الإساءة فرائحتك لطيفة جداً... مثل رائحة الزهور...»

تقدم خطوة أخرى باتجاهي فصار على مسافة سنتيمترات فقط. رفع خصلة من شعري وشمها قليلاً ثم أعادها إلى مكانها بلطف وشعرت برؤوس أصابعه الباردة على حنجرتي. مد يده ومسّد وجنتي سريعاً بإبهامه... كان الفضول في وجهه. لكم أردت الهرب... لكنني كنت متجمدة في مكاني. لم أكن أستطيع إمالة رأسي.

سقطت يده... وراح يتمتم لنفسه: «لا!... لست أفهم هذا»... تنهد ثم قال: «لا بأس! أعتقد أن علينا إنهاء الأمر. وبعد ذلك أستطيع الاتصال مع أصدقائك لأقول لهم أين يعثرون عليك وعلى رسالتي الصغيرة».

انتابني خوف شديد. سيكون الأمر مؤلماً... كنت أستطيع رؤية ذلك في عينيه. لن يكتفي بالفوز... لن يتغذى عليّ ثم يذهب. لن تكون لهذا نهاية سريعة مثلما كنت آمل. ارتجفت ركبتاي... خشيت أن أقع أرضاً.

تراجع قليلاً وبدأ يدور حولي كما يفعل من ينظر إلى تمثال في متحف. مازال وجهه سمحاً ودياً... كان يختار مكان البدء. ثم تقدم إلى الأمام جاثماً مستعداً للقفز واتسعت ابتسامته ببطء... ازدادت حتى لم تعد ابتسامة بل مجرد أسنان ظاهرة لامعة.

لم أستطع منع نفسي من محاولة الهرب. كنت أعرف أن لا جدوى من هربي وأن ركبتيّ أضعف من حملي... لكن الرعب استولى عليّ فاندفعت نحو باب الخروج.

صار أمامي في لحظة واحدة... هل استخدم يده أم قدمه؟ لا أعرف... كان الأمر سريعاً جداً. أصابت صدري ضربة ساحقة فأحسست بجسمي يطير إلى الخلف ثم سمعت صوت تكسر الزجاج عندما اصطدم رأسي بالمرآة. تناثر الزجاج وسقطت بعض الشظايا بجانبي على الأرض.

كانت الصدمة أقوى من الألم... لم أستطع استعادة أنفاسي بعد. راح يمشي من حولي ببطء... «هذه مؤثرات ظريفة جداً!» قال هذا وهو ينظر إلى الزجاج المتناثر... عاد صوته ودياً... «عرفت أن هذه الغرفة ستكون مناسبة جداً من الناحية البصرية من أجل فيلمي الصغير. ولهذا اخترتها لأقابلك فيها... غرفة رائعة... أليست رائعة؟»

تجاهلته ثم نهضت مستندة إلى يديّ وركبتيّ محاولة الاندفاع في اتجاه الباب الآخر.

لحق بي فوراً وداس بقدمه على ساقي. سمعت صوت الكسر قبل أن أشعر به. ثم شعرت به فلم أعد أستطيع منع نفسي من الصراخ ألماً. انثنى جسمي عندما مددت يدي إلى ساقي فرأيته واقفاً فوقي... مبتسماً.

سألني مسروراً: «هل تريدين إعادة النظر في طلبك الأخير؟»... لكز ساقي المكسورة بمقدمة قدمه فسمعت صوت صراخ يصم الآذان... أدركت... مصدومة... أنه صراخي.

قال يستحثني: «ألا تريدين أن يحاول إدوارد العثور علي؟»

صحت: «لا! لا يا إدوارد... لا تفعل ذلك...» ثم ضربني شيء في وجهي فقذف بي إلى المرآة المكسورة من جديد.

رغم ألم ساقي المكسورة، شعرت بتمزق حاد في رأسي حيث جرحه الزجاج. ثم راح الدم الحار ينبع فيغمر شعري بسرعة متزايدة... شعرت به ينصب على كتف قميصي... وسمعته يقطر فوق الأرض الخشبية. تقلصت معدتي لرائحة الدم.

رغم ما أصابني من دوار وغثيان رأيت شيئاً منحني لمحة أمل مفاجئة أخيرة. رأيت عينيه... عينيه اللتين لم أر فيهما غير التصميم من قبل... تحترقان بحاجة لا سبيل إلى التحكم فيها. كان الدم... مندفعاً... قرمزي اللون... فوق قميصي الأبيض... متجمعاً سريعاً على الأرض... يجعل ظمأه مجنوناً. ما عاد قادراً على الاستمرار أكثر

من هذا... مهما يكن تصِميمه على إطالة الأمر من قبل.

فليكن الأمر سريعاً الآن... كان هذا كل أملي في حين كان وعيي يتسرب مع تسرب الدم من رأسي... بدأت عيناي تغمضان.

سمعت... كما لو من تحت الماء... زمجرة الصياد الأخيرة. ومن عيني اللتين صارتا ثقبين صغيرين... رأيت شبحه القاتم مندفعاً صوبي. ارتفعت يدي إلى وجهي تلقائياً في محاولة أخيرة لحمايته. انطبقت عيناي... وانجرفت.

23

الملاك

عندما انجرفت... حلمت!

حيث كنت أعوم... تحت المياه القاتمة، سمعت أسعد صوت كان ذهني قادراً على استعادته... كان جميلاً... شافياً... بقدر ما كان مروعاً. كان صوت زمجرة أخرى، زئير أكثر عمقاً راح يدوي غاضباً.

شيء أعادني إلى الأعلى، إلى سطح الماء تقريباً... جذبني بقوة من يدي المرفوعة. لكنني لم أستطع أن أجد طريق العودة إلى حد يجعلني أفتح عيني من جديد.

عرفت أنني مت!

عرفت هذا لأنني سمعت... عبر المياه الثقيلة... صوت ملاك يهتف باسمي... يدعوني إلى الجنة الوحيدة التي أردتها.

صاح الصوت الملائكي مذعوراً: «أوه! لا... بيلا... لا!»

من خلف ذلك الصوت الذي تقت إليه سمعت ضجيج أصوات أخرى... ضجيجاً مضطرباً فظيعاً حاول عقلي الابتعاد عن سماعه. زمجرة منخفضة رهيبة... صوت تكسر مرتفع... ثم صوت عويل لم يلبث أن انقطع فجأة...

حاولت التركيز على صوت الملاك بدلاً من هذه الأصوات.

راح يرجوني: «بيلا... بيلز! بيلا... أصغ إلي... أرجوك... أرجوك يا بيلا... أرجوك!»

أردت أن أقول: «نعم»... أردت أن أقول أي شيء. لكنني لم أجد شفتي.

قال الملاك: «كارلايل!»... كان جزء مروّع بادياً في صوته الرائع... «بيلا... بيلا... لا... أوه... أرجوك... لا... لا!»... كان الملاك ينشج محطماً من غير دموع.

ليس للملائكة أن تبكي... هذا لا يجوز. حاولت العثور عليه. حاولت إخباره أنني بخير... لكن الماء كان عميقاً جداً... كان يضغط عليّ فلم أستطع التنفس.

شعرت بضغط على نقطة من رأسي. كان الضغط مؤلماً. ثم... مع اجتياز ذلك الألم الظلمة ووصوله إلي، جاءت آلام أخرى... آلام أكثر حدة. صرخت... جاهدت لألتقط أنفاسي خارجة من البركة المظلمة.

صاح الملاك: «بيلا!»

قال صوت هادئ: «فقدت دماً كثيراً، لكن الجرح في رأسها غير عميق. انتبه لساقها... إنها مكسورة!»

تعلقت صرخة غضب على شفاه الملاك.

شعرت بوخزة حادة في جنبي. هذه ليست الجنة... هل يمكن أن تكون الجنة هكذا؟ لا يعقل أن يكون فيها هذا الألم كله.

عاد الصوت الهادئ يقول: «أظن أن ثمة أضلاع مكسورة أيضاً».

لكن الألم الحاد بدأ يذوي. جاء ألم جديد... ألم حارق في يدي كان يطغى على أي شيء آخر.

كان أحد يحرق يدي!

«إدوارد»... حاولت إخباره. لكن صوتي كان ثقيلاً... بطيئاً. لم أستطع فهمه.

«بيلا! ستكونين بخير. هل تستطيعين سماعي يا بيلا؟ أحبك!»

«إدوارد» حاولت من جديد... خرج صوتي أوضح من قبل... قليلاً.

«نعم، أنا هنا».

قلت بأنين: «الألم شديد».

«أعرف يا بيلا... أعرف»... ثم قال لغيري... جازعاً: «ألا تستطيع فعل شيء؟»

«أعطني الحقيبة من فضلك... احبسي أنفاسك يا أليس، هذا يسهّل الأمر!»

همست: «أليس؟»

«إنها هنا... لقد عرفت أين تجدك؟»

حاولت إخباره: «يدي تؤلمني!»

«أعرف يا بيلا! سيعطيك كارلايل شيئاً يوقف الألم».

صرخت مفلتة من الظلمة كلها: «يدي تحترق!»... انفتحت عيناي. لم أستطع رؤية وجهه... كان شيء دافئ داكن يخيم مثل غمامة فوق عيني. لماذا لا يرون النار في يدي فيخمدونها؟

سمعت صوته مذعوراً: «بيلا!»

زعقت والنار تحرقني: «النار! أطفئوا النار!»

«كارلايل! يدها!»

«لقد عضها»... لم يعد صوت كارلايل هادئاً... كان مذعوراً.

سمعت إدوارد يحبس أنفاسه خائفاً.

جاء صوت أليس... قرب رأسي: «إدوارد! عليك أن تفعل ذلك»... راحت أصابعها الباردة تزيح البلل عن عيني.

جأر عالياً: «لا!»

همست بأنين: «أليس».

قال كارلايل: «قد تكون أمامنا فرصة!»

قال إدوارد متوسلاً: «ما هي؟»

قال كارلايل: «أنظر إن كنت تستطيع مص السم من يدها. إن الجرح نظيف!»... شعرت بمزيد من الضغط على رأسي... وخز... وشد... في جلدة رأسي. لكن هذا الألم ضاع في ألم النار.

قالت أليس بصوت متوتر: «هل ينجح هذا؟»

أجابها كارلايل: «لا أعرف. لكن علينا أن نسرع».

سمعت صوت إدوارد متردداً: «كارلايل! أنا... أنا لا أعرف إن كنت أستطيع هذا!»... كان العذاب بادياً في صوته من جديد.

«هذا قرارك يا إدوارد... في هذا الاتجاه أو ذاك!... لا أستطيع مساعدتك. علي أن أوقف هذا النزف إذا كنت ستسحب الدم من يدها».

رحت أتلوى في قبضة ذلك العذاب الناري. كانت حركتي تجعل الألم في ساقي ينبض جارحاً... حاداً.

صرخت: «إدوارد!»... عرفت أن عينيّ أغمضتا من جديد. فتحتهما حتى أرى وجهه. وجدته... أخيراً صرت أستطيع رؤية وجهه محدقاً في عيني... كان مشوهاً بفعل ألمه وعدم قدرته على اتخاذ القرار.

«أليس! أحضري شيئاً أسند به ساقها!»... كان كارلايل منحنياً فوقي يعمل على رأسي... «إدوارد! عليك أن تفعل ذلك الآن وإلا فات الأوان».

تغير وجه إدوارد. رأيت الشك والاضطراب ينزاحان عن عينيه ليحل محلهما تصميم متوقد... توتر فكه... شعرت بأصابعه القوية الباردة على يدي المحترقة. ثم رأيت رأسه ينحني فوق يدي... انطبعت شفتاه الباردتان على جلدي.

ازداد الألم في البداية. صرخت محاولة التخلص من الأيدي الباردة التي تحاول تثبيتي. سمعت صوت أليس يحاول تهدئتي. أمسك شيء ثقيل برجلي على الأرض. وكان كارلايل يمسك برأسي بين كفيه الحجريتين.

ثم تباطأ تلوي جسدي وهدأ... أحسست الخدر يسري في يدي. كانت النار تخبو فتنحصر في نقطة صغيرة... ثم أصغر.

أحسست بالوعي ينزلق مني مع تراجع الألم. خفت أن أسقط في المياه القاتمة من جديد... خفت أن أفقده في تلك الظلمة... «إدوارد»... حاولت أن أقول اسمه، لكنه لم يستطع سماع صوتي... لقد استطاعوا سماعي: «إنه هنا يا بيلا».

«ابق معي يا إدوارد... ابق معي...»

سمعت صوته متوتراً... لكنه بدا منتصراً أيضاً: «سأبقى معك!»

تنفست الصعداء راضية. اختفت النار... خفّت بقية الآلام في حين راح يغزو جسدي النعاس.

سأل كارلايل بصوت قادم من بعيد: «هل خرج كله؟»

قال إدوارد بهدوء: «يبدو مذاق دمها نظيفاً. ذقت طعم المورفين فيه».

ناداني كارلايل: «بيلا!»

حاولت إجابته: «ممممم؟»

«هل ذهبت النار؟»

تنهدت: «نعم! شكراً يا إدوارد».

أجابني: «أحبك».

همست: «أعرف!»... كنت متعبة جداً.

سمعت أحلى صوت في الدنيا: صوت ضحكة إدوارد الهادئة... ضحكة منخفضة كلها راحة.

سألني كارلايل من جديد: «بيلا؟»

عبست... كنت أريد النوم: «ماذا؟»

«أين أمك؟»

«في فلوريدا... لقد خدعني يا إدوارد. لقد رأى أشرطة الفيديو في بيتنا»... كان الغضب في صوتي هشاً يبعث على الرثاء... لكن ذلك ذكرني... فحاولت أن أفتح عيني: «أليس! أليس... الفيديو... إنه يعرفك يا أليس... يعرف من أين أتيت». كنت أحاول الكلام بسرعة لكن صوتي كان ضعيفاً جداً... فوجئت بالضباب الذي تغلغل في عقلي... «أشم رائحة بنزين!»

قال كارلايل: «علينا نقلها الآن».

قلت محتجة: «لا! أريد أن أنام».

قال إدوارد يهدئني: «تستطيعين النوم يا حبيبتي... سأحملك أنا».

ثم صرت في ذراعيه... كان يحضنني إلى صدره... ذهب الألم كله!

كانت آخر كلماته التي سمعتها: «نامي الآن يا بيلا!»

24

المأزق

انفتحت عيناي على ضوء أبيض ساطع. كنت في غرفة لا أعرفها، غرفة بيضاء. كان الجدار بجانبي مغطى بألواح رأسية طويلة. وفوق رأسي كان ضوء شديد يعمي بصري. دفعوا بي فوق سرير قاسٍ غير مستوٍ... سرير له سكك. كانت الوسائد مسطحة... غير مريحة. سمعت صوت طنين مزعج بالقرب مني. أملت أن يكون هذا دليلاً على أنني حية. لا أظن أن الموت يُشعر المرء بعدم الراحة.

كانت أنابيب شفافة تحيط بيدي... أحسست بشيء يمر فوق وجهي... تحت أنفي. رفعت يدي لأزيله.

«لا! لا تفعلي هذا»... أمسكت بيدي أصابع باردة.

«إدوارد؟»... أدرت رأسي قليلاً فرأيت وجهه واضحاً على مقربة شديدة من وجهي. كانت ذقنه مستندة إلى حافة وسادتي. عرفت من جديد أنني حية... عرفت مع إحساس بالعرفان والبهجة هذه المرة... «أوه يا إدوارد! كم أنا آسفة!»

قال يسكتني: «هشش! كل شيء على ما يرام الآن».

«ماذا حدث؟»... لم أستطع التذكر بوضوح... تمرد عقلي عندما حاولت التذكر.

همس بصوت معذب: «كذت أتأخر كثيراً... كان يمكن أن أتأخر حتى يفوت الأوان».

«كنت غبية جداً يا إدوارد... ظننت أنه أمسك بأمي».

«لقد خدعنا جميعاً!»

أدركت فكرة رغم ضبابي: «علي الاتصال بتشارلي... وبأمي».

«اتصلت بهما أليس. رينيه هنا... هنا في المستشفى. ذهبت الآن كي تحضر شيئاً تأكله».

حاولت الجلوس: «هل هي هنا؟»... لكن الدوار تسارع في رأسي... دفعتني يده برفق لأعود إلى وسادتي.

قال واعداً: «ستعود قريباً... عليك البقاء ساكنة الآن».

قلت مذعورة: «لكن ماذا قلتم لها؟»... ما كنت أريد منه تهدئتي. أمي هنا... وأنا أشفى من آثار هجوم مصاص دماء... «لماذا قلتم لها إنني هنا؟»

«قلنا لها إنك سقطت عشرين درجة ثم من النافذة». توقف قليلاً... «عليك الاعتراف... يمكن أن يحدث لك هذا!»

تنهدت... لكن الحركة آلمتني. نظرت إلى جسدي ملفوفاً بالملاءة ورأيت كتلة ضخمة... تلك كانت ساقي.

سألته: «ما مدى سوء وضعي؟»

«ساق مكسورة... أربعة أضلاع مكسورة... بعض التصدعات في جمجمتك... كدمات تغطي جسمك كله... كما فقدت كمية كبيرة من الدم. نقلوا لك عدة وحدات من الدم. لا يعجبني هذا... لقد جعلت رائحتك مختلفة فترة من الزمن».

«لا بد أن هذا التغير في الرائحة أعجبك».

«لا!... أحب رائحتك أنت».

سألته بهدوء: «كيف فعلت ذلك؟»... فهم قصدي فوراً.

«لست أعرف فعلاً!»... أشاح بوجهه بعيداً عن عيني المستفهمتين

ثم رفع يدي الملفوفة بالشاش عن حافة السرير فضمها برفق بين يديه محاذراً انتزاع السلك الذي كان يصلها بأحد الأجهزة الطبية من حولي.

انتظرت بصبر أن يكمل جملته.

لكنه تنهد دون أن ينظر إليّ: «كان التوقف... مستحيلاً... مستحيلاً... لكنني توقفت» نظر إلي أخيراً وعلى وجهه نصف ابتسامة... «لابد أنني أحبك!»

أجبت ابتسامته بابتسامة: «هل كان طعمي طيباً مثل رائحتي؟»... آلمت ابتسامتي وجهي.

«بل أطيب... أطيب مما تخيلت!»

قلت معتذرة: «آسفة!»

رفع عينيه إلى السقف: «أهذا ما تعتذرين عنه من بين جميع الأشياء؟»

«وما الذي يجب أن أعتذر عنه أيضاً؟»

«اعتذري لأنك كدت تذهبين مني إلى الأبد».

اعتذرت مجدداً: «آسفة».

«أعرف لماذا فعلت ذلك!»... كان صوته يبعث في نفسي الراحة... «كان الأمر غير منطقي طبعاً. كان يجب أن تنتظري وصولي... أن تخبريني».

«لم تكن لتتركني أذهب».

قال بنبرة كالحة: «صحيح! لم أكن لأتركك».

بدأت بعض الذكريات غير السارة تعود إلى عقلي. ارتجفت. ثم أجفلت.

استبد به القلق فجأة: «بيلا... ما الأمر؟»

«ماذا حل بجيمس؟»

«تولى أمره إيميت وجاسبر بعد أن أبعدته عنك»... كان في صوته نبرة ندم حادة.

حيّرني هذا: «لم أر إيميت وجاسبر!»

«كان عليهما مغادرة الغرفة... كان الدم كثيراً».

«لكنك بقيت!»

«نعم... بقيت!»

قلت متسائلة: «وأليس... وكارلايل!»

«إنهم يحبونك أيضاً... تعرفين هذا!»

ذكرتني الصور المؤلمة لآخر عهدي بأليس فسألته بلهفة: «هل شاهدت أليس تسجيل الفيديو؟»

«نعم!»... أظلم صوته بنبرة جديدة... نبرة كراهية واضحة.

«كانت تعيش في الظلام دائماً... لهذا لا تستطيع تذكر شيء».

«أعرف! إنها تفهم ذلك الآن»... كان صوته هادئاً لكن وجهه قاتم من شدّة الغضب.

حاولت لمس وجهه بيدي الحرة لكن شيئاً منعني. نظرت إلى يدي فرأيت أنبوب نقل الدم فيها.

كشرت بقرف.

سألني قلقاً: «ما الأمر؟»... أفلح هذا في انتزاعه من أفكاره، لكن تلك النظرة لم تغادر عينيه تماماً.

«أكره الإبر!»... حولت نظري عن الإبرة التي في يدي. رحت أنظر إلى السقف وأحاول التنفس عميقاً رغم الألم في أضلاعي.

راح يدمدم لنفسه بصوت خفيض ويهز رأسه: «تخاف من الإبر! أوه... ثمة مصاص دماء سادي ينوي تعذيبها حتى الموت... لكن... لا مشكلة عندها... إنها تهرب لتلتقيه. أما إبرة نقل الدم، ...»

فتحت عيني واسعتين. سررت عندما اكتشفت أن هذه الحركة، على الأقل، لم تكن تسبب لي الألم. قررت تغيير الحديث.

سألته: «لماذا أنت هنا؟»

نظر إلي بحيرة أول الأمر ثم ظهر الانزعاج في عينيه. عبس فانعقد حاجباه: «هل تريدين أن أذهب؟»

أرعبتني الفكرة فقلت محتجة: «لا! لا... أقصد ما الذي تفهمه أمي من وجودك هنا... معي؟ يجب أن أعرف ماذا أقول لها قبل أن تعود!»

قال مرتاحاً: «أوه!»... عادت جبهته رخامية مستوية... «لقد جئت إلى فينيكس حتى أقنعك بالعودة إلى فوركس». كانت عيناه متسعتين صادقتين... كدت أقتنع بما قاله... «وافقتِ على رؤيتي فذهبتِ بالسيارة إلى الفندق الذي نزلت فيه مع كارلايل وأليس... لن آتي إلى فينيكس وحدي من غير أهل... لكنك تعثرت على سلم الفندق في طريقك إلى غرفتنا... ثم... أنت تعرفين التتمة. ليس عليك أن تتذكري التفاصيل. لديك العذر حتى تكوني غير واضحة فيما يخص التفاصيل الدقيقة».

فكرت في الأمر لحظة: «ثمة عيوب في هذه القصة... لا توجد في الفندق نافذة مكسورة».

«ليست تماماً... استمتعت أليس كثيراً باختلاق الأدلة. لقد تم الاهتمام بجميع التفاصيل إلى درجة مقنعة جداً... قد تستطيعين إقامة دعوى قضائية ضد الفندق إذا أحببت! لا تقلقي على شيء أبداً»... راح يمسد وجنتي بلمسات رقيقة... «عملك الوحيد الآن هو الشفاء».

لم يكن تأثير الأدوية على جسمي هو ما منعني من الاستجابة إلى لمسته. تصاعد صوت صفير جهاز مراقبة القلب تصاعداً مزعجاً... لم يعد إدوارد وحده من يستطيع سماع سوء سلوك قلبي.

تمتمت لنفسي: «هذا محرج حقاً».

ابتسم ولاحت في عينيه فكرة: «هممم! هل...» ثم انحنى فوقي ببطء. تسارع صفير الجهاز حتى قبل أن تلمسني شفتاه. لكن الصفير توقف تماماً عندما لمستني شفتاه.

ارتد إلى الخلف فجأة. لكن تعبير القلق في عينيه تحول إلى راحة عندما بين الجهاز عودة النبض إلى قلبي.

عبس قائلاً: «يبدو أن علي الآن أن أكون أكثر حذراً من ذي قبل».

قلت معترضة: «لم أقبلك بعد. لا تجعلني أنهض إليك».

ابتسم وانحنى من جديد واضعاً شفتيه على شفتي برقة... جن جنون الجهاز.

لكن شفتيه تجمدتا... ثم رأيته يستقيم جالساً. قال مبتسماً من جديد: «أظن أن أمك أتت!»

صحت ونوبة غير معقولة من الرعب تجتاحني: «لا تتركني!»... ما كنت أستطيع تركه يذهب... قد يختفي من جديد.

قرأ الرعب الذي في نظراتي فوعدني بوقار: «لن أذهب!»... ثم ابتسم... «سوف أغفو هنا قليلاً».

انتقل من الكرسي البلاستيكي القائم بجانب سريري إلى المقعد الجلدي الأزرق عند قدمي السرير فأماله إلى الخلف ثم جلس وأغمض عينيه. إنه الآن ساكن تماماً.

همست متهكمة: «لا تنسَ أن تتنفس»... استنشق نفساً عميقاً وظلت عيناه مغلقتين.

سمعت صوت أمي الآن. كانت تتحدث مع شخص... لعلها تتحدث مع ممرضة. بدا صوتها قانطاً متعباً. وددت أن أقفز من سريري فأجري إليها... وددت أن أهدئها... أعدها بأن يكون كل شيء بخير. لكنني لم أكن أستطيع القفز فانتظرتها نافذة الصبر.

انفتح الباب قليلاً... رأيتها تسترق النظر عبر تلك الفتحة.

همست: «أمي!»... كان الحب والارتياح ملء صوتي.

رأت إدوارد ساكناً على مقعده فمشت إليّ على رؤوس أصابعها: «إنه لا يذهب أبداً... غريب!»... كانت تتمتم لنفسها.

«أمي! أنا سعيدة جداً برؤيتك».

انحنت واحتضنتني برقة. شعرت بدموعها الدافئة على خدي.

«بيلا... قلقت عليك كثيراً!»

«آسفة يا أمي! لكني بخير الآن... لا بأس!»

«ما أسعدني الآن برؤية عينيك مفتوحتين أخيراً!»... جلست على حافة سريري.

أدركت فجأة أنني لا أعرف «متى» حدث ذلك فسألتها: «منذ متى لم أفتح عيني؟»

«اليوم الجمعة يا حبيبتي! كنت فاقدة الوعي فترة طويلة».

شعرت بصدمة «الجمعة!»... حاولت أن أتذكر في أي يوم... لكنني لم أرغب في تذكر ما حدث.

«كان عليهم تخديرك فترة من الزمن يا حبيبتي... لحقت بك إصابات كثيرة!»

«أعرف!»... كنت أشعر بتلك الإصابات.

«من حظك أن الدكتور كولن كان هنا. ما ألطفه!... لكنه صغير السن رغم ذلك. شكله يبدو مثل عارض أزياء لا مثل طبيب!»

«هل رأيت كارلايل؟»

«ورأيت أليس أيضاً... أخت إدوارد. ما أحلاها!»

وافقتها من كل قلبي: «ما أحلاها!»

التفتت نحو إدوارد فرأته مغمضاً عينيه في كرسيه: «لم تخبريني أن لك أصدقاء رائعين في فوركس!»

التوى وجهي ورحت أئن.

سألتني قلقة وهي تستدير صوبي: «ما الذي يؤلمك؟»... رأيت إدوارد ينظر إلي نظرة خاطفة.

قلت أطمئنهما: «لا بأس! علي فقط أن أتذكر ألا أتحرك»... عاد إدوارد إلى غفوته الكاذبة.

انتهزت فرصة تشتت أفكار أمي الآن حتى لا أجعل سلوكي الطائش موضوعاً للحديث فسألتها بسرعة: «أين فيل؟»

«في فلوريدا... أوه يا بيلا! لن تتوقعي هذا أبداً! تصوري أن أحسن الأخبار أتت عندما كنا على وشك السفر».

حزرت قصدها: «هل وقع فيل العقد؟»

«نعم! كيف حزرت هذا؟ وقع عقداً مع فريق سانز! هل تصدقين ذلك؟»

«هذا رائع يا أمي»... قلتها بأقصى حماسة استطعتها رغم أنني لم أسمع بذلك الفريق من قبل.

قالت فرحة: «سوف تحبين مدينة جاكسونفيل كثيراً!»... حدقت فيها بنظرة فارغة... «قلقت قليلاً حين راح فيل يتحدث عن الذهاب إلى آكرون... الثلج والبرد... تعرفين أنني أكره البرد. أما جاكسونفيل! إنها مشمسة دائماً والرطوبة فيها ليست مرتفعة كثيراً! وجدنا فيها منزلاً لطيفاً جداً... لونه أصفر وله إفريز أبيض... أمامه رواق بأعمدة كما في الأفلام... وأمامه شجرة بلوط ضخمة... لا يبعد عن المحيط إلا دقائق قليلة... سيكون لك حمامك المستقل...»

قاطعتها: «انتظري يا أمي!»... مازالت عينا إدوارد مغمضتين لكن

توترهما كان يوحي بأنه ليس نائماً... «ما الذي تتحدثين عنه؟ لن أذهب إلى فلوريدا! أنا أعيش في فوركس».

ضحكت أمي: «ما أسخفك! ليس عليك أن تعيشي في فوركس بعد الآن. سوف يتمكن فيل من التواجد في المنزل أكثر من ذي قبل... تحدثنا في هذا الأمر كثيراً. هل تعرفين ماذا سأفعل؟ لن أذهب معه إلى المباريات البعيدة... سأقضي نصف وقتي معك ونصف وقتي معه».

«أمي!»... توقفت مترددة وتساءلت عن أفضل الطرق لأن أكون دبلوماسية معها: «أريد أن أعيش في فوركس. أنا أشعر بالاستقرار في تلك المدرسة... ولديّ صديقات»... رأيتها تلتفت إلى إدوارد من جديد عندما ذكرتها بالأصدقاء، لذلك حاولت الحديث في اتجاه آخر... «تشارلي بحاجة إلي أيضاً. إنه وحيد جداً هناك... وهو لا يعرف شيئاً عن الطبخ».

سألتني بحيرة: «هل تريدين البقاء في فوركس؟»... لم تكن لتستطيع استيعاب تلك الفكرة. ثم رأيت عينيها تنظران إلى إدوارد من جديد: «لماذا؟»

«قلت لك... المدرسة وتشارلي... آخ!»... صرخت محركة جسمي. لم تكن هذه بالفكرة الجيدة.

حامت يداها فوقي يائستين محاولتين العثور على مكان تربتان عليه. وجدت جبهتي أخيراً... لم تكن مضمّدة.

قالت تذكرني: «بيلا... حبيبتي... أنت تكرهين فوركس».

«ليست سيئة أبداً».

عبست قليلاً ثم راحت تنقل عينيها بيني وبين إدوارد... بتمعن كبير هذه المرة... ثم همست: «بسبب هذا الصبي؟»

فتحت فمي لأكذب لكن نظراتها كانت تبحث في وجهي... عرفت أنها ستكتشف كذبي.

قلت لها: «هذا جزء من الأمر!»... لا حاجة للاعتراف بحجم هذا الجزء... «هل سنحت لك فرصة للتحدث مع إدوارد؟»

قالت مترددة وهي تنظر إلى شكله الساكن تماماً: «نعم!»... «أريد أيضاً أن أتحدث معك عن ذلك».

يا للهول! سألتها: «عن ماذا؟»

قالت بصوت اتهامي محاولة أن تحافظ عليه منخفضاً: «أظن أن هذا الصبي يحبك!»

قلت معترفة: «وأنا أظن أيضاً!»

ما كانت تستطيع إخفاء الفضول العنيف في صوتها: «وما شعورك أنت؟»

تنهدت وحولت وجهي بعيداً عنها. أحب أمي كثيراً، لكنني لا أحب الحديث معها في هذه الأمور: «أنا مجنونة بحبه!»... هكذا... لابد أن جملتي تبدو مثلما يجب أن تقول مراهقة عن حبيبها الأول.

«طيب! يبدو لطيفاً جداً. وهو... يا إلهي كم هو جميل. لكنك مازلت صغيرة جداً يا بيلا...»

كان صوتها غير واثق. بقدر ما تسعفني الذاكرة أستطيع القول إن تلك هي المرة الأولى، منذ أن كنت في الثامنة، التي تحاول فيها أمي أن تتكلم بسلطة أبوية. عرفت تلك النبرة المنطقية، الصارمة، في صوتها من أحاديث عن الرجال دارت بيني وبينها فيما مضى.

قلت أهدئها: «أعرف أني صغيرة يا أمي. لا تقلقي لهذا... إنه مجرد ولع!»

«هذا صحيح!»... ما أسهل إسعادها!

عند ذلك تنهدت وألقت من فوق كتفها نظرة مذنبة باتجاه الساعة الكبيرة المعلقة على الجدار.

«هل عليك الذهاب الآن؟»

عضت شفتها: «أنتظر اتصالاً من فيل بعد قليل... لم أكن أعرف أنك سوف تستيقظين الآن...»

«لا عليك يا أمي!»... حاولت تخفيف نبرة الارتياح في صوتي حتى لا أجرح مشاعرها... «لن أكون وحدي!»

«سأعود سريعاً. أنا أنام هنا ليلاً!»... أعلنت هذا... مزهوة.

«أوه! يا أمي... ليست مضطرة إلى النوم هنا! تستطيعين النوم في البيت... لن ألاحظ ذلك لأنني أكون نائمة». كان أثر المسكنات على دماغي يجعل التركيز صعباً... حتى في هذه اللحظة... رغم أنني نائمة منذ أيام.

قالت بخجل: «كنت متوترة جداً... وقعت جريمة في حينا. لا أحب البقاء في البيت وحدي».

سألتها منتبهة: «جريمة؟»

«اقتحم أحدهم أستوديو الرقص عند زاوية الشارع وأحرقه كله... لم يبق منه شيء! تركوا سيارة مسروقة أمامه تماماً. هل تذكرين عندما كنت ترقصين هناك يا حبيبتي؟»

ارتعدت وقلت: «نعم! أتذكر».

«أستطيع البقاء هنا يا طفلتي إذا كنت بحاجة إلي».

«لا يا أمي! سأكون بخير. سيظل إدوارد معي».

نظرت إليّ كما لو أن ذلك هو سبب رغبتها في البقاء: «أعود الليلة!»... بدا ذلك تحذيراً أكثر منه وعداً... لقد ألقت نظرة سريعة صوب إدوارد عندما قالت هذه الجملة.

«أحبك يا أمي».

«أنا أحبك أيضاً يا بيلا. حاولي أن تكوني أكثر انتباهاً عندما تمشين يا حبيبتي... لا أريد أن أفقدك!»

مازالت عينا إدوارد مغلقتين، لكن ابتسامة عريضة ارتسمت على وجهه.

دخلت ممرضة إلى الغرفة لتتفقد جميع أسلاكي وأنابيبي. قبّلت أمي جبهتي وربتت على يدي المضمدة بالشاش... ثم ذهبت.

كانت الممرضة تنظر في التسجيل الورقي لجهاز مراقبة القلب: «هل تشعرين بالقلق يا عزيزتي؟ ارتفع معدل نبض قلبك هنا!»

أكدت لها: «أنا بخير تماماً».

«سأقول للممرضة المسؤولة إنك استيقظت. وسوف تأتي لتراك بعد دقيقة!»

فور إغلاقها الباب، صار إدوارد بجانبي. نظرت إليه متسائلة رافعة حاجبي: «هل سرقتم سيارة؟»

ابتسم من غير شعور بالذنب: «كانت سيارة جيدة... سريعة جداً».

سألته: «كيف كانت غفوتك هذه؟»

ضاقت عيناه: «مثيرة للاهتمام!»

«ماذا؟»

أجابني مطرقاً: «لقد فوجئت. ظننت أن فلوريدا... وأمك... أقصد... ظننت أن هذا مرادك».

نظرت إليه غير فاهمة: «لكنك ستكون مجبراً على ملازمة المنزل طيلة النهار في فلوريدا. لن تستطيع الخروج إلا ليلاً... مثل مصاص دماء حقيقي!»

كاد يبتسم... لم يبتسم فعلاً. ثم صار وجهه جاداً: «كنت سأبقى في فوركس يا بيلا. أو في أي مكان مثل فوركس... حيث لا أستطيع إيذاءك أكثر مما فعلت».

لم أستوعب كلامه في البداية. واصلت التحديق إليه بنظرة دون

معنى في حين راحت كلماته تتجلى لعقلي واحدة تلو أخرى مثل أحجية غامضة. لم أشعر إلا بتسارع قلبي... وتسارع تنفسي... أحسست بألم حاد في أضلاعي.

لم يقل شيئاً... راقب وجهي بينما كان الألم الذي لا علاقة له بأضلاعي المكسورة... الألم الذي هو أسوأ من ألم الكسور... يوشك أن يسحقني.

ثم دخلت ممرضة أخرى إلى الغرفة. جلس إدوارد ساكناً مثل صخرة في حين عاينت الممرضة تعبير وجهي بعين مجربة قبل أن تنظر إلى الأجهزة.

سألتني بلطف مشيرة إلى الأنبوب الذي ينقل الدم إلى جسمي: «هل حان وقت تناول المزيد من المسكنات يا حبيبتي؟»

غمغمت: «لا، لا!»... حاولت إبعاد العناء عن صوتي... «لا أريد شيئاً»... لم أعد أستطيع احتمال إغماض عيني الآن.

«لا حاجة بك لأن تكوني شجاعة يا عزيزتي. من الأفضل ألا تتعرضي لإجهاد شديد فأنت بحاجة إلى الراحة»... راحت تنتظر إجابتي، لكنني اكتفيت بهز رأسي.

«لا بأس!... اضغطي زر الجرس عندما تريدين الأدوية!»

ألقت على إدوارد نظرة صارمة ثم رشقت الأجهزة بنظرة أكثر قلقاً... ثم ذهبت.

صارت يداه الباردتان على وجهي فحدقت فيه بعينين مجنونتين.

«هششش يا بيلا... اهدئي».

رجوته بصوت متكسر: «لا تتركني».

وعدني: «لن أتركك! استرخي الآن وإلا ناديت الممرضة لتعطيك أدوية مخدرة».

لكن قلبي لم يستطع الهدوء!

راح يمسد وجهي قلقاً: «بيلا! لن أذهب إلى أي مكان. سوف أبقى هنا طالما أنت بحاجة إلي».

همست: «هل تقسم أنك لن تتركني؟»... حاولت ضبط لهاثي فقد آلمتني أضلاعي.

وضع كفيه على جانبي وجهي وقرب وجهه منه. رأيت عينيه واسعتين... جادتين: «أقسم!»

كان تأثير أنفاسه مهدئاً... مهدهداً. بدا أنه يخفف ألم التنفس. ظل محدقاً في عيني في حين راح جسمي يسترخي ببطء وعاد طنين الجهاز إلى وقعه الطبيعي. كانت عيناه قاتمتين اليوم... أقرب إلى السواد منهما إلى اللون الذهبي.

سألني: «هل صرت أفضل؟»

قلت بحذر: «نعم!»

هز رأسه مغمغماً بشيء لم أفهمه... أظن أنني سمعت عبارة «رد فعل زائد».

همست محاولة منع صوتي من الارتجاف: «لماذا قلت ذلك؟ هل تعبت من الاضطرار إلى إنقاذ حياتي دائماً؟ هل تريدني أن أذهب؟»

«لا! لا أريد العيش من دونك يا بيلا... لا أريد ذلك طبعاً. كوني منطقية! ولا يزعجني إنقاذك أيضاً... لولا أنني أنا الذي ألقى بك في الخطر... لولا أنني أنا السبب في وجودك هنا».

«نعم! أنت السبب»... عبست وتابعت...«أنت السبب في وجودي هنا... حية!»

جاء صوته مثل الهمس: «شبه حية! ملفوفة بالشاش والضمادات من غير قدرة على الحركة».

قلت: «لم أكن أقصد هذه المرة»... ازداد انزعاجي... «كنت أفكر في المرات الأخرى... اختر من بينها أي واحدة. لو لم تكن موجوداً لكنت الآن أتعفن في مقبرة فوركس».

ابتسم لكلماتي، لكن النظرة المنشغلة القلقة لم تفارق عينيه.

تابع كلامه كأنني لم أقل شيئاً: «لكن هذا ليس بالجزء الأسوأ من الأمر... رغم ذلك... لو لم أرك ملقية هناك... على الأرض... مهشمة مدماة...» اختنق صوته... «لو لم أعتقد أنني تأخرت كثيراً... لو لم أسمعك تصرخين ألماً... لولا كل هذه الذكريات غير المحتملة التي سأحملها حتى آخر أبديتي. لا!... كان الأمر الأسوأ هو شعوري... معرفتي... أنني لم أكن أستطيع التوقف عن امتصاص دمك... اعتقادي... أنني كنت سأقتلك... بنفسي».

«لكنك لم تقتلني».

«كدت أقتلك... بسهولة شديدة».

كنت أعرف أن لا بد لي من المحافظة على هدوئي... لكنه كان يحاول إقناع نفسه بهجري... راح الرعب يرفرف في رئتي... محاولاً الخروج. همست: «عدني!»

«ماذا؟»

«أنت تعرف ماذا!»... بدأت أغضب الآن. كان شديد العناد في تصميمه على البقاء سلبياً.

سمع تغيّر نبرة صوتي... ضاقت عيناه: «لا يبدو أن لدي من القوة ما يكفي لأن أكون بعيداً عنك... سيكون لك ما أردت... لا أعرف إن كان هذا سيقتلك أو لا».

«جيد!»... لكنه لم يعدني... لم تغب هذه الحقيقة عني. لكن فزعي هدأ قليلاً. ما عادت لدي قوة تكفي لضبط غضبي: «قلت لي كيف توقفت... أريد الآن أن أعرف السبب».

كرر كلمتي قلقاً: «السبب!»

«سبب قيامك بذلك. لماذا لم تترك السم ينتشر في جسمي؟ لو فعلت ذلك لكنت مثلك الآن!»

بدا لي أن عينيه صارتا سوداوين تماماً. تذكرت أنه لم يكن يريدني أن أعرف هذا الأمر أبداً. لابد أن أليس منشغلة الآن بما عرفته عن نفسها... أو لعلها صارت تنتبه كثيراً لأفكارها عندما تكون قريبة من إدوارد... من الواضح أنه لا يعرف شيئاً مما قالته لي أليس عن آلية تحول الإنسان إلى مصاص دماء! كان الآن مدهوشاً... حانقاً... ارتجف منخراه وتصلب فمه حتى لكأنه منحوت من حجر.

لكنه ما كان ليجيب على سؤالي... كان هذا واضحاً تماماً.

قلت: «سأكون أول من يعترف بأنني عديمة الخبرة في الأمور العاطفية... لكن الأمر يبدو منطقياً... على الرجل والمرأة أن يكونا متساويين على نحو ما... لا يستطيع أحدهما أن ينفق حياته في إنقاذ حياة الآخر. على كل منهما إنقاذ الآخر... على قدم المساواة».

طوى ذراعيه على حافة سريري ثم أراح ذقنه عليهما. كانت تعبير وجهه مرتاحاً... اختفى الغضب منه. هذا واضح... قرر أنه ليس غاضباً مني. ليتني أحظى بفرصة لتحذير أليس قبل أن يتحدث معها.

قال بهدوء: «لقد أنقذتني أنت أيضاً!»

«لا أستطيع أن ألعب دور الضعيفة دائماً... أريد أن أكون خارقة أيضاً!»

«أنت لا تعرفين عم تتحدثين... لا تعرفين ماذا تطلبين!»... كان صوته ناعماً... وكان يحدق بإصرار في حافة وسادتي.

«بل أظن أنني أعرف».

«بيلا! أنت لا تعرفين. أفكر في هذا الأمر منذ ثمانين سنة تقريباً... مازلت غير واثق!»

«هل تتمنى لو أن كارلايل لم يقم بإنقاذك؟»

«لا! لست أتمنى هذا»... صمت قليلاً ثم تابع... «لكنني كنت أموت... لم أكن لأتخلى عن حياتي بإرادتي».

«أنت حياتي! أنت هو الشيء الوحيد الذي أتألم إن خسرته»... صار وضعي أفضل من ناحية الإفصاح عن مشاعري. صار سهلاً علي أن أعترف بمدى حاجتي إليه.

... رغم ذلك... كان هادئاً جداً... مصمماً.

«لا أستطيع أن أفعلها يا بيلا. لن أفعل هذا بك أنت!»

«لم لا؟»... تقلصت حنجرتي فلم تخرج كلماتي مرتفعة الصوت كما أردتها... «لا تقل لي إن الأمر صعب جداً! فبعد اليوم... منذ أيام... بعد ذلك كله... يجب أن يكون الأمر سهلاً».

نظر إلي وسألني: «ماذا عن الألم؟»

شحب لوني. لم أستطع منع ذلك. لكنني حاولت منع تعبير وجهي من الإفصاح عن شدة وضوح ذلك الشعور في ذاكرتي... تلك النار في أوردتي.

قلت: «هذه مشكلتي أنا... أستطيع التعامل معها».

«من الممكن دفع الشجاعة إلى نقطة تصبح عندها جنوناً».

«هذه ليست مشكلة... ثلاثة أيام فقط... ليست شيئاً فظيعاً!»

تقلص وجهه من جديد لأن كلماتي ذكرته بأنني أعرف عن الأمر أكثر مما كان يريدني أن أعرف. راقبته يكبح غضبه... بدا عليه التفكير.

سألني باقتضاب: «ماذا عن تشارلي؟ وعن رينيه؟»

مرت دقائق من الصمت بينما رحت أكافح حتى أستطيع الإجابة على سؤاله. فتحت فمي... لكن صوتي لم يخرج. أغلقت فمي من جديد. كان ينتظر... ظهر تعبير انتصار على وجهه لأنه عرف أنني لا أملك إجابة حقيقية.

قلت أخيراً: «أنظر! هذه ليست مشكلة أيضاً»... كان صوتي غير مقنع... تماماً مثلما يكون عندما أكذب... «لطالما أقدمت رينيه على خيارات لصالحها... وهي تريدني أن أفعل مثلها. أما تشارلي فهو شخص مرن... لقد اعتاد على العيش وحده. لا أستطيع الاهتمام بهما طيلة عمري. لدي حياتي... يجب أن أعيشها».

قال بسرعة: «تماماً! ولن أقوم بإنهائها لإرضائك».

«إذا كنت تنتظر ريثما أصبح على فراش الموت فأنا أود أن أخبرك بشيء... لقد كنت على فراش الموت منذ فترة وجيزة!»

ذكرني: «لكنك تشفين الآن».

استنشقت نفساً عميقاً حتى أهدئ نفسي... تجاهلت لسعات الألم التي سببها. نظرت إليه فحدّق في عينيّ. لم يكن في وجهه ما يدل على المهادنة.

خرجت الكلمات بطيئة من فمي: «لا! لست أشفى!»

تغضن جبينه: «بل أنت تشفين! قد تبقى لديك ندبة أو اثنتين...»

قلت بإلحاح: «أنت مخطئ... سوف أموت!»

ظهر عليه القلق: «حقاً يا بيلا... ستخرجين من المستشفى بعد أيام... بعد أسبوعين على الأكثر».

حدقت فيه غاضبة: «قد لا أموت الآن... لكنني سأموت ذات يوم. أقترب من الموت كل دقيقة في كل يوم... وسوف أصبح عجوزاً أيضاً».

عبس عندما استوعب كلماتي... ضغط على صدغيه بأصابعه الطويلة... وأغمض عينيه: «هكذا يفترض أن يكون الأمر. هذا ما يجب أن يحدث. هكذا... لو لم أكن موجوداً... ما كان يجب أن أكون موجوداً».

زفرت مستاءة ففتح عينيه بدهشة: «هذه حماقة! هذا يشبه أن نذهب

شخص ربح جائزة اليانصيب فنأخذ منه المال ونقول: انظر! دع الأمور تعود كما كانت... الأمر أفضل على ذلك النحو»... أنا لا أقبل هذا.

قال حانقاً: «أنا لست جائزة اليانصيب!»

«صحيح! أنت أفضل بكثير».

فتح عينيه وضغط على شفتيه: «بيلا! لن نستمر في هذا النقاش. أرفض أن أرميك بلعنة الليل الأبدي. انتهى الأمر».

«إذا كنت تظنه انتهى فأنت لا تعرفني جيداً. لست مصاص الدماء الوحيد الذي أعرفه».

اسودت عيناه من جديد: «لن تجرؤ أليس على فعل هذا»... مرت لحظة بدا شكله أثناءها مخيفاً جداً... مخيفاً إلى درجة جعلتني أصدق ما قاله... لم أستطع تخيل وجود شخص يبلغ من الشجاعة حداً يجعله يغامر بإغضابه.

قلت مخمنة: «لقد رأت أليس هذا... صحيح؟ لهذا السبب أنت تنزعج مما تقوله عني. هي تعرف أنني سأصبح مثلك... ذات يوم».

«إنها مخطئة! لقد رأتك ميتة أيضاً... لكن هذا لم يحدث... رغم رؤياها».

رحنا نتبادل التحديق زمناً طويلاً جداً. لم يقطع الصمت إلا صوت الأجهزة... الصفير... وصوت النقاط المتلاحقة... وتكات الساعة الكبيرة على الجدار.

انفرجت تعابير وجهه أخيراً.

سألته: «ما النتيجة إذن؟»

رفع كتفيه بحركة هزلية: «أظن أن هذا ما يدعونه مأزقاً».

تنهدت ثم قلت: «أف!»

سألني وهو ينظر إلى جرس نداء الممرضة: «كيف تشعرين الآن؟»

كذبت: «جيدة!»

قال برقة: «لا أصدقك!»

«لا أريد أن أنام من جديد».

«أنت بحاجة إلى الراحة. ليس هذا الجدال جيداً بالنسبة لك».

نصحته: «استسلم إذن!»

«محاولة جيدة!»... مد يده إلى الجرس.

«لا!»... لكنه تجاهلني.

«نعم؟»... جاء صوت الممرضة من مكبر الصوت المثبت على الجدار.

قال إدوارد بصوت هادئ متجاهلاً غضبي: «أظن أنها صارت الآن بحاجة إلى تناول المسكنات».

«سنرسل الممرضة»... بدا في ذلك الصوت ملل شديد.

توعدته: «لن أتناول الدواء».

نظر إلى كيس السائل المعلق بجانب سريري: «لا أظن أنهم سيطلبون منك ابتلاع أي شيء».

بدأ نبض قلبي يزداد. قرأ الخوف في عيني فتنهد قانطاً: «بيلا! أنت متألمة. أنت بحاجة للاسترخاء حتى تتمكني من الشفاء. لماذا أنت صعبة هكذا؟ لن يخزك أحد بالإبرة الآن».

غمغمت: «لست خائفة من الإبر. أخاف أن أغمض عيني».

عند ذلك ابتسم ابتسامته الخبيثة واحتضن وجهي بكفيه: «قلت لك إنني لن أذهب. لا تخافي. سأظل هنا طالما كان وجودي يسعدك».

ابتسمت له متجاهلة الألم في وجنتي: «هل تعرف أنك تتكلم عن شيء يستمر للأبد؟»

«أوه! سوف تشفين... هذه مجرد خدوش!»

هززت رأسي غير مصدقة... أشعرتني هذه الهزة بالدوار: «فوجئت عندما اقتنعت رينيه بهذا. أعرف أنك تعرف الحقيقة».

قال لي: «هذا هو الشيء الجميل في أن يكون المرء بشرياً... الأمور تتبدل!»

ضاقت عيناي: «لا تكتم عني شيئاً».

كان يضحك عندما دخلت الممرضة حاملة الحقنة بيدها.

قالت لإدوارد بصوت جاف: «عفواً!»

نهض إدوارد ومضى إلى آخر الغرفة ثم استند إلى الجدار. طوى ذراعيه على صدره وراح ينتظر. تابعت النظر إليه متسائلة... قابل تحديقي بهدوء.

ابتسمت الممرضة وهي تحقن الدواء في الأنبوب: «لا بأس يا عزيزتي! ستشعرين بتحسن الآن».

تمتمت دون حماس: «شكراً!»... لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً... شعرت بالنعاس يجري في دمي... على نحو فوري تقريباً.

أضافت الممرضة: «سيفعل الدواء فعله»... أنسدل جفناي.

لابد أنها غادرت الغرفة لأن شيئاً بارداً ناعماً لمس وجهي.

قلت: «ابق معي!»

وعدني: «سأبقى!»... كان صوته جميلاً مثل ترنيمة أم لطفلها... «قلت لك... سأبقى طالما أسعدك بقائي... طالما كان بقائي أفضل من أجلك».

حاولت أن أهز رأسي لكنه كان ثقيلاً جداً... تمتمت: «ليس الأمران متماثلين».

ضحك: «لا تقلقي بهذا الشأن الآن يا بيلا. تستطيعين مواصلة النقاش عندما تصحين».

أظن أنني ابتسمت: «لا بأس!»

شعرت شفتيه عند أذني... همس: «أحبك».

«أنا أيضاً».

ضحك بصوت هادئ: «أعرف هذا».

أدرت رأسي قليلاً... باحثة. عرف ما كنت أبحث عنه فمست شفتاه شفتيّ برقة.

تنهدت: «شكراً!»

«على الرحب والسعة!»

عند تلك النقطة غبت تماماً. لكنني قاومت ذلك الخدر قليلاً... كنت أريد أن أقول له شيئاً آخر. كافحت حتى ألفظ اسمه بوضوح: «إدوارد!»

«ماذا؟»

«إنني أراهن على أليس».

ثم... خيم الظلام.

خاتمة: مناسبة

ساعدني إدوارد على الجلوس في السيارة. كان منتبهاً جداً لطيات الحرير والشيفون وللزهور التي ثبتها منذ قليل على ثوبي المزخرف. تجاهل تعبير الغضب في وجهي.

بعد أن أجلسني ذهب فجلس في مقعد السائق وتراجع بالسيارة حتى خرج بها من الممر الضيق الطويل.

سألته بحدة: «متى بالضبط تخبرني بما يجري؟»... أنا أكره المفاجئات فعلاً. وهو يعرف هذا.

«يفاجئني أنك لم تدركي الأمر بعد!»... ابتسم مناكفاً فانقطعت أنفاسي. ألن أعتاد جماله؟

قلت: «لم أقل لك أنك تبدو لطيفاً جداً، صحيح؟»

ابتسم من جديد: «نعم!»... لم أره من قبل في ملابس سوداء... جعل التضاد بين ذلك السواد ولون جلده الشاحب جماله خارقاً. لم أكن أستطيع إنكار هذا حتى لو كانت حقيقة ارتدائه بذلة سوداء توترني.

لم تكن بذلته توترني بقدر ما وترني فستاني... أو حذائي! فردة واحدة فقط لأن قدمي الأخرى كانت ما تزال مضمدة. لكن شيئاً لم يكن يمسك الحذاء ذا الكعب الرفيع المدبب إلا شرائط من الساتان... ولم يكن يساعدني إطلاقاً عندما أحاول جر رجلي المضمدة.

قلت حانقة: «لن آتي مرة ثانية إذا ظلت أليس تعاملني كأنني دمية!»... كنت قد أمضيت الشطر الأكبر من ذلك اليوم في حمام أليس الفسيح... كنت ضحية لا حول لها حين راحت تزينني وتصفف شعري. وكلما كنت أشتكي أو أتذمر كانت تذكرني بأنها لا تذكر شيئاً عن حياتها البشرية وبأن علي عدم إفساد تلك المتعة عليها. ثم ألبستني فستاناً سخيفاً مضحكاً... فستان داكن الزرقة... مكشكش... عاري الكتفين... عليه بطاقة تحمل كتابة فرنسية لم أستطع قراءتها... فستان مناسب لعروض الأزياء... لا لفوركس. كنت واثقة أن هذه الملابس الرسمية لن تعود علينا بنتيجة طيبة... إلا إذا... لكنني خشيت التعبير عن شكوكي بالكلمات... حتى في ذهني.

شتت انتباهي صوت جرس الهاتف. أخرج إدوارد هاتفه الخليوي من جيب داخلي في سترته... ألقى نظرة سريعة على الرقم ثم أجاب: «ألو! تشارلي».

تجهم وجهي: «تشارلي!»

كان تشارلي... صعباً منذ عودتي إلى فوركس. كان رد فعله مزدوجاً: كان ممتناً لكارلايل إلى حد العبادة. لكنه، من ناحية أخرى، كان مقتنعاً بعناد شديد أن اللوم يقع على إدوارد... فلولاه... ما كنت خرجت من البيت أصلاً. لم يخالفه إدوارد الرأي أبداً! وفي هذه الأيام فُرضت علي قواعد ما كانت موجودة من قبل: لم أكن أستطيع الخروج... وكانت ساعات زيارتي محددة.

كان تشارلي يقول في الهاتف شيئاً جعل عيني إدوارد تنفتحان واسعتين غير مصدقتين... ثم امتدت ابتسامة على وجهه.

قال ضاحكاً: «أنت تمزح!»

سألته: «ما الأمر؟»

لكنه تجاهلني وقال مخاطباً تشارلي: «لماذا لا تتركني أتحدث

إليه؟»... قالها بسرور واضح. انتظر ثواني قليلة... «مرحباً تايلر... أنا إدوارد كولن»... كان صوته ودوداً تماماً... في الظاهر. كنت أعرف صوته إلى حد يسمح لي بأن أحس مسحة خفيفة من الوعيد فيه! ما الذي يفعله تايلر في بيتي؟ بدأت الحقيقة الفظيعة تتضح أمامي. نظرت من جديد إلى الفستان العجيب الذي أجبرتني أليس على ارتدائه.

«يؤسفني حدوث نوع من سوء التفاهم! لكن بيلا مشغولة الليلة». تغيرت نبرة إدوارد وصار الوعيد في صوته أكثر وضوحاً عندما تابع يقول: «سأكون صادقاً معك تماماً... ستكون مشغولة كل ليلة... مشغولة عن الجميع... إلا عني. لا تغضب! آسف لإفساد ليلتك»... لم يبد عليه الأسف إطلاقاً... ثم أغلق الهاتف وارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة.

احمر وجهي غضباً... ورقبتي أيضاً. شعرت بدموع الغضب تملأ عيني. نظر إلي مدهوشاً: «هل بالغت في الجزء الأخير من كلامي؟ لم أقصد الإساءة إليك!»

تجاهلت كلامه... ثم صرخت: «هل تأخذني إلى حفلة التخرج؟»

صار الأمر الآن واضحاً إلى حد محرج. لو كنت منتبهة... لو قليلاً... لكنت لاحظت التاريخ على الملصقات التي انتشرت في أبنية المدرسة كلها. لكنني لم أتخيل أبداً أن يجعلني أخضع لهذا العذاب. ألا يعرفني حقاً؟

لم يكن يتوقع شدة رد فعلي... كان هذا واضحاً عليه. ضغط على شفتيه وضاقت عيناه: «لا تكوني صعبة يا بيلا».

نظرت من النافذة... صرنا في منتصف الطريق إلى المدرسة.

سألته مرعوبة: «لماذا تفعل بي هذا؟»... رفع كتفيه: «بيلا! صدقاً... ما الذي ظننت أننا نفعله؟»

جمدني سؤاله: «أولاً لأنني لم أر ما كان واضحاً تماماً. لكن أيضاً

لأن شكوكي الغامضة... بل آمالي... التي كانت تتشكل في رأسي طيلة النهار عندما كانت أليس تتفنن في تحويلي إلى ملكة جمال... كانت أكبر من هذا بكثير. بدت آمالي... نصف المرعوبة... بالغة السخافة الآن».

كنت أدرك أننا نستعد لمناسبة من نوع ما... لكن... حفلة التخرج! كان ذلك أبعد الأشياء عن ذهني.

انهمرت دموعي الغاضبة على خدي. تذكرت فجأة الماسكرا في عيني. مسحت حافة عيني بسرعة حتى لا تتشوه الماسكرا. نظرت إلى يدي... لم أجد عليها سواداً... لعل أليس عرفت أني بحاجة إلى مواد تجميل مقاومة للماء!

قال إدوارد قانطاً: «هذا سخف تام! لماذا تبكين؟»

«لأنني أجن غضباً!»

قال موجهاً إلي قوة عينيه كلها: «بيلا!»

قلت مذهولة: «ماذا؟»

قال: «أضحكيني!»

كانت عيناه تذيبان غضبي كله. من المستحيل أن أحاربه عندما يغش بهذه الطريقة. استسلمت محافظة على أقل كمية من كرامتي... قلت: «عظيم!»... لم أكن قادرة على جعل نظراتي تحدث التأثير المطلوب... «سأمشي بهدوء شديد لكنك سترى! سيأتي سوء الحظ إليّ من تلقاء نفسه. وقد أكسر رجلي الثانية أيضاً. أنظر إلى هذا الحذاء... أليس مصيدة للموت؟»... قلت هذا ورفعت رجلي السليمة دليلاً على ما أقول.

نظر إليها فترة أطول مما يلزم: «هممم! ذكريني أن أشكر أليس الليلة».

أراحني كلامه قليلاً: «هل ستكون أليس موجودة؟»

قال: «وكذلك جاسبر وإيميت... وروزالي».

اختفى إحساسي بالراحة... لم أحقق أي تقدم مع روزالي رغم أنني كنت على وفاق تام مع زوجها... زوجها أحياناً. كان إيميت يستمتع بوجودي. كان يرى ردود أفعالي البشرية صاخبة مضحكة... أو لعله كان يجد سقوطي المستمر أمراً مسلياً. أما روزالي فكانت تتصرف كما لو كنت غير موجودة. لكنني... عندما هززت رأسي لأتخلص من الاتجاه الذي اتخذته أفكاري... خطر في بالي شيء آخر.

سألته وقد استبد بي الشك فجأة: «وهل تشارلي مشترك في الأمر أيضاً؟»

«طبعاً!»... ابتسم ثم رفع كتفيه: «لكن من الواضح أن تايلر لم يكن مشتركاً فيه!»

شددت على أسناني... كيف يكون تايلر غبياً إلى هذا الحد الذي لم أستطع أن أتخيله. في المدرسة... حيث لا يستطيع تشارلي التدخل... لم نكن نفترق... أنا وإدوارد... إلا في تلك الأيام المشمسة النادرة.

وصلنا إلى المدرسة الآن. كانت سيارة روزالي الحمراء واضحة في موقف السيارات. كانت الغيوم خفيفة اليوم... تسربت لمحات من ضوء الشمس من مكان بعيد في الغرب.

نزل إدوارد ودار حول السيارة حتى يفتح بابي.. ثم مد لي يده.

ظللت جالسة بعناد في مقعدي طاوية ذراعَيَّ شاعرة بلمسة خفية من الاعتداد. كانت ساحة السيارات مزدحمة بأناس يرتدون ملابس رسمية... شهود! ما كان يستطيع إخراجي من السيارة بالقوة أمامهم كما يمكن أن يفعل لو كنا وحدنا.

تنهد قائلاً: «عندما يحاول أحد قتلك تكونين بشجاعة الأسود... أما عندما يجري الحديث عن الرقص فإنك...» ثم راح يهز رأسه.

غصصت! الرقص!

«بيلا... لن أسمح لشيء أن يؤذيك... بما في ذلك أنتِ. لن أتركك لحظة واحدة... أعدك بهذا».

فكرت في قوله فتحسّن شعوري فجأة... رأى ذلك في وجهي.

قال بلطف: «هيا... تعالي! لن يكون الأمر سيئاً جداً»... انحنى فوضع ذراعه حول خصري. أمسكت بيده الأخرى وتركته يحملني إلى خارج السيارة.

ظلت ذراعه تلفني... تحملني... بينما رحت أعرج باتجاه المدرسة.

في فينيكس، يقيمون حفلات التخرج في صالات الرقص في الفنادق. أما هذه الحفلة فهي مقامة في الصالة الرياضية... طبعاً. لعلها الصالة الوحيدة التي يمكن أن تتسع لحفلة راقصة في هذه البلدة. عندما دخلنا قهقهت ضاحكة... كان في الصالة أقواس من البالونات... وأكاليل منحنية من الورق الملون تزين الجدران.

كتمت ضحكتي وقلت: «يبدو هذا مثل فيلم رعب بانتظار أن يحدث».

«نعم! يوجد هنا مصاصو دماء أكثر مما يلزم»... تمتم بهذه الكلمات فيما كنا نقترب ببطء من طاولة التذاكر. كان يحمل معظم وزني، لكنني كنت مضطرة إلى جر أقدامي وجعلها تتحرك إلى الأمام.

نظرت إلى حلبة الرقص... كانت على شكل فسحة متسعة منخفضة في وسط الصالة... وكان فيها زوجان من الراقصين. أما بقية الراقصين فقد ابتعدوا حتى جوانب القاعة مفسحين متسعاً لهذين الزوجين. إيميت وجاسبر كانا رائعين في بدلتيهما التقليديتين السوداوين. وكانت أليس باهرة الجمال في ثوب أسود من الساتان فيه فتحات هندسية الشكل تظهر مثلثات كبيرة من جلدها الأبيض مثل الثلج. أما روزالي...

فكانت... روزالي! كانت فوق الوصف. كان ثوبها القرمزي... الحي... من غير ظهر، يضيق عند ربلتيها ثم ينفتح على شكل شريط مكشكش متسع. أشفقت على جميع الفتيات في تلك الصالة... أشفقت على نفسي أيضاً!

همست له بنبرة تآمرية: «هل تريد أن أقفل الأبواب حتى تستطيع ذبح الجميع وهم غافلون؟»

ابتسم قائلاً: «وأين موقعك من هذه الخطة؟»

«أوه! أنا إلى جانب مصاصي الدماء طبعاً!»

ابتسم دون حماس: «أي شيء حتى لا ترقصي!»

«أي شيء!»

اشترى التذاكر ثم توجه بي إلى حلبة الرقص. تعلقت بذراعه ورحت أجر قدمي جراً.

قال محذراً: «لدي الليلة كلها».

جرني أخيراً إلى حيث كان أفراد أسرته المتألقون... المتألقون على نحو لا يتناسب إطلاقاً مع هذا الزمان وهذه الموسيقى... رحت أنظر برعب: «إدوارد!»... لم يسمح لي جفاف حلقي إلا بالهمس... «صدقاً! أنا لا أستطيع الرقص»... شعرت بالرعب يصعد في صدري مثل الفقاعات.

أجابني هامساً: «لا تقلقي أيتها السخيفة! أنا أستطيع الرقص».

وضع ذراعي على عنقه ورفعني قليلاً حتى يضع قدميه تحت قدمي... وفجأة... صرنا ندور راقصين.

قلت ضاحكة بعد خمس دقائق من رقص الفالس: «أحس أنني طفلة في الخامسة».

تمتم: «لا يبدو عليك أنك في الخامسة»... شدني إليه ثانية واحدة فارتفعت قدمي مسافة عن الأرض.

التقت عيني بعين أليس في إحدى الدورات فابتسمت لي مشجعة... ابتسمت لها. فوجئت بأنني مستمتعة حقاً... قليلاً... فقلت معترفة: «لا بأس! هذا ليس سيئاً».

لكن إدوارد كان ينظر نحو الباب... كان وجهه غاضباً.

سألته بصوت مرتفع: «ما الأمر؟»... تابعت نظراته... كان رأسي يدور قليلاً، لكنني تمكنت أخيراً من رؤية ما أزعجه. كان جايكوب بلاك... دون بدلة رسمية... مرتدياً قميصاً أبيض طويل الأكمام مع ربطة عنق... وشعره الطويل الأملس مربوط إلى الخلف كالعادة... يجتاز القاعة باتجاهنا.

بعد زوال الصدمة الأولى... لم أكن قادرة إلا على الشعور بالأسف من أجل جايكوب. من الواضح أنه كان غير مرتاح... كان منزعجاً. كان الاعتذار ظاهراً في تعبير وجهه عندما التقت عيناه بعيني.

زمجر إدوارد بصوت خفيض جداً فهمست له: «اضبط نفسك!»

كان صوته حارقاً: «إنه يريد الثرثرة معك».

في تلك اللحظة وصل جايكوب إلينا. كان تعبير الإحراج والاعتذار ظاهراً على وجهه أكثر من ذي قبل.

«مرحباً بيلا! كنت آمل أن تكوني هنا»... بدا صوته كما لو أنه يقصد العكس. لكن ابتسامته كانت دافئة كعهدها دائماً.

ابتسمت له: «أهلاً جايكوب! ما الجديد؟»

«هل أستطيع مقاطعتكما؟»... ألقى هذا السؤال بطريقة عفوية ملتفتاً إلى إدوارد للمرة الأولى. فوجئت عندما لاحظت أن جايكوب لم يكن بحاجة إلى رفع رأسه حتى ينظر إلى إدوارد. لابد أن طوله ازداد 15 سنتيمتراً منذ رأيته أول مرة.

كان وجه إدوارد مضبوطاً... خالياً من التعبير. كان رده الوحيد هو أن جعلني برفق أقف على قدمي ثم تراجع خطوة إلى الوراء.

قال له جايكوب بمودة: «شكراً».

اكتفى إدوارد بأن أومأ برأسه ناظراً إليّ نظرة ملحة قبل أن يستدير ويبتعد.

وضع جايكوب يديه على وسطي فمططت جسمي حتى أضع يدي على كتفيه.

«واو! كم صار طولك الآن يا جايكوب؟»

أجابني باعتداد: «180 سنتيمتراً».

لم نكن نرقص فعلاً... جعلت قدماي ذلك أمراً مستحيلاً. كنا نتمايل بطريقة خرقاء من جانب لآخر دون أن نحرك أقدامنا. هو أيضاً... جعله نموه في الفترة الأخيرة يبدو غير متسق الحركات... لعله لم يكن راقصاً أفضل مني!

سألته دون إبداء فضول حقيقي... تحسباً لردة فعل إدوارد... كما أظن: «كيف وصلت إلى هنا اليوم؟»

اعترف مع قليل من الخجل: «هل تصدقين أن أبي أعطاني عشرين دولاراً حتى آتي إلى حفلتك؟»

تمتمت: «نعم! أصدق هذا... آمل أن تكون مستمتعاً بها... على الأقل. هل رأيت شيئاً أعجبك؟» قلت هذا مشيرة برأسي نحو مجموعة من الفتيات المصطفات عند الجدار مثل قطع من الحلوى.

قال: «نعم!... لكن من تعجبني ليست حرة!»

نظر إلى الأسفل... إلى عيني المدهوشتين... لحظة واحدة... ثم أشحنا بوجهينا محرجين.

أضاف خجلاً: «تبدين جميلة حقاً!»

«همممم! شكراً... لم تقل لي لماذا أعطاك بيلي نقوداً حتى تأتي!»... ألقيت هذا السؤال بصوت هادئ... لكنني كنت أعرف الإجابة.

لم يظهر على جايكوب الارتياح لتغيير موضوع الحديث. أدار وجهه منزعجاً من جديد: «قال إن المكان هنا آمن للحديث معك. أقسم أن الرجل العجوز فقد عقله».

ضحك فشاركته بضحكة خفيفة.

قال معترفاً بابتسامة خجلى: «قال إنه سيجلب لي تلك الأسطوانة التي أريدها من أجل سيارتي إذا قلت لك شيئاً».

«قل لي إذن! أريد أن تتمكن من إنهاء سيارتك»... ابتسمت له. على الأقل، لم يكن جايكوب يصدق شيئاً من قصة أبيه. هذا يجعل الوضع أسهل قليلاً. كان إدوارد يراقب وجهي من موقعه عند الجدار... أما وجهه فكان من غير تعبير.

شاهدت طالبة في الصف الثاني الثانوي في فستان وردي تنظر إليه... خجلة من الاقتراب منه. لكنه بدا غير مدرك لوجودها.

أشاح جايكوب بوجهه من جديد... خجلاً: «لا تغضبي... اتفقنا!»

«لا يمكن أن أغضب منك أبداً يا جايكوب... لن أغضب من بيلي أيضاً... قل ما تريد قوله».

«طيب!... هذا شيء سخيف جداً... أنا آسف يا بيلا... يريدك أن تقطعي علاقتك بصديقك... إنه يرجوك أن تفعلي ذلك»... هز رأسه مشمئزاً.

«مازال مؤمناً بتلك الخرافات...!»

«نعم!... جن جنونه عندما أصبت في فينيكس... لم يصدق حكاية وقوعك...» أمسك جايكوب عن الكلام.

ضاقت عيناي: «لقد وقعت».

قال جايكوب بسرعة: «أعرف هذا».

«يظن والدك أن إدوارد له علاقة بما أصابني!»... لم يكن هذا سؤالاً... كنت غاضبة... رغم وعدي.

لم يستطع جايكوب أن ينظر في عيني. لم نعد نتمايل على وقع الموسيقا... لكن يديه كانتا على وسطي وكانت يداي ما تزالان معلقتان بعنقه.

«أنظر يا جايكوب! أعرف أن بيلي لن يصدق هذا على الأرجح... لكني أريدك أن تعرف...» صار ينظر إلي الآن مستجيباً للنبرة الصادقة في صوتي... «أن إدوارد أنقذ حياتي. لولا إدوارد ووالده لكنت ميتة الآن».

قال: «أعرف!»... لكن صوته بدا متأثراً بنبرة الصدق في كلماتي. لعله يستطيع إقناع بيلي ببعض الشيء.

قلت معتذرة: «اسمع! يؤسفني انك اضطررت إلى المجيء حتى تقول لي هذا... لكنك استمتعت هنا... صحيح؟»

تمتم: «نعم!»... مازال شكله غريباً... منزعجاً.

سألته غير مصدقة: «هل لديك المزيد؟»

غمغم: «إنسي الأمر! سوف أحصل على عمل وأوفر بنفسي المال اللازم لشراء تلك الأسطوانة».

حدقت فيه مصرة حتى نظر إلي: «تكلم يا جايكوب!»

«إنه أمر سيّئ جداً».

قلت بإلحاح: «لا يهمني... قله لي».

«طيب!... لكن... أف... إنه شيء سيّئ»... هز رأسه ثم تابع... «طلب مني أن أقول لك، لا... أن أحذرك، أننا سنراقبكما... صيغة الجمع من عنده!»... نظر إلي قلقاً ينتظر ردة فعلي.

بدا الأمر كأنه مأخوذ من أحد أفلام المافيا. ضحكت بصوت مرتفع ثم قلت: «يؤسفني أنك اضطررت للقيام بهذه المهمة يا جايكوب».

ابتسم مرتاحاً: «لم تكن مزعجة إلى هذا الحد». كان في عينيه نظرة إعجاب وهو ينظر سريعاً إلى ثوبي... قال بأمل: «هل أقول له إنك لا تهتمين؟»

«لا! قل له إنني قلت... شكراً... أعرف أنه يريد لي الخير».

انتهت الأغنية فتركت ذراعيّ تسقطان عن كتفيه.

ترددت كفاه على خصري ثم ألقى نظرة خاطفة إلى ساقي المضمدة: «هل تريدين الاستمرار في الرقص؟ أم أساعدك في الذهاب حيث تريدين؟»

أجابه إدوارد بدلاً مني: «لا بأس يا جايكوب! سأتولى الأمر الآن».

أجفل جايكوب ونظر بعينين متسعتين إلى إدوارد الذي كان يقف ملاصقاً لنا. ثم غمغم: «لم أرك واقفاً هنا! أراك يا بيلا»... تراجع إلى الخلف ملوحاً بيده دون حماس.

ابتسمت: «نعم! أراك فيما بعد».

قال قبل أن يستدير صوب الباب: «أنا آسف!»

التفّت ذراعا إدوارد حولي مع بدء الأغنية الجديدة. كانت الأغنية أسرع قليلاً مما يناسب الرقص الهادئ... لكنه لم يبد مهتماً بهذا. أرخيت رأسي على صدره... راضية.

قلت بنبرة مناكفة: «هل تشعر أنك أفضل الآن؟»

قال: «في الحقيقة... لا!»

قلت: «لا تغضب من بيلي. إنه قلق عليّ لأنه يحب تشارلي... لا شيء شخصي في الأمر».

قال مصححاً بنبرة حادة: «لست غاضباً من بيلي... لكن ابنه يزعجني».

أبعدت رأسي حتى أنظر إليه. كان وجهه شديد الجدية فسألته: «لماذا؟»

«أولاً لأنه جعلني أخلف وعدي!»... نظرت إليه بحيرة فابتسم نصف ابتسامة وقال موضحاً: «وعدتك ألا أتركك الليلة!»

«أوه! بسيطة... سامحتك».

«شكراً! لكن ثمة شيئاً آخر»... قالها عابساً فانتظرت بصبر.

تابع كلامه وازداد وجهه عبوساً: «قال إنك جميلة... هذه إهانة... في هذه اللحظة أنت أكثر من جميلة!»

ضحكت: «لعلك متحيز قليلاً!»

«لا أظن ذلك... كما أن نظري ممتاز أيضاً!»

كنا ندور راقصين من جديد. وكانت قدماي فوق قدميه في حين كان يضمني إليه. سألته: «هل ستشرح لي سبب هذا كله؟»

نظر إلي مرتبكاً فنظرت إلى ورق الزينة نظرة متسائلة.

فكر برهة ثم غير اتجاهنا فأخذني عبر حشد الراقصين إلى باب القاعة الخلفي. مر بي وجها جيسيكا ومايك يرقصان ناظرين إليّ نظرة استغراب. لوحت لي جيسيكا فابتسمت لها ابتسامة سريعة. كانت أنجيلا هناك أيضاً تبدو عليها سعادة غامرة بين ذراعي بين تشيني القصير... لم ترفع عينيها عن عينيه... كانت أطول منه بمقدار الرأس. رأيت لي وسامانثا ولورين يحدقون بنا... ورأيت كونر. كنت أستطيع ذكر أسماء كل الذين رأيتهم في تلك اللحظة. ثم... صرنا في الخارج... في ضوء الغروب الخافت البارد الذاوي.

عندما صرنا وحدنا حملني بين ذراعيه ومضى بي عبر الفسحة المظلمة حتى وصلنا إلى مقعد تحت ظل الأشجار. كان القمر قد بدأ بالظهور... كان يلوح من خلف الغيوم الخفيفة... تألق وجهه الشاحب في ذلك الضياء الأبيض. كان وجهه متصلباً... كانت عيناه مضطربتين.

قلت أستحثه برفق: «اشرح لي!»

تجاهلني وراح يحدق في القمر ثم تمتم: «إنه الغسق من جديد... نهاية جديدة. مهما يكن جمال اليوم... فهو ينتهي دائماً».

تمتمت عبر أسناني وقد توترت فجأة: «بعض الأشياء ليست بحاجة إلى أن تنتهي».

قال ببطء مجيباً على سؤالي: «أتيت بك إلى حفلة التخرج لأنني لا أريد أن تفوّتي شيئاً. لا أريد أن يسلبك وجودي أي شيء... إذا استطعت. أريدك أن تكوني بشرية. أريد أن تستمر حياتك كما لو أنني مت أواخر القرن التاسع عشر كما كان مقدراً لي».

ارتعدت لكلماته ثم هززت رأسي غاضبة: «ما الذي يجعلك تظن أنني يمكن أن أذهب إلى حفلة التخرج بإرادتي؟ لو لم تكن أقوى مني بألف مرة لما تركتك أبداً تفلت بفعلتك هذه من غير عقاب».

ابتسم ابتسامة صغيرة لكنها لم تبلغ عينيه: «لم يكن الأمر سيئاً جداً... أنت التي قلت هذا!»

«لأنني معك».

بقينا صامتين دقيقة كاملة. كان يحدق في القمر... وكنت أحدق فيه. تمنيت لو أجد طريقة تجعله يدرك مدى قلة اهتمامي بالحياة البشرية العادية.

سألني ملتفتاً نحوي بابتسامة خفيفة: «هل تقولين لي شيئاً؟»

«لكن، ألا أقول لك دائماً؟»

لكنه ألح مبتسماً: «عديني فقط أنك ستقولين لي!»

«أعدك!»... علمت أنني سأندم على هذا الوعد في الحال.

بدأ يقول: «بدت عليك المفاجأة فعلاً عندما عرفت أنني كنت قادماً بك إلى هنا».

قاطعته: «صحيح».

قال: «تماماً! لابد أنك كنت تتصورين شيئاً آخر... لدي فضول لمعرفة ما كنت تعتقدين أنه السبب الذي جعلني أُلبسك بهذا الشكل».

نعم... ندمت على وعدي فوراً. ضغطت على شفتي مترددة: «لا أريد إخبارك!»

قال معترضاً: «لكنك وعدتني!»

«أعرف».

«ما المشكلة؟»

عرفت أنه ظن الإحراج يمنعني من الكلام: «أظن أن الأمر سيجعلك تغضب كثيراً... أو تحزن كثيراً».

انعقد حاجباه فوق عينيه وهو يفكر... ويفكر: «مازلت أريد معرفته... أرجوك!»

تنهدت... انتظر قليلاً!

«الواقع... اعتقدت أن في الأمر... مناسبة. لكنني لم أظن أنها ستكون شيئاً بشرياً إلى هذا الحد... حفلة التخرج».

سألني دون أي تعبير: «هممم! مناسبة مثل ماذا؟»... لقد وضع يده على الكلمة... المفتاح.

نظرت إلى ثوبي ورحت أعبث بقطعة من الشيفون. انتظر صابراً.

اعترفت بصوت متعجل: «طيب! توقعت أن تكون قد غيرت رأيك... أن تكون قد قررت تحويلي في النهاية!»

تضاربت عشرات المشاعر في وجهه. عرفت بعضها: الغضب... الألم... ثم بدا مسيطراً على نفسه... عاد وجهه مرحاً.

«ظننتِ أنها ستكون مناسبة جديرة بربطة العنق السوداء... أليس كذلك؟» قال يناكفني لامساً ياقة سترته.

عبست لأخفي حرجي: «لا أعرف كيف تجري هذه الأمور. في

نظري... على الأقل... تبدو أكثر عقلانية من المجيء إلى حفلة التخرج»... مازال يبتسم... قلت له: «ليس الأمر مضحكاً!»

خبت ابتسامته وقال موافقاً: «صحيح! أنت محقة... ليس مضحكاً! لكنني أفضل اعتبار الأمر مزاحاً ولا أريد الاعتقاد أنك جادة».

«لكنني جادة».

تنهد بعمق: «أعرف هذا! هل أنت راغبة في الأمر إلى هذه الدرجة».

عاد الألم إلى عينيه. عضضت شفتي وأومأت برأسي.

«مستعدة جداً لأن تجعلي هذه اللحظة نهاية الأمر»... كان يتمتم.. لنفسه تقريباً... «مستعدة لأن يكون هذا الغسق غسق حياتك مع أنها لم تكد تبدأ. مستعدة للتخلي عن كل شيء».

عارضته هامسة: «هذه ليست نهاية... إنها بداية!»

قال بحزن: «لست أستحق هذا!»

سألته: «هل تذكر عندما قلت لي إنني لا أرى نفسي بوضوح؟... أنت مصاب بالعمى نفسه».

«أعرف أنني مصاب به».

تنهدت.

لكن مزاجه الزئبقي تغير من جديد. شد على شفتيه وراحت عيناه تسبران أغواري... تفحّص وجهي لحظة طويلة ثم سألني: «إذن... أنت مستعدة الآن؟»

غصصت: «هممم! نعم!»

ابتسم وخفض رأسه بطيئاً حتى لمست شفتاه الباردتان جلدي عند حافة فكي.

همس: «الآن؟»... داعبت أنفاسه الباردة رقبتي فارتجفت دون قصد مني.

أجبته همساً حتى لا يضطرب صوتي: «نعم»... لو كان يعتقد أنني مازحة فسوف يخيب أمله. لقد اتخذت هذا القرار من قبل... وأنا واثقة من قراري. ليس مهماً ذلك التيبس الذي اجتاح جسدي... ولا تشنج يدي... ولا تقطع أنفاسي.

ضحك ضحكة منخفضة قاتمة ثم أبعد رأسه عني.

قال مع مسحة من مرارة خالطت نبرته المازحة: «هل تعتقدين أنني أستسلم بهذه السهولة؟»

«يمكن للفتاة أن تحلم!»

ارتفع حاجبه: «أهذا ما تحلمين به؟ أن تكوني وحشاً!»

قلت عابسة للكلمات التي اختارها: «ليس بالضبط! أحلم أن أكون معك إلى الأبد».

تبدل تعبير وجهه... صار أكثر رقة... حزيناً للألم الخفي الذي لمسه في صوتي.

«بيلا!»... راحت أصابعه تداعب شفتي... «سأظل معك دائماً... أليس هذا كافياً».

ابتسمت تحت أصابعه: «إنه يكفيني الآن!»

تقلص وجهه لعنادي. لن يستسلم أحد الليلة! استنشق نفساً عميقاً... كان صوت تنفسه مثل زمجرة خفيفة.

لمست وجهه وقلت: «انظر! أحبك أكثر من أي شيء آخر في العالم كله. ألا يكفيك هذا؟»

أجابني مبتسماً: «نعم! يكفيني... يكفيني إلى الأبد».

ثم انحنى فوضع شفتاه الباردتين على رقبتي من جديد.

ستيفاني ماير

الشفق

* «قصة حب مؤثرة، شديدة الإغراء، جذابة إلى حد غير مألوف»
نيويورك تايمز

* حتى الآن... «أفضل كتاب لهذا العقد» لدى أمازون

* «أفضل كتاب لهذا العام، رواية ملؤها التشويق والرومانسية على حد سواء... إنها تجعل القارئ يقلّب متعجلاً صفحات هذا العمل المثير الأول لستيفاني ماير»
ببليشرز ويكلي

* «يتزايد عنصر الخطر تزايداً صاروخياً مع تحول الحب السري والعواطف المكبوتة إلى سباق مخيف محموم من أجل البقاء.... سوف يلتهم القراء هذه الرواية التهاماً»
سكول لايبراري جورنال

* بلغت مبيعات هذا الكتاب 43 مليون نسخة، وتُرجم إلى 40 لغة.
* رواية تكسر الأوهام والخوف والأسطورة التي خلقناها وصرنا نخاف منها.
الناشر

